

جامعة محمد بوضياف – المسيلة

كلية: العلوم الانسانية والاجتماعية

قسم: التاريخ

الرقم التسلسلي:.....................

رقم التسجيـــــلDH/04/15

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم

في: التاريخ

تخصص: التاريخ الوسيط.

الحضور الهلالي في المغرب الأوسط وأثره في النشاط الزراعي والحرفي والتجاري بين القرنين 5 و7هـ /11 و13م

من إعداد: محمد بن ساعو

تاريخ المناقشة: 2022/06/06

لجنة المناقشة:

الاسم واللقب	الرتبــة العلمية	المؤسسة	الصفــة
عبد السلام همال	أستـــاذ	جامعة المسيلة	رئيسا
الطاهر بونابي	أستـــاذ	جامعة المسيلة	مشرفًا ومقررًا
عبد العزيز شاكي	أستاذ محاضر أ	جامعة المسيلة	عضوا
عبد القادر بوعقادة	أستاذ محاضر أ	جامعة البليدة2	عضوا
عبد المالك بكاي	أستاذ محاضر أ	جامعة سطيف2	عضوا
عبد المالك بوقزولة	أستاذ محاضر أ	جامعة المسيلة	عضوا

السنة الجامعية: 2022/2021



جامعة محمد بوضياف – المسيلة

كلية: العلوم الانسانية والاجتماعية

قسم: التاريخ

الرقم التسلسلي:......................

رقم التسجيـــلDH/04/15

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم

في: التاريخ

تخصص: التاريخ الوسيط.

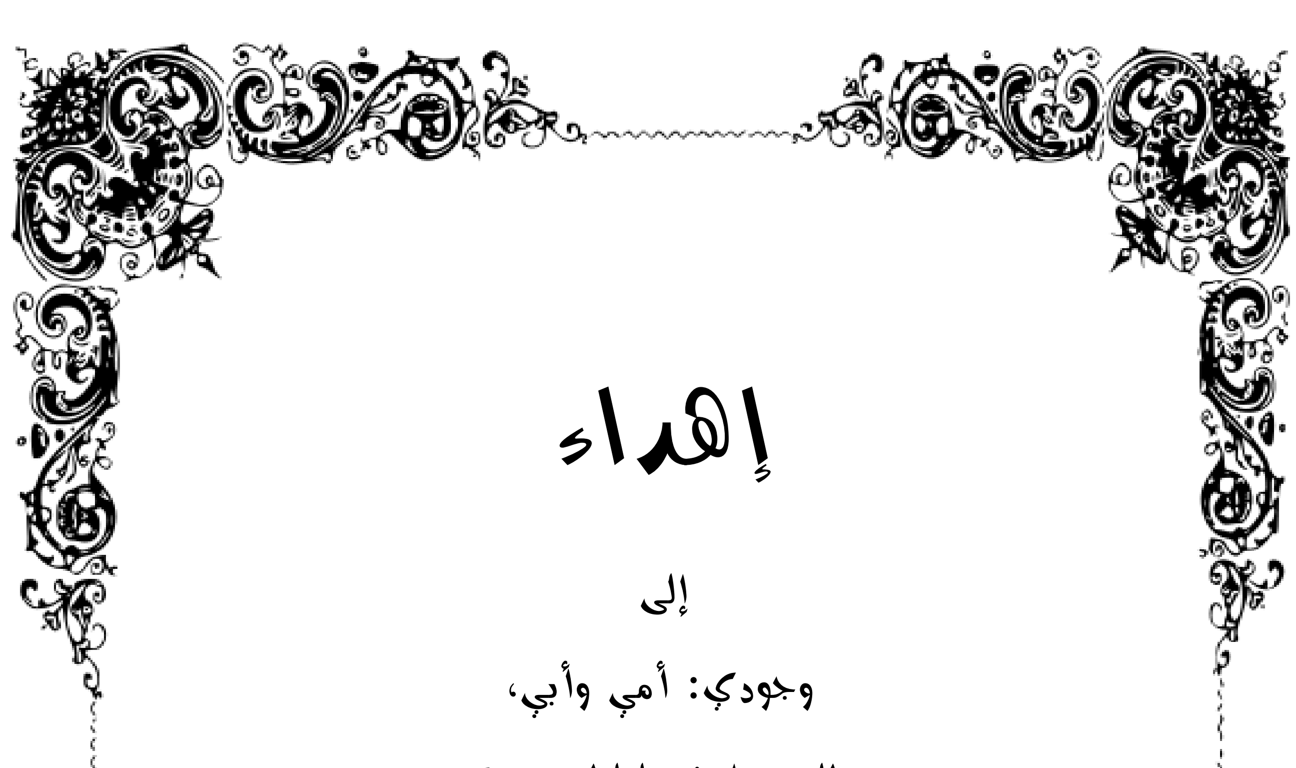
الحضور الهلالي في المغرب الأوسط وأثره في النشاط الزراعي والحرفي والتجاري بين القرنين 5 و7 الهجريين/11 و13 الميلاديين

من إعداد: محمد بن ساعو

تاريخ المناقشة: 2022/06/06

لجنة المناقشة:

الاسم واللقب	الرتبـــة العلمية	المؤسسة	الصفـــة
عبد السلام همال	أستـــاذ	جامعة المسيلة	رئيسا
الطاهر بونابي	أستـــاذ	جامعة المسيلة	مشرفًا ومقررًا
عبد العزيز شاكي	أستاذ محاضر أ	جامعة المسيلة	عضوا
عبد القادر بوعقادة	أستاذ محاضر أ	جامعة البليدة2	عضوا
عبد المالك بكاي	أستاذ محاضر أ	جامعة سطيف2	عضوا
عبد المالك بوقزولة	أستاذ محاضر أ	جامعة المسيلة	عضوا



إهداء

إلى

وجودي: أمي وأبي،

عالمي: ابنتي ليليان جوري

ساعدي وأنسي: زوجتي

سندي وقوتي: إخوتي وأخواتي

كل أفراد عائلتي

إلى أرواح الراحلين:

جدتي المكافحة "الزهرة" –رحمها الله-

الأساتذة الكبار: حميد بن ساعو، البشير ربوح، محمد الصادق بلام

رحمهم الله



شكر وعرفان

لكل من كانت له يد في إخراج هذا العمل:

الأستاذ الدكتور **الطاهر بونابي**، مشرفا قديرا ومُوجِّها ناصحا، حظيت برعايته العلمية والإنسانية الباذخة.

الأستاذة الدكتورة **ماريبيل فييرو Maribel Fierro** مشرفة مساعدة، إنسانة راقية، وباحثة نوعية.

الأصدقاء:

خليل شايب، اليامين بن تومي، الصالح بن سالم، أسامة العمزاوي، سفيان بن صفية، عبد الباسط شرقي، زين العابدين شنافي، منير صايفي، ...

الزملاء والأصدقاء في:

Instituto de Lenguas y Culturas del Mediterráneo y Oriente Próximo

CCHS - CSIC- Madrid

وفي مختلف الجامعات والمراكز العلمية ... شكرا للرفقة الجميلة، الاهتمام، والمساعدات الكبيرة ... جميعا.

Víctor de Castro León, **Alejandro Peláez Martín**,
Diego Rodríguez-Peña, **Esperanza Alfonso**,
Jan Thiele, **Abdenour Padillo Saoud**,
Estefania Lopez Gonzalez,
Aurora González Artigao, **Isabel Boyano Guerra**,
Tugba Öztürk, **Bilal Sarr**,
Carlos Parrilla Nadal, **...**

لكل من قدّم لمسةً، مشورةً، وتشجيعًا ...

قائمة المختصرات

الرمز	الدلالة
م	الميلادي
هـ	الهجري
ج	الجزء
ط	الطبعة
مج	المجلد
د ت	دون تاريخ نشر
ت	توفي
ح	حكم
ص	الصفحة
س	السنة
ع	العدد
ق	القسم
م ج	مجموعة جديدة
P	الصفحة
N	عدد

مقدمة

1. التعريف بالموضوع

ينتمي موضوع "**الحضور الهلالي في المغرب الأوسط وأثره في النشاط الزراعي والحرفي والتجاري بين القرنين 5 و7 الهجريين / 11 و12 الميلاديين**" إلى حقلي الجغرافية البشرية وتاريخ الاقتصاد الاجتماعي، وإذا كان الحقل الأول يتميز بامتدادات موضوعاته في علاقة الوسط بأنماط المعيشة والسلوك، حيث انتقال العرب من بيئة صحراوية بشبه الجزيرة العربية وصعيد مصر إلى سهول إفريقية والمغرب الأوسط بالمغرب الإسلامي، موطن الخصب، فإن الحقل الثاني الذي تُشكِّل نصوصه الوسيطة السَّهم الأوفر في رصد الحضور السياسي والعسكري الهلالي، والذي تفتك من طبقات بنياته مادة وطبيعة النشاط الزراعي والحرفي والتجاري للقبائل الهلالية على محور انتقالهم من البداوة والحرابة إلى الاستقرار والفلح نحو الاحتكاك بالقبلية البربرية والاقتراب من ضاحية المدينة، ثم المساهمة في نشاطها الحرفي والتغلغل في بنياتها الاجتماعية، أين تدخل المدينة بعد القرن 7هـ/13م مرحلة حرف المعاش ذو الطابع البدوي.

وإذا كان مصطلح النشاط الاقتصادي لا يُطابق حقيقة النشاط الزراعي والحرفي والتجاري الذي مارسته العرب الهلالية، لكونه يرتبط بموضوعات العُملة والصّكوك والمكاييل والموازين وأحجام المبادلات، التي لم تمتثل إليها العرب الهلالية في نشاطها ذي الطابع المعاشي والخصوصية البدوية، وبالتالي بات الفصل بين مفاهيم واصطلاحات التاريخ الاقتصادي وعبارات المعاش الكامنة في نص التاريخ السياسي والعسكري الوسيط من السبل الكفيلة بتقريب صورة المعاش الزراعي والحرفي والتجاري الذي كانت العرب الهلالية تزاوله ضمن حركة اقتصاد الدولتين الصنهاجيتين ثم الدولة الموحّدية. لا بوصفه انخراطا نمطيا في قالب المنظومة الاقتصادية للمغرب الأوسط مع التخلي عن الإرث الاقتصادي والنمط المعيشي، إنما أيضا في القدرة على التعايش، حيث احتفظ الهلاليون بطابع حياتهم وأنشطتهم، وبهذا يكون وجودهم في البيئة الاقتصادية وجودا يساهم في إضفاء نمط من الحياة الاقتصادية، بما يتيح تنشيط العلاقات وفتح آفاق جديدة للتغلب على الطبيعة وتطويعها واستثمار مواردها المختلفة.

وهذا يعني ضمنيا أن نص مؤرخ العصر الوسيط حول العرب الهلالية، وإن ورد في صياغة سياسية غالبة وفي إطار معايير العصبية وموازين القوى وتدبير التحالفات وضبط الأمن،[1] فإن في مكنون عباراته ومستويات خطابه ما يحيل إلى عبارات الفلح والحرف والتجارة، ويظهر ذلك جليا في نصوص النخبة الكاتبة التي امتهنت كتابة الرسائل والنصوص عند السلطان،[2] وهو الجانب الخفيّ وأحيانا الشارد في تاريخ العرب الهلالية، والذي تطلب مني قراءة متأنية لمستويات النصوص والفصل في موضوعاتها.

---

[1]) علي غرار عبد الرحمان ابن خلدون صاحب: "العبر"، وابن صاحب الصلاة: "المن بالإمامة"...

[2]) اتخذت نخب البلاط موقفا متوجّسا من القبائل الهلالية، وهو ما عكسته كتاباتهم، ومن هؤلاء: ابن رشيق القيرواني (ت456هـ/1064م) الذي عاصر الاجتياح الهلالي للقيروان، واضطر للانتقال منها إلى المهدية، وكتب قصيدة يرثي حالها بعد خرابها؛ وابن حماد الصنهاجي (ت628هـ/1231م) الذي أشار إلى الخراب الذي أحدثته الهجرة الهلالية؛ وابن صاحب الصلاة، عبد الملك (ت594هـ/1198م) الذي كان صوتا للسلطة الموحّدية وعكست كتاباته نظرتها للهلاليين وآليات التعامل معهم. وقد رأت النخبة العالمة في غالبها أن الخراب الذي سبّبه قدوم القبائل الهلالية أفرز وضعا مضطربا انعكس بالضرورة على الحياة الثقافية في المنطقة، ومن هؤلاء: ابن خلدون والنخب الأندلسية وحتى الفقهاء ...

ومع أن ذلك لم يكن مشفوعا في جل النصوص الوسيطة، حيث أن من مؤرخي السلطة على عهد الحماديين والموحدين من صوّر الحضور الهلالي على أنه ظاهرة للحرابة وقطع السابلة، كونها مرحلة لحيازة المجال، برهنت فيها العرب الهلالية على سرعة انتشارها وتقويضها للدول الصنهاجية بإفريقية والمغرب الأوسط.

من هذا الفصل في طبيعة النصوص الوسيطة، نحتت اتجاهات الكتابة الحديثة في تاريخ العرب الهلالية وموقع النشاط الفلاحي والحرفي والتجاري ونصيبه في اهتمامات المؤرخين الأجانب والمغاربة، حيث يُعزى إلى السوسيولوجيين والإثنوغرافيين والمؤرخين في المدرسة الكولونيالية الاهتمام المبكر بتاريخ بني هلال، انطلاقا من دراساتهم لثنائية عرب البدو في مواجهة حضر المدن وصراع العرب الوافدين والبربر أصحاب الأرض، فمنذ القرن التاسع عشر (19م)، كان موضوع العرب الهلالية وأثرهم على المغرب الإسلامي موضوعا للتباحث والتدارس، واستمر الأمر ضمن اهتمامات الباحثين المعاصرين، وإذا كانت الأعمال التي أفرزتها المدرسة الفرنسية في ظل الاستعمار الفرنسي للجزائر (1830-1962)[1] قد حافظت على خطابها وتوجهها مدة من الزمن، فإن الأبحاث المتأخرة بدأت تتحرر من تلك النزعة وتقدّم تصورات مختلفة -إلى حد ما- عن الظاهرة الهلالية.[2]

من الدراسات الفرنسية المقدمة في باب التأريخ للعرب الهلالية والتي حازت جانبا من السبق في الموضوع، ما كتبه جورج مارسيه: **بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى**،[3] والهادي روجي إدريس: **الدولة الصنهاجية تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م**.[4] حيث اندرجت أبحاثهما التي انطلقت من إحدى مستويات النص الخلدوني في إطار محاولة إثبات الضرر الهلالي وتواصل تأثيره في القرون اللاحقة، غير أن ما يؤخذ على هذه المساهمات المهمة أنها تغافلت عن بقية المستويات التي تضمنها الخطاب التاريخي في نصوص ابن خلدون.

ومن منطلق ارتكازها على الرؤية الاستعمارية لتاريخ الغرب الإسلامي واستثمارها للثنائيات في خدمة مشروعها الاستعماري، فقد أفرز التعاطي معها عديد الكتابات التي حاولت معالجة الموضوع في ضوء ما قدمته

---

[1]) من بين الأسماء المحسوبة على هذا التوجه، نذكر كل من: إرنست مارسيه (1840-1907) Jean Ernest Mercier، إميل غوتييه (1864-1940) Émile-Félix Gautier، وجورج مارسيه (1876-1962) Georges Alfred Marçais، و"لويس هلفن" (1880-1950) Louis Sigismond Isaac Halphen .

[2]) من ذلك ما كتبه: جون بونسي (1912-1980) Jean Poncet ، كلود كاهن (1909-1991) Claude Cahen.

رغم ما يتوفر من دراسات حول الهجرة الهلالية، إلا أن "روبرت هويلند" Robert Hoyland (جامعة أكسفورد وجامعة نيويورك) -في تواصل معه- نبّه إلى أن الهجرات إلى أوروبا وداخلها أنجز حولها عدد هائل من الأبحاث، في حين ما كتب عن هذه الحركات داخل العالم الإسلامي وخاصة في الجزء الغربي منه يبقى قليل جدا؛ لذلك فقد شجّعني على استكمال مسار البحث في هذا الموضوع.

[3]) ترجمة: محمود عبد الصمد هيكل، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1991.

[4]) ترجمة: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992؛ إضافة إلى كتاب مشرفه على هذه الأطروحة: روبار برنشفيك: تاريخ إفريقية في العهد الحفصي (من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م)، ترجمة: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988.

الكتابات الفرنسية من زاوية نقدية، على غرار الحفر الذي اشتغل عليه علاوة عمارة في بعض أبحاثه،[1] التي حاول من خلالها أن يقف عند أهم الدراسات التي قدّمت في هذا الباب، كاشفا عن الخيط الناظم الذي يربطها.

كما كتب عبد السلام همال[2] في ذات السياق بمناسبة مرور ألف سنة من تأسيس قلعة بني حماد، حيث عبّر عن طبيعة تناول المؤرخين الاستعماريين للهجرة الهلالية بـ "الأسطورة الهلالية في دهليز السياسة الاستعمارية المظلم"، إذ كشف الخلفيات التي حكمت المنجز الاستعماري المتعلق بموضوع الهلالية، وأبرَزَ آليات تعاطي المدرسة الكولونيالية الفرنسية مع القبائل الهلالية. فضلا عن مذكرة إيناس عكه،[3] التي حاولت أن تقارب الظاهرة الهلالية في المغرب الأوسط من خلال المنجز الذي قدّمته المدارس الفرنسية والنص العربي الوسيط، خاصة وأن الباحثة ركّزت على موضوعة الهلالية ضمن نسق المدرسة الكولونيالية بمختلف مراحلها: الإثنوغرافيا العسكرية والمدنية، الأنثروبولوجيا التاكتيكية، الإثنولوجيا المتراجعة، وما بعدها، وضمن مدرسة الحوليات الفرنسية بمختلف أجيالها.

لا شك أن أعمالا علمية من هذا القبيل قد أسهمت في الكشف عن خلفيات بعض التوجهات في دراسة الظاهرة الهلالية، غير أن الدراسات الفرنسية الأحدث على غرار بعض أطاريح الدكتوراه المقدّمة من طرف: إيزابيل عاشوري[4] Isabelle Achouri وسيرج فيرتشين[5] Serge Ferchain، قد أظهرت تحررا من المدرسة الاستعمارية، لكن البعد الاقتصادي في الحضور الهلالي لم يكن المحور الرئيس لها. وهو ما ينطبق أيضا على أطروحة الباحثة الاسبانية فيكتوريا أقيلار سيباستيان[6] Victoria Aguilar Sebastián التي قدّمت للمكتبة التاريخية باللغة الإسبانية عملا دَرَس الأدوار المتعددة للقبائل الهلالية في بلاد المغرب، على أنها بقيت حبيسة العباءة السياسية في مقاربة الموضوع.

---

[1]) الهجرة الهلالية وإشكالية انحطاط حضارة المغرب الإسلامي الوسيط قراءة في نقاش تاريخي، ضمن كتاب: دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2008.

[2]) هجرة قبائل بني هلال وبني سليم إلى المغرب منتصف القرن 05هـ/11م – من خلال كتابات بعض مؤرخي المدرسة التاريخية الاستعمارية الفرنسية (1830-1962)، أعمال الملتقى الدولي حول: مدينة قلعة بني حماد ألف سنة التأسيس (398-1427هـ/1007-2007م) أيام: 09-10-11 أفريل 2007، قسم التاريخ، جامعة المسيلة، دار الحبيب، المسيلة، 2007.

[3]) الظاهرة الهلالية في المغرب الأوسط –مقاربة بين خطاب المدارس الفرنسية والنص العربي الوسيط- (05-09هـ/11-15م)، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ، جامعة المسيلة، 2012/2011.

[4]) Les Banū Hilāl : analyse structurale d'un nomadisme séculaire (du VIIème au XVIIème siècle), Thèse de doctorat en Histoire, Sous la direction de Alain Ducellier et de Christophe Picard, Soutenue en 1999 à Toulouse.

[5]) L'invasion hilalienne du Maghreb et ses conséquences religieuses, sociologiques, économiques et culturelles du 11ème au 15ème siècle, Thèse de doctorat en Études méditerranéennes et orientales. Études arabes et islamiques, Sous la direction de Ali Bouamama, Soutenue en 2006 à Strasbourg 2.

[6]) Tribus árabes en el Magreb en época almohade, 1152-1269, Tesis doctoral, Universidad Complutense de Madrid, Facultad de Filología, Departamento de Estudios Árabes e Islámicos, 2012.

وفي اتجاه آخر للدراسات العربية، يعتبر بعض الباحثين[1] أن التركيز على التأثير الهلالي في اقتصاد بلاد المغرب، غير مبرر، بحجة أن تأثيرهم كان ظرفيا وغير مستمر، لذلك يوجهون بالمقابل النظر نحو الحديث عن التغييرات التي أحدثها الهلاليون على بنية المجتمع ومسألة التثاقف والتعريب[2] والعلاقات الاجتماعية، وهو في اعتقادنا محاولة لممارسة نوع من الوصاية على البحث التاريخي، وتوجيهه، ليقفز على بعض المواضيع التي تبقى في نظرهم مثيرة لجدل علمي غير بريء من التصورات المسبقة والخلفيات اللاعلمية. لكن مسألة التجاوز التي يدعو إليها هذا الفصيل من الباحثين ويمارسها، تتنافى وروح البحث العلمي ومتطلباته.

وبعيدا عن هذه الطروحات، تم تناول الحضور الهلالي في الجوانب الزراعية والحرفية والتجارية ضمن دراسات مختلفة أنارت سبيل موضوع البحث في بعض جوانبه، فقد تمت معالجة بعض الإشكاليات المرتبطة بالهلالية في بعض الدراسات التي أرَّخت للحماديين والموحدين، مثل كتاب: **الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها** لرشيد بورويبة،[3] وضمن كتاب: **دولة بني حماد –صفحة رائعة من التاريخ الجزائري** لعبد الحليم عويس،[4] ورغم أهمية الإشارات التي تضمنها المرجعان، إلا أنهما وباعتبارهما عملين شاملين فإن حظ الإشكاليات المتعلقة بالهلاليين كان محدودا. كما تم المرور على بعض محطات موضوع دراستنا في بعض الأبحاث التي ركزت على النظريات الاقتصادية والخلدونية خاصة، مثل كتاب: **النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون وأسسها في الفكر الإسلامي والواقع المجتمعي، دراسة فلسفية واجتماعية**، لعبد المجيد مزيان[5] الذي عمل على تتبع الرؤية الخلدونية لثنائية البدو والحضر في أبعاده التاريخية–الاقتصادية مع إسقاطها على الراهن.

غير أن معالجة بعض الإشكاليات التي ترتبط بصميم أطروحاتنا، قد تم في دراسات مخصصة حصرا لإفريقية وفي فترات مختلفة عن المجال الزماني لدراستنا أحيانا، مثل ما كتبه محمد حسن في: **المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي**،[6] الذي تتبع واقع البادية والمدينة في فترة شهدت ظهور بعض ملامح بداية الاندماج الهلالي، بالإضافة إلى ما قدمه لطفي بن ميلاد، في كتاب: **إفريقية والمشرق المتوسطي من أواسط القرن 05هـ–11م**

=ومن الدراسات الألمانية المكرسة لتتبع حضور القبائل الهلالية في إفريقية أطروحة جيرالد سوشتر Gerald Schuster، غير أنها اقتصرت على المغرب الأدنى:

Die Beduinen in der Vorgeschichte Tunesiens: Die Invasion der Banu Hilal und ihre Folgen, Klaus Schwarz Verlag, Berlin, 2006.

[1]) صباح إبراهيم الشيخلي: الهلاليون في المغرب، ضوء جديد على أثر هجرتهم، ضمن كتاب جماعي: الوطن العربي النواة والامتدادات عبر التاريخ، مركز دراسات الوحدة العربية، 28 فبراير 2003، ص ص 139-158.

[2]) ينظر مثلا: بن سعيد بن ميرة وبغداد غربي: التعريب في بلاد المغرب ودور قبائل بنو هلال في التمكين له، مجلة جسور المعرفة، جامعة الشلف، مج7، ع2، جوان 2021، ص ص192-204.

[3]) ديوان المطبوعات الجامعية والمركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر، 1977.

[4]) دار الوفاء، دار الصحوة، القاهرة، 1991.

[5]) المؤسسة الوطنية للكتاب والديوان الوطني للمطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 1988.

[6]) كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة تونس الأولى، 1999.

إلى مطلع القرن 10هـ /16م – وقائع الانفصال وتحديات الاتصال،[1] وهو الذي ركّز أكثر على انعكاسات الوضع الذي أفرزته الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية على علاقات إفريقية بمحيطها المشرقي.

كما حاول مصطفى أبو ضيف أحمد في كتابه: **أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصري الموحدين وبني مرين**،[2] الوقوف عند أهم مظاهر التأثير في جوانبه المتعددة.

ومن زاوية نص الرحلة "التغريبة"، قدّم عبد الحميد بوسماحة في كتاب: **رحلة بني هلال إلى الغرب وخصائصها التاريخية الاجتماعية والاقتصادية**،[3] بمقاربة أدبية طغى عليها الخطاب البُطولي الذي يعدّد انتصارات العرب الهلالية التي رافقت دخولهم لبلاد المغرب، متأثرا بالأسلوب الملحمي الذي قامت عليه التغريبة، مع تغييب لجوانب مهمة في الملمح الاقتصادي.

وضمن الدراسات الأكاديمية التي نوقشت مؤخرا في الجامعات الجزائرية، لا نكاد نحصي إلا بعض المحاولات للاقتراب من بعض إشكاليات موضوعنا، وهو ما تعكسه عدة رسائل وأطاريح، على غرار رسالة عادل بديرة: **بادية المغرب الأوسط في العصر الوسيط**،[4] التي اكتفت بتتبّع المظاهر العامة للحياة البدوية، ورسالة عميور سكينة: **ريف المغرب الأوسط في القرنين 05 و06 هـ/11و12م دراسة اقتصادية واجتماعية**.[5] إضافة إلى رسالة بخدة الطاهر: **التحركات والهجرات القبلية والسكانية في المغرب الأوسط خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين / 10–11م**،[6] وهي في مجملها محاولات محتشمة، ركّزت أكثر على جمع المادة التاريخية بدل تتبع الظاهرة في أبعادها المختلفة، خاصة في جانبها الاقتصادي، وهو البعد الذي لم يأخذ حيزا معتبرا من الدراسة ضمن السياقات السياسية التي مرّت بها المنطقة حتى في دراسات أخرى على غرار أطروحة دكتوراه لنور الدين مسعودي: **الحضور السياسي للقبائل الهلالية بالمغرب الإسلامي من التوظيف إلى الممالأة (5–7هـ/11–13م)**[7] التي ركزت على تجميع المعطيات السياسية والعسكرية المتعلقة بالوجود الهلالي في بلاد المغرب.

رغم أن دراسات المؤرخين المغاربة والمشارقة ركّزت بشكل لافت على النشاط الحرابي للعرب الهلالية أو ضمن حاجة الدولة المغربية إلى فرسانهم، وإن كان تعرضهم إلى المظاهر الاقتصادية الناجمة عن هذا السياق وبصورة محدودة، لحظة الصدمة والولوج إلى إفريقية تحديدا. ناهيك عن كون محاولات البحث في نشاط العرب الهلالية

---

[1]) المغاربية لطباعة وإشهار الكتاب، تونس، 2011.

[2]) دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1982م.

[3]) دار السبيل، الجزائر، 2008.

[4]) (دراسة للواقع الاقتصادي والاجتماعي وتأثيرها على السلوك والذهنيات) من القرن 04 إلى القرن 07هـ/10-13م، رسالة ماجستير في التاريخ، قسم التاريخ، جامعة محمد بوضياف المسيلة، 2018/2017.

[5]) رسالة ماجستير في التاريخ، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة قسنطينة 2، 2013/2012.

[6]) منشورات مختبر تاريخ الجزائر، جامعة وهران1، دار القدس العربي، وهران، 2018.

[7]) أطروحة دكتوراه الطور الثالث، في الدراسات التاريخية المتوسطية في العصور الوسطى والحديثة، قسم العلوم الإنسانية، جامعة يحيى فارس – المدية، 2018-2019.

وصلتهم بدورة المعاش واقتصاد الدولة لم تأخذ بعين الاعتبار رصيدها الاقتصادي قبل استقرارها في المغرب الأوسط، عبر مراحل ثلاث: شبه الجزيرة العربية (الموطن الأصلي لهذه القبائل) ثم بلاد الشام، ثم مصر، وبالتالي فإن تسليط الضوء على هذه الجزئية من شأنه أن يعكس مدى تفاعل العرب الهلالية مع محطات الاستقرار المرحلي أو الدائم، وبالتالي التنبؤ بممكنات حدوث تعديل أو مراجعة للبنية المشكّلة للمجموعة الهلالية.

رغم ظهور دراسات تتعلّق بالموضوع أو تقترب من بعض إشكالياته –كما أشرنا–، إلا أن جلّها لا تُفرد الدور والتأثير الاقتصادي الهلالي بالمغرب الأوسط بدراسة مستقلة، فهي إما أن تشير إليه في إطار ما يطلق عليه تغريبة بني هلال، أو في حضورهم ببلاد المغرب الإسلامي، وهو ما يقلّص من مساحة وجهد البحث الخاص بها. وعلى أهمية المنجز المقدّم في هذا الإطار وأهمية النتائج المتوصل إليها، إلا أن الحاجة لطرق الموضوع كان مبرّرًا بالملاحظات التي سجّلناها على الدراسات المشار إليها وغيرها، فهي غالبا لم تتتبع الظاهرة الاقتصادية والمعيشية الهلالية منذ بدايتها واختصت بمجالات جغرافية مختلفة، كما تأثر بعضها بنص التغريبة على حساب المصادر التاريخية، في حين اتجه بعضها الآخر نحو البحث الاجتماعي ولم يدرس الظاهرة البدوية في بعدها الاقتصادي بالمغرب الأوسط،[1] ناهيك عن تلك التي لم تتمكن من تجاوز ثنائية "التقديس" و"التدنيس"، فكثيرٌ ممن عالجوا الموضوع لم يخرجوا من موقع الدفاع عن الهلاليين ومهاجمة الكتابات الاستعمارية ورميها بالانتقائية وذات الخلفية.

---

[1]) هناك غياب ملحوظ للدراسات المتعلقة ببدو المغرب الأوسط والغرب الإسلامي بصفة عامة، سواء خلال العصور الوسطى أو حتى في الفترة الحديثة، خاصة ما ارتبط بانعكاسات الظاهرة البدوية على الهوية والسياسيات الإنمائية، بخلاف نماذج أخرى في العالم، اشتغل عليها الكثير من الباحثين، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال العودة إلى أعداد مجلة "الشعوب البدوية" Nomadic Peoples التي تصدرها "لجنة الشعوب البدوية" The Commission on Nomadic Peoples، التابعة للاتحاد الدولي لعلوم الأنثروبولوجيا والإثنولوجيا (IUAES)، بحيث تكاد الدراسات حول المجموعات البدوية في المجال المدروس منعدمة، رغم أدوارها التاريخية. وحتى الدراسات حول البدو والرحل في الراهن ونشاطاتهم الرعوية تكاد تكون نادرة، ومنها على سبيل المثال:

Douglas L. Johnson: The Nature of Nomadism: A Comparative Study of Pastoral Migrations in South-western Asia and Northern Africa, Department of Geography, University of Chicago, Chicago, 1969.

حيث قام جونسون بتطبيق دراسته على بعض الجماعات البدوية التي تقوم بالهجرات الرعوية في مناطق مختلفة من جنوب غرب آسيا وشمال إفريقيا، ومنها: "سعيد عتبة" Saïd Atba التي تنتقل من مضاربها بجهات ورقلة إلى الشمال الغربي مجتازة سلسلة جبال أولاد نايل، ومن العينات التي تعرض لها الباحث بالدراسة "لرباع" The Arbaa، التي تقيم شتاء في الضاية جنوب الأغواط؛ Douglas: Op.cit, pp98-105

كما عالج نموذج الشعانبة، في جهات غرداية والأغواط، والذين وصلوا المنطقة في إطار الهجرات العربية، وقد لاحظ الباحث تشابه نظام التربيع والترحال بين الشعانبة والرحل في شبه الجزيرة العربية؛ Douglas: Op.cit, p113-114.

كما كان الطوارق من القبائل التي جذبت اهتمامه، واعتبر أن الأهقار هي المعقل التقليدي لهذه القبائل، مشيرا إلى أن تحركاتهم في المنطقة تحكمها الرغبة في توفير الظروف المناسبة لقطعانهم، مبينا أهمية هذه القبائل بالنسبة للسياسة الأمنية للدول التي يتوزعون فيها؛ Douglas: Op.cit, p131.

لكن الدراسات المتعلقة ببدو المشرق أكثر من تلك التي تناولت المغرب، ومنها:

Alan Weber: Bedouin Memory Between City and Desert, Memory Connection, Volume 1, Number 1, 2011 The Memory Waka, pp 128-141.

انطلاقا مما سبق، تأتي هذه الأطروحة بغرض تتبع مستوى الضرر الذي أحدثته العرب الهلالية على النشاط الزراعي والحرفي والتجاري، وموقع القبائل الهلالية من محاولات إعادة تأهيل اقتصاد بلاد المغرب في مختلف جوانبه، خاصة بعد انهزامهم في معركة سطيف سنة 548هـ/1153م، وميل العصبيات المنهزمة للاستقرار وممارسة الزراعة، والانخراط في المنظومة الدينية للمغرب الإسلامي. وعليه، فإن موضوع البحث يتغيا التوصّل إلى عديد الأهداف المرتبطة بإشكالياته، ويمكن تضمين بعضها في النقاط الآتية:

* **أولا**: تحديد حقيقة ومستوى الضرر الذي أُلحق بالبنية الاقتصادية في المغرب الأوسط بسبب الهجرة الهلالية.

* **ثانيا**: الكشف عن التحولات في النمط الاقتصادي لبلاد المغرب الأوسط بعد وصول الهلاليين.

* **ثالثا**: استئناف النقاش حول إشكالية انحطاط حضارة الغرب الاسلامي في بعدها الاقتصادي.

* **رابعا**: الوقوف على مدى إسهام المنظومة الدينية المالكية في المغرب الأوسط في التعامل مع الظاهرة الهلالية، ودورها في تشكيل رؤية دينية معينة للممارسات الهلالية، انعكست على التصورات الجمعية لساكنة المغرب الأوسط، فضلا عن مدى نجاعة الحلول الاقتصادية التي أقرّها فقهاء المالكية.

* **خامسا**: أردت بهذه المساهمة المتواضعة الدفع بالدراسات المتخصصة في الحياة الاقتصادية لبلاد المغرب الأوسط، وبيان طبيعة العلاقات وحركة التبادل والمنتجات والمصنوعات بين المدينة والبادية.

2. إشكالية البحث

من الأطاريح السابقة في الموضوع ومحدِّدات التّطلع إلى تغطية النشاط الاقتصادي عند العرب الهلالية انبثقت عديد الإشكاليات التي تتمحور في مجملها حول مدى تأثير الوجود الهلالي –ديمغرافيا وسلوكيا– في اقتصاديات المغرب الأوسط، في ظل افتقار الهلاليين لمشروع اقتصادي يتوافق وطبيعة المناطق التي تظهرها خريطة انتشارهم، نظرا لإغراقهم في البداوة؟، وبذلك فإن الدراسة تسعى لمعرفة مستوى القدرة على التكيف والانخراط في البيئة الاقتصادية للمغرب الأوسط على محاور الانتقال، الاصطدام، والإدماج وإعادة التأهيل. مع الأخذ بعين الاعتبار رصيدهم الاقتصادي وتجاربهم في مختلف المحطات التي مروا بها، باعتبار أنه لا يمكن مباشرة دراسة الهلاليين اقتصاديا منذ لحظة حيدران 443هـ/1052م أو سبيبة 457هـ/1065م مثلا، لما في ذلك من تجاوز لرصيد تاريخي يعكس الممارسة المرافقة لمسار وعملية الدخول إلى المنطقة.

Ruth Kark & Seth J. Frantzman: Empire, State and the Bedouin of the Middle East, Past and Present: A Comparative Study of Land and Settlement Policies, Middle Eastern Studies, Volume 48, 2012 - Issue 4, pp 487-510.

كما تم تنظيم مؤتمر دولي حول المكوّن البدوي في المشرق العربي:

International Conference: The Arab East and the Bedouin Component: Features and Tensions from Late Antiquity to the Present (Cairo, 29 November–1 December 2012), University of Leipzig and Halle-Wittenberg, orient institut Beirut.

وضمن هذا النسق الإشكالي العام، يفرض الموضوع جملة من الإشكاليات الفرعية والتساؤلات، بداية بطبيعة الهجرة وخلفيات التواجد، من قبيل: كيف نفسّر التحرك الهلالي نحو الغرب اقتصاديا؟ وهل حركة حيازة المجال الاقتصادي يدخل ضمن الإقطاع السلطاني؟ أم أن خروج الزيريين على طاعة الفاطميين يسقط هذا الوسم، بحكم أن بلاد المغرب لم تصبح للفاطميين سلطة عليها؟ ثم ما الخلفيات والأبعاد الاقتصادية لظهير التملك الذي منحته الدولة الفاطمية للقبائل الهلالية؟.

هل كان التأثير الهلالي في اقتصاد المغرب الأوسط خاصة والمغرب الإسلامي عامة عميق الأثر ومستمر في الجغرافيا، أم أنه حدث طارئ مرتبط بفترة زمنية معينة وحيز مكاني محدود؟ وهل الخراب الاقتصادي الذي تُصوّره المصادر كان نتاج الاصطدام بين الهلاليين والقبائل والسلط المحلية؟ أم أن الأمر مرتبط في الأصل بالطبيعة البدوية للهلاليين؟، وكيف للهلاليين الذين كان مقدمهم إلى المنطقة طلبا للرزق والمراعي أن يقوموا بعمليات التخريب التي قد تنعكس على مستقبلهم الاقتصادي في المنطقة؟ وهل السلطة في المغرب الأوسط كانت متعاطفة مع قوى النمو الاقتصادي بما يضمن تحقيق وثبة اقتصادية في مختلف المجالات أو في بعضها على الأقل في ظل الطارئ الهلالي؟ وبصيغة أخرى هل تبنّت السلطة إجراءات وتدابير تأخذ بعين الاعتبار التحولات التي طرأت على البنية الاقتصادية للمغرب الأوسط إثر الاجتياح الهلالي في ظل غياب مشروع سياسي حقيقي لدى الكيانات القبلية الهلالية؟.

وإلى أي مدى رجّح الهلاليون كفّة الاقتصاد الرعوي على حساب الاقتصاد الزراعي؟ وماذا عن طبيعة المجالات التي توزعوا فيها ومدى توافقها وممارسة نشاط اقتصادي بعينه؟ وبصيغة أخرى: هل حدث اعتداء حقيقي على المزرعة لصالح المرعى؟

وما دور الحضور الهلالي في توجيه الاهتمام بالتجارة البحرية المتوسطية كرافد إضافي إلى جانب التجارة الداخلية، في ظل تأثر الطرق التجارية وتحول بعضها بسبب الانتشار الهلالي على محاور هذه الطرق البرية وبروز ظاهرة الحرابة وما انجر عنها من اللصوصية وقطع السبيل وانعكاس ذلك على المبادلات التجارية وحركة نقل السلع؟. خصوصا وأن ذلك يوافق الانقلاب البحري لصالح النصارى في البحر المتوسط خلال القرن 05هـ/11م، ثم إن التوجه نحو التجارة المتوسطية في ظل اقتصاد داخلي هش يفرز بدوره تساؤلات أخرى.

ولتفكيك الظاهرة في إطار الأطراف المشكّلة والفاعلة في مجالها، يكون من المهم التساؤل عن العناصر والظروف الأخرى التي تدخّلت في التأثير على الوضع الاقتصادي بالمغرب الأوسط إلى جانب المعطى الهلالي، فضلا عن تقييم مشاريع –أو محاولات– الإدماج في الحياة المغرب أوسطية التي تبنّتها السُلط تجاه هذه العناصر، وغير بعيد عن هذا الطرح: كيف انعكست الترسبات التي خلّفتها التجارب التاريخية في التعامل مع البدو في صياغة التصورات السياسية والاجتماعية والدينية السائدة آنذاك؟

وحتى لا تنزوي الرؤى الإشكالية التي نطرقها من خلال الموضوع في مستويات محددة من الجوانب المعرفية، يحسن التّنبيه إلى الإشكاليات المتعلقة بالنصوص التي أرّخت للظاهرة الهلالية أو درستها، نتساءل عن حقيقة ودوافع بعض الرؤى الاستشراقية وكيف أنها استندت بذكاء على نصوص محلية لتقديم تفسيرات تتوافق وتوجيهات

التاريخ المرحلية آنذاك؟ والأكثر أهمية من ذلك ما هي المسافة التي أخذتها هذه المصادر في علاقتها بالهلالية؟. وضمن النصوص التي تعاطت مع الهلالية دائما: يتطلع البحث كذلك إلى الكشف عن الكيفية التي أسهمت بها المدونة الفقهية المالكية من خلال اقتراح الحلول الاقتصادية الناجعة لإعادة تأهيل العرب الهلالية، وإدماجهم في الحياة الاقتصادية.

ومن هذا المخض الإشكالي تتراءى لنا مظاهر التحولات الاقتصادية الكبرى التي أحدثتها العرب الهلالية، ومنها: مسألة تحول النمط الاقتصادي من زراعي إلى رعوي، وتأثر الحرف السائدة في المغرب الأوسط بتوجهها أكثر نحو الحرف البدوية، ناهيك عن تحول مسارات الطرق التجارية البرية وزيادة المغارم المفروضة من طرف العصبيات الهلالية وتأثر مستوى التداول النقدي، فضلا عن التوجه نحو الساحل من خلال تأسيس مدينة بجاية كنتيجة لاكتساح الهلاليين لمجالات القلعة، والتوجه نحو التجارة المتوسطية بوصفها منفذا ومتنفسا، لكنه في نفس الوقت يعكس وضع اقتصاد المغرب الأوسط في فترة حرجة شهدت تحولات كبيرة. وبذلك فالموضوع يحيلنا بشكل آخر لدراسة العلاقات التجارية مع أوروبا المتوسطية، ثم إلى تتبع حركة الادماج والتأهيل الاقتصادي للعرب الهلالية. كما يدفعنا إلى تساؤل جدير بالطرح: هل يسعفنا استمرار بعض ملامح الحياة البدوية في الجزائر اليوم في الكشف عن الأبعاد التاريخية التي بقيت مستمرة في سلوكات البدو الاقتصادية، خاصة ما تعلق بالتنقل شمالا وجنوبا في حركة الرعي وعلاقتهم بالمستقرين؟

3. عرض الموضوع

يتمفصل موضوع البحث إلى أربعة فصول، ومقدمة وخاتمة، استعرضت في مقدمته أهمية الموضوع وإشكالياته، والمنهج المعتمد، مع بيان صعوبات البحث، وذيلتها بتحليل ونقد لأهم المصادر والمراجع المعتمدة، ما يسمح بتقديم تصور عام حول الموضوع.

الفصل الأول: "**طبيعة الاقتصاد الهلالي (الحتمية الجغرافية والمكتسب الأنثروبولوجي)**"، وفيه تناولت طبيعة الاقتصاد البدوي الهلالي، من خلال العوامل والمؤثرات التي تتحكم في النشاط الاقتصادي للعرب الهلالية، بداية بتحديد جغرافية البداوة وطبيعة الترحال الهلالي وتأثير الوسط في هذه المعادلة، وتتبعت إرث البدواة في النشاط الاقتصادي لبني هلال، وهو الذي يعكس الخبرات الاقتصادية للتعامل الهلالي مع البيئات والمجالات التي ارتحلوا إليها بالنجع والاستقرار، ناهيك عن الدور الذي تلعبه السلطة في توجيه السلوك الهلالي في جانبه الاقتصادي، انطلاقا من البحث في آليات إخضاع وإدماج العرب الهلالية خلال المرحلة المشرقية (الحجاز، الشام، مصر).

خصصت الفصل الثاني لـ: "**الأبعاد الاقتصادية لحركة الهجرة الهلالية في إفريقية والمغرب الأوسط**"، بداية بظهير التملك الذي منحه الفاطميون للقبائل المتجهة غربا، كسند سلطاني لتقسيم المجالات، إضافة إلى المحفزات الاقتصادية التي أقرّتها السلطة الفاطمية ترغيبا للهلاليين في الجواز، كما نقّبتُ عن الدوافع ذات الخلفية

الاقتصادية التي شجّعت الهلاليين على النّجعة الكبرى، سواء ما ارتبط بها أو ما ارتبط بالدولة الفاطمية أو بالمغرب الإسلامي. وفي المحور الثاني من هذا الفصل، فصّلت في نشاط الحرابة واقتصاد المغازي بالمغرب الأوسط، من خلال البحث في مفهوم ودوافع الحرابة كنشاط ارتبط بالحضور الهلالي واستمر لفترة طويلة، واقتصاد المغازي من خلال آليات إدماج الدول للهلاليين ضمنه، وهو الذي أخذ أشكالا كثيرة وارتبط بصور عدّة، كالغنائم والخفارة والراتب في الجيش والإقطاع والقبالات والأتاوات والمغارم...

أما الفصل الثالث فضمّنته مجموعة من المعطيات والمعالجات المرتبطة بـ: "**الحضور الهلالي في المغرب الأوسط وأبعاده الاقتصادية**"، إذ انطلقتُ من إشكالية تخريب العرب الهلالية للاقتصاد في المصادر والدراسات العربية والغربية بما فيها تلك المنتمية للمدرسة الكولونيالية، مُحاولا الكشف عن توجهات الكتابات التي اهتمت بموضوع التخريب الهلالي، كما اتجه مضمون الفصل إلى تفكيك خلفية التوزيع الهلالي بالمغرب الأوسط في سهول الحبوب ومناطق الرعي قبل معركة سطيف (548هـ/1153م) وحجم الوعاء الديمغرافي الهلالي الذي يعدّ معطى مهم في تحديد طبيعة الانتشار، وإلى جانب ذلك عالج الفصل استقرار العرب الهلالية وإعادة انتشارهم بعد معركة سطيف من خلال جغرافية التوطين في الفترة الموحدية ومظاهر الاندماج.

وفي الفصل الرابع، تعرّضت لـ"**أثر الحضور الهلالي في الفلاحة والرعي**"، من خلال تتبع مجمل التحولات الفلاحية في المغرب الأوسط وأشكال الانتقال من الاقتصاد الزراعي إلى الرعوي، حيث تناولت في الشق الفلاحي مظاهر ملكية الأراضي والمساحات المزروعة وواقع البستنة والزراعة المسوّرة، وتكاليف العمل الزراعي، وطبيعة المحاصيل الزراعية والثروة الغابية، وفي الشق الرعوي، بحثت في الثروة الحيوانية والمجالات الرعوية في المغرب الأوسط وبيّنت كيفية توسُّع الخريطة الرعوية بالمغرب الأوسط، وانعكاسات الرعي المفرط.

وضمن الفصل الخامس رصدت "**مؤثرات الحضور الهلالي على الحرف والتجارة**" من خلال محورين أساسيين، تعمّقت في الأول باحثا عن رؤية الهلاليين للصنائع والحرف وانعكاس ذلك على علاقتهم بالإنتاج الحرفي في ظل المتطلبات البدوية البسيطة، ووضعية حركة نقل المواد الأولية التي تدخل في تصنيعها، وفي المحور الثاني من الفصل وهو الأكثر توسعا ويخص التجارة، حدّدت من خلاله ملامح التجارة الداخلية في ظل الهلاليين بداية بالانتعاش الذي عرفته القلعة مؤقتا عشية خراب القيروان، ثم طبيعة المعاملات والبيوع والعلاقات التجارية التي تجمع البدو بالمستقرين.

كما بحثت بالتفصيل في موضوع بناء بجاية ونقل العاصمة الحمادية إلى الساحل، كإجراء يفسّره البعض على أنه مُبَرّرٌ بالانتشار الهلالي، رغم أن معطيات البحث تكشف على أن هذا الاختيار مرتبط أيضا بالعلاقات الاقتصادية المتوسطية التي تعود إلى المؤهلات الاقتصادية والأمنية التي تتوفر عليها العاصمة الجديدة، ما سمح بالتوجه البحري وازدهار حركة المراسي، كما تعكسه مستجدات التجارة الصحراوية والتجارة مع المشرق بين القرنين 05 و07هـ/11و13م.

وإلى جانب ذلك، تضمَّن هذا الفصل الوجه الآخر الذي خلّفه الانتشار الهلالي على المسالك التجارية وحركة السلع، من خلال تعطيل بعض المحاور وتحولها، وزيادة تكاليف النقل البحري وتراجع كميات السلع المشحونة وانكماش شبكة التجار اليهود.

4. منهج البحث

اعتمدت في إنجاز هذا البحث على طريقة جمع المادة التاريخية والجغرافية من المصادر المختلفة وتصنيفها حسب الموضوعات ومن مختلف النصوص (صنهاجي، زناتي، حضري، أندلسي) (الإدارية والسياسية والأدبية، بما فيها الأشعار والأزجال)، متوخيا الحذر من نزعات المؤرخين، كونه نص كُتِب من جانب واحد ولم يكن للهلالية فيه نصيب، وأعني حقيقة الأخبار من حيث تمحيصها وتقييم موضوعيتها بحس نقدي. وقد اقتضت طبيعة الموضوع من حيث المكان والزمان وتوافقه مع مظاهر لِهجرات بشرية أخرى اللجوء إلى المقارنة، وأشفعت في منهجها توظيف المعطيات الإحصائية، وقصدت منها المقارنة بين أشكال التنظيمات الزراعية وعلاقة تطورها أو ضمورها في حضور العرب الهلالية.

غير أن ارتباط موضوع الأطروحة بموضوعات متشعبة وأنساق تاريخية واجتماعية واقتصادية وثقافية ذات الصّلة، تطلّب مني اعتماد تصورات معرفية مُفَسّرة للظاهرة الاقتصادية الهلالية في مستويات:

– الاستفادة من مستويات الخطاب التاريخي عند النخبة، وأبرزها نص ابن خلدون، حيث يكمن المفهوم الاجتماعي والاقتصادي لنشاط العرب الهلالية، وبالتالي تجاوز فكرة أن مؤرخ العصر الوسيط اقتصر فقط على مظاهر الحرابة وقطع السابلة.

– تتبع الظاهرة الاقتصادية الهلالية على أمد الزمن الطويل، كون متغيراتها حدثت ببطء ضمن حركة التاريخ البطيء، وعبر أزمنة ونطاقات جغرافية عديدة.

– وظّفت المقاربات بين النصوص الوسيطة ومنظور الباحثين إلى عباراتها ومدلول خطابها، وركنت إلى النص الدقيق والمنظور المتين، وكان ذلك ميدانا ساعدني على بسط إشكالات الأطروحة في ثوب التاريخ الإشكالي.

5. نقد وتحليل المصادر والمراجع

المصادر:

فرضَ تنوع موضوعات الأطروحة اللجوء إلى أصناف من النصوص، من كتب الأخبار والتاريخ والرحلة والجغرافية والرصيد الوثائقي، وهي وإن اشتركت في رصد تاريخ العرب الهلالية في جوانب النشاط العسكري والسياسي، إلا أن حضور المعطى الاجتماعي والاقتصادي فيها يختلف من مصدر إلى آخر، حيث الإشارات مهمة ودقيقة في كتب الأخبار، خصوصا من جانب النخبة الكاتبة، وكذلك فيما تبقّى من الرصيد الوثائقي

الموحدي حول الحياة الاقتصادية للعرب الهلالية. على أن جلّ هذه المصادر تقدّم رؤية السلطة، مما انعكس على مضامينها التي قدّمت للباحثين وجهة نظر من زاوية واحدة.

وهي إلى جانب ذلك متفاوتة في تصوير مستوى التأثير الهلالي في جانبه الاقتصادي، وإن كانت تُجمع على سلبيته، إلا أن توصيفاتها تشير إلى نوع من التباين في المستوى من خلال المناطق والنماذج التي ذكرتها، لذلك فإن التعامل معها يدفع إلى ضرورة أخذ المعطى الزمني بعين الاعتبار.

أ- كتب التاريخ والحوليات:

يأتي في مقدمة هذا النوع المصدري كتاب: **العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر،**[1] لعبد الرحمن بن خلدون (732-808هـ/ 1332-1406م):

* **المقدمة:** تعتبر مقدمة ابن خلدون المصدر الأول، ليس من حيث السبق في معالجة الموضوع، لكن من حيث تركيز الاهتمام بالتأريخ للظاهرة الهلالية والتنظير لثنائية البدو والحضر، وباب الإفادة كون ابن خلدون الذي يُمثّل نصه مستويات من الخطاب التاريخي (السياسي، العسكري، الأنثروبولوجي، الاقتصادي)، قد بحث في طبيعة العمران البشري والمعاش ووجوه الكسب والصنائع وطور البداوة والحضارة وتعمّق في كشف العلاقات بينها، وبذلك فقد شكّلت المقدمة سقف هذه الدراسة في المعالجة والمصطلح انطلاقا من تقسيمه لأنماط المعاش الطبيعي وغير الطبيعي والمعابر التي جسّدتها الجماعة الهلالية ضمن هذه الثنائية.

* **العِبَر:** في هذا السفر المهم، تتبّع صاحبه بدقة بطون وفروع القبائل الهلالية ومجالات توزيعها وتحركاتها، فضلا عن كشفه لعلاقتها بالسُّلط، ورغم غزارة معلوماته واستفاضته في تحليل الظاهرة البدوية، إلا أنه أرّخ للخراب الهلالي بعد قرون من حدوثه، ما دفع ببعض الباحثين إلى اعتبار أحكامه تجاه العرب قاسية، وأشاروا إلى التناقض في طرحه للمسألة البدوية بين التنظير والتطبيق، لذلك كان من الضروري عند التعامل مع المنجز الخلدوني استحضار موقعه السياسي والاجتماعي، مع الأخذ بعين الاعتبار المستويات التي يمثلها نصه في الخطاب المتعلق بالعرب الهلالية، دون إغفال المعطى المرتبط باستمرار هيجان العرب الهلالية إلى غاية عصر ابن خلدون مما جعله في موضع يسمح له بتحليل الظاهرة من منطلق رؤيته للعمران البشري. ثم إن كتاب العبر يكاد يكون الوحيد الذي تحدّث عن أشكال المغارم وقدّم إشارات مهمة في هذا الجانب سمحت لنا بصياغة رؤيتنا ضمن إشكالية البحث.

"**اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا**"،[2] و"**البيان والإعراب عن ما بمصر من الأعراب**"،[3] لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي (ت845هـ/1442م): على الرغم من غزارة كتابات المقريزي خاصة وأنه اهتم بمواضيع متنوعة كان من ضمنها ما ارتبط بالركود والكساد الاقتصاديين، غير أن أكثرها أهمية وارتباطا بموضوع أطروحتنا هي: اتعاظ الحنفا والبيان، فالأول أسعفنا في الكشف عن الوضع الاقتصادي لمصر خلال القرن الخامس

[1]) ضبط المتن ووضع الحواشي: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، 1421هـ / 2001م.

[2]) تحقيق: محمد حلمي محمد أحمد، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1996.

[3]) مراجعة: إبراهيم رمزي، مطبعة المعارف، مصر، 1334هـ - 1916م.

الهجري (11م) مما دفعنا إلى الارتكاز على معطياته في تفسير الأبعاد الاقتصادية للهجرة الهلالية، كما اهتم بالمرحلة الصنهاجية وكتب عن الأحداث التي شَهِدها المغرب الأوسط آنذاك. أما الثاني فتضمّن تتبعا لوضع الهلاليين خلال المرحلة الصعيدية ومخططات الفاطميين تجاههم. وتتأتى أهمية ما تضمنته مصنفات المقريزي من أنه عاد إلى مصادر مفقودة واطلع على وثائق مهمة، كما أن تتلمذه على ابن خلدون انعكس على قيمة كتاباته وملاحظاته ومواقفه خاصة وأنه اهتم في كتاباته التاريخية بالبعد الاقتصادي وأقرَّ بخضوعه لثلاثية التطور، معتمدا فيها مبدأ السببية في تفسير الظواهر الاقتصادية.

البيان المُغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، لابن عذارى المراكشي (ت بعد 712هـ/1312م):[1] تكمن أهمية مادة المصنّف من كون صاحبه اعتمد على مصادر مفقودة، ككتابات الرقيق القيرواني (ت منتصف القرن 5هـ/11م) ومحمد بن يوسف الورّاق (ت362هـ/973م)، فرغم أن المراكشي متأخر قليلا على فترة الدراسة إلا أن ما أورده مهم جدا بالنسبة لموضوع البحث خاصة في تتبع المحطات السياسية لبلاد المغرب وموقع القبائل الهلالية في هذه المنظومة. وعلى دقّة معلومات "البيان" إلا أن أسلوبه يُحِيل أحيانا إلى نوع من الاختزال والاقتضاب في سرد بعض القضايا، ومنها ما تعلق بموضوعنا، مما فوّت فرصة تقديم إضافات معرفية مهمة.

المن بالإمامة، تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين، لعبد الملك بن صاحب الصلاة (ت594هـ / 1198م)[2]: تم توظيف الإشارات المصدرية التي تضمنها كتاب ابن صاحب الصلاة في إبراز وضع الهلاليين خلال الفترة الموحدية وعلاقة السلطة بهم، مع الأخذ بعين الاعتبار أن المؤلف محسوب على البلاط الموحدي وعلى حركة ابن تومرت، لذلك كان يسهب في تقديم نصوصا تخدم السلطة الموحدية وتُبرِّر توجهاتها واختياراتها، وقد سمح اطلاعه على الوثائق الرسمية للدولة والاعتماد على الروايات والملاحظات من تقديم معلومات ذات قيمة تاريخية مهمة، على الرغم من أن القطعة المتاحة لا تُغطّي إلا سنوات قليلة من الفترة الموحدية.

نهاية الأرب في فنون الأدب، لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت733هـ/1333م)[3]: تتأتى أهمية الموسوعة النويرية التي عالجت عديد المواضيع من كونها تتبّعت الأزمات الاقتصادية التي ضربت مصر خلال القرن الخامس الهجري (11م)، ما سمح لي بتعميق التحليل حول الخلفيات والأبعاد الاقتصادية للهجرة الهلالية، خاصة وأن النويري وبحكم مولده ونشأته بالصعيد ثم باعتبار كونه كاتب السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون (ت741هـ/1341م) واطلاعه على كتابات المؤرخين المغاربة والأندلسيين المفقودة والمتاحة ونقله عنها، ما جعل من اسهاماته تُثري الرُّؤى التاريخية حول بعض التفسيرات ذات العلاقة بنتائج الهجرة الهلالية كمسألة نقل العاصمة الحمادية من القلعة إلى بجاية تحت ضغط تغوّل البداوة على محيط العاصمة السابقة.

---

[1]) تحقيق: بشار عواد معروف ومحمود بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2013.

[2]) تحقيق: عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط3، 1987.

[3]) دار الكتب العلمية، بيروت، 2004.

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لابن بسام الشنتريني (ت542هـ/1147م):[1] يعدّ من المصادر المعاصرة للهجرة الهلالية إلى بلاد المغرب، ورغم أنه كُتب في مدينة قرطبة -بعيدا عن مسرح الحدث- وينزع نحو التأريخ للأدب ورجاله، لكنه مهم لأنه يقدم بعض التفاصيل عن الهجرة الهلالية بنظرة النخب الأندلسية.

ب- المصادر الوثائقية:

رغم أن الرصيد الوثائقي حول الحياة الاقتصادية للعرب الهلالية قليل، إلا أن ما توفر من خلال الوثائق الموحدية الرسمية والمتمثلة في نصوص الرسائل والتقاديم، قد شكّل سندا مصدريا مهما، وأبرزها ما نشره كل من: ليفي بروفنصال، بعنوان: **مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية**، سنة 1941،[2] أو تلك التي أصدرها أحمد عزاوي بعنوان: **رسائل موحدية، مجموعة جديدة**، سنة 1995،[3] فضلا عن:

Pascal BURESI et Hicham EL AALLAOUI: **Gouverner l'Empire**. **La nomination des fonctionnaires provinciaux dans l'empire almohade** (**Maghreb**, **1224-1269**).[4]

وقد شكّلت هذه المراسلات مادة مصدرية هامة عكست السياسة الموحدية في احتواء القبائل الهلالية، وبالتالي طبيعة العلاقة التي ربطت بين الطرفين، حيث تعرضت بين طياتها لآليات الإدماج السياسية والاقتصادية التي تبنتها السلطة تجاه القبائل الهلالية، في سبيل تطويعها وبالتالي تحويلها من ظاهرة للتمرد إلى طاقة عسكرية موجهة نحو الجهاد في الأندلس، ناهيك عما حملته في ثناياها من إشارات مهمة حول الحياة الاقتصادية للقبائل وثرواتهم الحيوانية، غير أنها انطوت على مبالغات كبيرة في تقدير تعداد الهلاليين وثرواتهم الاقتصادية لمحاولة تبرير بعض الخيارات السياسية وتعظيم الانتصارات العسكرية.

وإذا كانت هذه الوثائق قد مسّت جوانب من الظاهرة الاقتصادية الهلالية على عهد الموحدين، فإن وثائق أخرى مثل: **traités de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des chrétiens avec les arabes de l'Afrique septentrionale au moyen âge**.[5] لماس لاتري: **Mas latrie**، و **I diplomi arabi del R. archivio fiorentino**, **testo originale con la traduzione letterale e illustrazioni**,[6] لميشال أماري: Michele Amari، تفسّر مآلات المبادلات التجارية بين المغرب الأوسط وأوروبا في ظل

[1]) تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1997، ق 3، مج2.

[2]) المكتبة الاقتصادية، الرباط، 1941.

[3]) منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة، المغرب، 1995.

[4]) Casa de Velázquez, Madrid, 2013.

[5]) Henri Plon imprimeur éditeur, paris 1866.

[6]) Le Monnier, Firenze Florence, Italy,1863.

الحضور الهلالي بالمغرب الأوسط، ورغم أنها جاءت لتسيير العلاقات السياسية ومتطلبات الأمن وضبط المعاملات الاقتصادية، غير أنها لا تقدم تفاصيل دقيقة تُمكّن من صياغة تصورات مؤسسة حول حجم التأثير الهلالي.

ج- كتب الجغرافيا والرحلات (**البلدانيين**):

هي نصوص في الرحلة والجغرافية تتضمن معطيات تخص التاريخ الاقتصادي، حيث تعكس ملاحظات الرحالة والجغرافيين طبيعة الحياة الاقتصادية، ومن أهم مصادر هذا النوع التي اعتمدنا عليها في الأطروحة:

المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، لأبي عبيد عبد الله ابن عبد العزيز البكري (ت487هـ/1094م):[1] الذي كتب عن المنطقة بين 458 و460هـ/1066-1068م وهو بألمرية، ولم يسبق له زيارة بلاد المغرب، فكانت جل ملاحظاته تعود إلى القرن الرابع الهجري (10م)، بسبب نقله عن محمد بن يوسف أبي عبد الله الوراق (ت362هـ/973م) الذي ضاعت كتاباته، فأثّر إسهابه في النّقل من مصادر أخرى في إخراج مادته، وبالتالي كان لزاما التعامل مع كتابه كنص من نصوص ما قبل الهجرة الهلالية أو على الأقل فترة ما قبل تبلور نتائجها، فيكون مُرتكزا لتسجيل التحولات التي طرأت على الساحة الاقتصادية. ومع ذلك فإن نصه الجغرافي لا يخلو من الإضافات اللاحقة، خاصة أنه نقل شهادات بعض التجار.

نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، للشريف الإدريسي السبتي (493- حوالي560هـ/1100-1165م):[2] ألّف هذا الكتاب بطلب من ملك صقلية النورماندي روجار الثاني Roger II (ح1130-1154م) وتكمن أهمية وقيمة المعلومات التي أوردها في أن مؤلفه استقاها من مشاهداته الخاصة وأعمال الجغرافيين والرحالة السابقين، حيث يقدّم صورة شبه تفصيلية عن وضع الاقتصاد في المغرب الأوسط بمدنه وبواديه، ما يدعو إلى ضرورة التعمق أكثر في هذا النص ضمن تصوره لحقيقة الضرر الهلالي، خاصة وأنه يشير أحيانا لبعض مظاهر التعايش الاقتصادي الهلالي – الحضري والريفي، دون أن يغفل عن الأضرار التي نتجت عن النشاط الهلالي في بعض الجهات، غير أن بعض النقولات تجعل جزءا من المادة التي قدّمها لا تنطبق وواقع النصف الأول من القرن 06هـ/12م.

كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار لمجهول (ق06هـ/12م):[3] المصدر دقيق من حيث معلوماته المتعلقة بالوضع الاقتصادي في المنطقة خلال القرن السادس للهجرة (12م)، على الرغم من أنه استقى بعضها من مصادر سابقة كالمسعودي (ت346هـ/957م) والبكري والإدريسي، ولا ينبغي أن نُغفل قرب مُدوّن الكتاب من الخليفة يعقوب المنصور الموحدي (ت595هـ/1199م)، ما جرّه لمحاولة تقديم صورة إيجابية عن الحكم الموحدي، وهو الأمر الذي دعاني إلى التعامل مع مضامينه انطلاقا من هذا الاعتبار.

د- كتب النوازل الفقهية:

[1]) الجزائر، 1857.

[2]) تحقيق: الوافي نوحي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1422هـ / 2002م.

[3]) نشر وتعليق: سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، 1985.

الفترة قيد الدراسة فقيرة إلى حد ما من حيث النصوص النوازلية التي عالجت مواضيع مرتبطة بالهلالية، رغم استمرار بعض النوازل وتضمنها في ما تم تداوله ضمن نوازل الفترات اللاحقة خاصة المتعلقة بالقرنين الثامن والتاسع الهجريين (14-15م)، ومع صعوبة توطين بعض النوازل مكانيا وضبطها زمانيا يكون الاعتماد عليها من قبيل الاسقاط الذي يأخذ بجملة من الاعتبارات، نظرا لأهميتها وقيمة مادتها، وأهم كتب النوازل المعتمدة في موضوع الدراسة:

- أبو عبد الله محمد بن علي المازري (ت536هـ/1141م): **فتاوى المازري.**[1]

- أبو القاسم بن أحمد بن محمد البَلَوِي القيرواني البرزلي، (ت841هـ/1438م): **فتاوى البرزلي - جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام.**[2]

- أبو زكرياء يحيى المغيلي المازوني (ت883هـ/1478م): **الدرر المكنونة في نوازل مازونة.**[3]

- أبو العباس أحمد بن يحيى التلمساني الونشريسي، (ت914هـ/1508م): **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب.**[4]

تكمن أهمية النصوص النوازلية -التي اختص أغلبها بإفريقية دون المغرب الأوسط- في كونها تُفصِح عن رؤية الفقيه للهلالي، مما يجعلها لا تعكس فقط منظوره الديني، بل تعكس من جانب آخر رؤية وتصور الحضري للبدوي، ومع أن النوازل عالجت المسألة الهلالية معالجة مذهبية فقهية، إلا أنها قدّمت مؤشرات مهمة عن الهلاليين وأثرهم الاقتصادي، ونماذج عن مسارات الاندماج ومطبّاته، على الرغم من الصعوبات التي يطرحها تداخل المصطلحات من قبيل (العرب، الأعراب، البدو، مستغرقي الذمم ...) ضمن النص النوازلي.

المظان التاريخية التي تقدّم إشارات حول الحضور الهلالي في المغرب الأوسط رغم أنها شحيحة إلا أنها تتميز بالتنوع، وإن اقتصرنا في العرض على النماذج المذكورة، فإن هناك مصادر أخرى تندرج ضمن نفس التصنيف المشار إليه أو ضمن أنواع أخرى ككتب المناقب والتراجم...

ب. المراجع والدراسات:

شكّلت عديد المراجع مرتكزا لدراستنا في محاولة معالجة إشكاليات الموضوع، ورغم صعوبة إدراج أهمها، نضطر للاكتفاء بالنماذج الآتية:

جورج مارسيه: **بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى،** اهتم مارسيه بموضوع العرب الهلالية ضمن مشروع بحثه، وركّز على الوضعية الاقتصادية لمدن المغرب الأوسط كالقلعة وبجاية في ظل الهلاليين، وكانت التحليلات التي قدمها في غاية الأهمية، خاصة وأنها استحضرت السياق التاريخي للهجرة الهلالية،

[1]) تحقيق: الطاهر المعموري، الدار التونسية للنشر، مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان، تونس، 1994.

[2]) تحقيق: محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2002.

[3]) تحقيق: حساني مختار، مخبر المخطوطات، قسم علم المكتبات، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2004.

[4]) إخراج جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، الرباط،1401هـ/1981م.

وعلى الرغم من أنه من مطلع على المصادر المغربية بفضل اكتسابه للغة العربية، إلا أنه تعامل مع المظان التاريخية بشكل من الانتقائية، خدمة لتوجهات قلمه، باعتبار أنه كان محسوبا على التيار العلمي في المدرسة الكولونيالية.

الهادي روجي إدريس: **الدولة الصنهاجية تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م**، يعد من البحوث المرجعية في تاريخ الصنهاجيين بإفريقية، ورغم أن مؤلِّفه ممن يُحمّلون الهلاليين مسؤولية خراب بلاد المغرب ويصف الغزوة الهلالية بالكارثة التي حلت بالمنطقة، إلا أنه لم يتتبع التأثير السلبي للهلاليين في جزئياته وجغرافيته ليعطي حكما حول مدى هذا التأثير بقدر ما انساق وراء بعض المصادر التاريخية والجغرافية في أحكامها العامة أو مشاهداتها الجزئية.

محمد حسن: **المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي**، على الرغم من أنه جهد مُكرّس لدراسة الفترة الحفصية المتأخرة بالنسبة للحيز الزماني لموضوعنا، إلا أن عمله الذي يعدّ في أصله أطروحة دكتوراه دولة أفادنا في فهم العلاقة بين البادية والمدينة في العصر الوسيط، حيث حاول بيان جذور الطابع البدوي الذي ميّز مجال دراسته.

راضي دغفوس: **دراسات في التاريخ العربي الاسلامي الوسيط**،[1] اشتغل في بعض المقالات المنشورة ضمنه على الهجرة الهلالية مع التركيز على أبعادها الاقتصادية، حيث دافع على الطرح الذي ينتصر للأسباب والمبررات الاقتصادية للانتقال الهلالي، غير أنه أغفل الاستثمار في بعض المصادر التي كان بإمكانها أن تعضد طرحه.

وفي غياب دراسات موسعة حول أثر العرب الهلالية في اقتصاد المغرب الأوسط، نلاحظ أن بعض المقالات كانت وإلى وقت غير بعيد أكثر جرأة على مقاربة الموضوع، ومن أهم الأعمال المقدمة في هذا الصدد:

Claude Cahen: **Quelques Mots Sur Les Hilaliens Et Le Nomadisme**.[2]

حاول كلود كاهين الالتزام بقدر كبير من الموضوعية في مقاربته للموضوع، وفضلا عن هذا المقال، فلصاحبه مساهمات أخرى جادة في ذات الرواق، خاصة وأن له اهتماما خاصا بالتاريخ الاقتصادي.

وتعتبر مساهمة دومنيك فاليرين Dominique Valérian: **بجاية ميناء مغاربي (1067–1510)**،[3] دراسة مهمة، لأنها اشتغلت على بجاية في فترة تتقاطع بشدّة مع موضوعنا، كما أن صاحبها الذي ينتمي إلى الجيل الحولياتي المعاصر اعتمد على وثائق قدّمت بعض الإضافة، خاصة ما ارتبط بتجارة الصوف والجلود، رغم أن جل الوثائق تتعلق بفترات لاحقة. غير أن دراسته تفتقد إلى الاستنطاق العميق لمصادر التاريخ، كما أنه توجه في معالجة بعض الإشكاليات إلى الافتراض والتعميم والإسقاط أحيانا.

---

[1]) دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005.

[2]) Journal of the Economic and Social History of the Orient, Volume 11, N 1, p130-133.

[3]) (02 أجزاء)، ترجمة: علاوة عمارة، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2014.

علاوة عمارة: "**الهجرة الهلالية وأثرها في تغيير البنية الاجتماعية لبلاد الزاب**"،[1] "**قلعة بني حماد: نشأة وأفول حاضرة إسلامية**"؛[2] انطلقت كتابات عمارة من محاولة استيضاح الصورة التي قدمتها بعض الكتابات الفرنسية، وما يعكس أهمية دراساته أن صاحبها أحاط بما كتب عن الموضوع، وحاول توظيف نتائج الدراسات الأثرية. غير أن انتقاده للكتابات الكولونيالية لم يكن على ضوء معطيات النص الوسيط التي ارتكز عليها هؤلاء، بقدر ما ركز على رؤى غيره من الباحثين في قراءتهم للمصادر وللمتن الخلدوني تحديدا، كقراءة العروي مثلا التي تصنف الكتابات التي حمّلت مسؤولية تفكّك الدولة وسيادة الفوضى بالمغرب الإسلامي للقبائل الهلالية على أنها غير محايدة، لأنها اعتمدت النصوص المدوّنة من طرف البرجوازية المتغلغلة في البلاط، وحتى الفتاوى التي تتهم الهلاليين صادرة من البرجوازية التجارية، لذلك فهو يعتقد أن التراجع الذي شهده المغرب الإسلامي كان ضمن تراجع العالم الإسلامي ككل؛[3] كما أن نتائج الأبحاث الأثرية التي ارتكز عليها علاوة عمارة جاءت سردية في غالبها.

الطاهر بونابي: **ظاهرة الاندماج الهلالي في المنظومة الصوفية بالمغرب الأوسط خلال القرن 8هـ/14م**،[4] حيث اهتم بونابي بتتبع الاندماج الهلالي في المغرب الأوسط انطلاقا من الظاهرة الصوفية، بما شكلته من تجربة احتوت بعض الهلاليين، خاصة وأن الرباط والتصوف كانا مدخلا للاستقرار، وإن كانت ملامح ذلك قد ظهرت في فترة لاحقة لدراستنا، إلا أن جذورها أسبق؛ خاصة وأنه اعتبر أن الانكسار الهلالي في موقعة سطيف هو بمثابة بداية توجه العرب الهلالية خاصة من جانب العصبيات الضعيفة إلى تأسيس المدشر والمعلم الديني. ومن خلال تتبعه للدراسات الأجنبية والمغربية حول ظاهرة توبة الهلاليين وانخراطهم في الثقافة الدينية لمجتمع المغرب الإسلامي يلاحظ الطاهر بونابي أنها بقيت في غالبها رهينة أفكار ابن خلدون، التي أحالت إلى دور مرابطي القبائل العربية في هذا التحول.

عبد السلام همال: **هجرة قبائل بني هلال وبني سليم إلى المغرب منتصف القرن 05هـ/11م – من خلال كتابات بعض مؤرخي المدرسة التاريخية الاستعمارية الفرنسية (1830–1962)**، ارتكزنا على هذا المقال المهم في تقييم بعض الكتابات الفرنسية حول الهجرة الهلالية، خاصة وأنه نفى صفة الموضوعية عن الأعمال التاريخية التي قدّمتها المدرسة الكولونيالية، واعتبر أن بعضها كان أقرب إلى الدعاية منه إلى الكتابة التاريخية العلمية، مُرَكِّزًا على توصيفات التخريب والتدمير الهلالي التي روّج لها المنتمون إلى هذه المدرسة، خاصة وأنهم عملوا على المقارنة بين العرب والبربر خدمة للمخططات الاستعمارية، غير أنه لم يعد إلى النص الخلدوني لإثبات لاعلمية

[1]) مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، ع10، جانفي2009، ص ص09-26.

[2]) ضمن كتاب: دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2008.

[3]) علاوة عمارة: الهجرة الهلالية وإشكالية انحطاط حضارة المغرب الإسلامي الوسيط، المرجع السابق، ص18-19.

[4]) وهو قسم من كتاب: مظاهر المجال والدين والمجتمع بالمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط، سلسلة الكتب الأكاديمية لكلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة محمد بوضياف المسيلة، 2017.

الخطاب الذي تبنته المدرسة الكولونيالية، -وهو النص الذي أكّد على أهميته العلمية وقيمته المعرفية- بقدر ما نبّه إلى ضرورة التوجُّه نحو مصادر غير تقليدية ويقصد بها كتب النوازل والمناقب والحسبة والوثائق.

عكه إيناس: **الظاهرة الهلالية في المغرب الأوسط -مقاربة بين خطاب المدارس الفرنسية والنص العربي الوسيط-** (**05-09هـ/11-15م**)، سمح لي التفصيل الذي تضمنته المذكرة حول مسار الأسطوغرافيا الفرنسية والظاهرة الهلالية وفق منظور المدارس الفرنسية من ضبط الأطر العامة التي ركّزت عليها هذه الكتابات في تعاطيها مع موضوع التأثيرات الهلالية، ورغم محاولات الباحثة تسليط الضوء على بعض النماذج التي تجعل من الدراسة تنعتق من البعد النظري، إلا أن الاشتغال على موضوع مفتوح عقّد من هذا المسعى.

6. صعوبات البحث

واجهتني أثناء إعداد الأطروحة صعوبات عديدة، ولعل أكثرها ثِقلا تلك المتعلقة بالجانب المعرفي والمنهجي للموضوع، والمتمثلة في طبيعة المصادر الموظفة في رؤيتها للهلاليين وأثرهم الاقتصادي، وما تحمله من تناقضات نلمسها في ثنايا النصوص، فضلا عن غياب اللغة الاحصائية المرافقة لها، مما انعكس سلبا على محاولات توظيف الأدوات الإحصائية التي من شأنها إسعافنا في تقديم بعض المعالجات الأقرب إلى الدقة في بعض المواضيع.

ثم إن الكثير من الصعوبات تلاشت أو خفّ تأثيرها بفضل متابعة المشرف على هذا العمل الدكتور الطاهر بونابي ونصائحه القيّمة في الجوانب المنهجية والمعرفية ومتابعته الدقيقة والمستمرة التي سمحت بإخراج الدراسة في شكلها الحالي، فضلا عن دور المشرف المساعد الدكتورة ماريبيل فييرو Maribel Fierro (CSIC- Madrid) التي ظلّت تشجعني وتفتح لي قنوات التواصل مع الباحثين في التاريخ الاقتصادي بإسبانيا وفرنسا وتُطلعني على جديد الدراسات في هذا الرواق البحثي.

الفصل الأول

طبيعة الاقتصاد الهلالي

(الحتمية الجغرافية والمكتسب الأنثروبولوجي)

1- جغرافية البداوة وحركة الترحال

2- إرث البداوة في النشاط الاقتصادي للعرب الهلالية

أ. مرحلة الحجاز والشام

ب. المرحلة المصرية

3- آليات إخضاع وإدماج العرب الهلالية خلال المرحلة المشرقية

طبيعة الاقتصاد الهلالي (الحتمية الجغرافية والمكتسب الأنثروبولوجي)

يستند التفسير التاريخي بأدواته المختلفة ومعطياته التأسيسية في الكشف عن كُنه الظاهرة المدروسة على العودة إلى البحث في المؤثرات التي تصنع الملامح العامة لها، وتساوقا مع ذلك يكون من الضروري الوقوف على طبيعة الاقتصاد الهلالي بين الحتمية الجغرافية والمكتسب الأنثروبولوجي، انطلاقا من العوامل التي تحكمت في تدبير المعاش البدوي، وبالتالي ضبط طبيعة الأنشطة البدوية، إذ لا يستقيم البحث في الأثر الهلالي على اقتصاد المنطقة دون معرفة بعالم البداوة بمختلف مكوناته وعلائقه، واستكشاف هذا العالم يفرض بالضرورة تفكيك التركيبة الاقتصادية التي يقوم عليها، وتحديد إفرازاتها على مستوى التفاعل معها، سواء من طرف الفاعل الاقتصادي غير البدوي أو من طرف السلطة السياسية والدينية. هذه الاسقاطات الأولية، نحاول مقاربتها وفقا لما تقدمّه المصادر التاريخية حول العنصر الهلالي بتتبع إرثه الاقتصادي وملاحقة تجاربه السابقة بالملاحظة، لما للأمر من أهمية في فهم الظاهرة البدوية.

يُحيلنا البحث في محددات وطبيعة النشاط الاقتصادي عند العرب الهلالية إلى جملة من التساؤلات الملحّة، يأتي في مقدمتها: إلى أي مدى أسهم الوسط الجغرافي وبيئة التواجد والنشاط في تحديد طبيعة المعاش الهلالي؟ وما هي تأثيراته على توجيه القبائل البدوية الهلالية نحو الترحال والانتجاع الذي يعدّ من أهم الملامح المميزة لنشاطها؟ وما القيمة المضافة للإرث الاقتصادي الهلالي عبر المراحل التاريخية والمحطات الكبرى التي ميّزت مسارهم ونجعتهم؟ وما هي حدود التفاعل بينهم وبين المستقرين بما يسمح بإيجاد هوامش للعيش المشترك والتبادل الاقتصادي؟ وكيف صاغت السلط السياسية تصوّراتها وبرامجها لمحاولة إخضاع وإدماج العرب الهلالية خلال المرحلة المشرقية؟

المؤثرات العامة في اقتصاد البداوة

يعرّف ابن خلدون البدو على أنهم: "المنتحلون للمعاش الطبيعي ... مقتصرون على الضروري من الأقوات والملابس والمساكن"،[1] واقترن مصطلح البداوة[2] في العصر الوسيط الثاني الذي شهد سيطرة "الأعراب" بعدّة مرادفات، منها: أهل الوبر مقابل سكان المدر، وأهل العمود إشارة إلى سكنهم الخيام، وأهل الإبل والشّاوية نسبة لمواشيهم، وأهل الغارة لأنهم حملة رماح، والظواعن الرحالة لترحالهم.[3]

أسهمت عديد العوامل والمؤثرات في استمرار هذا الوضع (الطبيعي) بالنسبة للجماعات البدوية، وهي عوامل وظروف مرتبطة أساسا بالطبيعة البدوية لهذه الجماعات وفي تفاعلها مع محيطها الجغرافي والسياسي:

1- جغرافية البداوة وحركة الترحال

لطالما شكّلت البيئة الجغرافية عاملا مهمًّا في تحديد وتوجيه طبيعة النشاط الإنساني، فانتشار مجموعة بشرية في جغرافيا معينة، ينعكس بالضرورة على طبيعة النشاط الذي يمارسه أفرادها في تحصيل معاشهم، وبالتالي يبرز التباين في النشاط وطبيعته بناءً على البيئة الحاضنة، والتي من شأنها أيضا تكييف مختلف الأنشطة وفق سماتها ومتطلباتها.

سَكَن البادية هو ثبات على السَّجِيّة الأولى التي خُلق عليها الإنسان، لذلك اعتقد العرب أن حياة الترحال تَجسيد لحريتهم في اختيار مواطن السكن، وهو ما يعكسه جواب خطباءهم ممن وفدوا على كسرى، حين سألهم عن أحوال العرب وسكنهم البادية، فأجابوه: "مَلكُوا الأرض ولم تملكهم"،[4] وانطلاقا من هذا التصور، فإن التبدّي

---

[1]) ابن خلدون: المقدمة، ص151.

[2]) في إسقاط مفهوم البداوة فلسفيا، عمل بعض الفلاسفة على غرار جيل دولوز –الذي عُرف بالفيلسوف البدوي / المترحل- على استدعاء أفهوم البداوة، حيث قدّم محاضرة بعنوان: الفكر البدوي Pensée nomade في المؤتمر الذي عقد حول نيتشه: "نيشته اليوم؟" سنة 1972؛ ويستحضر دولوز هذا المفهوم في سياق اشتراك البداوة الانسانية مع البداوة الفلسفية في فعل الترحال، ترحال البدوي الذي يكون داخل المكان، وترحال الأفهوم (إبداع المفهوم) الذي يكون في ذات المكان بعيدا عن المعالم، لأن الفلسفة لا تبحث عن اليقين، وهنا يتقاطع دولوز وميشال فوكو استنادا إلى نيتشه. يقول جمال نعيم: "لقد تحرّك الفكر طويلا على أرض محزّزة ذات معالم، فأنتج العمارات الفلسفية الشاهقة، لكنه نسي الصحراء، نسي المكان الأملس والأرض الملساء التي تأوي كثيرا من القبائل التي تتحرك فيها من دون أن تلغي صحراوية الصحراء، ومن دون تقسيمها. والمطلوب على صعيد الفكر هو الانتباه إلى هذه الحركات البدوية التي تتحرك في فضاء مغاير أملس، يشبه فضاء المقاومة، لا فضاء الجيوش النظامية، لذا نقول عن الفلسفة إنها مقاومِة وثورية على الدوام"؛ جيل دولوز وتجديد الفلسفة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2010، ص40.

[3]) محمد حسن: المدينة والبادية، المرجع السابق، ج1، ص88؛ يحيل مصطلح العرب الذي يذكره ابن خلدون والإدريسي عادة إلى الأعراب، في الدلالة على البدو، مهما كان عرقهم عربا أو بربرا؛ العروي: مجمل تاريخ المغرب، ج2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، 2000، ص97؛ مع أنه لا يمكن التسليم بذلك مطلقا، فأغلب النصوص ومن خلال سياقها يتضح أنها تشير إلى الأعراب من العرب البدو.

[4]) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، مراجعة: كمال حسن مرعي، المكتبة العصرية، بيروت، ج2، 2005، ص95؛ ويذهب ابن خلدون إلى أن أهل البدو أقرب إلى الخير والشجاعة من أهل الحضر؛ المقدمة، ص152-155.

ليس مجرد أسلوب حياة أو نمط معيشة، بل إنه يحمل أيضا رؤية معينة للحياة، خاصة وأن الأرض "تمرض كما تمرض الأجسام" حسبهم، لذلك كان من الضروري تخيّر المواضع.[1]

يربط جبريل جبور[2] بين البدو والصحراء، ورغم الاختلاف بين العربي المستقر والبدوي، إلا أنه يذهب إلى أن مدلول "العرب" في القرآن[3] كثيرا ما يعني البدو، ومع التشابهات التي يمكن تسجيلها على المجموعات البدوية العربية، إلا أن هناك بعض التباين في أنماط الحياة وبعض العادات، بين من يميلون لتربية الجمال ومن يربّون الأغنام مثلا.

---

[1]) المسعودي: المصدر السابق، ج2، ص93-94.

[2]) Jibrail S. Jabbur, The Bedouins and the Desert: Aspects of Nomadic Life in the Arab East, trans. Lawrence I. Conrad, ed. Suhayl J. Jabbur and Lawrence I. Conrad, SUNY Series in Near Eastern Studies (Albany: State University of New York Press, 1995, p29.

[3]) ذكر القرآن الكريم، الأعراب، في مواضع عديدة، منها:

المضمون	السورة ورقم الآية
﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.	التوبة، 97.
﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾.	التوبة، 101.
﴿۞قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.	الحجرات، 14.
﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.	الفتح، 11.

يقصد بالأعراب المذكورين في سورة التوبة، أعراب أسد وغطفان الذين قعدوا عن مناصرة النبي في غزوة تبوك (09هـ/630م)؛ محمود أحمد أبو صوة: تاريخ العرب الاجتماعي والاقتصادي في العصر الوسيط -قراءة مغايرة، منشورات ELGA، مالطا، 2002، ص23؛ وقد تتبع كل من أحمد الأشقر ورونديي ولسون Rondey Wilson ما ورد حول البدو في القرآن الكريم والسنة النبوية، في كتابهما:

Ahmed El-Ashker and Rodney Wilson: Islamic Economics, A Short History, Series: Themes in Islamic Studies, Volume: 3, Brill, Lieden, Boston, 2006, pp24-29.

يشير شمس الدين بن أبي عبد الله القرطبي (ت671هـ/1273م) في تفسيره، أنه لما ذكر الله المنافقين الذين بالمدينة، أشار إلى المنافقين الأعراب، معتبرا إياهم أشد نفاقا، لقسوة قلوبهم وغلظة طباعهم، وقد ترتبت عدة أحكام عن البدو، منها أنه لا حق لهم في الفيء والغنيمة استنادا لحديث الرسول ﷺ، وإسقاط شهادة أهل البادية عن الحاضرة، بينما أجازها أبو حنيفة، وأجازها الشافعي إذا كان عدلا مرضيا، كما أن إمامتهم بأهل الحاضرة ممنوعة، بحجة جهلهم بالسنة وتركهم للجمعة؛ الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2006، ج10، ص338-339.

وفي موضع آخر، يستثني القرآن الكريم بطريقة غير مباشرة بعث الأنبياء والمرسلين من البدو: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؛ يوسف، الآية 109.

وعليه، فإن الصورة التي يعكسها النص القرآني حول البدو العرب (الأعراب) في العادة صورة سلبية، إذ تشير إلى ارتباط جملة من الصفات الذميمة بهم، في مقدمتها النفاق، وهي ذات الصور في السنة النبوية والتراث الإسلامي.

والبداوة حالة تشمل أنصاف الرُّحل والرُّحل وحتى بعض المستقرين، ممن تتميز أحوال معاشهم بالبساطة، إذ ليس البدو هم الرحل وحدهم، وبالتالي فإن الرحل ليسوا متوحشين بطبيعتهم، إنما بطبيعة نوع المعاش الذي ينتحلونه، وبذلك يكون التوحش مقتصرًا على الرُّحَّل (رحل الإبل).[1] وانطلاقا من هذا التقسيم تكون طبيعة الكسب هي المحدِّد لنمط الحياة، الذي يتبلور أيضا في ظل معطيات بيئية وقيمية.

عاش البدو العرب أسلوب حياة رعويا تقليديا أو بدويا قائما على تربية الجمال والماعز، وخيمة شعر الماعز الأسود الشهيرة، والهجرة لتتبع الأمطار الموسمية؛ ومع ذلك، فقد استقروا تاريخياً حول الواحات وعملوا أحيانا في الزراعة وإنتاج التمور.[2]

يعدّ اقتصاد البداوة الذي ميّز القبائل الهلالية الشّكل الأول للنشاط الاقتصادي الإنساني، ونمط الإنتاج فيه مبني على بعد اجتماعي مرتبط بالعصبية القبلية، لذلك فقد اتخذ شكل المشاعية البدائية، وهو ما انعكس على حجم الإنتاج، الذي لا يؤدي إلى فائض يُحوّل إلى منشآت ومنجزات مستقرة، خاصة وأن الخصب في المناطق الصحراوية يحدث بالتناوب، حيث يكون الرخاء في بعض السنوات فتكثر الماشية، ثم تأتي سنوات الجفاف فتنقرض رؤوس المواشي إلى نسب تصل ثمانين بالمائة (80%) من رأس المال أحيانا، وهو ما يجعلهم يقطعون آلاف الكيلومترات بحثا عن المراعي، وبالتالي فإن الإنتاج البدوي خاضع لصدف الطبيعة ورحمة المناخ.[3]

يحاول جبور[4] تعديد ملامح الأهمية الاقتصادية للبدو، من حيث كونهم يسهرون على تربية أنواع مختلفة من الحيوانات، وبالتالي إنتاج مواد على غاية في الأهمية، منها شعر الجِمال الذي يستعمل في تصنيع الخيام والنسيج، وصوف الأغنام التي تُعدُّ مادة مهمة وموردا اقتصاديا، وجلود الإبل التي تُصنع منها القِرَب لتخزين الماء والدّلاء، وبيع الفائض عن حاجتهم للتجار والحرفيين، كما تعتبر اللحوم مصدرا مهما للدخل وللاستهلاك الشخصي، بحيث أن اللحم مُكوّن مهم في النظام الغذائي للبدو، خاصة لحم الضأن والماعز، ثم لحم الإبل. فضلا عن حليب الأغنام الذي يستهلك ويستخدم في إنتاج الزبدة أو السمن. أما امتلاك الخيول –التي تستخدم في الغزو– لدى البدو فهو متباين، باختلاف مناطق تمركزهم، لأن الخيول تحتاج إلى نظام غذائي مُكلف، وبالتالي عادة ما يقتصر امتلاكه على البدو الذين لا يعيشون في عمق الصحراء فقط، خاصة وأن سنوات الجفاف تؤدي إلى ارتفاع أثمانها.

---

[1]) عبد المجيد مزيان: المرجع السابق، ص237.

[2]) Alan Weber: Bedouin Memory Between City and Desert, Memory Connection, Volume 1, Number 1, 2011 The Memory Waka, p129.

[3]) عبد المجيد مزيان: المرجع السابق، ص229-230.

إذا كان "أرسطو" Aristote (384ق م/322ق م) يعتبر أن البدو كسالى بطبيعتهم، بحيث يعيشون من الغزو والصيد، فإن "آلان" Alan Weber يرى أن تصوير ماضي وتراث البدو من قبل مجموعات مختلفة، بما في ذلك من قبل البدو أنفسهم، يحجب حقيقة أنهم كانوا دائمًا خاضعين لـ "اقتصاد مختلط"، يجمع بين الرعي والزراعة والتجارة والعمل المأجور ... ولم يعتمدوا أبدًا على الرعي فقط على وجه الحصر، بل اعتمدوا على اقتصاد متعدد الموارد؛ Alan Weber: Op. cit, p129.

[4]) Jibrail S. Jabbur: Op. cit, p36-37.

يربط ابن خلدون بين أحوال العمران والأنماط الاستهلاكية، فالحجاز وجنوب اليمن والمناطق الجنوبية من المغرب الإسلامي التي يعاني ساكنتها من ندرة الغطاء النباتي، انعكس على النمط الاستهلاكي لديها، والذي يرتكز على الألبان واللحوم، والأمر نفسه ينسحب على العرب الجائلة في القِفار ولا يحصلون إلا على القليل من الحبوب من التلال؛ ورغم هذا، فإنهم يتمتعون ببنية جسمية أقوى وأخلاق أفضل.[1]

ضرورات الوجود والظروف المناخية والاقتصادية والسياسية تجعل البدو في حركة تشبه حركة مدّ المحيط، ويبدو أن هذه العملية وضعت إلى حد ما في أحيان كثيرة حاجزا ضد العنف والقتل بين المجموعات البدوية التي وجدت نفسها مضطرة للتعايش ضمن هذه الحركة،[2] المدفوعة بعوامل شتى، منها الاقتصادية: كالرعي الموسمي للقطعان والحاجة للوصول إلى الأسواق، والبيئية: إذ أن التقلب في فصل الشتاء يدفع إليه الفرار من البرد نحو الدفء، خاصة لأصحاب النجعة البعيدة من مربي الإبل، بغية توفير الظروف المناسبة لها.[3]

حركة البدو شبيهة بحركة الرياح الموسمية، فخلال الصيف يتوجه البدو إلى المناطق التلية التي توفر الكلأ لمواشيهم تماما مثلما تزداد الرياح الجنوبية "السيروكو" Sirocco والتي تصل تياراتها إلى المناطق الشمالية مؤثرة في مناخه وجوه العام، وخلال فصل الشتاء يحدث العكس، كما أن حركتهم من الجنوب نحو الشمال تتماشى وتدرّج يبس النباتات والمراعي.

لا شك أن حياة الترحال والانتجاع قد انعكست على طبيعة الحياة والممارسات اليومية وشكل المبنى والخيم، حيت تعددت وتنوعت مآوي البدو بين بيوت الشعر والوبر أو الشجر أو تلك المبنية من الطين والحجارة، كما أن درجة البداوة ومدى الإغراق فيها كان مرتبطا بطبيعة النشاط الممارس، فـ: "من كان معاشه في السائمة مثل الغنم والبقر فهم ظعن في الأغلب لارتياد المسارح والمياه لحيواناتهم...، وأما من كان معاشهم في الإبل فهم أكثر ظعنا

[1]) ابن خلدون: المقدمة، ص109-110.

[2]) William Lancaster and Fidelity Lancaster: On the Nature of Power in the Works of Orientalist Scholars and its Contribution to a History of Bedouin Society and Nomad-Sedentary Relations in the Bilad ash-Sham, Antonin Jaussen, Sciences Sociales Occidentales, Géraldine Chatelard, Mohammed Tarawneh (dir.), Presses de l'Ifpo (Publications de l'Institut français du Proche-Orient), Beyrouth, 1999, p148.

تقدم هذه الدراسة قراءة في أعمال المستشرق "أنطونين" Antonin Jaussen (1871-1962) حول البدو وتطور التنظيم البدوي، وهي دراسات ميدانية بالأساس في بلاد الشام، ومن خلالها يمكن أن نسجل تشابه الحياة البدوية في جانبها الاقتصادي وعلاقة البدو بالزراعة وبالسكان المستقرين.

[3]) ابن خلدون: المقدمة، ص151.

إلى جانب كون وعاء ابن خلدون في العمران البشري ومستويات نصوصه أكثر المعالجات التي قاربت الظاهرة الهلالية، فإن المنجز البروديلي – بالنسبة لموضوع الدراسة- يأتي في درجات لاحقة من الاهتمام بتاريخ الانسان في علاقته مع وسطه الجغرافي ليشكّل تقاطعات أخرى مع موضوع الدراسة، فالتاريخ شبه الثابت أو الزمن الطويل بتعبير فرنان بروديل، هو الذي يدرس تاريخ الإنسان في علاقاته مع وسطه الجغرافي بوصفه تاريخا متميزا ببطء التحول، وهو ما يجعله مركز الجاذبية الذي يرتبط ارتباطا شديدا بمفهوم البنية، فالزمن الطويل تاريخ بنيات مادية وذهنية عميقة في التاريخ وعصية على التغيير؛ محمد حبيدة: المدارس التاريخية، ص ص90-93.

وأبعد في القفر مجالا".[1] لذلك فإن البدو يقضون معظم وقتهم في الارتحال بحثا عن مناطق الكلأ في الصحراء شتاءً بالنسبة لمربي الإبل، أما مربّوا الأغنام فنادرا ما يلجؤون إلى قلب الصحراء إلا في حالات نادرة عندما تفتقر أطراف المناطق المستقرّة، لأن الذهاب بالأغنام إلى عمق الصحراء يعدّ مغامرة. وانطلاقا من ذلك، يستند "جبريل"[2] في صياغة تقسيمه للبدو، إلى ما ذكره ابن خلدون:

البداوة الخالصة

- يعتمد هذا النوع على تربية الإبل.
- التجوال سريعا، ذهابا وإيابا، بين الصحراء وأطراف المناطق المستقلة.
- تجاهل الرضوخ للسطلة والنظام، ورفض التوطين ما لم يحدث فرضه عليهم.
- اعتماد النهب والسلب والتخريب (رغم قدرتهم على النهب دون التخريب) ثم الفرار.
- نمط حياة هذا النوع من البدو مناف للحضارة والاستقرار، باعتماده الغزو والارتحال.

أنصاف البدو:

- يمثلون شكلا وسطا بين البدوية الخالصة والنوع شبه المستقر.
- يعيشون على تربية الأغنام والجمال.
- يتجولون ويتحركون، لكن بدرجة أقل من النموذج الخالص.

البدو شبه المستقرين:

- تربية الماشية (الأغنام والماعز وعدد محدود من الجمال).
- الاحتكاك بالحياة الحضرية والاطلاع على الجوانب الإيجابية لحياة الاستقرار.
- الميل نحو الاتزان والهدوء ومحاولة الاندماج في الحياة المستقرة، ويتحقق ذلك بمرور جيل أو جيلين عادة.
- الانتقال من بدو شبه مستقرين إلى مستقرين تماما، بمعرفة المهارات الزراعية وامتلاك واستغلال الأراضي الزراعية بمرافقة السُّلط ودعمها عادة.

وتأسيسا على ما سبق، فإن الحياة البدوية تتأثث على جملة من الدعائم، أهمها:

* المجال البدوي (الصحراء، البادية)
* المكون البشري: (البدو)
* المكون الحيواني: (الإبل، الغنم، الماعز ...)
* المأوى المؤقت: (الخيمة)

[1] ابن خلدون: المقدمة، ص151.

[2] Jibrail S. Jabbur: Op. cit, p29-32.

تقلّب الهلاليون[1] –الذين يشكّلون قطاعا مهما من بدو العرب– في مناطق عدّة، انطلاقا من موطنهم الأول بشبه الجزيرة العربية،[2] ومواطن العدنانيين قبل الفتوحات الإسلامية في نجد، وهو مرتفع من جانبي الحجاز، يتميز بكون ساكنته بدوًا رُحّلا، ما عدا قريش بمكة،[3] ويحدّد ابن خلدون مجال قبائل بني هلال بن عامر في بسائط الطائف،[4] فقد غلب على النواحي الشرقية من مكة بنو هلال وبنو سعد في قبائل من هذيل.[5] كما انتشر "بنو حرب"، وهم من بطون هلال في الحجاز.[6]

كانت مجالات الهلاليين متاخمة ومتداخلة مع مجالات السليميين، حيث يقول المقريزي: "... وكانت في عالية نجد بالقرب من خيبر ومنها حرّة بني سليم وحرّة النار بين وادي القرى وتيماء".[7] وبدقة أكبر يعود ابن خلدون ليحدد مواطنهم: "كانت بطون هِلال وسُليم من مضر لم يزالوا بادين منذ الدولة العباسية وكانوا أحياء ناجعة

---

[1]) يُرجع بأصل العرب إلى ثلاثة رجال: عدنان، قحطان، وقضاعة؛ أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد ابن حزم الأندلسي: جمهرة أنساب العرب، تحقيق وتعليق: عبد السلام محمد هارون، ط5، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص07؛ ويعود نسب عدنان –الذي ينحدر منه الهلاليون– إلى إسماعيل عليه السلام، رغم الاضطراب الحاصل في سلسلة نسبهم؛ حيث أشار ابن خلدون لاختلافات المؤرخين والنسابة: (البيهقي، الجرجاني، القرطبي، السهيلي، الطبري، ابن حزم) في تأصيل نسبهم؛ العبر، ج2، ص356-357؛ إلا أن ابن حزم يؤكد على أن عدنان من ذرية اسماعيل، إذ يقول في سياق تأصيله للنسب الهلالي: "وبنو هلال بن عامر بن صَعْصَعة بن معاوية بن بكر بن هَوَازِن بن منصور بن عِكْرِمة بن خَصَفة بن قَيْس عَيْلان بن مُضر بن نزار بن معدّ بن عدنان"، المصدر السابق، ص482؛ تقي الدين المقريزي: البيان والإعراب عن ما بمصر من الأعراب، مراجعة: إبراهيم رمزي، مطبعة المعارف، مصر، 1334هـ/1916م، ص36؛ وبذلك يكون بنو هلال وبنو سليم من عرب الشمال وينتمون –وفق التقسيم الخلدوني– إلى الطبقة الرابعة من العرب المستعجمة؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص3؛ أما بنو سليم فهم: "من قيس، وهم ولد سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان"؛ المقريزي: البيان والإعراب، ص64؛ ويذكر الحسن بن محمد الوزان أن حكيم وهلال من عرب نجد وينتسبون لإسماعيل ابن إبراهيم، أما معقل فهم من اليمن من سبأ، والمسلمون يعتبرون آل إسماعيل أشرف من السبئيين؛ وصف إفريقيا، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ج1 ص57.

[2]) موطن العرب هو شبه الجزيرة العربية، التي يحدّها شمالا الفرات من الكوفة إلى بالس من بلاد الجزيرة الفراتية إلى البلقاء من برية الشام، ومن الجنوب بحر الهند الذي يتصل به بحر القلزم إلى عدن وأطراف اليمن. أما من الشرق فيحدّها بحر فارس الذي يعتبر امتدادا لبحر الهند إلى البحرين وأطراف البصرة ثم إلى الكوفة من بلاد العراق، ومن جهة الغرب تحيط بها بعض بادية الشام حيث البلقاء وأيلة ثم بحر القلزم حيث العقبة إلى أطراف اليمن حيث طيء وزبيد؛ أبو العباس شهاب الدين أحمد القلقشندي: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1980م، ص15؛ وتتميز شبه الجزيرة العربية بشساعة مساحتها وامتداد أطرافها، وهي تنقسم إلى خمسة أقسام: تهامة، نجد، الحجاز، عروض، واليمن؛ أبو الفوز محمد أمين البغدادي السويدي: سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، منشورات الرضى، قم، إيران، ص8.

ينقل ابن خلدون عن السهيلي: "واختص بنجد من العرب بنو عدنان لم تزاحمهم فيه قحطان إلا طيء من كهلان فيما بين الجبلين سلمى وأجأ، وافترق أيضا من عدنان في تِهامة والحجاز ثم في العراق والجزيرة، ثم افترقوا بعد الإسلام على الأوطان"؛ العبر، ج2، ص358.

[3]) ابن خلدون: العبر، ج2، ص357؛ ونَجْد إقليم واسع في وسط جزيرة العرب، ورغم أنه اشتهر بأرضه القاحلة، لكن يبدو أنها كانت تضم مراعي جيدة أين تُربّى أجود أنواع الخيول؛ جواد مطر الموسوي وقيس حاتم هاني الجنابي: تاريخ الاقتصاد العربي القديم، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، 2017م، ص36.

[4]) ابن خلدون: العبر، ج6، ص15.

[5]) الإدريسي: المصدر السابق، ص145.

[6]) القلقشندي: نهاية الأرب، ص232.

[7]) المقريزي: البيان والإعراب، ص66.

محلاتهم من بعد الحجاز بنجد. فبنو سليم مما يلي المدينة، وبنو هلال في جبل غزوان عند الطائف".[1] وكانت بطونهم تنتقل إلى العراق في رحلة الشتاء والصيف.[2] وانتقلت مجموعات من القبائل الهلالية إلى الجزيرة الفراتية حيث أقاموا بالشام قبل انتقالهم إلى مصر ثم إلى بلاد المغرب، وبقي بعضهم بجبل "بني هلال" المشهور بهم، والذي فيه قلعة صرخد.[3]

انطلاقا من تتبع طبيعة المواطن الهلالية الأولى أو تلك التي تقلبوا فيها سواء في شبه الجزيرة العربية أو في الشام ومصر لاحقا، يتبين أنهم كانوا ينزعون أحيانا نحو تلك المجالات التي يمكن أن تتوافق وطبيعة حياتهم البدوية، بما يضمن استمرارية نشاطاتهم ومردوديتها، سواء ما تعلق بالانتجاع لغرض الرعي، أو تخير مواقع مرور القوافل التجارية لممارسة السطو والنهب، أو حتى الانخراط في الأعمال العسكرية التي تتبناها بعض الحركات المنتشرة في المنطقة.

وعليه، فقد كان للبيئة الجغرافية والسياسية في المشرق الإسلامي دور في توجيه القبائل البدوية الهلالية والتدخل في أنشطتها المعاشية، وهو ما يمكن ملاحظته أكثر من خلال تتبع الإرث الاقتصادي للبداوة الهلالية في مختلف محطاتها.

أما في الشق الغربي، فلم يكن للعرب إلمام كبير بالمغرب قبل وفي بدايات الإسلام الأولى، إذ ورغم ما بقي فيها من حميريين إثر غزوة "إفريقش بن ضبيع" -أحد ملوك التتابعة- وفق بعض الروايات، إلا أنهم اندمجوا في مجتمع البربر، ثم يأتي الحضور العربي الثاني في إطار حركة الفتوحات الإسلامية. لكن التوطين الحقيقي للعرب في بلاد المغرب كان بعد دخولهم منتصف المائة الخامسة وانتشارهم في ربوعه.[4] إذ لم يكن المغرب موطنا للعرب إلى أن انتقل إليه الهلاليون والسليميون، حيث كان آخر مواطنهم إلى الغرب من برقة،[5] التي استقر بها بنو سليم وبنو قرّة بن هلال بن عامر"،[6] حيث كانوا منتجعين فيها بمواشيهم قبل سنة 405هـ/1014م.[7] في حين كان

---

[1]) ابن خلدون: العبر، ج6، ص18.

[2]) أحمد بن علي تقي الدين المقريزي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ج2، تحقيق: محمد حلمي محمد أحمد، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1996، ج2، ص216.

[3]) ابن خلدون: العبر، ج6، ص15. قلعة صرخد معروفة حاليا بقلعة صلخد، وهي قلعة في محافظة السويداء بسوريا، سمح لها موقعها الجغرافي والتضاريسي بأن تشرف على المناطق المجاورة وتطل عليها، ويبدو أن ابن خلدون يقصد بجبل "بني هلال" الجبل المعروف بجبل حوران في محافظة السويداء السورية، والذي تداولت عليه تسميات مختلفة عبر العصور التاريخية، كجبل أسلداموس في العصر القديم، وجبل الريان في العصر الإسلامي، ثم جبل الدروز في العصر الحديث فجبل العرب؛ للاستزادة ينظر: شبلي العيسمي وداود نمر وحمود الشوفي: محافظة السويداء، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1962.

[4]) ابن خلدون: العبر، ج4، ص17؛ من المهم تتبع حركة الانتقال والمحطات الجغرافية ببعدها التاريخي، وهو ما جسّده بروديل في بعض مقارباته لتتبع المسارات ومعرفة التغيرات التي تطرأ على حدود الدراسة؛ محمد حبيدة: المدارس التاريخية، ص94.

[5]) برقة كما أوردها صاحب الاستبصار: "مدينة كبيرة أزلية قديمة، وهي في صحراء حمراء التربة ..."؛ المصدر السابق، ص143.

[6]) ابن خلدون: العبر، ج6، ص6؛ المقريزي: البيان والإعراب، ص66.

[7]) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص111.

الهلاليون المتمركزون شرق النيل ممنوعين من عبوره.[1] رغم أن "برات ميكاييل" Brett Michael[2] يتتبع بعض الإشارات المصدرية ويحاول من خلالها التأكيد على أن وجود بعض العناصر الهلالية غرب نهر النيل كان سابقا للتاريخ الذي تقدّمه أغلب الدراسات، غير أن هذا الانتشار كان محدودا ومعزولا.

من المهم في هذا المقام ونحن نتطرق لحركة الترحال الهلالي، الإشارة إلى الروايات[3] التي نسجت حول خروجهم من نجد، والتي يشكك ابن خلدون في صدقية تفاصيلها، رغم أن الهلاليين يتفقون على صحتها بحكم تواترها في أشعارهم وحكاياتهم، مما جعل هذه السردية بمثابة الملحمة المقدسة: "حيث يكاد القادح فيها والمستريب في أمرها أن يرمى عندهم بالجنون والخلل المفرط لتواترها بينهم".[4]

---

[1]) ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص315؛ أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزهري: كتاب الجغرافية، تحقيق: محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ص112.

[2]) Brett Michael: The central lands of North Africa, in: the new Cambridge History of Islam, volume 2, edited by: Maribel Fierro, Cambridge university press, 2010, p54.

[3]) يذكر ابن خلدون من بينها أن صاحب الحجاز "الشريف بن هاشم" تزوج من أخت "الحسن بن سرحان": "الجازية"، وعندما ساءت العلاقة بين الشريف بن هاشم والهلاليين، تم التفكير في تنفيذ خطة تسمح لهم بأخذ "الجازية"، حيث جاءت مع زوجها في زيارة لأهلها وخرجوا بهما بحجة القيام برحلة صيد، إلى أن ابتعدوا وتبينت خيوط الخطة، فعاد الشريف بن هاشم إلى بلاده في مكة وفي قلبه لوعة فراقها، أما هي فتذكر الروايات أنها ماتت بحبه؛ ينظر: ابن خلدون: العبر، ج6، ص26.

[4]) نفسه، ج6، ص25. قام الهلاليون بصياغة رحلتهم في المشرق والمغرب كتجربة تاريخية مليئة بالأحداث ضمن ملحمة كبيرة وضخمة، تداولوها بما جعلها تشكل إرثا شفويا ضخما، وهي المعروفة بالتغريبة الهلالية، وقد اعتبرت من أهم النصوص التي أفرزتها البداوة العربية. ونص التغريبة بمثابة الملحمة التي تسرد انتقال القبائل العربية البدوية من شبه الجزيرة العربية هربا من المجاعة في القرن الثامن الميلادي إلى بلاد الشام وشبه جزيرة سيناء ليستقروا مؤقتا في مصر، ومنها اتجهوا نحو بلاد المغرب. هذه الملحمة تتقاطع فيها اللغة والجغرافيا والموسيقى والأدب، لأنه يتم ترديدها وغنائها وروايتها، وهي موجودة ضمن مخطوطات كثيرة وفي أجزاء عدة، وتشير الاختلافات المسجلة على النسخ والروايات إلى أن لكل منطقة سيرتها؛

Susan Slyomovics: The Arab Oral Epic of the Bani Hilal Tribe: Al-Sirah al-Hilaliyyah, First published: 31 October 2019, https://doi.org/10.1002/9781118635193.ctwl0138, p02-03.

أضيفت النسخة المصرية من التغريبة في سنة 2008 إلى قائمة اليونسكو العالمية لروائع التراث الشفهي وغير المادي للبشرية، باعتبارها خزانا للتاريخ والعادات والمعتقدات الشعبية العربية، وفضلا عن اهتمامات الباحثين العرب بالسيرة الهلالية، فقد اشتغل الكثير من الغربيين على نصوص التغريبة بمختلف صيغها، ومن بين الدراسات المقدمة في هذا الباب:

- Reynolds, Dwight F: Sīrat Banī Hilāl: introduction and notes to an Arab oral epic tradition, Oral Tradition, 4/1-2 (1989), pp80-100.
- Ayoub, Abderrahman & Galley, Micheline: Image de Djazya. C. N. R. S. Paris, 1977.
- Micheline Galley & Ayoub Abderrahman: Histoire des Beni Hilal et dece qui leur advint dans leur marche vers l'ouest. Versions tunisiennes de la Geste hilalienne. (Classiques Africains, 22.) 245 pp. Paris: Armand Colin, 1983.
- Baker, Cathryn Anita. "The Hilali Saga in the Tunisian South." Ph. D., Indiana University, 1978.
- H. T. Norris: The rediscovery of the ancient sagas of the Banū Hilāl, School of Oriental and African Studies, university of London, Volume 51, Issue 3, October 1988, pp. 462-481.
- Breteau, C.H., Galley, M. and Roth, A., ‘Témoignages de la “longue marche” hilalienne’, Actes du Deuxième Congrés International d'Etude des Cultures de la Méditerranée Occidentale, Alger, S.N.E.D., 1978.
- Connelly, Bridget. "The Structure of Four Bani Hilal Tales." Journal of Arabic Literature IV (1973), pp. 18-47.
- Galley, Micheline. "Femmes de la geste hilalienne." Littérature orale araboberbère 15 (1984), pp. 31-44.
- Pantucek, Svetozar. Das Epos über den Westzug der Bani Hilal. Dissertations orientales 27. Prague, 1970.=

2- إرث البداوة في النشاط الاقتصادي للعرب الهلالية

التطلع لدراسة التأثير الهلالي على الوضع الاقتصادي في المغرب الأوسط، يستدعي البحث في إرث القبائل الهلالية بالحجاز والشام وفي مصر، وذلك رغبة في رصد ما حصل من تغيرات عند انتقالها من مكان لآخر، وبالتالي الكشف عن المؤثرات العامة في اقتصاد البداوة، وضبط تصور معين حول الخَبَرات وطبيعة التحولات التي قد تظهر على سلوكهم الاقتصادي أو استعدادهم وتقبلهم لحياة الاستقرار ونزوعهم نحوها، ومدى الاستجابة

=- Patterson, J.R. , Stories of Abu Zeid the Hilali in Shuwa Arabic. London, 1930.
- Reynolds, Dwight F. "The Epic of the Banû Hilâl." In John William Johnson , Thomas A. Hale , and Stephen - Belcher , eds. Oral Epics from Africa. Bloomington and Indianapolis , 1997. Pp. 228-239.
- Saada, Lucienne. La geste hilalienne. Version de Bou Thadi (Tunisie). Paris , 1985.
- Slyomovics, Susan. The Merchant of Art: An Egyptian Hilali Oral Epic Poet in Performance. Berkleley, 1987.
- Slyomovics, Susan. "The Epic of the Banî Hilâl". In John William Johnson , Thomas A. Hale , and Stephen - Belcher , eds. Oral Epics from Africa. Bloomington and Indianapolis , 1997. Pp. 240-251.
- Pantucek, Svetozar. Das Epos über den Westzug der Bani Hilal. Dissertations orientales 27. Prague, 1970.
- Guiga, Abderrahman. La Geste hilalienne. Trans. Tahar Guiga. Tunis, 1968.
- Guiga, Abderrahman. Min 'aqâsîs banî hilâl. Tunis,1968.
- Galley, Micheline and Abderrahman Ayoub . Histoire des Bani Hilal et de ce qui leur advint dans leur marche vers l'ouest. Editions Classiques africains 22. Paris, 1983.
- Canova, Giovanni. "Aspects de la tradition épique vivante en Egypte et Syrie." In Sirat Bani Hilal: Actes de la 1re table ronde sur la Geste de Bani Hilal. Tunis, 1989, pp. 29-39.
- Basset, René. "Un épisode d'une chanson de geste arabe sur la seconde conquête de l'Afrique septentrionale." Bulletin de correspondance africaine 4 (1885), pp. 136-148.
- Grech, Roselyne Layla. Indexation de la Geste des Banû Hilâl à partir de deux éditions parallèles. 3vols. Algiers, 1989.
- Bridget Connelly: Arab Folk Epic and Identity, University of California Press, 1986, 328 pages.
- Canova, Giovanni. "The Epic Poet in Egyptian Tradition." Journal of Mediterranean Studies 6, 1 (1996): Creativity and Tradition, ed. M. Galley. Pp. 7-14.
- Canova, Giovanni. "I Banû Hilâl e l'Arabia Meridionale. Percorsi de Ricerca." Quaderni di Studi Arabi 15 (1997), pp. 183-200.
- Bel, Alfred. "La Djazia, chanson arabe précédée d'observations sur quelques légendes arabes et sur la geste des Benû Hilâl." Journal Asiatique 9, 19 (1902), pp. 289-347; 9, 20 (1902), pp. 169-236; 10, 1 (1903), pp. 311-366.
- Breteau, Claude, Micheline Galley , and Arlette Roth. "Témoignages de la 'Longue Marche' hilalienne." In M. - Galley, ed. Actes du Deuxième Congrès international d'étude des cultures méditerranéennes. Pp. 329-346. Algiers , 1978.

لا نبالغ حينما نعترف بصعوبة التعامل مع التغريبة تاريخيا، لأنها كما يشير حسين مؤنس كنص أدبي تختلف اختلافا بيّنا عن الوقائع التاريخية، وهي بمثابة الصدى البعيد لتلك الأحداث، حيث تدور حول جوانب عاطفية ذات صلة بطبيعة الحياة البدوية، رغم أنها تطرقت للصراع الهلالي–الهلالي، ولحروب الهلاليين في المغرب؛ معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار الرشاد، القاهرة، ط5، 2000، ص169؛ ويخلص عزي بوخالفة في دراسته للتغريبة أن التاريخ يلتقي مع نصها في بعض الأحداث، وفي تصوير الحياة الاجتماعية الهلالية والنمط المعيشي؛ تغريبة بني هلال بين التاريخ والروايات الشفهية الهلالية الجزائرية، أطروحة دكتوراه في الأدب الشعبي، كلية الآداب واللغات، جامعة الجزائر، 2003/2002، ص452.

تمثل التغريبة التصور الشعبي للتاريخ وهو تصور ينطوي على بعض الحقائق التاريخية رغم امتزاجها بالأسطورة وعدم انضباطها في ذكر المواقع الجغرافية، بحيث تتغير من رواية لأخرى، فضلا عن عدم ورودها غالبا في كتابات الجغرافيين والرحالة. ومن جانب آخر نعتقد أن نص التغريبة الهلالية كسردية تكتنز مخزونا من القيم والتصورات قد أفلتت تداوليا من المجموعة الهلالية التي خلّدت مآثرها إلى بقية المجموعات التي تشترك في ذات المجال.

لمحاولة الدفع بهم إليها، وكل ذلك ينتمي إلى الحركة البطيئة في تتبع التغيرات الحاصلة في أنماط النشاط الاقتصاد الهلالي.

أ. مرحلة الحجاز والشام:

يغلب على المنطقة التي كانت مجالا لتحركات القبائل الهلالية والسليمية في نجد والحجاز الطابع الصحراوي الرعوي، ومع ذلك فهي تتميز بتنوع أنشطتها الاقتصادية، إذ أن مؤهلاتها تتيح ممارسة الزراعة في بعض جهاتها، كجبال السروات بين نجد وتهامة، التي تتميز بكثرة الغرس،[1] وقد كانت الطائف ويثرب من أكثر مناطق الجزيرة ممارسة للزراعة، حيث انتشرت فيها البساتين والنخيل.[2] أما تجاريا، فقد كان للعرب قبل الإسلام أسواق تقام في أشهر السنة، حيث ينتقل إليها التجار من مكان لآخر كمحطات تجارية تُمَارس فيها معاملات البيع والشراء والتموين لنقل السلع المتوفرة في ناحية معينة إلى سوق في منطقة أخرى. ومن بين أشهر أسواق العرب سوق "عكاظ" بين نخلة والطائف والذي يدوم عشرين (20) يوما، وهو إلى جانب كونه سوقا تجاريا فهو أيضا مناسبة أدبية يجتمع فيه الشعراء لإلقاء قصائدهم. ويعتبر سوق عكاظ آخر محطة في حلقة الأسواق التي يجوبها التجار، فبعد انتهائه يتوجهون إلى مكة لأداء مناسك الحج ثم يرجعون إلى مواطنهم،[3] وبالتالي فإن الهلاليين كانوا يعيشون في منطقة استقطاب تجاري تعدّ محطة تجارية مهمة لها ارتباط بالعراق والشام وغيرهما.

وفضلا عن ارتباطهم بهذا السوق الموسمي الكبير، كانت بطون هلال وسليم تنتقل إلى العراق في رحلة الشتاء والصيف، حيث يغيرون على أطراف الشام والعراق، ويُغير السليميون على الحجاج في موسم الحج،[4] لذلك تعالت الدعوات للحد من تصرفاتهم وتأمين الحجاج.[5] ولعلّ حادثة الاعتداء على قافلة المغرب ومصر والشام الحجية سنة 355هـ/966م، كانت من أخطر الإغارات التي استهدفت قوافل الحج، حيث غنم السليميون من هذه القافلة "العظيمة" وفقا لما أورده مسكويه عشرون ألف (20.000) جمل بأمتعتها، ما أدى إلى تشرد الحجاج وانقطاعهم.[6] وعلى الرغم مما يبدو من مبالغة في تقدير المغانم، إلا أن الحادثة تشير إلى خطورة هذه القبائل التي تتربص على محاور طرق القوافل الحجية.

---

[1]) أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي: كتاب الجغرافيا، تحقيق: إسماعيل العربي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1970، ص117؛ ويقدّم شمس الدين بن أبي عبد الله محمد المقدسي الذي عاش في القرن الرابع الهجري (10م) وهي الفترة التي تميزت بخروج عدد كبير من الهلاليين من المنطقة، صورة اقتصادية جيدة عن مدينة الطائف؛ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار صادر، بيروت، ص79.

[2]) عبد علي كاظم المعموري: تاريخ الأفكار الاقتصادية، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمّان، 2012، ص157.

[3]) السويدي: المرجع السابق، ص120؛ للاستزادة في الموضوع ينظر: سعيد الأفغاني، أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، دار الفكر، بيروت، 1974.

[4]) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص216.

[5]) ابن خلدون: العبر، ج6، ص18؛ استمرت هذه الممارسات إلى فترات لاحقة، حيث يذكر أبو الحسن محمد بن جبير ممارسات انتهاب واستغلال الحجاج في بلاد الحجاز؛ ينظر: رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، ص54.

[6]) أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه: تجارب الأمم وتعاقب الهمم، تحقيق: سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003، ج5، ص343.

ولم تقتصر غارات السليميين والهلاليين على الحجاج فقط، بل كانت تستهدف القوافل والمستقرين على السواء، ويقول الجاحظ عن عامر بن صعصعة بأنهم كانوا: "لا يتركون الغزو والسبي ووطء النساء وأخذ الأموال".[1] وكانوا يهاجمون أيضا المناطق التي تمارس فيها الزراعة، ونظرا للغارات المتتابعة التي كان يقوم بها بنو سليم على منطقة اليمامة جنوب نجد، اضطر حاكمها لمواجهتهم والخروج في حربهم سنة 232هـ/847م.[2]

أما في بلاد الشام، فقد شجّعت الظروف المختلفة من بقي بها من بني هلال بن عامر على تغيير نمط معاشهم تدريجيا، حيث انتقلوا إلى طور الاستقرار وممارسة الزراعة، إذ يذكر ابن خلدون أن المجموعات المتمركزة قرب جبل العرب بمحافظة السويداء: "أكثرهم اليوم يتعاطون الفلح".[3]

ينبغي الإشارة إلى أن انتقال مركز الخلافة إلى دمشق ثم بغداد أدّى إلى إفقار شبه الجزيرة العربية وإضعاف دورها في خطوط التجارة العالمية، ولا شك أن الأمر قد أثّر على الهلاليين وجعلهم يعيشون لعقود حياة الحرمان والجوع، وهو الأمر الذي يدفع أكثر نحو توثيق عرى العصبية القبلية، ففي غياب المال والنفوذ والثقافة يتعزز الوفاء التقليدي لقواعد الحياة والعلاقات التي تكرسها التنظيمية القبلية، والتي تكسبهم القوة الدفاعية والهجومية، وتمكّنهم من الاستيلاء على أموال غيرهم وتوظيفها لمصلحتهم،[4] فقد كانت هذه العصبية تمنح الهلاليين التماسك الداخلي والقدرة على الاستمرار، وهو ما ساهم في النزوع نحو التعصب العنيف للجماعة.[5]

رغم أن الهلاليين والسليميين كانوا بدوا، وجل تحركاتهم كانت ضمن مجالات بدوية، إلا أنهم كانوا في تواصل مع العالم المستقر بطريقتهم الخاصة، ومع الأنشطة الاقتصادية التي تُمارَس كالزراعة والتجارة سواء في الحجاز أو الشام، فماهي مستجدات تجربتهم في مصر؟ وهل صادفوا عوامل أخرى أثّرت في مستوى بداوتهم وتدخلت في طبيعة معاشهم قبيل حدوث الانتقال إلى بلاد المغرب الإسلامي؟

ب. المرحلة المصرية:

تشير المصادر التاريخية إلى أن العيّنات الأولى من البدو العرب التي نُقلت إلى مصر، مطلع القرن الثاني للهجرة (08م) قد تمكنت السلطة من التحكم فيها والعمل على دمجها في النسيج الاقتصادي المصري، حيث يذكر الكندي أنه عندما نقل الوليد بن رفاعة (ح109-117هـ/727-735م) والي مصر سنة 109هـ/727م بيوتا من قيس إلى مصر، بتعداد يقارب ثلاثة آلاف (3.000) من بني مضر وبني عامر وهوازن وبني سُليم وأنزلهم

[1]) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: كتاب البلدان، مطبعة الحكومة، بغداد، 1970، ص472.

[2]) مسكويه: المصدر السابق، ج4، ص101.

[3]) ابن خلدون: العبر، ج6، ص15.

[4]) العروي: المرجع السابق، ج2، ص101.

[5]) عبد الحميد يونس: الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي، مطبعة جامعة القاهرة، مصر، 1956، ص71.

بُلْبيس،[1] التي تتميز بكثرة قُراها ومزارعها وطواحينها، ومنها يُحمل الدقيق إلى الحجاز،[2] عمل على تأهيلهم اقتصاديا، فأمرهم بالزراعة وصرف إليهم صدقة العشور فاشتروا بها إبلا يحملون بها الطعام إلى القُلزُم (السويس)، فأصبحت مداخيل الواحد منهم حوالي عشرة (10) دنانير شهريا، وتوسعت نشاطاتهم حيث اتجهوا نحو اقتناء الخيل بإشارة من الوليد.

إن هذه التجربة المهمة -في مخاض التوطين والاستقرار- التي أحيطت برعاية خاصة، ووُفِّرت لها كل شروط النجاح، دليل على إمكانية تطويع البدو اقتصاديا وتأهيلهم إذا كانت أعدادهم قليلة بحيث يسهل التحكم فيهم والسيطرة عليهم.

غير أن وصول الهلاليين والسُّليميين بأعداد أكبر في فترات لاحقة إلى الصعيد، أدى إلى نتائج مختلفة، حيث أحدثوا أضرارا كبيرة[3] واستمروا في ممارسة اللصوصية كما كانوا يفعلون مع الحجاج عندما كانوا بشبه الجزيرة العربية.[4] رغم أن المقدسي يصف أسوان[5] التي كان بها الهلاليون في الصعيد قبل نزوحهم نحو بلاد المغرب أنها: "قصبة الصعيد على النيل، عامرة كبيرة، بها منارة طويلة ولها نخيل وكروم كثيرة وخيرات وتجارات ...".[6] لكن الوضع الاقتصادي في مصر ارتبط ارتباطا وثيقا بمستوى مياه نهر النيل.

يذكر تاج الدين ابن ميسر،[7] ضمن حوادث سنة 439هـ/1047م، أن بني قُرَّة عرب البحيرة -غرب مصر- أفسدوا، فخرج إليهم الخادم عزيز الدولة ريحان، فهزمهم وقتل منهم الكثير. وفي سنة 443هـ/1051م خرجوا مع الطلحيين على الخليفة المستنصر، فأرسل لهم اليازروي جيشا هزموه في البداية، لكنه عاود الكرّة وانتصر عليهم وقتل منهم عددا كبيرا، وفروا إلى برقة.[8]

---

[1]) أبو عمر محمد بن يوسف الكندي المصري: كتاب الولاة وكتاب القضاة، تصحيح: رفن كَت، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، 1908، ص76-77؛ المقريزي: البيان والإعراب، ص64.

[2]) المقدسي: المصدر السابق، ص195.

[3]) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص216؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص18.

[4]) Ismaëil Hamet: Notice sur les Arabes Hilaliens, revue d'histoire des colonies, tome 20, N 87, 1932, société de l'histoire des colonies français, Paris, p243.

[5]) يصف الإدريسي أسوان التي تعتبر آخر الصعيد الأعلى بأنها مدينة صغيرة "عامرة كثيرة الحنطة وسائر أنواع الحبوب والفواكه والدلاع وسائر البقول وبها اللحوم الكثيرة من البقر والحملان والمعز والخرفان وغيرها من صنوف اللحوم العجيبة البالغة في الطيب والسمن وأسعارها مع الأيام رخيصة، وبها تجارات وبضائع تحمل منها إلى بلاد النوبة"؛ الإدريسي: المصدر السابق، ص39-40.

[6]) المقدسي: المصدر السابق، ص201-202.

[7]) المنتقى من أخبار مصر (انتقاه المقريزي)، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، 1981، ص04؛ وباب زويلة هو الباب الجنوبي لمدينة القاهرة.

[8]) نفسه، ص12-13؛ وبعد سنوات من هذه المواجهة، يذكر المقريزي في سياق حديثه عن بني قرة بالبحيرة أنهم: "ملكوها وعمّروا ضياعها وكثرت فيها أموالهم واشتدت شوكتهم، وخشن جانبهم"، ويبدو أنهم أصبحوا يشكلون تهديدا للفاطميين؛ اتعاظ الحنفا، ج2، ص220.

نظرا لوجود عناصر من البربر في صفوف الجيوش الفاطمية خاصة من كتامة، فإنه لا يستبعد مساهمتهم في الحد من التمرد الهلالي، وهو ما يدفعنا للتساؤل عن الاحتكاك العربي-البربري الذي كان يحدث في مصر بين القبائل الهلالية والقوات الفاطمية ومدى مساهمته في اندفاعية العرب تجاه بلاد البربر خلال هجرتهم، رغم أن التجند في الصفوف الفاطمية لم يكن يستثني العرب، حيث يذكر أبو معين ناصر خسرو (394-481هـ/1004م-

لم يظهر على القبائل الهلالية التي تركزت في العدوة الشرقية وصعيد مصر استعداد للاستقرار والجنوح لممارسة الزراعة واتخاذ البيوت، فرغم مرور مدة طويلة على الوجود في هذا الإقليم، إلا أن الظروف لم تكن محفّزة خاصة وأن الدولة الفاطمية لم تُقبل على صياغة مشروع اقتصادي لتأهيلها، ولم يكن ذلك من أولوياتها، لذلك اكتفت بمراقبتهم والإحسان لأشياخهم وتقريب أمراءهم وتوظيف بعض فرسانهم في جيشها.[1]

لم يكن من الممكن تحقيق اندماج حقيقي للهلاليين في المجتمع المصري والنظام الفاطمي، ذلك أنه في هذه الفترة كان الكيان التنظيمي للدولة قد استكمل، ولم يكن هيكل الحكومة الفاطمية يسمح بتجنيد أعضاء جدد، كما أن الروح المتمردة والبدائية للعرب تحول واندماجهم في المجتمع الحضري المصري،[2] وهو ما جعل الهلاليين يعيشون على الهامش.

وحتى بعد الغزوة الهلالية،[3] لم ينقطع تمرد العرب الذين بقوا في مصر وفي جهات القاهرة تحديدا، حيث كانوا يشاركون في حركات التمرد وإثارة الفوضى، ومن ذلك ما قاموا به سنة 464هـ/1072م، وسنة

1088م) أن من بين فرق الجند الخاصة بالخليفة الفاطمي "المستنصر" في مصر فرقة تسمى "البدو": "وهم من أهل الحجاز، وكلهم يجيدون حرب الرماح، قيل أنهم خمسون ألف فارس"، لذلك لا نستبعد أن تكون الفرقة مكونة من القبائل الهلالية؛ سفرنامة، ترجمة: يحي الخشاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1993، ص110.

[1]) عبد الحميد يونس: المرجع السابق، ص66-67.

[2]) محمد علي چلونگر ومهدى عزتى: موجود زمينه ها و عوامل اصلى مهاجرت قبايل هلالى به مصر و افريقية، فصلنامه علمى پژوهشى تاريخ اسلام سال چهاردهم، شماره دوم تابستان ١٣٩٢، شماره مسلسل 54، ص125.

كانت مصر وفقا لابن خلدون من أكثر الجهات تحضّرا: "فلم يكن على وجه الأرض لهذا العهد أحضر من أهل الشام والعراق ومصر"؛ وهو ما يمكن أن ينسحب على فترات سابقة؛ المقدمة، ص462.

[3]) لم تنحصر الإشكاليات المرتبطة بالانتقال الهلالي إلى بلاد المغرب في مستويات التأثير باختلاف مجالاتها وتمظهراتها، بل إن الأمر انعكس تبعا لذلك على المستوى الاصطلاحي أيضا، حيث يتداول الباحثون والمهتمون عددا من المصطلحات التي تقترب و/أو تختلف في مدلولاتها، وليس الأمر محض صدفة، بل هو انعكاس لتعدد الرؤى والتصورات التي تشكّلت حول هذه التحركات القبلية، انطلاقا من مسبّباتها ومآلاتها. ويثير "جيرالد شوستر" Gerald مسألة الاصطلاحات التي قدمها المؤرخون للتعبير عن الهجرة الهلالية، على غرار: الغزو، التسلل، الوصول، الهجرة، الهجرة غربا، الزحف، التوغل، التحرك، الترحيل والتهجير، التجنيد والتوظيف، الإطلاق، الإبعاد، الانتقال؛ Gerald Schuster: Op.cit, p50

ويمكن تقسيم المصطلحات المتداولة بين الباحثين للدلالة على انتقال الهلاليين من مصر إلى بلاد المغرب، إلى مصطلحات مرتبطة بمسببات الانتقال وظروفه، وأخرى بطبيعته ومساره، في حين هناك مصطلحات تمت صياغتها وفقا للنتائج والانعكاسات، فضلا عن مصطلحات ترتبط بعلاقة الفاطميين بهذه الحركة ودورهم فيها وأخرى تتعلق بموقع الهلاليين وموقفهم منها. وبما أن الوجود الهلالي في بلاد المغرب، كان بشكل أو بآخر نتاج (هجرة Migration)، والتي يتم تعريفها عادة على أنها التخلّي عن مكان الإقامة المعتاد لسبب ما، ورغم أن الجانب الاجتماعي يهيمن على الجانب الديمغرافي، إلا أنه لا يمكن إغفال التأثيرات الديمغرافية التي تحدثها الهجرات باختلاف طبيعتها، سواء كانت هجرة عفوية أو منظمة (هذه الأخيرة التي قد تتم عن طريق القوة)؛ Pierre Guillaume Jean-Pierre Poussou coaut: Démographie historique, Armand Colin, Paris, 1970, p14-15.

ولا بد أن نسجل اعتراض "إيف لاكوست" Yves Lacoste على وصف الحركة الهلالية نحو بلاد المغرب بـ "الغزو" "Invasion" الذي يعتبره توصيفا مبالغا فيه وغير دقيق، ويقترح بدلا عن ذلك مصطلح "الترحيل" "Déportation" على أنه الأكثر دقة في التعبير عن هذه التحركات؛ Yves Lacoste: Ibn Khaldun and The Myth of "Arab Invasion", site Web: Verso: https://www.versobooks.com/blogs/3293-ibn-khaldun-and-the-myth-of-arab invasion, date de publication: 23 June 2017, date de visite: 23 Aout 2020.=

469هـ/1077م،[1] وسنة 488/1095م.[2] مع أن بعضهم توجه لاحقا بعد أجيال نحو حياة الاستقرار، وهذا ما يستفاد من رحلة ناصر خسرو في الصعيد الأعلى بمصر، فحينما كان في طريقه إليه من القاهرة عبر أسيوط، حيث لاحظ انتشار نسيج عمائم من صوف الخراف "لا مثيل لها في العالم"، "والصوف الدقيق الذي يصدر إلى بلاد العجم، والمسمى الصوف المصري، كله من الصعيد الأعلى"،[3] وبالتالي فإننا لا نستبعد أن القبائل العربية[4] الهلالية والسليمية قد أسهمت في توفير المادة الأولية للصناعة النسيجية وهي الصوف، نظرا لامتلاكهم قطعان الماشية.

=لكن الترحيل والتهجير يكون بإجبار القبائل الهلالية على الانتقال عنوة إلى بلاد المغرب، وهو ما يتنافى وبعض الحقائق التاريخية التي تشير إليها المصادر. ورغم أن مصطلح الغزو من أكثر المصطلحات شيوعا واستخداما في بعض الكتابات المتعلقة بالهلاليين، إلا أنه وصف غير دقيق ويعكس حمولة من التحيز في نظر الباحث الألماني شوستر، كما أن مصطلح الهجرة لا يعبّر عن هذه الحركة، فالهجرة تستهدف الاستقرار في الموطن الجديد، لأن الفاطميين لم يكن لهم اهتمام بمصير الهلاليين لاحقا وكان هدفهم هو معاقبة الزيريين والانتقام منهم، حتى وإن تم تدمير الهلاليين في هذه المواجهة. وتُسقط عملية منح الهدايا والإكراميات للهلاليين مصطلح التجنيد والتوظيف لأن تلك التحفيزات متعلقة بالتخطيط للمشروع وليس الهجرة في حد ذاتها. وبعد مقارنته بين كل هذه المصطلحات يخلص إلى أن مصطلح "الهجرة غربا" westwanderung هو الأكثر دقة في التعبير عن (الهجرة الهلالية).

نتفهم حرص "جيرالد" على ضبط المصطلح، وإن كان يرفض ربط عملية الانتقال في تخريج المصطلح بمقدماتها، فإننا نتصور أنه أراد الرسو على مصطلح بعينه لتفسير نهايات الهجرة الهلالية والانتصار لموقفه الذي يرفض تحميل الهلاليين لوحدهم نتائج التراجع الحضاري للمنطقة، ويبدو أن لديه حساسية من مصطلح "غزو"، ما دفعه إلى تتبع المصادر التي أرَّخت للهلاليين ونفى ورود هذا المصطلح، خاصة عند المؤرخين، رغم أننا نعتقد أن هذا المصطلح في المجال التداولي العربي الإسلامي ليس بهذه الصورة من القتامة، خاصة وأن الغزو واحد من خصائص ونشاطات المجموعات البدوية.

وبالعودة إلى النص الرسمي الفاطمي فإننا نجده يعبّر عن توجه الهلاليين غربا بمصطلح "الإطلاق": "وأطلق نحوه من أَعِنّة قبائل الرياحية والزغبية من منعه أن يبل ريقا، وسدّ لأنفاسه طريقا، ورمى به في أسر حصار لا يكاد يكون منه طليقا، وملك جميع دياره التي كان بها يُذِلّ، ونال منه النَّيل الذي هو على وشك نواره بإذن الله تعالى يدُل"؛ السجلات المستنصرية -سجلات وتوقيعات وكتب لمولانا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه، إلى دعاة اليمن وغيرهم، قدّس الله أرواح جميع المؤمنين، تحقيق: عبد المنعم ماجد، دار الفكر العربي، مصر، 1954، ص43-45.

وبالتالي، فإن "الإطلاق" الفاطمي للهلاليين والسليميين نحو بلاد المغرب كان مقترنا بالدفع للمواجهة مع الزيريين ومحاصرتهم والانتقام منهم، والإطلاق أيضا هنا يعكس حالة ما قبله، وهي المنع من الحركة والتنقل خارج المجال المحدد. وعليه، نخلص إلى أن جل المصطلحات التي أطلقت على هذه الحركة تنطبق على فترة من فترات هذا التحرك، وكل مصطلح مرتبط بسياق معين ورؤية ما، ومعبّر عن حالة ارتبطت بالهلالية أو بطبيعة علاقتها بالقوى المؤثرة فيها والموجّهة لها.

[1]) ابن ميسر: المصدر السابق، ص38-44.

[2]) نفسه، ص62.

[3]) ناصر خسرو: المصدر السابق، ص131.

[4]) من المهم بداية الإشارة إلى مسألة مهمة تتعلق بالمصطلحات التي وظّفتها المصادر للدلالة على القبائل العربية التي استقرت بالغرب الإسلامي عموما، وعلى القبائل الهلالية والسليمية بصفة خاصة، وقد اجتهدت فوقي Élise Voguet في تتبع أهم المصطلحات التي أطلقت على المجموعات التي تقطن المجال الريفي والبدوي في المغرب الأوسط انطلاقا من بعض النوازل والمصادر، من قبيل: العرب، أمة، أهل، قوم، قبيلة، ... هذا كتوصيف للمجموعات، وقد يشترك في التسميات من يقطنون في الريف والبادية والحضر أيضا.

Élise Voguet: Le monde rural du Maghreb central (XIV^e^-XV^e^ siècles). Réalités sociales et constructions juridiques d'après les Nawāzil Māzūna, Publications de la Sorbonne, Paris, 2014, P314-327.

كما يؤكد ابن خلدون بعض المعطيات ذات الصلة في فترات لاحقة، حيث يقول: "وبنواحي الصغير قبائل من العرب من بني هلال وبنى كلاب من ربيعة. وهؤلاء أحياء كثيرة ويركبون الخيل، ويحملون السلاح، ويعمرون الأرض بالفلاحة ويقومون بالخراج للسلطان. وبينهم مع ذلك من الحروب والفتن ما ليس يكون بين أحياء القفر. (وبالصعيد) الأعلى من أسوان وما وراءها إلى أرض النوبة إلى بلاد الحبشة قبائل متعددة وأحياء متفرقة، كلهم من جهينة إحدى بطون قضاعة، ملؤوا تلك القفار وغلبوا النوبة على مواطنهم وملكهم، وزاحموا الحبشة في بلادهم وشاركوهم في أطرافها".[1]

ومن هنا، نخلص إلى أن ممارسة أشكال النشاط الاقتصادي عند العرب الهلالية كان مرتبطا بحياة البداوة، ولم ينفك عنه رغم ممارستهم للزراعة والحرف واحتكاكهم بالقبائل المستقرة منذ تواجدهم بنجد وصولا إلى توطينهم في الصعيد، ومع أن بعضهم بدأ في الانخراط في الشكل المتطور في سُلَّم الارتقاء نحو الحياة الحضرية، إلا أن غالبيتهم الساحقة عاشوا على هامش حياة الاستقرار وظلوا محافظين على نمط حياتهم التي انتقلوا بعوائدها إلى بلاد المغرب الإسلامي.

3- آليات إخضاع وإدماج العرب الهلالية خلال المرحلة المشرقية

لطالما شكّلت المجموعات والقبائل البدوية هاجسا بالنسبة للدول والإمبراطوريات، باعتبارها قبائل تستدعي تعاملا خاصا نظرا لحساسية علاقتها بالأنظمة، ففي ظل النزعة الاستقلالية التي تتميز بها وتوجهها نحو التحرر من كل سلطة تحاول فرض نظامها عليها، كان التفكير في وضع آليات لإخضاعها وإدماجها في هيكل الدول تحقيقا للانسجام وعملا على فرض النظام.

هذا التعارض بين المبادئ والغايات، الذي تعكسه النزعة الاستقلالية عند القبائل الهلالية البدوية، مقابل توجه السُّلط التي كانت على علاقة بهم في مختلف المحطات التاريخية نحو احتواءهم وإدماجهم، والدفع بهم للانخراط في استراتيجياتها ومخططاتها، يدفع إلى التساؤل بإلحاح عن طبيعة ومحددات هذه العلاقة، فما هي القاعدة التي ارتكزت عليها الدول في صياغة تصوراتها عن العرب الهلالية؟ وكيف أسهمت سياساتها في التأثير على تدبير المعاش الهلالي وتوجيه تحركاتهم إلى مجالات بعينها؟ وإلى أي مدى يمكن الحديث عن نجاعة أو فشل هذه الخطط في التعامل مع العنصر الهلالي انطلاقا من التحولات التي يمكن ملاحظتها على الأمد المتوسط والطويل؟

تواترت الصورة النمطية حول البدو،[2] باعتبارهم أولئك المتحررون من سلطة الحكم والدين،[1] ورغم أنهم في عالم مستقر يبدون كالغرباء، إلا أن هيرودوت Hérodote (حوالي 484ق م-425ق م) وخلال حديثه عن

---

[1]) ابن خلدون: العبر، ج6، ص7.

[2]) إلى اليوم، كثيرا ما ترتبط الذهنية العربية للمستقرين بالذهنية البدوية، لذلك فإن التصدي للبحث في المواضيع المرتبطة بالعالم العربي وشعوبه يفرض فهم الخصائص العقلية والسمات المميزة للحياة العربية، وبذلك فالبادية هي المصدر الأول لاستلهام مثل هذه الاستنتاجات، لمعرفة المميزات المتعلقة بالروح القبلية، التضامن الأسري، طموحات قيادة المجموعة، الميولات الشخصية، النزاع حول السلطة والقيادة، وأمور أخرى لا تزال مستمرة في أحيان كثيرة، كالانتقام والثأر، الشرف، الضيافة، التباهي، الكرم، قدسية الضيف، الفروسية، الشجاعة؛ Jibrail S. Jabbur: Op. cit , p32.

السكوثيين –وهم شعوب بدوية عاشت في بلاد فارس– يعتبر أن طبيعة حياتهم المبنية على التنقل نقطة قوة لأنهم لا يرتبطون بالمحراث، بل بالماشية، وبالتالي لا شيء يمنعهم من التنقل، وهو ما يجعلهم لا يُقهرون؛ ولأن النظم والقوانين كانت أصلا في الإمبراطورية الرومانية، فقد رأى الرومان أن البدو يعيشون حياة وحشية، لأنهم لا يملكون

=منذ أواخر القرن الثامن عشر أخذ المستشرقون والرحالة الأوربيون في التأليف عن البدو والبادية العربية، ومن ذلك الفرنسي "فولناي" Volney صاحب كتاب: "رحلات عبر سوريا ومصر 1783-1785"، و"نيبور" Niebuhr: "رحلات في الجزيرة العربية"، والرحالة السويسري "بوركهارت" Burckhardt: "رحلات في الجزيرة العربية" 1829، والبريطانية "الليدي أني بلنت" Lady Anne Blunt: "قبائل البدو على الفرات"، وتوالت الرحلات في عمق البادية العربية طيلة القرن التاسع عشر والعشرين، وكانت الحصيلة مدونات مهمة وثرية عن البداوة العربية في جوانبها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والدينية والسياسية بنظّارات غربية؛ ميشال جحا: البدو والبداوة في كتابات من لبنان، ضمن ملف "البداوة والتحضر في المجال الحضاري العربي الإسلامي"، مجلة الاجتهاد، دار الاجتهاد للأبحاث والترجمة والنشر، بيروت، السنة 5، ع18، خريف 1993، ص133.

ويعتبر علي الوردي من الباحثين العرب الذين اشتغلوا على ثنائية القيم البدوية والحضرية، حيث قارب الموضوع من خلال الأنموذج العراقي، وظهر ذلك من خلال مشاركاته في عديد المؤتمرات الدولية والكتب والمقالات، وعبّر عن أسفه لعدم توجّه الباحثين العرب لدراسة الظاهرة البدوية، وإن اعترف بأهمية وقيمة الدراسات التي قدّمها المستشرقون، إلا أنه نفى عنها العمق؛ دراسة في طبيعة المجتمع العراقي – محاولة تمهيدية لدراسة المجتمع العربي الأكبر في ضوء علم الاجتماع الحديث، دار الوراق للنشر، الأردن، 2007، ص37. وينبغي أن نشير في هذا المقام إلى أن أبو بكر أحمد باقادر قد قام بجمع بيبليوغرافية تحليلية مختارة للأبحاث والدراسات التي تناولت البداوة العربية ضمن كتاب صدر عن مكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض سنة 2000م، رصد فيه أهم المقالات والكتب التي عالجت الظاهرة البدوية العربية.

وبالحديث عن البدو العرب، فإن العربي في بدويته الصحراوية كيّف تصوّره للكون وعلاقته بنفسه وبقوى الطبيعة على نحو خاص به، وبالتالي يكون فهم نظرة العربي وتصوّره للذات والكون يمر حتما عبر النفاذ إلى البناء الذاتي الداخلي الذي يشكّله؛ محمد أبو القاسم حاج حمد: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة – العالمية الإسلامية الثانية، دار الهادي، بيروت، 2004، ص640.

[1]) صورة البدو عامة، كانت سلبية في جل الحضارات والمناطق، بداية بالعصور القديمة، وهو ما تشير إليه بعض النصوص الشعرية السومرية، حيث جاء في قصيدة سومرية "زواج مارتو [البدو]" تعود للألف الثالثة قبل الميلاد:

إنهم أولئك الذين يأكلون المحرمات [من] نانا [الجسد البشري] [ليس لديهم] أي تقديس
في التجوال باستمرار حولها
[يجري] رجس [من] معابد الآلهة،
[المحامي] مرتبك، [يسببون] فقط [اضطراب]،
رجل يرتدي حقيبة جلدية
ساكن بالخيام [منفوخ] بالرياح والمطر، [الذي لا يقدم]،
من يسكن في الجبال فلا يعلم أماكن الآلهة.
رجل يحفر عيش الغراب عند سفح الجبل ولا يعرف الخضوع،
يأكل اللحم غير المطهو،
في حياته ليس لديه منزل،
عندما يموت، لن يدفن.
صديقتي – لماذا تتزوج من مارتو [البدو]؟!

Päivi Kuosmanen: The Nature of Nomadic Power Contacts between the Huns and the Romans during the Fourth and Fifth Centuries, Annales Universitatis Turkuensis, University of Turku, Turku 2013, P31-32.

قوانين في نظرهم.[1] وبالتالي، فإن الرؤية المركزية تجاه المجموعات البدوية هي سمة بارزة في الأنظمة الإمبراطورية التي تسعى لإخضاع مواطنيها أو أهاليها لقوانينها وجعلها في خدمة منظومتها ومشروعها الإمبراطوري.

ذكرت المصادر القديمة أن البدو العرب يعيشون في حكم ذاتي ولا يقبلون أن يكون رجلا من بلاد أخرى سيدا عليهم، وقد كانوا في أشعارهم يحتقرون من يقبلون العيش كأتباع ورعايا لغيرهم، ويصف "استرابون" Strabon (حوالي 64ق م-21م) العرب الخيميين في بلاد الرافدين بأنهم: "قبيلة من قطاع الطرق والرعاة"، ويعلق أحد سكان بلاد الرافدين في أواخر القرن السادس: "يعيشون في الخيام وكانوا همجيين ومحبين للحرب، خرافاتهم كثيرة والأكثر جهلا من بين كل شعوب الأرض"، كما وصفهم أحد المؤرخين أنهم غير موثوقين.[2]

مقابل هذه التمثلات لدى بعض النخب والجماعات الحضرية، طالما شكّل البدو متاعب للإمبراطوريات والسُّلط، فقد تمكّنوا من إلحاق متاعب بجيوش الإمبراطور الروماني "أغسطس" Augustus (16ق م- 14م) الذي أرسل جيشا بقيادة "أليوس جالوس" Aelius Gallus يتألف من إحدى عشر ألف (11.000) جندي، لكن معرفة العرب بطبيعة شبه الجزيرة العربية جعل الرومان يعيدون النظر في خطوتهم هذه. وخلال العصور الإسلامية المبكرة انتبهت السلطة إلى أهمية الحصول على دعم البدو، فقامت بتوظيفهم، تماما مثلما وظّفتهم القوى المتمرّدة على السلطة.[3]

---

[1]) Päivi Kuosmanen: Op.cit, P31-32.

[2]) رُبرت هُيْلَنْد: تاريخ العرب في جزيرة العرب من العصر البرونزي إلى صدر الإسلام 3200 ق م—630م، ترجمة: عدنان حسن، شركة قدمس للنشر والتوزيع، بيروت، 2010، ص126.

[3]) Jibrail S. Jabbur: Op. cit, p38-39.

سعت استراتيجية صلاح الدين الأيوبي إلى توظيف القبائل البدوية في المشاريع العسكرية ومواجهة الحروب الصليبية، كما أنه انتبه للسياسة الاقتصادية تجاههم والتي بدأها الفاطميون بمحاولة إصلاح وضع الأراضي البدوية أو مسؤولية العرب في المناطق الواقعة تحت سيطرتهم؛

Jean-Michel Mouton: Saladin et les Bédouins du Sinaï, dans le livre: Le Sinaï de la conquête arabe à nos jours, édité par Jean-Michel Mouton, Institut Français D'archéologie Oriental, cahier des annales islamologiques 21, le Caire, 2001, p206.

ولمعرفة أدوار القبائل العربية في مصر خلال عهد الأيوبيين والمماليك ينظر: محمود السيد: تاريخ القبائل العربية في عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1998؛ كما أن المرابطين حاولوا استغلال الهلاليين في استراتيجيتهم العسكرية بالأندلس وكذلك في صدّ الموحدين؛ ينظر: نور الدين مسعودي: القبائل الهلالية ضمن المشاريع السياسية لدولة المرابطين، مجلة القرطاس للدراسات التاريخية والحضارية والفكرية، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، ع9، جويلية 2018، ص ص11-24.

لا شك أن التراث العربي والموروث الشعري تحديدا يختزن من الرؤى والتصورات للبدو الكثير، ليس بشكل مجمل، لكن بالكثير من التفاصيل المتعلقة بالقبائل والبطون، وهي تختلف بين الذم والدفاع والتفاخر، لذلك فإن العودة إلى الشعر العربي في بناء تصور للبدو في النصوص العربية مهم جدا. وقد كانت هذه النصوص في بعض الأحيان تستوجب الرد شعرا أو نثرا؛ على سبيل المثال رسالة ابن غرسية مخاطبا الشاعر ابن الخراز والرد عليها؛ وارتباطا بموضوعنا، نورد ما قاله ابن الرومي نقلا عن ابن بسام —كمثال-: (الكامل)

مَن كانَ يكلف بـــالأَهِلة فَليَزُر ... وَلــــدي هِلالٍ زَغبَة وَرِياحــا

لا عَيب فيهِم غَيرَ شُحِّ نِسائِهِم ... وَمِن السَماحَة أَن يَكُنَّ شِحاحا

ابن بسام: المصدر السابق، ق 3، مج2، ص705-726.

قام عمر بن الخطاب (ت23هـ/644م) بإسقاط القطيعة التي فرضها الخليفة أبو بكر الصديق (ت13هـ/634م) على البدو، خاصة وأن الدولة الإسلامية كانت بحاجة إلى قدراتهم العسكرية في توسيع عمليات الفتح وهو ما كان يشير إلى اندماجهم التدريجي، غير أنه ومع بداية القرن الثالث للهجرة (09م) ظهر جليا نبذ الأعراب مما جعلهم معزولين في بواديهم، وأدى إلى بروز التجاذب بين السلطة المركزية والجماعات البدوية إلى الواجهة، وفي ظل هذه الظروف وقف بعض الفقهاء مع البدو في حربهم ضد الشعوبية التي كانت في أوجها، فقد كان الفقهاء يستحضرون ارتباط اللغة العربية الفصحى (لغة القرآن) بالأعراب، وتشابه نمط عيشهم بحياة محمد (ﷺ)، لذلك اعتبر كل من الجاحظ وابن قتيبة وغيرهما أن الهجوم على الأعراب هو هجوم على الإسلام.[1] وقد كان على من يطلبون العربية الخالصة من الشوائب أن يتوجهوا إلى البادية العميقة، لما يحققه انعزال البادية من فصاحة اللسان، وقد بلغ حرص بعض هؤلاء البدو على صفاء لغتهم حدّ عدم السماح للغريب بالضيافة عندهم لأكثر من ثلاثة أيام.[2]

في علاقة الإسلام بالبدو، أثار بعض الباحثين إشكالية: هل الإسلام دين بدوي أو بتعبير أدق هل كان دين البدو بدايةً؟ ووفقا للمستعرب البريطاني سيرجنت (1915-1993م) Robert Bertram Serjeant، فإن الإسلام لم يكن دينا بدويا، بل كان دين القبائل المتحضرة في المدينة ثم مكة، وفي إطار تفسيره المادي للفتح الإسلامي يذهب "كايتاني بيكر" Caetani-Becker إلى أن دور البدو كان مصلحيا بحثا عن التوسع، وأن انخراطهم في حركة الفتوحات يفتقد البعد العقائدي، وهو الرأي الذي يتفق معه إلى حد ما "دي بلانهول" (1926-2016م) Xavier De Planhol الذي يرى أن التوسع الإسلامي كان توسعا تلقائيا للبدو، فالجزيرة موطن البدو بامتياز وهم من ساهموا في بدونة التجمعات الحضرية المستقرة، ونجاح الفتوحات الاسلامية كان بفضل مشاركتهم. أما المؤرخ البريطاني "ساوندرز" (1910-1972م) John Joseph Saunders، ومع أنه لا يستبعد سلبية البدو، لكنه ينتقد أطروحة بيكر، بحيث أن قادة الفتح كانوا من الحضر، وحاولوا الاستجابة لغرائز البدو في القتل والنهب، فحشدوهم في حروب تخدم الطرفين خارج الجزيرة خاصة، ومع ذلك فهو لا يستبعد العامل الديني أيضا.[3] وفي المقابل لا ينفي المؤرخ الفرنسي "كلود كاهين" (1909-1991م) Claude Cahen أن الإسلام ولد في بيئة حضرية، لكنه لا يقلل من أهمية البدو ومؤسساتهم، ويعتبر أن التحاقهم بالإسلام كان مهما، رغم أنه لم يكن لهم دور الزعامة في عمليات الفتح.[4]

---

[1]) هيئة التحرير: البداوة والتحضر في المجال العربي، ضمن ملف "البداوة والتحضر في المجال الحضاري العربي الإسلامي"، مجلة الاجتهاد، دار الاجتهاد للأبحاث والترجمة والنشر، بيروت، السنة 4، ع17، خريف 1992، ص6.

[2]) عبد الحميد الشلقاني: الأعراب الرواة، منشورات المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، 1982، ص153.

[3]) أبو صوة: المرجع السابق، ص21-23.

[4]) Claude Cahen: Nomades et sédentaires dans le monde musulman du milieu du Moyen Âge, dans :Les peuples musulmans dans l'histoire médiévale, Presses de l'Ifpo, Damas, 1977, p423-424.

النصوص الدينية والممارسات البدوية وتمثلاتها، انعكست سلبا على النظرة العامة للبدو، ومع ذلك، اعتمد الخلفاء عليهم كثيرا في عملية الفتح واستوعبوا بعضهم في المناطق الحضرية، وأصبحوا عنصرا مهما في الحكم العربي، وفي الوقت نفسه شكّلوا جزءا مهما من جيوش الخوارج وبعض المجموعات التي تمردت ضد الخلفاء.[1]

وفي تعامله مع الأعراب، يُلاحظ فشل الفكر الاسلامي في تطبيقاته، بحيث لم يتمكن من خلق جماعة إسلامية موحدة متحضرة في مدن جديدة تتيح تجسيد الجماعة محليا والأمة الإسلامية الواسعة، وبالتالي فقد فشل في تفكيك النظام القبلي المغلق "الجاهلية الأولى".[2]

لاحقا، ارتبط انتقال القبائل العربية البدوية إلى بلاد الفتوحات بدافعين أساسيين: الأول طبيعي سلطاني، بحثا عن مناطق الكلأ أو فرارا من الحروب، والثاني متعلق بالاستجابة لدعوات السابقين باللحاق بهم رغبة في حياة الرخاء ورغد المعيشة.[3]

نقل القبائل العربية البدوية حكمته أحيانا معطيات متعلقة بضرورات إحداث التوازن القبلي، الكفيل بمنع ترجيح سطوة فصيل على المشهد في منطقة معينة، وفي هذا السياق يذكر كل من الكندي والمقريزي[4] أنه خلال ولاية الوليد بن رفاعة (ح109-117هـ/727-735م) على مصر أذن له الخليفة هشام بن عبد الملك (ح105-125هـ/724-743م) بنقل بيوت من قيس إلى مصر، وقد تم بالفعل نقل ثلاثة آلاف (3.000) منهم سنة 109هـ/727م، حيث أنزلهم بُلْبيس.

لا يقصي راضي دغفوس[5] الدوافع السياسية الكامنة خلف رعاية الدولة لعملية نقل القبائل العربية إلى مصر، كمحاولة وضع حد لتزايد عدد القحطانيين، وبالتالي إقامة توازن بين عرب الشمال والجنوب، وقمع الحركات التمردية المحتملة في المنطقة خاصة من الأقباط، لكنه يجتهد في تقديم بعض التفسيرات الاقتصادية كاستهداف تعمير منطقة الإنزال وجعلها مصدرا لاستخلاص الضرائب.

---

[1]) Jibrail S. Jabbur: Op. cit, p34-35.

[2]) عبد المجيد مزيان: المرجع السابق، ص175؛ تعقيبا على الرؤية الدينية الإسلامية تجاه البدو، -أو بالأحرى الفهوم البشرية للنص القرآني والديني عامة- نلاحظ أنها عجزت عن القفز على منطق الثنائيات، وهو المنطق الذي دفع عديد المفكرين إلى تجاوزه حتى داخل الدائرة الإسلامية، ومنهم المفكر السوداني "محمد أبو القاسم حاج حمد"؛ المرجع السابق، ص71؛ وهو الذي نافح على فكرة العالمية وضرورة تبني الاسترجاع النقدي القرآني فيما يتعلق بالوقائع والمناهج المعرفية، ليس فيما ارتبط بالنماذج الحضارية الأخرى فقط، بل حتى داخل النموذج الواحد، وقد حدد القرآن طبيعة دوره في بدايات الإسلام وهو التأليف بين قلوب العرب –كشعب قبائل لا كقومية- لا توحيدهم؛ نفسه، ص638.

[3]) إسحاق إبراهيم: هجرات الهلاليين من جزيرة العرب إلى شمال إفريقيا وبلاد السودان، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، 1996، ص42.

[4]) الكندي: المصدر السابق، ص76-77؛ المقريزي: البيان والإعراب، ص64.

[5]) دراسات في التاريخ العربي الاسلامي الوسيط، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005، ص45؛ للاستزادة حول القبائل العربية التي سكنت الصعيد منذ الفتح الإسلامي؛ ممدوح عبد الرحمن عبد الرحيم الريطي: دور القبائل العربية في صعيد مصر منذ الفتح الإسلامي حتى قيام الدولة الفاطمية وأثرها في النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية (21-358هـ / 641-969م)، مكتبة مدبولي، القاهرة.

مهما يكن السبب الذي دفع الأمويين إلى نقل الهلاليين والسليميين إلى مصر، فإنه يندرج ضمن سياستهم الرامية إلى اعتماد العنصر العربي.

يعتبر هذا النزول بأرض مصر، سابقا لوصول أعداد أكبر من الهلاليين والسليميين إلى الصعيد بعد انهزام القرامطة[1] أمام الفاطميين، إبان حكم الخليفة الفاطمي العزيز بالله (ح365-386هـ/975-996م)، فقد كان بنو سليم وكثير من ربيعة بن عامر تجندوا في صفوف القرامطة بالبحرين وعمان وقدموا معهم إلى الشام، ولا يستبعد أن من أسباب انضمامهم إلى حركة القرامطة هو البحث عن غطاء لممارسة أعمال النهب والسلب والإغارة والانضواء تحت حليف قوي ومؤثر في المنطقة، خاصة وأن القرامطة أنفسهم كانوا بدوا. وعندما انهزم القرامطة نقل العزيز بالله (ت386هـ/996م) من كان معهم من بني هلال وسليم إلى مصر، وأنزلهم الجانب الشرقي من الصعيد على نهر النيل،[2] فجعلهم بين النيل والبحر الأحمر ومنعهم من الجواز غرب النيل تلافيا لتحالفهم مع المتواجدين غربه. والأكيد أن اختيار الفاطميين لشرق النيل كمجال للقبائل الهلالية والسليمية جاء استنادا لاعتبارات أمنية واقتصادية.

ومن الأسباب الاستراتيجية لهذا النقل، هو دخول السلاجقة[3] حدود سوريا والشام، مما جعل الفاطميين يفكّرون في توطين الهلاليين على مقربة منهم، بعيدا عن الوافدين الجدد، تفاديا لأي تقارب بينهما، خاصة وأن الخلافة العباسية كانت ضعيفة ومُنهكة، وبالتالي يكون نقل الهلاليين إلى مصر رغم مخاطره تلافيا للاضطرار مستقبلا لقتالهم.[4] وهو أيضا بمثابة التوزيع الطبيعي للمجموعات البدوية على مجالات مختلفة، واستراتيجية فاطمية في الوقت نفسه باعتبار الفاطميين يراهنون على المجالات الشرقية أيضا، والتفكير في نقل الهلاليين إليها يعدّ مغامرة، بالنظر إلى تجربة الهلاليين السابقة فيها ومعرفتهم بالقوى السياسية والقبلية المهيمنة هناك، ما يجعلهم محل توظيف من طرف أعداء الفاطميين.

ما يُفسّر بقاء هذه الكتلة القبلية ومحافظتها على لُحمتها رغم الأحداث السياسية التي مرت بها واختلاف السلط التي حاولت إخضاعها وتوظيفها، وتنقلها عبر مجالات مختلفة خارج فضاءها الطبيعي في شبه الجزيرة العربية، هو أن اجتماع القبائل الهلالية كان على أساس العصبية، ففي ظل محاولات الهلاليين البقاء بعيدا عن كل سلطة من شأنها أن تضبط السلوك الهلالي، فرضت طبيعة الحياة البدوية على أفراد جماعتها الالتئام على أساس

---

[1]) امتد نفوذ القرامطة إلى الشام والبحرين؛ ابن خلدون: العبر، ج4، ص15، وقد ثاروا بالأساس على العباسيين وكان لهم دور في التمهيد للتوسعات الفاطمية، لكنهم أصبحوا فيما بعد يشكلون تهديدا للفاطميين الذين عملوا على محاربتهم وتفكيك حركتهم.

[2]) ابن خلدون: العبر، ج6، ص18؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص216؛ ويفترض أن نقل الهلاليين إلى مصر تم على مرحلتين: **الأولى** عقب هزيمة القرامطة وعودتهم إلى البحرين، **والثانية** بعد نهاية سلطة القرامطة على البحرين وطرد بني سليم؛ فايزة محمد صالح أمين سجيني: غزو بني هلال وبني سليم للمغرب، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، قسم التاريخ الإسلامي، جامعة الملك عبد العزيز، مكة المكرمة، 1980/1981، ص45.

[3]) بين الغزو الهلالي لبلاد المغرب واجتياح السلاجقة للمشرق الإسلامي الكثير من القواسم التي تستدعي الوقوف عندها، حيث يلاحظ "برات ميكائيل" Brett Michael اشتراكهما في بعض سمات الاجتياح على هيئة محاربين بدو ومتحدثين بلغة مختلفة، غير أن السلاجقة تمكنوا من انشاء إمبراطورية "على قوة بطولاتهم الإسلامية"، في حين ظلت القبائل الهلالية تخدم أحيانا الزيريين والحماديين ثم الموحدين؛ كما يثير أيضا مقارنة مهمة بين الغزو الهلالي لبلاد المغرب والنورماندي لصقلية، بحيث يشير إلى الانعكاسات الاقتصادية السلبية للأول، ونموذج التعايش والتبادل الثقافي الذي أفرزه الثاني؛ Brett Michael: Op.cit, p48, p56

[4]) محمد علي چلونگر ومهدى عزتى: المرجع السابق، ص124-125.

العصبية، فإذا كان السلطان هو من يفرض النظام في المدن؛ فإن ذلك يكون عند البدو من صلاحيات المشيخة القبلية التي تستند إلى العصبية المرتبطة بالنسب في الأساس.[1]

من خلال مقاربة طبيعة الاقتصاد الهلالي بين ثنائية المعطى الجغرافي والأنثروبولوجي، نخلص إلى أن محددات السلوك الاقتصادي عند القبائل الهلالية بوصفها قبائل بدوية تحكمت فيها عديد الاعتبارات والعوامل، فحركة الترحال التي يمكن تتبعها ضمن جغرافية البداوة كان لها الدور البارز في استمرار التقاليد الاقتصادية البدوية، ما جعلها بمثابة الإرث الذي ينتقل معها من فضاء لآخر، ورغم احتكاك الهلاليين ببعض مظاهر التمدن في محطات معينة من حركاتهم الرحلية، إلا أن عبء هذا الإرث البدوي وطبيعة تعامل السُّلط مع هذا المكون لم يُسرِّع عملية الاندماج إلا في هوامش معينة وفي فترات محددة. فالسّلط السياسية ورغم الاستقلالية التي يظهر عليها البدو، إلا أنها كانت تؤثر بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في حركتهم وبالتالي في طبيعة وظروف معاشهم، وإن كانت في أحايين كثيرة تجد نفسها في خدمة الدول، لكن مع المحافظة على شكلها القبلي والعمل على تقديم الخدمات التي تكون من صميم أنشطتها الاقتصادية. وإذا كان هذا التطويق لطبيعة الاقتصاد الهلالي قد انتهى بنا إلى الرسو على النتائج المذكورة، فإنها تدعونا إلى النزوع أكثر نحو البحث في الأبعاد الاقتصادية لحركة الهجرة الهلالية غربا بين إرادة السلطة ورغبة العرب الهلالية، من خلال رصد محددات البعد الاقتصادي في توجه أو توجيه الهلاليين غربا سواء بالنسبة للفاطميين أو بالنسبة للهلاليين أنفسهم.

[1]) ابن خلدون: المقدمة، ص159.

الفصل الثاني

الأبعاد الاقتصادية لحركة الهجرة الهلالية في إفريقية والمغرب الأوسط

أولا: الأبعاد الاقتصادية في حركة الهجرة الهلالية

1- ظهير التملك

2- التحفيزات الاقتصادية في حركة العبور

3- الخلفية الاقتصادية للهجرة الهلالية

ثانيا: نشاط الحرابة واقتصاد المغازي بالمغرب الأوسط

1- الحرابة:

أ. المفهوم والدوافع

ب. المعالجات الاقتصادية لقضايا النشاط الحرابي في نصوص النوازل

2- اقتصاد المغازي (النشاط والأشكال):

أ. اقتصاد المغازي وأثره في إدماج العرب الهلالية

ملامح السياسة الإغرائية الزيرية

اقتصاد المغازي في الدولة الحمادية وأثره في تهدئة العرب الهلالية

الإخضاع وانعكاساته على النشاط الاقتصادي الهلالي على عهد الموحدين

الهلاليون ما بعد الموحدين

ب. الأشكال

الغنائم

الراتب في الجيش والإنعام السلطاني

الإقطاع

الخفارة

القبالات والأتاوات والمكوس

الأبعاد الاقتصادية لحركة الهجرة الهلالية في إفريقية والمغرب الأوسط

لا بد من الاعتراف بداية أن تتبع التحركات البشرية في العصور الوسطى أمرٌ على غاية من التعقيد والعُسر، ذلك أن الحركة القبلية في مختلف الأقاليم الجغرافية تحكّمت فيها عديد المعطيات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وأفرزت آثارا متعددة وعلى مستويات مختلفة، وينطبق ذلك على المسيرة الهلالية نحو بلاد المغرب باعتبارها تحركا بشريا مكتمل الأركان.

يرُكّز العديد من الباحثين والدارسين خلال تطويقهم لهذه الهجرة وتتبع محطاتها الرئيسة في إطار التحولات التاريخية التي كانت تشهدها المنطقة، على الأسباب السياسية والخلفيات المذهبية، ويُهملون أو يؤخرون أحيانا الخلفيات الاقتصادية، التي لا يمكن عزلها عن بقية الدوافع التي أفرزت هذه الحركة.

تنقسم الدوافع التي تتأسس وتجد لها مصوغات كثيرة على مستوى الطبيعة البدوية للعنصر الهلالي على قسمين رئيسين:

الأول: الظروف الاقتصادية (الطاردة) بمصر، خاصة في ظل المعطيات المتعلقة بمناطق انتشار القبائل الهلالية، وموجات الجفاف والصعوبات التي مرّ بها الاقتصاد المصري في القرن 05هـ/11م.

الثاني: مطامع الهلاليين في بلاد المغرب، خاصة مع التحفيزات التي أقرّتها السلطة الفاطمية تشجيعا لهم على التوجه غربا.

وبالنظر إلى الإرث الاقتصادي للعرب الهلالية، الذي سبق التعريج عليه، فإن القبائل الهلالية الوافدة إلى بلاد المغرب وصلت وفي جعبتها رصيد من التجارب الاقتصادية في تدبير المعاش في طبيعته البدوية، وهو ما يدعو إلى التساؤل: كيف يمكن تفسير التحرك الهلالي اقتصاديا بالنسبة للفاطميين وللهلاليين وحتى فيما ارتبط بإفريقية والمغرب الأوسط؟ وهل يمكن إدراج حركة حيازة المجال التي أولاها الهلاليون أهمية خاصة ضمن الإقطاع السلطاني، باعتبارهم حاملين لظهير التملك؟ وماهي الخلفيات الاقتصادية لهذا الظهير وما طبيعة المناطق التي استهدفها؟ وكيف تعاملت السُّلط السياسية والدينية مع نشاط الحرابة واقتصاد المغازي الذي زاولته القبائل الهلالية الوافدة والذي يعد من صلب نزعتها البدوية؟

أولا: الأبعاد الاقتصادية في حركة الهجرة الهلالية

شكّل القرن الخامس الهجري (11م)، قرن التحركات البدوية بامتياز، حيث عرف انتقال القبائل السلجوقية وولوجها قلب الدولة العباسية، فضلا عن غزو النورمان —وهم بدو البحر- لصقلية، كما عرفت ذات الفترة في بلاد المغرب انتقال المرابطين من الجنوب إلى الشمال، والهلاليين من الشرق إلى الغرب.

وتكاد تشترك هذه التحركات البشرية في دوافعها الاقتصادية، لذلك فقد ارتبطت حركة الهلاليين بجملة من الأبعاد الاقتصادية، التي تدخلت في صياغة ظروف الانتقال ومسبباته، من خلال التحفيزات الاقتصادية التي حمّستهم نحو خوض مغامرة جديدة، ورسمت ملامح الانتشار لاحقا، وهو ما يمكن أن نلامسه من خلال:

1- ظهير التملك

حرصًا على إنجاح عملية العبور، والحيلولة دون عودة القبائل العربية موحّدة لتشكل تهديدا على الحدود الغربية للفاطميين، قدّمت السلطة الفاطمية -التي كان الخلاف بين هذه القبائل يخدمها- تحفيزات مغرية للجماعات الهلالية والسليمية بعد عملية الإصلاح بينها، انطلاقا من حاجات الهلاليين والسليميين ورغباتهم في التوسع واكتساح المجالات وتفريغا لشحنتهم النفسية الناتجة عن سنوات طويلة من الحجر في منطقة محدودة يُمنع عليهم مغادرتها. وتساوقا مع وضعهم، فقد انقسمت التحفيزات التي أقرّها الفاطميون لصالحهم إلى مادية آنية ومعها تشجيعات معنوية قوية، مع وعود بالحصول على الغنائم والإقطاعات عند الوصول إلى الأرض الموعودة.

لقد عقد الخليفة الفاطمي الشاب المستنصر (420-487هـ/1029-1094م) للعرب حين إطلاقهم على الأمصار والثغور، وقلّدهم أعمالها، إذ خاطبهم قائلا: "قد أعطيتكم المغرب وملك المعز بن بلكين الصنهاجي العبد الآبق فلا تفتقرون".[1] فعقد لـ "موسى بن يحيى المرداسي"[2] على القيروان وباجة، وزغبة على طرابلس وقابس، وعقد لـ "حسن بن سرحان"[3] على قسنطينة، وهو ما كان لهم إثر انتصارهم على صنهاجة،[4] بعد أن "أُبيح لهم حِمى المغرب".[5]

اعتبرت القبائل الهلالية الظهير الممنوح لها من طرف الفاطميين بمثابة جواز تملُّك شرعي يتيح لها الاستمتاع بخيرات البلاد والسيطرة على سهولها. ومن خلال تحديد المناطق التي وردت في نص الظهير يتبين أنها تنتمي في غالبها إلى السهول الواسعة المنتجة للحبوب، وهو ما يعكس الرغبة الفاطمية في ضمان الإمداد بالقمح من هذه المناطق، خاصة بعد الهزات الاقتصادية التي كانت عرضة لها في القرن الخامس الهجري (11م)، وبعد القطيعة التي

[1]) ابن خلدون: العبر، ج6، ص20؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص216.

[2]) ذكره المقريزي باسم " المؤنس بن يحيى المرداسي"؛ اتعاظ الحنفا، ج2، ص218.

[3]) ذكره المقريزي باسم " الحسن بن مسرة "؛ اتعاظ الحنفا، ج2، ص218.

[4]) ابن خلدون: العبر، ج6، ص27؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص218.

[5]) نفسه، ج2، ص215-216؛ ينظر الملحق رقم1: خريط ظهير تملك بلاد المغرب الممنوح من الخليفة الفاطمي المستنصر (ح427-487هـ/1036-1094م) للقبائل الهلالية.

حدثت مع الدولة الصنهاجية، مما يشير إلى حدوث اضطراب في التموين بالحبوب، وهو الأمر الذي جعل الدولة الفاطمية تحدد بدقة سهول الحبوب ضمن ظهير التملك، بحكم معرفتها الدقيقة بالخريطة الفلاحية والهيدروغرافية لإفريقية والمغرب الأوسط.

وتأكيدا للخلفيات التي رجّحنا اعتبارها في ظهير التملك، نعود من خلال كتابات الجغرافيين للتدليل على الإمكانيات الزراعية التي تحوزها المناطق التي وقع الاختيار عليها والتوجيه نحوها، فمدينة القيروان: "في بساط من الأرض مديد ... وسائر جوانبها أرضون طيبة كريمة، وأحسنها الجانب الغربي وهو المعروف بفحص الدّرارة يُصاب فيه في السنة الخصبة للحبة مائة".[1] وفي وصف الإنتاج المهم للحبوب في باجة يقول البكري: "وتسمى هري إفريقية لريع زرعها وكثرة رفاعها وأنها خصيبة ليّنة الأسعار امحلت البلاد أو خصبت، وإذا كانت أسعار القيروان نازرة لم يكن للحنطة بها قيمة، ربما اشتري وقر البعير من الحنطة بدرهمين"[2] ويصفها الإدريسي بأنها: "كثيرة القمح والشعير، ولها من غلات ذلك ما ليس بالمغرب مثله كثرة وجودة".[3] أما طرابلس –قبل تخريب العرب لها– : "وكانت قبل هذا مفضلة العمارات من جميع جهاتها، كثيرة شجر الزيتون والتين وبها فواكه جمة ونخل... عديمة المثال في إصابة الزرع".[4] وقابس: "بها من التمر والزروع والضياع ما ليس بغيرها من البلاد، وفيها زيتون وزيت وغلات"،[5] أما قسنطينة فـ: "مطلة على فحوص متصلة ولها مزارع الحنطة والشعير ممتدة في جميع جهاتها".[6]

وما ضاعف جاذبية جل المناطق التي تضمنها الظهير ودعم مؤهلاتها الفلاحية هو اختراق المجاري المائية السطحية لها، فوادي مجردة الذي ينبع من المجالات الشرقية لقسنطينة يتدفق نحو الشمال الشرقي لإفريقية مرورا بضواحي باجة. وفضلا عن ذلك، من المهم الإشارة إلى أن ظهير التملك قد راعى معطى جغرافي تضاريسي لديه أهمية بالنسبة للهلاليين، فهم يُقْبِلون على المناطق السهلية المنبطحة، ويُدبرون عن المناطق الجبلية والوعرة.[7]

واستنادا للمعطيات التي أوردناها، فإنه ليس من قبيل الصدفة تسمية المناطق المشار إليها في الظهير، وليس مستبعدا أيضا أن يكون التقسيم مبنيا على طبيعة كل قبيلة وتعداد أفرادها، ما جعل الهلالي وفقا للعروي[8] يمثّل نموذجا جديدا في السيطرة على المجال –بخلاف التجربة الزناتية في الأندلس–، لأن القبائل الهلالية دخلت المغرب

---

[1]) البكري: المصدر السابق، ص24.

[2]) نفسه، ص56.

[3]) الإدريسي: المصدر السابق، ص290.

[4]) نفسه، ص297-298.

[5]) نفسه، ص279.

[6]) نفسه، ص266.

[7]) ابن خلدون: المقدمة، ص186؛ لا نعدم أيضا الاعتبار الاستراتيجي في توزيع مجالات إفريقية ضمن ظهير التملك، فبإطلالة على الخريطة التي تجسده يتبين أن الفاطميين أرادوا محاصرة الزيريين جنوبا وغربا بالقبائل الهلالية، أما الشرق والشمال فواجهة بحرية وفي حال فكّر الفاطميون في تحرك مستقبلي فإن بحريتهم تحوز التفوق.

[8]) المرجع السابق، ج2، ص101.

الإسلامي وبيدها وثيقة استخلاف وتمليك، ما جعلها تتصرف وكأنها الوريث الشرعي، المتطلع لسلب السيادة من حكام المنطقة.

لم يكن من اليسير التوصُّل إلى هذا الشكل من الإجماع الهلالي – السُّليمي على ظهير التملك، قبيل التوجه غربا، لولا مساعي الصلح التي تبنتها السلطة الفاطمية، تحقيقا للتأليف بين العرب "تأليفا يذعن له جموعهم، ويمنعهم من أن يتنازعوا فيفشلوا وتذهب ريحهم، ولتكون كلمتهم على استئصال الكفر للنعمة متفقة"؛[1] وتم التوجه نحو هذه الخطوة بعد أن أشار الوزير الفاطمي "أبو محمد الحسن بن علي اليازوري" على المستنصر بتوجيه القبائل العربية المتواجدة بالصعيد من جشم والأثبج وزغبة ورياح وربيعة وعدي، كخطوة لمحاربة صنهاجة والظفر بسلطة إفريقية لصالح الهلاليين الذين سيكونون عمالا للفاطميين في حالة انتصارهم، خاصة وأن "أمر العرب البادية أسهل من أمر صنهاجة الملوك".[2] هذه النصيحة الميكيافيلية Conseils machiavéliques على حد تعبير بونسيه،[3] كانت بحاجة لخطوات عملية من شأنها إنجاح عملية العبور والانتقال، فكان التوجه نحو الإصلاح بين زُغبة ورياح من بطون هلال لعداوة وفتن وحروب بينهما، وقد قام بالمهمة مكين الدولة حسن بن علي "ابن ملهم"،[4] حيث: "بعث إلى عشائرهم وقبائلهم فأقبلوا إلى مصر –وكانوا نازلين بالصعيد–... فلما اجتمع منهم بمصر ما اجتمع نظر في تجويزهم ووجه معهم قائدا من قواده وقال لهم: "إن جاوزتم مدينة برقة فأغيروا ولكم

[1]) السجلات المستنصرية، المصدر السابق، ص44؛ لم يفكر الفاطميون قبل هذا الوقت في الإصلاح بين العرب، لأن استمرار التفكك القبلي والتناحر والصراع الداخلي العربي–العربي يخدم السلطة الفاطمية ويحول دون تقوية الجبهة الداخلية الهلالية السليمية، لأنهم كانوا مصدر فوضى وهم مشتتون ومتصارعون، ويكون تخوف السلطة منهم أكبر في حال التقارب، لذلك فقد ارتبطت المصالحة بينهم مباشرة بتوجيههم غربا.

استراتيجية مكين الدولة كانت مضبوطة لأن نتائجها جاءت مشجعة بالنسبة للفاطميين: "لم يذر غلا في الصدور إلا نزعه، ولا شملا من صلاح الجمهور إلا جمعه، وأن أصناف العرب دانت له دين الأمم لربها، ودارت على قضايا أمره ونهيه دور الرحى على قطبها"؛ السجلات المستنصرية، ص44.

[2]) ابن خلدون: العبر، ج6، ص19؛ بالموازاة مع ذلك، أرسل اليازوري للمعز مخاطبا: "أما بعد فقد أرسلنا إليك خيولا وحملنا عليها رجالا فحولا ليقضي الله أمرا كان مفعولا"؛ ابن خلدون: العبر، ج4، ص79؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص216؛ عبد الله بن محمد بن أحمد التجاني: رحلة التجاني، تقديم: حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، تونس، 1981، ص19؛ ويبدو أنها كانت آخر مكاتبة بين الطرفين، والنهاية الفعلية المعبّرة عن القطيعة، حيث يشير ابن ميسر أن المعز وبعد أن بلغه إباحة اليازوري أعمال القيروان للهلاليين وأمرهم بإفسادها، قطع مكاتبته عن الدولة بالجملة"؛ المصدر السابق، ص12.

[3]) Jean Poncet: Le mythe de la «catastrophe» hilalienne, Annales, 1967, 22 année- N.5, p1099; Hady Roger Idris: L'invasion hilālienne et ses conséquences, Cahiers de Civilisation Médiévale, 1968, année 11, N. 43, p362.

[4]) ابن ميسر: المصدر السابق، ص12؛ يشير محقق السجلات إلى أن الهمداني أخطأ في قراءة الاسم "حسن بن علي بن ملهم"، في حين يعتقد أن الأصح هو "حسن بن علي" وأن الكلمة التالية ليست ابن ملهم إنما "بوصلهم" كما أوردها في الرسالة، لكننا نعتقد أن الأصح هو "حسن بن علي بن ملهم" مثلما ورد عند ابن ميسر، ص12، والمقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص215.

ما غلبتم عليه"، ففعلوا ذلك".[1] ومُنِحوا: "خلعا سنيّة وإنعاما كثيرة".[2] وقدّم لهم الفاطميون التسهيلات، وطلبوا منهم التوجه نحو القيروان، ووعدوهم بالمدد.[3]

تعامل الفاطميون مع المملكتين الصنهاجيتين على أنهما ضمن مناطق نفوذهم التاريخية، وأن الإجراءات التي قام بها الزيريون تعد خرقا لعهد التولية والاستخلاف، لذلك فإنهم أولوا للمسيرة الهلالية اهتماما خاصا، باعتبارها هادفة لاستعادة النفوذ على منطقة كانت مهدا لقيام كيانهم السياسي ووجودهم كقوة في العالم الإسلامي الوسيط يتطلع نحو المزيد من السيطرة والتوسع؛ وهو ما تعكسه رسالة المستنصر لـ "علي بن محمد الصليحي"[4] المؤرخة في رمضان 455هـ /1063م، والتي تنفي كون توجيه الهلاليين غربا مجرد عملية جواز قبلي، بل تكاد تأخذ صورة التحرك السياسي – العسكري، إذ أن الهلاليين انتقلوا حاملين راية الفاطميين، وهو أمر لا يخلو من دلالات مهمة.[5]

توجُّه الهلاليين نحو إفريقية كان وراءه الرغبة في التملك، التي أقرّتها لهم السلطة الفاطمية بوعودها وتحفيزاتها، فلما: "توجّه المذكورون إلى ديار ابن باديس وملكوها، وجمعوا ذيوله عليه، وقلموا أظفاره، وضيقوا خناقه حتى لم

---

[1]) أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن الشماع: الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق: الطاهر بن محمد المعموري، الدار العربية للكتاب، تونس، 1984، ص137.

[2]) أبو القاسم علي بن منجب الصيرفي: الإشارة إلى من نال الوزارة، تحقيق: عبد الله مخلص، عن النسخة الوحيدة المحفوظة في الخزانة الخالدية مطبعة المعهد العلمي الفرنسي 1923م، ص42؛ يشير أبو الحسن محمد بن علي بن الخطيب القرشي التلمساني إلى أن مستشاري الدولة عند المعز هم من اقترحوا عليه أن "يعمّر أحمالا من الذهب والفضة" للهلاليين بغرض تحفيزهم على التوجه غربا، ويبدو أن هذه التحفيزات كانت مطلبا هلاليا أكثر منها رغبة فاطمية، لأن العرب طالبوا الحكومة بمنحهم اثني عشر (12) حملا من الذهب والفضة، مقابل الاستيلاء على إفريقية وجعل تونس للخليفة، وهي الشروط التي وافق عليها الخليفة، وأعلن عن رغبته في التكفل بفقراء الهلاليين، لكن شيوخ القبائل عبّروا عن استعدادهم للقيام بذلك بأنفسهم؛ كتاب نسب زغبة ومنتهى أصلهم، تحقيق: طيب بوجمعة نعيمة، النشر الجامعي الجديد، تلمسان، الجزائر، 2019، ص81-84.

[3]) عزالدين بن الحسن بن الأثير الجزري: الكامل في التاريخ، تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، ج8، دار الكتب العلمية بيروت، 1987، ج8، ص296.

[4]) علي بن محمد الصليحي: هو مؤسس الدولة الصليحية باليمن، حكم باسم الخلافة الفاطمية، حيث كانت اليمن منطقة استراتيجية بالنسبة للفاطميين لمجاورتها بلاد الحجاز؛ ينظر: السجلات المستنصرية، ص18.

في قراءتنا للاستراتيجية الفاطمية في ترحيل الهلاليين، نخلص إلى أنها انطوت إلى جانب الاعتبارات الاقتصادية المشار إليها، أبعادا سياسية وأمنية، منها:

– السماح بعبور جميع الهلاليين للنيل دفعة واحدة، من شأنه أن يؤدي إلى مخاطر تهدد الأمن الفاطمي، فقد يفكر حينها الهلاليون بعد أن تم عقد الصلح بين قبائلهم في اجتياح الدواخل الفاطمية، بما أن لديهم معرفة بطبيعتها وطوبوغرافيتها ومواردها الاقتصادية، وعدم المجازفة بالتوجه نحو إقليم مجهول سياسيا واقتصاديا وتضاريسيا بالنسبة لهم، وبالتالي فإن هذه الخطوة المتمثلة في السماح بمرور جزء منهم هي خطوة احترازية وفي نفس الوقت هي جس لنبض الهلاليين لمعرفة مدى استعدادهم لتنفيذ الجواز والتزامهم، خاصة وأنهم عرفوا عادة بترددهم تجاه مخططات السلطة.

– لا نستبعد أن الفاطميين كانوا يعتقدون بأن وصول أفواج أولى من الهلاليين إلى حدود الزيريين الشرقية أو حتى سماع المعز بأخبار انطلاق الحملة، كان سيدفعه إلى القيام بقرارات استباقية كإعادة الدعوة للفاطميين وطلب الاعتذار، لكن تأخره في ذلك جعلهم يواصلون تنفيذ خطتهم إلى آخرها خاصة وأن إعادة الدعوة لهم جاءت متأخرة.

[5]) السجلات المستنصرية، ص ص43-45.

يتمكن من قتالهم إلا مستندا إلى حيطان إفريقية".[1] ولم يكن التخريب الذي رافق توسع وانتشار الهلاليين غاية في حد ذاته فحسب، بل ينظر إليه أيضا باعتباره موردا ماليا، ينجر عنه الحصول على الغنائم، ويؤدي إلى فرار الساكنة مما يجعل مجالاتهم مستباحة ليتملكها العرب، خاصة وأن الفاطميين أقطعوا لهم ما يسيطرون عليه.[2]

كما شكّل ظهير التملك دافعا وسندا شبه قانوني للقبائل الهلالية في حركتها نحو الغرب، إذ بدّد أي مخاوف محتملة من مصير مجهول في تحركها لأنه بمثابة ضمان من الدولة الفاطمية يتعلق بمنطقة من مناطق نفوذها (السابقة)، كما زرع في نفسية أفراد هذه القبائل شعورا بالأحقية في الاستحواذ على المنطقة والسيطرة عليها، وفي ظل غياب مشروع سياسي يمكن أن يُترجم هذا الظهير إلى تطلُّع نحو السلطة فقد تم التعامل معه في حدود نزعات القبائل الهلالية الباحثة عن مناطق التوسع الرعوي والنشاط الحرابي. خاصة وأن مضمونه يعكس رغبة الفاطميين في زرع مجموعات موالية لهم في مجالات بلاد المغرب لاعتبارات اقتصادية وسياسية مع تكريس التفريق بينها باقتسام المناطق، ومن هذا المنطلق يكون الصلح المعقود بينها مرحليا لتسيير الهجرة وترتيب التوزيع الهلالي والتحفيز على الاستقرار في المجالات المحددة وليس تطلعا لبناء كيان سياسي.

2- التحفيزات الاقتصادية في حركة العبور

لا شك أن الضائقة الاقتصادية التي كانت تمرّ بها مصر، مُقابل الإمكانيات التي تتوفر عليها بلاد المغرب، قد شكّلت معادلة مهمة ضمن التصور الفاطمي، الذي يستدعي استغلال الفرصة التي أوجدتها الظروف التاريخية، خاصة وأن أعداد الهلاليين في تزايد، كما أن الضغط الذي خلّفته السياسة المطبقة عليهم قد استمر طويلا.

راعت المغريات التي سوّقتها السلطة الفاطمية تلك الرغبة الجامحة التي تسكن الهلاليين في النهب والسلب والتخريب، والتي نعتقد أن حدّتها زادت أكثر بعد سياسة التضييق والحجر الممارسة عليهم بصعيد مصر، والتي منعتهم من حياتهم الطبيعية القائمة أساسا على الانتقال والترحال، وحالت دون ممارستهم لجزء من أنشطتهم الاعتيادية، لذلك لا نستغرب أن يكون الإفساد واحدا من أهم الأوامر التي تلقّتها المجموعات القبلية العربية من السلطة الفاطمية،[3] وهو الأمر الذي يفسّر معرفة السلطة للتركيبة البدوية التي تنزع نحو التخريب، فحاولوا استثارة هذه الرغبة واستثمارها في الانتقام من الزيريين، وبالتالي فقد سعوا إلى تغيير مواقع الخراب والرعب من ضواحي دولتهم إلى مناطق أبعد، في إطار تدبير العنف في المجتمع البدوي وفي علاقته مع الدولة، غير أنه وتساوقا مع التصور الذي قدّمناه سابقا بخصوص تحديد مجالات الانتشار، فإنه من المرجح أن يكون هذا التوجيه الفاطمي محدودا ومرتبطا بممتلكات العائلة الصنهاجية وحاشيتها، لأن القول بتلقي أوامر للتخريب الشامل يتنافى ورغبة الفاطميين في استمرار التمويل ببعض موارد المنطقة.

---

[1]) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص215.

[2]) ابن خلدون: العبر، ج4، ص79.

[3]) ابن ميسر: المصدر السابق، ص12.

لم تكن التحفيزات المادية مجرد وعود مؤجلة وإقطاعات على الخريطة، بل إن الخزينة الفاطمية خصصت مبالغ مالية لتسهيل العبور ودفع الهلاليين إليه، حيث تذكر المصادر أن الأفواج الأولى استفادت من تخصيصات مالية معتبرة، فقد جعلوا لمن جاز فروة ودينارا، فعبر منهم الكثير.[1] وأجزلوا لأمراء العرب العطاء ومُنح لعامتهم بعير ودينار لكل واحد، كما وعدهم وزير المستنصر بعدم الافتقار عند الوصول لإفريقية.[2]

يذكر ابن بسام أن السماح لبني هلال بعبور النيل نحو بلاد المغرب، كان: "أمنية لطالما تحلّبت إليها أطماعهم، وعكفت عليها أبصارهم وأسماعهم، فغشاه منهم سيل العرم".[3] والتجاني (675-717هـ/1277-1317م) الذي ينقل رأي ابن بسام في أمنية العرب في الجواز نحو بلاد المغرب يضيف: "فإنهم كانوا قبل ذلك نازلين بصعيد من أرض مصر لا يُحدِّثُون أنفسهم بالجواز إلى هذه البلاد"،[4] ثم يعود ليشير إلى أن الوزير الفاطمي حينما كلفهم بالعبور ترددوا، فاضطر لتحفيزهم بدينار وفرو لكل شخص يعبر النيل، لكن عندما وصلوا إفريقية واستطابوها أرسلوا لغيرهم ممن تبقى يطلبون منهم اللحاق، فلم يتركهم وفرض على كل من يريد العبور فروا ودينارا.[5]

كما أن عبد الواحد المراكشي الذي لا يذكر تفاصيل الانتقال، لا يشير إن كان الفاطميون قد قدّموا تحفيزات مادية للهلاليين مقابل غزوهم لبلاد المغرب، حيث يكتفي بالقول: "خرجوا إلى البلاد حين خلّى بنو عبيد بينهم وبين الطريق إلى بلاد المغرب".[6]

هذا الطرح، يحيلنا إلى فرضية مغايرة، تنفي مؤشراتها أن يكون الفاطميون قد قدّموا تحفيزات مالية للهلاليين مقابل توجههم نحو بلاد المغرب، فما معنى دعم المجموعات الهلالية لدفعها نحو الغرب وهي كانت تنتظر فتح المجال أمامها بشغف؟. قد يكون الدفع عربونا من الفاطميين لإبداء حسن النية بغرض تنفيذ المخطط الفاطمي، خاصة مع بُعد المسافة ومتطلبات الرّحيل.

وهناك تصور مختلف تماما، يجرنا إليه ما أشار له النويري، من أنه في سنة 469هـ/1077م، خرجت جموع من قيس وسليم وفزارة على أمير الجيش الفاطمي، فقاتلهم وانتصر عليهم وطردهم إلى برقة.[7] وبذلك هل يمكن القول بأنه في فترات لاحقة أصبح التوجيه نحو الغرب شكلا من أشكال العقاب؟

---

[1]) محمد بن عبد الله لسان الدين ابن الخطيب: أعمال الأعلام، تحقيق: أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964، ج3، ص71.

[2]) ابن خلدون: العبر، ج6، ص20؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص216.

[3]) ابن بسام: المصدر السابق، ق 4، مج2، ص614؛ التجاني: المصدر السابق، ص18.

[4]) التجاني: نفسه، ص16.

[5]) نفسه، ص20.

[6]) محيي الدين عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، القاهرة، 1994، ص189.

[7]) النويري: المصدر السابق، ج28، ص152.

بعد تجاوز الأفواج الأولى من الهلاليين لبرقة، راسلوا من بقي منهم بشرقي الصعيد لترغيبهم في اللحاق بهم، حيث يقول المقريزي: "فأعطوا من الدولة دينارين لكل واحد، ومضوا إلى أصحابهم".[1] كما يذكر ابن الشماع[2] متحدثا عن الأفواج اللاحقة من الهلاليين: "فأقبل منهم إلى مصر خلق كثير يطلبون الجواز"، ففرض عليهم الفاطميون الدفع مقابل السماح بالجواز، وجمعوا بذلك أكثر من نفقاتهم على الأولين. ويبدو أن المردود المالي الذي عاد على الخزينة الفاطمية لم يكن من ضريبة الخروج المفروضة على الجائزين فقط، إذ يشير ابن ميسر إلى وصول أموال كثيرة بعد تخريب القيروان: "سيّر –متحدثا عن اليازوري– بعد تخريب إفريقية: "ملك أموالا جمّة".[3]

انطلاقا من هذا التصور، وإذا أخذنا بتقديرات بعض المؤرخين لتعداد الهلاليين والسليميين الذي عبروا النيل نحو بلاد المغرب (بين 50.000 و1.000.000 نسمة) يكون حجم إيرادات الخزينة من ضريبة الخروج فقط بين 100.000 و2.000.000 ديناري ذهبي، وهو مبلغ مهم، مما يحيلنا إلى التشكيك في حقيقة الأعداد التي ذكرها المؤرخون من جهة، وفي حقيقة فرض دفع الضريبة من جهة أخرى. ثم إن السؤال المهم كذلك يتمحور حول انعكاس قيمة هذه الكتلة النقدية على الحياة الاقتصادية والاجتماعية في مصر خلال هذه الفترة، دون التغافل عن حجم التراجع الديمغرافي بسبب هذا الانتقال، خاصة وأن المصادر المصرية –في حدود اطلاعنا– لا تشير إلى انتعاش الخزينة، بل أن الأمور الاقتصادية تعقدت أكثر، فبماذا يمكن تفسير تفاقم الأزمة الاقتصادية في وقت استقبلت الخزينة مبلغا مهما وفقدت المجموعة السكانية عددا معتبرا من أفرادها؟

عند محاولتنا معرفة انعكاسات الهجرة الهلالية نحو المغرب على الوضع في مصر الفاطمية، في أهم الدراسات الحديثة لم نعثر على مقاربات مهمة في هذا الجانب، بل إن بعض الدراسات[4] التي اختصت في الدولة الفاطمية لا تكاد تشير للأمر إطلاقا، غير أنه يمكن أن نستنتج الرؤية الفاطمية بمنظور اقتصادي لعملية توجيه الهلاليين غربا، من خلال:

– تحديد مخصصات مالية وتحفيزات لجميع الهلاليين قصد الجواز سيؤدي إلى تضرر بيت المال الفاطمي، وبالتالي تم إقرار تشجيعات للأفواج الأولى، والقيام بعملية عكسية بعد استكشاف الهلاليين لمجالات غرب برقة وطرابلس وإفريقية والاطلاع على ثراءها الاقتصادي.

– احتواء بعض الغنائم الناتجة عن الغزو الهلالي والتي نعتقد أن جزءا منها حوّل من طرف الهلاليين إلى ضرائب خروج من الصعيد تدفع لصالح الفاطميين.

---

1) اتعاظ الحنفا، ج2، ص217؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص20.

2) المصدر السابق، ص137.

3) ابن ميسر: المصدر السابق، ص17.

4) ومن ذلك:

Yaacov Lev: State and Society in Fatimid Egypt, Brill, Leiden, The Netherlands, 1991.

إن خيار الدفع بالهلاليين غربا، مع بعض التحفيزات المالية، وفّر على الدولة الفاطمية بمصر التدخل العسكري[1] – الذي لم يكن خيارا مطروحا بقوة وبطريقة مباشرة– في إفريقية، على إثر القطيعة التي حدثت بين الفاطميين والزيريين، وبالتالي فإن استغلال الهلاليين في هذه العملية قد عكس اعتبارات عديدة كانت وراء الخطة الفاطمية؛ وبالعودة إلى ما أورده ابن الخطيب، يتبين أن الفاطميين لم يفكروا إطلاقا في تحمّل التبعات المالية لأي حملة ضد إفريقية، فوزير المستنصر عندما بلغه خبر خروج المعز عن طاعة الفاطميين، قال: "لأرمينه بجيوش لا أتحمل فيها مشقة".[2] وفي ذات السياق يقول أيضا: "والله لا جيشت له جيشا ولا تحملت فيه نصبا".[3] ويوضح ابن حماد الصنهاجي رد فعل الوزير على المعز مخاطبا المستنصر: "لا تكلف له ولا تجهز له جندا ودبر إجازة العرب النيل إلى إفريقية".[4]

رغم أن مؤشرات الوضع الاقتصادي في مصر تعكس نوعا من التراجع تزامنا والهجرة الهلالية، إلا أن الفاطميين لم يتوانوا في تحفيز الهلاليين ماديا للدفع بهم نحو الغرب، إدراكا منهم بأن إجراءً من هذا النوع من شأنه التخفيف من حجم الهزات الاقتصادية، رغم أن المصادر لا تتيح تتبع التأثير الذي أحدثه الانتقال على الوضع الاقتصادي في مصر.

3- الخلفية الاقتصادية للهجرة الهلالية

يعترف بعض المؤرخين والباحثين أن الانتقال الهلالي من مصر إلى بلاد المغرب يطرح الكثير من التساؤلات ويفرز العديد من الإشكاليات المرتبطة بالأسباب والعوامل والظروف والسياقات، وأيضا بالانعكاسات، وهو ما دفع بمحمد علي چلونگر ومهدى عزتى[5] إلى القول بأن الهجرة الهلالية إلى بلاد المغرب لم يتم تناولها بشكل كاف من طرف المؤرخين العرب وحتى الغربيين، وإن كانت الدراسات موجودة إلى حد ما، إلا أن الانجرار خلف جنس من المصادر والانتصار لتفسير من التفسيرات هو الذي طغى على الطروحات التي قدّمتها.

[1]) إرسال العرب الهلالية نحو إفريقية سبقته تهديدات شديدة اللهجة للزيريين، لكن وعلى إثر تأزم العلاقة بين الفاطميين والمعز، أرسل له وزير المستنصر "الجرجرائي": "إن لم ترجع عن رأيك، أتتك الجيوش موصلة سنابك خيلها، ناسخة بنقعها ووميضها حكم نهارها وليلها"؛ التجاني: المصدر السابق، ص20؛ هذه الإشارة التاريخية قد توحي بأن فكرة التدخل العسكري أو على الأقل التهديد به –والتي ارتبطت على ما يبدو بفترة وزارة الجرجرائي– لا يقصد منها بالضرورة القبائل الهلالية، إذ قد يفسّر الأمر على أنه تحضير لتدخل عسكري نظامي تشرف عليه المؤسسة العسكرية الفاطمية، لكن تم التراجع عليه والتفكير في بديل آخر وهو الدفع بالهلاليين والسُّليميين في هذه المواجهة، ذلك أن فتح الجيش الفاطمي لجبهة صراع جديدة في ظل الظروف السياسية والعسكرية والاقتصادية التي كانت تمرّ بها مصر يعد خطوة انتحارية.

[2]) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج3، ص71.

[3]) التجاني: المصدر السابق، ص19.

[4]) أبي عبد الله محمد بن علي ابن حماد الصنهاجي: أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق: التهامي نقرة وعبد الحليم عويس، دار الصحوة، القاهرة، 1981م، ص104.

[5]) المرجع السابق، ص117.

أورد المؤرخون عديد التفسيرات للدوافع التي جعلت الهلاليين ينتقلون إلى بلاد المغرب، أو دفعت بالفاطميين إلى توجيههم، وركّز الكثير منهم على الدوافع السياسية والمذهبية، على إثر خروج "المعز بن باديس" (ح406-454هـ/1015-1062م) صاحب إفريقية عن طاعة الفاطميين، ومبايعته للخليفة العباسي "القائم"(ح422-467هـ/1031-1075م) والدعوة له على المنابر.[1] إذ تجعل أغلب المصادر من الدافع المذهبي السبب الرئيس في نزعة المعز الانفصالية، وهو الذي أعلن تنكّره للشيعة ومناصرته للسُّنة منذ بداية ولايته،[2] مع أنه كان يُظهر تشيّعه.[3] ولم تكن خطوة القطيعة النهائية فجائية، بل سبقتها مقدمات كانت تنبئ بوقوعها.[1]

---

[1]) اختلفت المصادر في تقدير التاريخ الذي حدث فيه التحول في الولاء والتبعية:

التاريخ	المصدر
435هـ	ابن الأثير: المصدر السابق، ج8، ص265-266؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص190.
437هـ	ابن خلدون: العبر، ج6، ص19.
440هـ	ابن الأثير: المصدر السابق، ج8، ص295، ابن خلدون: العبر، ج4، ص79، ج6، ص211، المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص216، ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص298-299؛ أبو العباس شهاب الدين القلقشندي: صبح الأعشى، دار الكتب الخديوية، القاهرة، 1914، ج5، ص125.
443هـ	ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص306؛ ابن ميسر: المصدر السابق، ص12.

ولعل ابن عذارى من المؤرخين القلائل الذين أشاروا إلى أن قطع الدعوة تم على مراحل، فكانت القطيعة النهائية سنة 440هـ/1048م: "ولم يزل المعز يعمل فكره في قطع الدعوة لهم إلى أن كانت سنة أربعين وأربع مئة"؛ المصدر السابق، ج1، ص298-299. وقد حاول شوستر تتبع كرونولوجيا القطيعة بين الزيريين والفاطميين؛ Gerald Schuster , Op.cit, p39-45

أزال المعز اسم المستنصر من الطرز والرايات ونشر الرايات السود وهدم دار الإسماعيلية؛ ويذكر المقريزي أنه في سنة 443هـ/1051م بعث رسولا إلى بغداد ليقيم الدعوة العباسية، لكن الرسول الذي كُلّف بإحضار الخِلع إلى المعز مرّ على بلاد الروم فقبض عليه، ما جعل المعز يرسل لقسطنطين ملك الروم في أمره لكنه لم يجبه رعاية لحق المستنصر؛ اتعاظ الحنفا، ج2، ص214-216؛ وفي جمادى الآخرة من سنة 443هـ/1051م "كان لباس السواد بالقيروان، والدعاء لبني العباس"، بعد أن بدّل المعز السكة شهر شعبان من سنة 441هـ / 1049م. كما يشير التجاني إلى أن لعن المعز للعبيديين كان سنة 444هـ/1052م؛ المصدر السابق، ص328. (من المهم هنا الإشارة إلى أن صالح بن قربة قد قسّم دنانير المعز إلى: **1- دنانير مضروبة قبل الانفصال** 406-439هـ: ضربت بأسماء الخلفاء العبيديين. **2- دنانير الاستقلال** 439-449هـ/1047-1057م: أخذت طراز محلي يجسّد روح الاستقلال السياسي والمذهبي. **3- دنانير ما بعد الاستقلال** 449-454هـ/1058-1062م: مضروبة بالمهدية وتؤكد على عودة المعز إلى طاعة الدولة الفاطمية؛ صالح بن قربة: المسكوكات المغربية من الفتح الاسلامي إلى سقوط دولة بني حماد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص ص485-496).

وبالتالي، فإن جُلّ التواريخ التي قدّمتها المصادر حول فك الارتباط بين الزيريين والفاطميين تمتد بين 435هـ-1043م و443هـ-1051م، والسبب راجع إلى تردد الزيريين في فسخ علاقتهم بالفاطميين واعتمادهم مبدأ التدرج، لجس النبض وتحسس ردة الفعل الفاطمي من جهة، وأيضا بحثهم عن غطاء عباسي في هذا الظرف من جهة ثانية، وهو ما جعل القطيعة تتم بشكل مرحلي وبإجراءات متدرجة.

[2]) ابن خلدون: العبر، ج6، ص211؛ يذكر ابن عذارى أن قطع المعز لمذهب الشيعة في بلاده كان بتحريض من ابن أبي الرجال، فالمعز كان صغير وولي العرش وهو صبي؛ المصدر السابق، ج1، ص298-299. في حين يشكك روجي إدريس فيما أوردته المصادر السنية من تأويل "شبه خرافي" يجعل القطيعة إنجازا لمخطط استنبطه المعز في شبابه؛ المرجع السابق، ج1، ص214.

[3]) نفسه، ج1، ص214؛ لتتبع أحداث قتل الشيعة بين (405هـ/1014م إلى 423هـ/1031م)؛ طارق بن زاوي: استقلال المعز بن باديس الزيري عن الدولة الفاطمية (406-454هـ/1016-1062م)، مذكرة ماجستير في التاريخ الوسيط، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2008/2009م، ص ص119-132.=

يُرجع بعض المؤرخين الاتجاه نحو القطيعة فضلا عن عدم التوافق المذهبي والسياسي بين الفاطميين والمعز، إلى المشكلة التي حدثت بين الأخير والوزير الفاطمي "أبو محمد الحسن بن علي اليازوري"،[2] الذي كان له دور كبير في

=تذكر الرواية أن المعز كان ماشيا ذات مرة في القيروان وعثرت دابّته فقال: "أبوبكر وعمر"، وعندما سمعه أهل القيروان قاموا بقتل الكثير من الشيعة في القيروان وأحوازها، حتى وصل عدد الشيعة المقتولين عشرون ألفا (20.000)؛ مجهول: المصدر السابق، ص168؛ لكن، بعض المؤرخين يشككون في الأرقام التي قدمتها المصادر حول أعداد الشيعة الذين كانوا ضحية المذبحة السنية الزيرية (مذبحة نفطة سنة 423هـ/1031-1032م)، ومرتكزهم في ذلك هو أن العلاقات بين الزيريين والفاطميين استمرت بعد هذه الحادثة ولم يحدث رد فعل فاطمي يعكس حقيقة هذه المجزرة؛ ينظر:

Roger Idris: De la réalité de la catastrophe hilâlienne, Annales, 1968, 23 année- N.2, p392.

ويركز "برات ميكاييل" Brett Michael على الدور الذي لعبه الفقهاء السنة في توجيه المعز والرأي العام في نظرتهم للشيعة؛ Op. cit, p52-53.

وعندما بلغ خبر المجزرة والاعتداء المذهبي، الوزير الفاطمي بالقاهرة "أبو القاسم علي بن أحمد الجرجاني"؛ الذي يربط أبو محمد المرتضى القيسراني المعروف بابن الطوير بداية انحلال الدولة الفاطمية في مصر بوفاته في رمضان 436هـ/ مارس 1045م، أرسل للمعز محذّرا من تداعياته؛ نزهة المقلتين في أخبار الدولتين، تحقيق أيمن فؤاد سيد، دار فرانتس شتايتز، شتوتغارت، ص42؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص211.

[1]) ومن ذلك رفض نخبة مدينة القيروان وساكنتها بتأثير من الفقهاء وأهل السنة إقامة صلاة الجمعة في المسجد: "لما رحل بنو عبيد إلى مصر، لم يزل ملوك صنهاجة يخطبون لهم بإفريقية، ويذكرون أسماءهم على المنابر. وتمادى الأمر على ذلك حتى قطع أهل القيروان صلاة الجمعة فرارا من دعوتهم، وتبديعا لإقامتها بأسمائهم، فكان بعضهم إذا بلغ إلى المسجد قال سرا: "اللهم اشهد، اللهم اشهد" ثم ينصرف، فيصلي ظهرا أربعا، إلى أن تناهى الحال حتى لم يحضر الجمعة من أهل القيروان أحد. فتعطلت الجمعة دهرا، وأقام ذلك مدة إلى أن رأى المعز بن باديس قطع دعوتهم، فكان بالقيروان لذلك سرور عظيم"، ثم أمر المعز بلعنهم في الخطب وخلعهم؛ ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص303؛ وفي في سنة 501هـ، تقلّد يحيى بن تميم بن المعز السلطة في إفريقية، وراجع طاعة العبيديين؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص214.

إن وقوع المعز تحت تأثير محيط دولته ورعيته، جعله يأخذ ببعض الإجراءات التصعيدية تجاه المذهب الشيعي، ومنه نحو الدولة الفاطمية. وبالمنظور السياسي كان التفكير في الإقدام على إجراء كهذا بعزل نفسه خطوة انتحارية غير محسوبة العواقب. والمرحلية التي تمت بها مقاربة ملف القطيعة والتبعية توحي بنوع من الاضطراب والتردد في الانعتاق من السلطة الفاطمية بين الرأي العام الذي تحركه نخبة الفقهاء المالكية والرهانات السياسية في العلاقة مع الفاطميين، وبالتالي فإننا نعتقد أن قطع الخطبة للفاطميين لم يكن ينم عن رؤية سياسية تتطلع إلى الانفصال والاستقلال، بقدر ما تعمّق هذا التوجه تحت ضغط القوى الدينية النافذة في إفريقية.

[2]) "الحسن بن علي اليازوري" (442-450هـ/1050-1058م)، شغل قبل الوزارة مناصب القضاء والدّعوة وتولي النظر في ديوان أم المستنصر، فنعت بـ: "النّاصر للدين غيّاث المسلمين الوزير الأجل المكرّم سيد الرؤساء تاج الأصفياء قاضي القضاة وداعي الدعاة"، لكنه عزل عقب انهزام الفاطميين أمام السلاجقة؛ ينظر: ابن الطوير: المصدر السابق، ص42-43؛ ويذكر ابن الأثير أن القبض عليه كان في ذي الحجة من سنة 449هـ؛ ينظر: المصدر السابق، ج8، ص338؛ يصفه الصيرفي (463-542هـ / 1071-1147م): "الوزير الأجل الأوحد المكين سيد الوزراء تاج الأصفياء قاضي القضاة وداعي الدعاة علم المجد خالصة أمير المؤمنين أبو محمد الحسن ابن علي ابن عبد الرحمن اليازوري"، وسمي اليازوري لأن والده كان من أهل يازور وهي قرية من عمل الرملة بفلسطين؛ المصدر السابق، ص40؛ وقد تقلد أبي محمد اليازوري الوزارة يوم 07 محرم 442هـ، ولم يكن من أهل الوزارة والكتابة؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص212؛ لتتبع سيرة اليازوري يمكن العودة إلى: ريم هادي مرهج: دور الوزير الفاطمي اليازوري وسياسته الداخلية والخارجية لمصر، مجلة التراث العلمي العربي، جامعة بغداد، ع4، 2017، ص ص1-33.

وعن أسباب الخلاف، يبدو أن الوزير الفاطمي انزعج من مخاطبة المعز له بصنيعته (الفلاحة) عكس ما كان يخاطب به سابقه، وهو الأمر الذي يعدّ تجاوزا للأعراف الدبلوماسية، مما جعل الوزير يؤلب المستنصر على المعز وأغراه بإرسال العرب؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج8، ص295؛ ابن ميسر: المصدر السابق، ص12، 17؛ ويعزي الصيرفي -الذي يعدّ من بين أقدم المؤرخين الذين نقلوا حادثة فك الارتباط بين المعز والمستنصر- ذلك إلى سوء التواصل بين المعز واليازوري، وهو الأمر الذي أدى إلى تعميق الخلاف بينهما، حيث حدّث اليازوري نائبه: "أكتب إلى هذا البربري الأحمق وقل له إن عقلت وأحسنت أدبك وإلا جعلنا تأديبك بهذه"، وكان المعز يمتنع عن الرد على تهديدات اليازوري؛ المصدر السابق، ص42.=

إقناع المستنصر باقتراحه توجيه القبائل الهلالية إلى إفريقية، لأنهم يشكلون مصدر إزعاج متزايد للفاطميين، وقد يكونون في حال نجحوا في مهمتهم بإفريقية ممثلين عنهم، وفي النهاية ليس هناك ما سيخسرونه من هذه العملية.[1]

تشير "ماريبيل فييرو" Maribel Fierro[2] إلى أن المعطى الاقتصادي المتمثل في الموقع الذي احتلته القاهرة تجاريا بعد انتقال الفاطميين إلى مصر جعلها تحل محل القيروان، وهو ما يدفعنا إلى التفكير في أن الحركة الانفصالية الزيرية كانت لها خلفية اقتصادية[3] متعلقة بتراجع دور القيروان في محور شبكة طرق التجارة، حيث أصبحت مصر محطة أساسية في محور الطرق التجارية الرابطة بين مصر والأندلس إلى صقلية، وعبر الصحراء إلى وسط وغرب السودان، وهو ما تعكسه وثائق الجنيزة، لكن هذا لم يمنع القيروان من مواصلة دورها التجاري كونها مركزا مهما من مراكز تسويق التجارة البرية الصحراوية.

غير أن هذه الفرضية تصطدم بسؤال النتائج الذي يتمركز حول المنتظر اقتصاديا من خطوة القطيعة، فحتى خلال المذابح التي تعرض لها الشيعة في إفريقية لم نعثر على تأكيدات مصدرية صريحة وواضحة تعكس تدهور المبادلات التجارية بين إفريقية ومصر، لكن يمكن أن نفترض حدوث تذبذب في التواصل التجاري بين الإقليمين. ويشير حرص الفاطميين بمصر على استمرارية تبعية المغرب الإسلامي لسلطتهم لإدراكهم حقيقة الثقل الاقتصادي للمنطقة، وأهمية بعض السلع الواردة عبرها.

=في حين؛ يذكر كل من أبي بكر الزهري صاحب كتاب الجغرافية (القرن 06هـ/12م) وابن الشماع (القرن09هـ/15م) وابن أبي دينار (القرن 11هـ/17م) أن المعز كان يكاتب وزير المستنصر ويحاول استمالته بالتلميح وبالتالي الإيقاع بينه وبين الخليفة المستنصر، ومما ورد في إحدى رسائله إليه: (البسيط)

وَفِيكَ صَاحبتُ قومًا لا خِلاقَ لهم لَولاكَ ما كُنتُ أَدرِي أَنَّهُم خُلِقُوا

ما جعل الوزير يقول لبعض أصحابه: "ألا تعجبون من صبي بربري مغربي يحب أن يخدع شيخا عربيا عراقيا". لذلك فإننا نعتقد أن الوزير المقصود من هذه الرواية هو الجرجرائي وليس اليازوري، لأن الجرجرائي هو الذي ولد في جنوب بغداد؛ بن أبي بكر الزهري: المصدر السابق، ص111-112؛ ابن الشماع: المصدر السابق، ص136؛ أبو عبد الله محمد ابن أبي دينار القيرواني: كتاب المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، مطبعة الدولة التونسية، تونس، 1286هـ، ص83.

القاسم المشترك بين الروايتين، هو أوصاف التحقير للمعز بوصفه بربريا "أحمق وصبي"، وإن كان الوصف الثاني دلالة على صغر سن المعز عندما تولى أمور الدولة الزيرية، إلا أنه لا يخلو من استنقاص واستهزاء. ومن جانب آخر تعكس هذه الروايات وجود مخطط زيري لاختراق البلاط الفاطمي من خلال وزراء المعز، ولا نستبعد أن الصدام الذي حدث بينه وبين اليازوري كان نتيجة لفشل هذا المخطط.

1) Ernest Mercier: Histoire de l'Afrique septentrionale (Berbérie) depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête français (1830), Ernest Leroux éditeur, Paris, 1868, Tome 02, p16.

تعكس الأدبيات الهلالية المتوارثة ذلك الاحترام الذي يكنّه الهلاليون للخليفة الفاطمي، كما يعتبر الهلاليون حادثة فك الارتباط بمثابة طغيان زيري؛ أبي الحسن القرشي التلمساني: المصدر السابق، ص78-79.

2) the Fatimids and the Islamic world, in: The World of the Fatimids, Ed. Assadullah Souren Melikian-Chirvani, The Institute of Ismaili Studies in London, and Hirmer Verlag in Munich,and the Aga Khan Museum in Toronto, 2018, p233.

3) لتتبع الخلفية الاقتصادية للصراع الفاطمي الزيري ينظر: عودة حسان عواد أبو شيخة: الصراع بين بني زيري والفاطميين وأسبابه الاقتصادية، حوليات آداب عين شمس، كلية الآداب، جامعة عين شمس، مج33، سبتمبر 2005، ص ص83-122.

يذهب الوزّان إلى أن السبب الذي دفع اليازوري للإشارة على الخليفة المستنصر –الذي تأثّر كثيرا بخروج المعز عن سلطة الفاطميين– بنقل الهلاليين هو دافع ديمغرافي–اقتصادي بالأساس، حيث حدث اختلال كبير في التوازن، لأن عرب شبه الجزيرة العربية المتواجدون بالصعيد "تكاثروا إلى حد أن البلاد أصبحت اليوم لا تسعهم جميعا، وما تنتجه الأرض يكاد لا يكفي لعلف الماشية لشدّة قحطها. والناس لا يشكون فيها قلة الأماكن للسكنى فحسب، وإنما يعانون أيضا قلة الطعام"،[1] خاصة وأن الهلاليين في الصعيد قد انضم إليهم غيرهم من أبناء عمومتهم "ومن الأخلاط والسواقط من البدو"،[2] وهو ما دفع اليازوري إلى اقتراح توجيههم نحو إفريقية، ومع إدراك المستنصر للضرر الذي سيلحقونه بها، إلا أنه اعتبرها قد ضاعت منه، وأقل ما قد يكسبه هو المستحقات التي يدفعها العرب مقابل عبورهم نحوها مثلما أشار عليه وزيره، والتي حددت بدينار لكل شخص.[3]

جدير بالإشارة إلى أن مصر شهدت فترات مهمة خلال القرن العاشر الميلادي اضطرابات سياسية كبيرة، مما أثّر على الاقتصاد المصري، حيث سجّلت هذه المرحلة صراعا فاطميا – عباسيا على الذهب السوداني انتهى بسيطرة الفاطميين على جل مسالك توريده فيما بعد، كما دخلت البلاد في عهد من الاضطرابات بعد وفاة "محمد بن طغج الإخشيد" (323-334هـ/935-946م)، إلى جانب تراجع منسوب نهر النيل سنة 355هـ/966م، وهو ما أثّر في الأسعار.[4]

مع سيطرة الفاطميين على مصر بدأت وثبة جديدة من الازدهار الاقتصادي الذي طبع المنطقة من نهاية القرن 04هـ/10م إلى غاية النصف الثاني من القرن 05هـ/11م، ورغم أن هذه المدة شهدت بعض الاضطرابات القليلة لكن لم يكن لها تأثير كبير على الحياة الاقتصادية، التي بدأت تتدهور في عهد الخليفة المستنصر بسبب الاضطرابات التي حدثت على مستوى نظام الحكم الفاطمي وضعف فيضان نهر النيل، على أن النظام الفاطمي تمكن من إطالة عمره بعد سياسة كل من الوزير بدر الجمالي الذي تقلد المنصب سنة 465هـ/1073م، وبعده ابنه الفضل الجمالي (ت515هـ/1121م). والملاحظ أن الفاطميين عندما انتقلوا إلى مصر احتفظوا بنفس النظام الزراعي، غير أن ما طبع الفترة الفاطمية هو زيادة عدد المزارعين ومستأجري الأراضي الزراعية ممن ينتمون إلى القطاع العسكري.[5]

---

[1]) الوزان: المصدر السابق، ص44-45.

[2]) بسبب تزايد أعدادهم بشكل كبير على مدار حوالي قرن، يعتقد عبد الحميد يونس أن منعهم من النقلة غربا أصبح من الصعب الحيلولة ووقوعه، وبالتالي يكون الانتقال الهلالي نتيجة حتمية، المرجع السابق، ص67.

[3]) الوزان: المصدر السابق، ص44-45.

[4]) Eliyahu Ashtor: Histoire des prix et des salaires dans l'Orient médiéval, École Pratique des Hautes Études. Centre de Recherches Historiques, S.E.V.P.E.N, Paris, 1969, p80.

حول الغلاء؛ ينظر: بلقيس عيدان لويس: الغلاء وارتفاع أسعار المواد الغذائية في مصر من سنة 358هـ/968م ولغاية سنة 567هـ/1171م، مجلة الأستاذ للعلوم الانسانية والاجتماعية، كلية التربية للعلوم الانسانية، جامعة بغداد، ع123، 2010، ص ص264-271.

[5]) Eliyahu Ashtor: Op. cit, p117.

شهد الاقتصاد المصري خلال الحكم الفاطمي توسعا كبيرا، حيث انتعشت الأسواق وكثرت السلع،[1] وازدهرت العلاقات التجارية المصرية مع دول البحر الأبيض المتوسط والشرق الأقصى، وأصبحت الإسكندرية في القرن 05هـ/11م مركزا تجاريا يستقطب التجار والسفن من مختلف الدول الأوربية حيث تباع فيها السلع الهندية للتجار الإيطاليين، كما تؤكد وثائق الجنيزة على رواج التجارة بين مصر والمغرب الإسلامي. وقد كان الدينار السجلماسي من بين العملات التي يتم التعامل بها في مصر إلى جانب عملات أجنبية أخرى.[2]

وبالعودة إلى ما كتبه النويري، فإن الغلاء الذي شهدته مصر كان ابتداؤه سنة 457هـ/1065م، واشتد أكثر خلال سنة 461هـ/1069م، ليصل ذروته في 462هـ/1070م، ودام إلى غاية 464هـ/1072م، انتشر خلالها الوباء في القاهرة ومصر: "حتى إن الواحد كان يموت في البيت فيموت في بقية اليوم أو الليلة كل من بقي فيه ... وأكل بعض الناس بعضا".[3]

يشير بعض الباحثين[4] إلى أن الأزمات الاقتصادية التي ضربت مصر وموجات الجفاف بدأت منذ سنة 444هـ/1052م، في حين الموجات الأولى للهلاليين التي توجهت غربا كانت قبل هذه السنة، وبالتالي يكون من الصعب الإقرار صراحة بأن الوضع الاقتصادي كان دافعا رئيسا وراء هذه الهجرة، رغم أن بقية الموجات استمرت في ظل الأزمة التي تواصلت إلى غاية 457هـ/1065م بالتناوب، وهو تاريخ الغلاء الشديد الذي شهدته مصر.

هذا التباين في تقدير تأثير الأزمة على القرار الفاطمي في توجيه الهلاليين غربا، دفعنا إلى محاولة رصد الظروف والصعوبات الاقتصادية التي مرّت بها مصر خلال النصف الأول من القرن الخامس الهجري (11م):

---

[1]) ناصر خسرو علوى: المصدر السابق، ص117-122؛ يقدّر "أشتور" Eliuahu Ashtor سعر القمح في بداية العهد الفاطمي بمصر بين 0.7 و0.8 دينار للقنطار (100 كلغ)، والملاحظ أن أسعار القمح في العراق كانت أكثر من سعرها في مصر؛ Eliyahu Ashtor: op cit, p80.

[2]) Eliyahu Ashtor: Ibid, pp118-120.

ويورد ناصر خسرو أسعار السلع في مصر بالدينار المغربي، ما يدل على أنه كان عملة واسعة الانتشار في فترة رحلته بين 437-444هـ؛ المصدر السابق، ص102؛ والدينار المغربي الذي ضربه الفاطميون في مصر يتميز بجودته ووزنه الكامل؛ Eliyahu Ashtor: op cit, p119.

[3]) النويري: المصدر السابق، ج28، ص149.

[4]) محمد علي چلونگر ومهدى عزتى: المرجع السابق، ص130.

الجدول رقم01: الصعوبات الاقتصادية في مصر الفاطمية خلال النصف الأول من القرن 05هـ/11م

السنة / التاريخ	طبيعة الظاهرة	الاشارة	المصدر
ربيع الأول 400هـ 1010م	كثرة الأمراض والأموات وقلة الأدوية	"كثرت الأمراض والموت، وعزّت الأدوية المطلوبة للمرضى"	المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص 81.
403 هـ 1013م	الغلاء	"رفعت مكوس الساحل، ... وغرق في أربعة أيام خمسة آلاف وواحد وخمسون زيرا من أزيار العسل، ونزَع السعر، وكثُر الازدحام على الخبز، ففرق الحاكم مالا على الفقراء، وكثر ابتياع الناس للسيوف والسكاكين والسلاح"	نفسه، ج2، ص93.
410هـ 1019م	الغلاء	"فيها اشتد الغلاء بديار مصر حتى بيع الدقيق رطلا بدرهم واللحم لأربع أواق بدرهم، ومات كثير من الناس بالجزع"	نفسه، ج2، ص 115
414هـ 1024م 415هـ 1025م	الغلاء ندرة السلع	"تعذّر وجود الخبز" "اشتد الغلاء بمصر وكثر نقص النيل" "منع الناس من ذبح الأبقار لقلتها وعزت الأقوات بمصر، وقلت البهائم كلها، حتى بيع الرأس البقر بخميس دينارا ... وتحدّث زعماء الدولة بمصادرة التجار ... واشتد الغلاء وفشت الأمراض وكثر الموت في الناس..."	المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط المقريزية)، ج2، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2002، ص354.
415هـ 1024م	الغلاء والجفاف	"واشتد الغلاء والقحط بمصر، فبيع الخبز السميد رطلين بدرهم، والحملة الدقيق بأربعة دنانير وثلثين، والتّليس القمح بثلاثة دنانير، واللحم بأربع أواق بدرهم، وعظم الموت سيما في الفقراء، وبلغ بالناس الجهد حتى إن جزارا طرح عظما لكلب فطرد رجل الكلب وأخذ العظم منه وابتلعه نيئا، وأكل المساكين الصماليخ من القنّبيط ... وغلت عامّة الحبوب، وغلا الماء لتعذر علف الدواب وعدم من يستقي عليها، وبيعت راوية الجمل بثلاثة دراهم، وراوية البغل بدرهمين؛ واشتدت المسغبة... وتزايد أمر الغلاء، وكثر الصياح: الجوع الجوع، ولم يظهر خبز ولا دقيق، وبيع الدقيق رطلا ونصفا بدرهم، والخبز الأسود رطلين بدرهم وربع".	المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص164-165.
		"واشتد الغلاء، فبيع القمح بأربعة دنانير وثلث التليس والحملة الدقيق بستة دنانير، والخبز رطل وربع بدرهم، ونزل الناس مسغبة شديدة"	نفسه، ج2، ص169
417هـ	فيضان نهر النيل	"زاد النيل فوق المعتاد حتى غرقت القرى"	نفسه، ج2، ص175.

1026م			
444 هـ 1052م	ندرة المحاصيل والغلال	"وفيها قصر مد النيل، ولم يكن في المخازن السلطانية شيء من الغلال، فاشتدت المسغبة بمصر"	نفسه، ج2، ص224
444 هـ 1052م	الغلاء	"ثم وقع غلاء ... وسببه قصر النيل، ... وليس بالمخازن السلطانية شيء من الغلات. فاشتدت المسغبة"	المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق: كرم حلمي فرحات، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2007، ص93.
446هـ 1054م	الوباء	"حدث بمصر وباء وغلاء"	ابن ميسر: المصدر السابق، ص13.

تعكس المعطيات التي يتضمنها الجدول، الظروف الاقتصادية الصعبة التي عرفتها مصر قبل وخلال العبور الهلالي، حيث شهدت تأثر الإنتاج الزراعي والأسعار بمستوى مياه النيل، فكلما ارتفع منسوب مياه النيل زاد الإنتاج وانخفضت الأسعار، والعكس، فضلا عن مرافقة الأوبئة والمجاعات لهذه الاختلالات الاقتصادية. وهو ما جعل المقدسي يعبّر عن المفارقة التي تطبع الاقتصاد المصري والتقلبات السريعة التي يتسم بها بقوله: "هذا الإقليم إذا أقبل فلا تسأل عن خصبه ورخصه، وإذا أجدب فنعوذ بالله من قحطه يمدّ سبع سنين حتى يأكلون الكلاب ويقع فيهم الوباء المبرّح".[1]

رغم أن شدة الأزمة الاقتصادية كانت منذ منتصف القرن الخامس الهجري (11م)، إلا أن مقدماتها أسبق، خاصة مع ارتفاع عدد الهلاليين والزيادة في النمو السكاني إثر استقرارهم في الصعيد، وعدم التكافؤ بين الإنتاج الاقتصادي والمتطلبات الاستهلاكية لهم ولمواشيهم.

ينتقد راضي دغفوس اعتبار بعض المؤرخين والمستشرقين الفرنسيين أمثال مارسيه وروجي إدريس أن الهجرة الهلالية كانت عملا انتقاميا ضد الصنهاجيين بعد القطيعة المذهبية والسياسية، فهذا التبرير غير كاف –في رأيه– لتفسير الانتقال. ورغم أن بونسي يعتبر الهجرة الهلالية مجرد حافز سرّع في انهيار إفريقية الزيرية التي كانت تشرف على نهايتها، لكنه في الوقت نفسه لم يثبت بوادر هذه النهاية المحتملة ولم يدرس الهجرة في أبعادها المتعلقة بالعالم الإسلامي ككل. لذلك فهو يذهب إلى ضرورة البحث في المصادر التي أرخت للاقتصاد المصري آنذاك، ويعتمد بالأساس على كتاب المقريزي "إغاثة الأمة بكشف الغمة"، والذي خلص من خلاله إلى أن مصر كانت تعيش على وقع مجاعات قاسية، ويشير الوضع الاقتصادي إلى ذلك من خلال تراجع وزن الدينار في عهد المستنصر

[1]) المقدسي: المصدر السابق، ص201-202.

وتقلبات مستوى مياه النيل.[1] وهذا التفسير بلا شك، يُضعف من حجم المبررات المذهبية والسياسية التي دفعت الفاطميين لتهجير الهلاليين لصالح المبررات الاقتصادية.

وابن خلدون نفسه الذي يقدّم المعطى السياسي/المذهبي كسبب رئيس لتوجيه الهلاليين نحو إفريقية؛ يشير إلى جانب ذلك لدور الدافع الاقتصادي الذي شجّع الفاطميين على نقل الهلاليين، بسبب الأضرار البليغة التي خلّفوها في الصعيد.[2] وضمن المعادلة المادية لتفسير عوامل الانتقال الهلالي يُرجعه ابن الخطيب القرشي التلمساني (القرن 11هـ/17م) إلى امتناع الزيريين عن تقديم (الزكاة) للفاطميين بالإضافة إلى دافع الثأر.[3]

في محاولة الاقتراب من نص التغريبة الهلالية واستنطاق ما تبوح به في هذا السياق، نجدها تنزه التحرك العربي نحو المغرب الإسلامي من الأبعاد المذهبية ولا تقدم فرضية التوظيف الفاطمي للعرب، بقدر ما تعكس الدوافع الاقتصادية في أشكالها البسيطة والبدوية (البحث عن الكلأ والمراعي)،[4] فهل تغييب بقية الدوافع والتوظيفات من نصوص التغريبة كان مفتعلا، أم لكونها انطوت على التصورات الهلالية فحسب؟

بهكذا تتبع لبعض المصادر التاريخية، لا نقول أننا أمام رأيين مختلفين بقدر ما نحن أمام متغيرات عديدة تحكم موضوع الانتقال الهلالي، بين القطيعة بسبب الخلاف بين المعز واليازوري وبين تلك التي ركّزت على مسألة الخروج عن طاعة الفاطميين والدعوة للخليفة العباسي، ينتهي إلى أن كلا المعطيين يتّسمان بخلفية تاريخية تسندهما، كما أنه يؤكد أن القرار الأخير في إرسال العرب كان للمستنصر ولم يكن بيد اليازوري، فما كان المستنصر ليرسل الهلاليين لمجرد إرضاء كبرياء اليازوري.[5] ففي الوقت الذي لا نعدم السبب الاقتصادي في الدفع بالجماعات الهلالية نحو بلاد المغرب، فإننا نؤكد على أهمية الاعتبار السياسي في العملية. وإذا كان دافع القبائل الهلالية للتوجه نحو بلاد المغرب اقتصاديا، فإن دافع الفاطميين في توجيههم كان سياسيا واقتصاديا في الوقت نفسه.

الحضور المهم للبعد الاقتصادي في حركة الهجرة الهلالية في مختلف محطاتها (بداية من مرحلة التفكير والتخطيط إلى غاية التنفيذ وما بعد التجسيد) وضمن خلفياتها وأهدافها القريبة والبعيدة، سواء المتعلقة بالفاطميين

[1]) دغفوس: دراسات في التاريخ العربي الإسلامي، المرجع السابق، ص151-154؛ ويعبّر جمال الدين أبي المحاسن يوسف ابن تغري بردي الأتابكي عن الوضع الاقتصادي في مصر على عهد المستنصر بقوله: "وعاش المستنصر سبعا وستين سنة وخمسة أشهر في الهزاهز والشدائد والوباء والغلاء والجلاء والفتن"؛ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج5، دار الكتب المصرية، 1935، ص3.

[2]) العبر، ج6، ص19؛ يقدّم ابن جبير (ق06-07هـ/12-13م) صورة جيدة عن مدن وقرى الصعيد التي مرّ بها، حيث يصف بساتينها وأسواقها، غير أنه يتذمر من اعتراض الحجاج والمسافرين من طرف أشخاص يأخذون منهم الأموال تحت ذريعة الزكاة على التجارات وقد يفرضون عليهم الأيمان على ما بأيديهم، وهذه التجاوزات المشينة حسبه كانت تتم بعيدا عن أجهزة الدولة، فلو علم صلاح الدين بذلك ما كان ليسمح بها، خاصة وأنه قام برفع التكاليف المفروضة على الحجاج تحديدا والضرائب التي ألزموا بها في عهد الفاطميين؛ ينظر: الرحلة، ص35-40؛ وبدوره قدّم محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة صورة جيدة عن الحياة الاقتصادية في الصعيد؛ رحلة ابن بطوطة، تحقيق: كرم البستاني، دار صادر، بيروت، 1992، ص ص47-52.

[3]) ابن الخطيب القرشي: المصدر السابق، ص81؛ ولعل ذلك جاء تماشيا والرواية التي أوردها من أن عملية النقل كانت من مكة إلى بلاد المغرب، دون ذكر مكان إقامة العرب حينها في الصعيد؛ نفسه، ص124.

[4]) تغريبة بني هلال ورحيلهم إلى بلاد المغرب وحروبهم مع الزناتي خليفة، عمر أبو النصر، بيروت، 1971، ص ص 13-17.

[5]) Gerald Schuster: Op. cit, p48.

أو بالهلاليين، يجعل منها هجرة ذات ملامح اقتصادية رغم أبعادها السياسية الماثلة، وهو الأمر الذي يدفع للتعمق في النشاط الاقتصادي للعرب الهلالية في المغرب الأوسط من خلال الحرابة واقتصاد المغازي.

ثانيا: نشاط الحرابة واقتصاد المغازي بالمغرب الأوسط

كان ابن خلدون نافذ البصيرة، حينما فصّل بين صنفين من المعاش: الأول، غير طبيعي مرتبط بالإمارة والجبايات السلطانية، والثاني يشمل وجوه المعاش الطبيعية من فلاحة وصناعة وتجارة.[1] وانطلاقا من هذا التقسيم الخلدوني، ومن خلال تتبع ما ورد في المصادر، فإن العرب الهلالية أثناء وبعد دخولها المغرب الأوسط، انخرطت بداية في الصنف الأول للمعاش (غير الطبيعي)، ولاحقا بدأت في التدرج في الصنف الثاني بعد معركة سطيف 548هـ/1153م. فإذا ربطنا التوجه الثاني نحو الحياة شبه المستقرة بانعكاسات سياسة الدولة الموحدية في التعامل مع البدو، هل يحق لنا أن نفسر ارتباط الهلاليين باقتصاد المغازي في الطور الأول من ولوجهم لإفريقية والمغرب الأوسط برؤية السلطة الصنهاجية في التعامل معهم؟

الحديث عن الهلاليين المنتمين إلى البدو الرعاة، يدفعنا في كل مرة للعودة إلى نصوص ابن خلدون ذات المنطلق المحلي والرؤية الكونية، في تفكيك حقيقة الظاهرة البدوية ورسم معالم الاختلاف بين طبيعة البداوة ونماذجها التاريخية والراهنة، وهو ما سعى عبد المجيد مزيان[2] للقيام به في تفصيل طبيعة العمران البدوي حسب نوع الإنتاج والمعاش:

الجدول رقم 02: طبيعة العمران البدوي حسب نوع المعاش

	رحل القفار	رحل الهضاب والمناطق النصف صحراوية	أنصاف الرحل	المزارعون
طبيعة المعاش	(يعيشون على تربية الإبل)	(تربية الأغنام)	(تربية المواشي مع الزراعة)	(زراعة الحبوب والبستنة وتربية عدد محدود من المواشي)
النموذج التاريخي	- لمتونة. - صنهاجة الصحراء (المرابطون)	- زناتة. - بنو هلال.	- زناتة من أهل الزاب (في العهد الزياني)	- كتامة (في العهد الفاطمي) - مصمودة (في العهد الموحدي)
النموذج الحي	- التوارق. - الرقيبات.	- العمور الغرابة (زناتيون) - الارباع (هلاليون)	- الشاوية الجنوبيون.	- كل قرى شمال إفريقيا.

[1]) ضمن هذا التصنيف، يدرج ابن خلدون الفلاحة في أدنى الهرم الاقتصادي، ذلك أنها نشاط بسيط لا يحتاج نظرا وعلما –حسبه–، بينما تأتي الصنائع ثانية، لأنها نشاط مركّب يستند إلى جانب علمي يوظّف الأفكار، ولذلك تختص بها فئة معينة من أهل الحضر، أما التجارة فتعتمد على توظيف الحيلة والذكاء للحصول على الفارق بين قيمتي البيع والشراء؛ ابن خلدون: المقدمة، ص480.

[2]) المرجع السابق، ص361-362.

يغلب على بلاد المغرب الطابع البدوي، لذلك تقلُّ فيه المدن لطبيعة البربر البدوية، ولكونهم أهل عصبية، وأهل العصبية أكثر ميلا للبداوة، عكس الأعاجم الذين تكثر عندهم المدن والأمصار،[1] والأمر نفسه ينطبق على العرب، الذين وإن شيّدوا بعض المباني إلا أن الخراب يسرع إليها لافتقادهم فنون هذه الصناعة، ولأنهم لا يضعون سوى اعتبار مراعي الإبل في اختيار المواقع، دون غيره من الاعتبارات كطيب الهواء ووفرة ونوعية الماء والرياح.[2]

تواجدت ببلاد المغرب قبائل بدوية كزناتة وهوارة ولواتة، وبالتالي فإن نمط الإنتاج المزدوج البدوي / الزراعي لم يكن دخيلا عليها، بل إنه راسخ ومتجذر في تاريخها، لكن ظاهرة البداوة لم تتخذ حجما مُفزعا ومُلفِتا للانتباه قبل القرن الخامس الهجري (11م)، الذي اندلعت فيه "أعظم أزمة بين عالم الاستقرار وعالم البداوة بإفريقية.[3] مع أن البداوة في المغرب الإسلامي كانت تزاحم مراكز تقليدية للتمدن والتحضر، رغم أن الظروف التاريخية لم تسمح لبلاد المغرب من الوصول إلى درجة الحضارة –بالمفهوم الخلدوني الذي يعني التفنن في الترف والتّكلُّف في فنون الصنائع– إلى غاية قيام دولة الأغالبة في أفريقية، والتي تجلّت فيها بعض مظاهر الحضارة، وورثتها فيما بعد كتامة ثم صنهاجة، لكنها لم تكن مستحكمة بالشكل الذي يسمح لها بالاستمرار والتواصل.[4]

في قراءته للمؤهلات الاقتصادية لبلاد المغرب، يقول ابن خلدون: "ولما كانت بلاد البربر بالعكس من ذلك في زكاء منابتهم وطيب أرضهم ارتفعت عنهم المؤن جملة في الفلح[5] مع كثرته وعمومته فصار ذلك سببا لرخص الأقوات ببلدهم".[6] وبقدوم موجة الهلاليين نحو هذه المناطق كان لها دور في انتعاش البداوة خاصة وأن المنطقة عرفت تجارب سياسية وسلط مركزية وتوجه نحو احتواء القبائل البدوية البربرية، لتتوسع دائرة البداوة، وبالتالي تؤثر في سيرورة وطبيعة العلاقة بين البدو والحضر، وتزداد وتيرة النشاط الحرابي واقتصاد المغازي.

---

[1]) ابن خلدون: المقدمة، ص446.

[2]) ابن خلدون: المقدمة، ج1، ص448؛ علاقة البدو بالماء تعكسها حركة التنقل تبعا للتساقط المطري ومواقع المياه، وأهمية الماء بالنسبة لهم من قيمته في الصحراء، حيث تواجده مقتصر على مواقع متفرقة عادة ما تكون بعيدة عن بعضها، وبالتالي يتحدد مكان التخييم بتواجد الماء، وموعد مغادرة مكان ما بنفاذه؛ علي عفيفي علي غازي: بدو العراق والجزيرة العربية بعيون الرحالة، دار الرافدين، بيروت، Opus Publishing، كندا، 2016، ص174-148.

[3]) إبراهيم جدلة: المجموعات القبلية البدوية وتأثيرها على الحياة الاجتماعية والسياسية بإفريقية أثناء العهد الحفصي، ضمن: أشغال الملتقى الدولي الثاني حول: القبيلة – المدينة – المجال في العالم العربي الإسلامي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس، أفريل 2003، ص155؛ كثيرا ما يتحدث المؤرخون والأنثروبولوجيون عن الصلة القوية بين زناتة والعرب وهي ترجع حسب غوتييه إلى تشابه أنماط الحياة بينهما؛

Emile Félix Gautier: Le passé de l'Afrique du Nord: les siècles obscurs, Payot, Paris, 1952, p415.

[4]) ابن خلدون: المقدمة، ص463.

[5]) يعرّف ابن خلدون الفلح بأنه: "يكون من الحيوان الداجن باستخراج فضوله المنصرفة بين الناس في منافعهم كاللبن من الأنعام والحرير من دوده والعسل من نحله، أو يكون من النبات في الزرع والشجر بالقيام عليه وإعداده لاستخراج ثمرته"؛ نفسه، ص479.

[6]) نفسه، ص455.

1- الحرابة:

أ. المفهوم والدوافع

الحرابة هي فعل لأخذ المال عن طريق إذهاب العقل أو القتال أو إخافة السبيل، وهو فعل محرّم في الشريعة الإسلامية. وحدّها هو "القتل أو الصلب أو القطع من خلاف أو النفي"، مع اختلافات بين الفقهاء.[1] ويصنف أبو الفضل الدمشقي النهب والإغارة بابا من أبواب اكتساب المغالبة الخارجية المعلنة.[2] والنشاط الحرابي لا ينتهي بتحصيل المسروقات المادية فقط، بل يقوم البدو أيضا باحتجاز وأسر الأشخاص، الذين يضطرون لفدية أنفسهم بمقابل مادي حتى يطلق سراحهم.[3]

دفعت الطبيعة البدوية للتحركات الهلالية في المغرب الإسلامي بابن خلدون إلى تصنيفها في خانة "العدوان"، الذي تمارسه الأمم الوحشية التي تقطن القفار، لأنهم كانوا يعيشون على ما تجنيه رماحهم، لا يبتغون من وراء ذلك سلطانا، إنما همهم الوحيد هو الاستيلاء على ما في أيدي الناس، ويدرج ابن خلدون ضمن هذا التصنيف إلى جانب العرب البدو، كلا من الترك والأكراد وغيرهم...[4] فبما أن العرب أهل "انتهاب وعيث"، فإنهم ينزعون إلى الحصول على مرادهم بأقل الأضرار دون توريط أنفسهم في المواجهات والحروب.[5]

يؤدي العدوان على الأموال بالسلب والنهب -الذي يعدّ سمة بدوية- إلى الزُّهد في تحصيلها، لأن صاحبها يكون مدركا لمآلها، وكلما توسع نطاق ظاهرة السلب، كلما انقبض نشاط الناس وسعيهم للكسب، وهكذا. وتؤدي هذه الظاهرة إلى إضرار كبير بالحياة الاقتصادية وهو ما ينعكس سلبا على الوضع العام للدولة والساكنة.[6]

وإذا كان ابن خلدون يعتبر همّ العرب الوحيد هو النهب والسلب والاستحواذ على المغارم.[7] فإن هناك من يحاول تفسير هذا السلوك على أنه إجراء اضطراري مرتبط بنفاد المؤن التي كانت تحمل خلال الرحلة، ما يجعلهم ينهبون ويسلبون عند وصولهم إلى المناطق العمرانية،[8] ويفسّر بعضهم دوافعه باستحالة التجارة بين المجموعات

---

[1]) البرزلي: المصدر السابق، ج6، ص174-177؛ وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؛ المائدة، 33.

[2]) أبو الفضل جعفر بن علي الدمشقي: الإشارة إلى محاسن التجارة وغشوش المدلسين فيها، تقديم وتعليق: محمود الأرناؤوط، دار صادر، بيروت، 1999، ص53.

[3]) البرزلي: المصدر السابق، ج3، ص45؛ يحدث أن يهرب بعض المحتجزين من الأعراب، المعروفين بالنهب والغصب ويدّعون أنهم أحرار أو مملوكين لغيرهم، حيث أفتى السيوري بقبول ادعاءهم الحرية؛ الونشريسي: المصدر السابق، ج9، ص554.

[4]) ابن خلدون: المقدمة، ص334.

[5]) نفسه، ص186.

[6]) نفسه، ص354.

[7]) نفسه، ص188.

[8]) حسن خضيري أحمد: علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب (362-567هـ / 973-1171م)، مكتبة مدبولي، القاهرة، ص262؛ لم تكن عمليات السلب والنهب جماعية فقط، بل كانت تمارس أيضا على شكل فردي ومعزول، وقد ورد في التشوف أن أحد العرب الداخلين إلى دكالة دخل بستانا أخذ منه العنب، واعترف أنه اعتاد على هذا التصرف في بساتين تامسنا؛ أبو يعقوب يوسف ابن يحيى ابن الزيات التادلي: التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق: أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، 1997، ص309.

البدوية والمستقرة، حيث تتجه الأُولى نحو تكتيك الغارة، على أن يكون هذا الخيار أفضل من التجارة، خاصة عند فقدان البدو لقطعان الماشية لأسباب الطقس أو المرض أو السرقة. وبالتالي فإن الخطأ لدى أصحاب نظرية "البدوي العدواني" ليس في أن البدو لا يمارسون العنف، لكن في أن ممارسة العنف يكون اضطرارا، خاصة وأنهم ينزعون لأسلوب الكرّ والفرّ، حيث أن "العرب غير قادرين بشكل طبيعي على اقتحام جدار، وأضعف نوع من المتراس غير الممزوج مع أي شيء سوى الطين، يكفي لإيقاف هجومهم ... لكنهم أذكى من كل البشر في النهب".[1] وينفي بدوره عبد المجيد مزيان[2] أن يكون البدو يهاجمون العالم المتحضر، ويرجع سبب الغزو إلى الحرمان الاقتصادي الذي يعانون منه بسبب أراضي الرعي الفقيرة.

يربط علي الوردي[3] الغزو عند البدو في إطار مفهوم "التغالب" الذي تقوم عليه الثقافة البدوية، والذي يتشكل من ثلاثية: العصبية، الغزو، المروءة، وهي تمثل بدورها محددات الانتماء إلى القبيلة التي توفر للبدوي الحماية، فيتعصب لها ويكون مستعدا للقتال والغزو كلما تطلّب ذلك، فقد تقاس شجاعة البدوي بحجم الغنائم التي يحصل عليها في الغزو، من منطلق أن البدوي "نهّاب وهّاب".

تشير بعض الدراسات إلى أن سلوك السلب والنهب لا يستهدف فقط الكسب والحصول على الغنائم وهو ما يصنف ضمن "المعاش بالغلبة"، إنما قد تتدخل فيه بعض الاعتبارات النفسية المرتبطة بطبيعة الشباب البدو الذين يتوقون أشد التوق لهذه الممارسة تحقيقا للمتعة، خاصة وأن الأقوياء من الشباب البدوي وأصحاب البنى الجسمانية القوية هم من يختصون بالإغارة، على عكس الضِّعَاف ممن يمتهنون الرعي أو التجارة.[4] وهنا يكون الغزو مرتبطا بمفهوم القوة، والقوة هي أساس الحياة البدوية، وبعبارة نيتشوية "الحياة هي إرادة القوة" –رغم أن مفهوم نيتشه (1844-1900م) Friedrich Nietzsche للقوة مرتبط بسياقات أخرى–، حينها تكون قيمة البدوي من مقدار القوة التي يمتلكها.

وبناء على ذلك، فإن النشاط الحرابي بعيدا عن مشروعيته من عدمها، يخلّف عديد الأضرار، ولا يشكّل مصدر دخل دائم ومستقر، بل مصدرا هشا.

نقلت بعض نصوص الرحلة والجغرافية المشهد القائم في المغرب الأوسط في ظل انتشار ظاهرة الحرابة الهلالية، والتي تعكس جوا من عدم الاستقرار والخوف الذي ساد الحياة الاجتماعية، فيذكر الإدريسي مثلا أن غارات العرب كانت تصل الحواجز الجبلية الرابطة بين بجاية والمسيلة.[5]

---

[1]) رُبرت هُيْلَنْد: المرجع السابق، ص130-131.

[2]) عبد المجيد مزيان: المرجع السابق، ص353.

[3]) المرجع السابق، ص39.

[4]) عفيفي علي غازي: المرجع السابق، ص78-79.

[5]) الإدريسي: المصدر السابق، ص262.

وكانت المناطق التي تجولها العرب وتمارس فيها الحرابة عرضة للضرر الذي يلحق بسكانها اقتصاديا[1] واجتماعيا، فروجي إدريس –مثلا– لا يستبعد أن يكون الهلاليون يختطفون العبيد لإعادة بيعهم، وأنهم كانوا يتعاطون تجارة الأسرى على نطاق واسع.[2]

يستحوذ العرب على كل شيء ذي قيمة، كالأموال والمواشي، خاصة وأنهم محترفون في الكشف عن أماكن إخفاء الناس لأموالهم، حيث جاء في التشوف أن سرية من العرب أخذت دراهم من أجباح نحل فتّشتها، والجبْح هو الموضع الذي تَعْسُلُ فيه النحل.[3] وهذا دليل على أن المستقرين كانوا يستعملون كل الحيل لإخفاء ممتلكاتهم وأموالهم لأنها عرضة للنهب في أي لحظة.

وحتى يسلم الساكنة من هجمات وغارات العرب كانوا فضلا عن تحصنهم في المناطق الجبلية، يقومون بتعزيز الحراسة وتأمين المنطقة، مثلما كان يفعل سكان سوق الإثنين، الذين كلفوا جملة من الرجال بالحراسة لصد غارات العرب المحتملة. كما أن الحصون في أعلى الجبال التي كان ساكنة بعض الجهات كسوق الخميس يقطنونها تحول ووصول العرب إليها: "ولا تقدر العرب عليه لمنعته".[4]

اللجوء إلى الانتهاب والسرقة، قد يكون بدوافع غير اقتصادية في بعض الحالات، كالانتقام وشيوع الفوضى، حيث يشير ابن صاحب الصلاة إلى نشوب نزاع ببين "صبيان الموحّدين" والعرب الذين جيء بهم من جهات إفريقية لغرض الجواز إلى الأندلس، حيث تم تخصيص مكان مؤقت للبقاء فيه إلى حين الجواز، وخلال هذه المدة (شهر ربيع الآخر إلى جمادى الأولى 566هـ/1171م) نشب نزاع بين "صبيان الموحّدين" والعرب، بدأ بالكلام ليتطور إلى سلب واختطاف الثياب، و"تحزّب الجهال من الأعراب بالأحزاب"، وبعد وصول خبر المناوشات للموحّدين تدخلوا رفقة أشياخ العرب وفكوا النزاع الذي ذهب ضحيته أربعة أشخاص من العبيد و"بعض الأحرار من سائر الأجناس". وهو الأمر الذي أقلق الخليفة أبو يعقوب يوسف، لأنه وقع في حاضرته، فأمر برفع الطعام عتابا للعرب، بسبب جرأتهم وسوء أدبهم، "ثم إن العرب تطارحوا على العفو من الأمر الكريم، من قبيح ما جناه أتباعهم وعبيدهم وأشياعهم، واعتذروا من فعل لا خلاق له"، فقبل الخليفة اعتذارهم وأمر بصرف الطعام وإكرامهم، وأمر بكتابة أسماء العبيد الذين ماتوا وتعويض أصحابهم، وأسماء الضحايا الأحرار ودفع الديات لقبائلهم، وجرد أسماء من سلبت ثيابه وتعويضهم وتعويض من فقد دوابه.[5]

---

[1]) الإدريسي: المصدر السابق، ص262-263.

[2]) روجي إدريس: المرجع السابق، ج2، ص300.

[3]) التادلي: المصدر السابق، ص409.

[4]) الإدريسي: المصدر السابق، ص262-263.

[5]) ابن صاحب الصلاة: المصدر السابق، ص346؛ وفي إطار الحديث عن الفوضى التي كان يحدثها العرب عند استعدادهم للجواز، يذكر أنه عندما وصلت الوفود المنتقلة من مراكش للجواز إلى الأندلس بقيادة الخليفة، إلى وادي أم الربيع أين أقام عليه جسر واستغرق المرور على الجسر أياما تفاديا للزحام وإمكانية غرقه، ورغم ذلك حدث زحام عند مرور العرب تطور إلى فتنة بينهم بعد أن "قتل واحد منهم آخر" لولا تدخل الخليفة أبو يعقوب يوسف، الذي هدّأ الوضع؛ نفسه، ص354.

عندما كان "أبو موسى عيسى بن عبد المؤمن" عائدا من إفريقية قام بحملة بجيش من المصامدة والعرب ضد بعض العرب بسبب قيامهم بعمليات الإفساد، لكنه انهزم وأسر مع أخيه "أبو علي"، وطلبوا من الخليفة أبي يعقوب (ت580هـ/1184م) ستة وثلاثين ألف (36.000) مثقال، ولأنه استكثر ذلك وتخوف من توظيفهم للمبلغ في التمادي في الإفساد، ضرب لهم "دنانير من الصفر مموهة".[1]

في ظل عدم مقدرة الناس على الدفاع عن أنفسهم وضعف جيش الدولة حدث تغوّل كبير للعرب،[2] ويبدو أن نقلهم من مكان لآخر من طرف الدولة زاد من ظاهرة السلب والنهب.[3] بحكم أن وجودهم في مناطق جديدة يدفعهم إلى استكشافها بداية من خلال نشاط الحرابة.

استغل الأعراب فترات الاضطراب السياسي والحصار لسلب ونهب حاجيات الناس، وإعادة بيعها في الأسواق بعد عودة الهدوء،[4] مما يتسبب في نقص السلع وغلاء الأسعار. وقد يتورط رجال الدولة مع قطاع الطرق واللصوص، ويقتسمون معهم مداخيلهم من اللصوصية، حيث يذكر أن كبير وزراء الخليفة المستنصر الموحدي (593-620هـ/1197م-1224م) "أبو سعيد بن جامع" كان يقاسم اللصوص وقطاع الطرق في نواحي مراكش ما ينتهبونه من التجار والمسافرين، وكان الوزير يعرقل أي توجه أو حركة لمقاومة هؤلاء اللصوص.[5] وهذا يدل على أن السُّلط خلال فترات ضعفها استمرت في محاولة كسب البدو اتقاءً لشرهم، رغم الضرر الذي كانوا يلحقونه بالناس، ليس هذا فحسب، بل تورط بعض رجالات البلاط مع اللصوص والمغيرين.

استمر نشاط العرب في الحرابة خلال القرون اللاحقة، وزادت حدته في بعض الفترات، ويذكر القاضي الأندلسي صاحب الرحلة الموسومة: "تاج المفرق" أبو البقاء البلوي (ت بعد 767هـ/1365م) أنه عند خروجه من بونة متجها نحو تونس سنة (736هـ/1335م)، صادفته جماعة من قطاع الطرق: "قطعة من العرب كقطع الليل، حملت علينا حمل السيل، فكان زوال كل ما ملكناه أسرع من لحسة الكلب أنفه".[6] وهو دليل على احتراف هؤلاء العرب لعمليات اللصوصية بسرعة كبيرة في التنفيذ، وتكررت نفس الحادثة معه حينما كان في طريق العودة إلى الغرب من بجاية سنة (740هـ/1339م)، حيث استغل المغيرون غروب الشمس والتعب الذي أصاب الرواحل فـ: "تصارخت العرب واجتمع الابن منهم والأب، ثم حملوا علينا حملة ظننا أن الجبال إلينا راجفة، وأن

---

[1]) عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص226.

[2]) البرزلي: المصدر السابق، ج6، ص180.

[3]) التادلي: المصدر السابق، ص383.

[4]) الونشريسي: المصدر السابق، ج5، ص68.

[5]) أبو الحسن علي ابن القطان المراكشي: نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق: محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، 1990، ص18. (من التحقيق).

[6]) خالد بن عيسى بن أحمد القتوري البلوي: تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تحقيق: الحسن السائح، صندوق إحياء التراث الإسلامي، الرباط، ج1، ص164-165.

الأرض بنا واجفة" غير أنهم واجهوهم مما جعلهم يتراجعون ويفرّون.[1] وعليه، فإن نجاح عمليات الإغارة بالنسبة لقطاع الطرق كان مرتبطا بتخيّر توقيت ومكان الهجوم، وحجم القافلة وطبيعة تعدادها.

زادت حدّة النشاط الحرابي بعد الموحدين، ولا يُخفي ابن بطوطة (703-779هـ/1304-1377م) مخاوفه -ومن كان معه من تجار تونسيين- في رحلته نحو الحجاز وهو بين بجاية وقسنطينة، من غارات العرب في الطريق، خاصة وأنه تعرّض لوعكة صحية، ويبدو أن تخفيف الأثقال على الدواب كان إجراء يلجأ إليه التجار والرحالة الذين يقطعون طرقا غير آمنة، فقد اقترح "أبو عبد الله الزبيدي" على ابن بطوطة أن يعيره دابة وخباء، ويقوم ببيع دابته ومتاعه الثقيل من أجل التخفيف "فإننا نجدّ السّير خوف غارة العرب في الطريق".[2]

في نهاية القرن الثامن الهجري (14م) كان عرب الديلم وسعيد ورياح وسويد وبني عامر في المغرب الأوسط "ليس لهم إلا الغارات، وقطع الطرقات على المساكين، وسفك دمائهم، وانتهاب أموالهم بغير حق، ويأخذون حرم الإسلام أبكارا وثيبا، قهرا وغلبة"[3] كما تعرّضت جهات تلمسان لغارات قوية من العرب كانت تنتهي بهتك حريمها والعبث بأموالها، وقد تجاوز عدد المغيرين على إحدى قراها ألفي (2000) رجل وخمسمائة (500) فارس، وهددّوا بالعودة في اليوم الموالي للاستمرار في النهب، ما جعل أحد الأعيان يصالحهم بمائة (100) دينار من الذهب حفاظا على ممتلكات أهل القرية ومتاعهم، خاصة وأن أغلب سكانها ورجالها غادروها خوفا من تكرار الغارة.[4]

---

[1]) البلوي: المصدر السابق، ج2، ص147-148.

[2]) ابن بطوطة: المصدر السابق، ص16؛ ومن المقالات التي حاولت مناقشة التأثيرات الهلالية خلال الفترة الزيانية: أمين كرطالي: الانعكاسات السياسية والاقتصادية للوجود الهلالي في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني (633-962هـ/1235-1554م)، مجلة عصور، جامعة وهران، مج17، ع2، ديسمبر 2018، ص ص 82-122.

[3]) المازوني: المصدر السابق، ج1، ص309، ص334؛ الونشريسي: المصدر السابق، ج6، ص ص153-156.

[4]) Élise Voguet: op. cit, p96-98.

شكّلت القضايا التي كان يطرحها السلوك البدوي المرتبط بالقبائل الهلالية في المغرب الاسلامي من خلال الإغارة والسلب والنهب، موضوعا مهما في المتون النوازلية، وهو ما تؤكد عليه فوقي VOGUET، حيث تتضمن النوازل ما تعلق بالتعامل التجاري مع الأعراب، فضلا عن إثارتها لمسألة التوبة –بغض النظر عن أسبابها، سواء كانت بدافع روحي أو لاعتبارات اقتصادية وسياسية- وما يتعلق بها من إعادة توزيع الممتلكات غير المشروعة؛ Ibid, p316-320.

وكتبت ذات الباحثة أيضا حول نظرة الفقهاء للبدو:

Elise Voguet: Dissidence affirmée ou rejet codifié de la umma: badawî et ’arab dans les Nawâzil Mâzûma, Alfa. Maghreb et sciences sociales (Tunis), 2006, pp. 147-157.

السلوك البدوي ليس مرتبطا بمنطقة معينة، إنما هو خاصية تتميز بها هذه المجموعات أينما وجدت، ويبدو أن هؤلاء البدو قد تركوا لدى غيرهم انطباعا سلبيا حولهم، فها هو الباحث كريستيان ديلوز Christiane Deluz يخلص إلى تحديد جملة من الانطباعات التي سادت حول البدو العرب في صحراء سيناء، بعد دراسته لعلاقتهم بدير "سان كاترين" Saint Catherine، فهم في أحيان كثيرة مصدر خطر على الحجاج الذين يقصدون الدير، لأنهم يقومون بالإغارة على القوافل، وأحيانا يكونون في صورة أقل شراسة حينما يكونون في مقام طلب الأكل والصدقات، حينها يجد الحجاج أنفسهم ملزمين بتلبية طلباتهم من بعض ما يملكون، خوفا من انتقامهم أو لأنهم يندرونهم بفأل سيء في حال رفضوا مساعدتهم؛=

لم تكن الإغارات موجهة للعامة فحسب، بل كانت تستهدف القوافل والحملات السلطانية أيضا، فابن الحاج النميري[1] يذكر أن قافلة السلطان أبي عنان المريني (ح749-760هـ/1348-1358م) في طريقها إلى الزاب، استهدفها قطاع طرق بزعامة "دغار بن عيسى" من بني مالك بن هلال، في الجنوب القسنطيني، حينما حاولوا انتهاب أبقار كانت ضمن القافلة، لولا ملاحقتهم من طرف عناصر من الجيش المريني.

يذكر التاجر والديبلوماسي وعمدة مدينة بروج[2] Bruges لاحقا، الرحالة أدورنو أنسلم Adorne Anselme (828-878هـ/1424-1483م) خلال رحلته الحجية إلى القدس أنه خلال نزولهم بتونس كمحطة من محطات رحلتهم في ذو الحجة 874هـ/جوان 1470م، زاروا بعض المناطق، وكانوا يفكرون في زيارة أماكن أخرى، غير أن خوفهم من العرب ومن وباء الطاعون الذي كان منتشرا في بعض الجهات جعلهم يتراجعون، ومع ذلك فقد خرجوا عدة مرات لمسافات بين ستة عشر (16) أو عشرين (20) ميلا، في المواقع التي يشغلها العرب المتحالفين مع ملك تونس.[3]

وعليه، فقد استمر النشاط الإغاري في المنطقة لفترات لاحقة، وارتبط تراجعه بمدى قوة الدولة وحضورها، وتمكنها من ضبط الأمن وفرض السلطة، واحتواء الحلفاء.

ب. المعالجات الاقتصادية لقضايا النشاط الحرابي في نصوص النوازل

تتحدث النصوص التاريخية عن الحرابة بصفة عامة، غير أن التفاصيل التي تسمح بمعرفة مدى انتشار الظاهرة، والمخلفات التي تترتب عنها في الجوانب الاقتصادية والاجتماعية وحتى ارتباطاتها السياسية يمكن التماسها ضمن المتون النوازلية، التي تعكس رؤية الفقيه للبدوي وسلوكه، وتفرز هذه النصوص مجتمعة تلك التباينات في الرؤى والمواقف.

انقسمت معالجات النص النوازلي لظاهرة الحرابة ضمن مواضيع مختلفة، منها ما اهتم بحكم هؤلاء المغيرين وآلية التعامل معهم والحد الذي يطبق عليهم، فضلا عن حكم التعامل التجاري مع مستغرقي الذمم، ومنها ما عالج مسألة التوبة من النهب والسلب وما يترتب عليها.

ونظرا لما يثيره النص النوازلي من تمثلات وتمظهرات للرؤية الفقهية حول فصيل البدو، فقد كان محل اهتمام من طرف بعض الباحثين، على غرار جاك بيرك (1910-1995) Jacques Berque الذي كتب في مجلة

=Christiane Deluz: Bédouins et pèlerins d'Occident au Sinaï, une difficile rencontre, dans le livre: Le Sinaï de la conquête arabe à nos jours, Op. cit, p188-189.

[1]) النميري: فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، دراسة وإعداد: محمد بن شقرون، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1990، ص455.

[2]) مدينة بروج Bruges تقع حاليا في الشمال الغربي لبلجيكا على الحدود مع هولندا.

[3]) Deux récits de voyage inédits en Afrique du Nord au XVe siècle Ibn Halil, Abdalbasit et Adorne, Anselme, Robert Brunschvig (edt), Publications de l'Institut d'études orientales, Faculté des lettres d'Alger;7, paris larose, 1936, p219.

-Annales. Histoire, Sciences Sociales التي أسسها مارك بلوك (1886-1944م) Marc Bloch ولوسيان فيفر (1878-1956م) Lucien Febvre- عن الهلاليين التائبين Les Hilaliens repentis في المغرب الأوسط خلال القرن (09هـ/15م)، حيث تتبع ما ورد في النصوص النوازلية التي تضمنت العديد من النوازل التي تستفتي عن آليات التوبة من التورط في بعض المخالفات الاقتصادية والنهب والسرقة وغيرها.[1]

تُحصِي النوازل في المغرب الإسلامي الكثير من المسائل المتعلقة بالتعامل مع مستغرقي الذمم ونتائجه، وكثيرا ما تربطه بالتعامل مع الأعراب.[2] فقد سئل الوغليسي (702-786هـ/1303-1384م) عمن جعلته الضرورة يشتري الإبل من العرب المعروفين بالغصب.[3] كما تلقى القاضي أبو عبد الله بن عبد السلام التونسي (606-749هـ/1277-1348م) سؤالا من سوسة عن شراء بهيمة الأنعام من "أعراب زماننا" الذين لا يمتنعون عن الإغارة.[4] وسئل السيوري عن معاملة الأعرابي وقبض أمواله، فكان جوابه: "لا ينبغي معاملته ولا مخالطته مطلقا إن كان جل ماله وإن كان أقله فيختلف ذلك".[5]

أدى ارتباط أعمال اللصوصية والنهب بالأعراب، إلى تشوه صورتهم، حيث ساد انطباع عام لدى الناس أن الأعرابي مستغرق للذمم بالضرورة، ولا ننفي هنا دور الفقيه في ترسيخ هذه الصورة، مع أن المازري (453-536هـ/1061م-1141م) رفض هذا التصور، خاصة عندما ينجر عنه الإيذاء ومنع الحق، فاعتبر ذلك من الظلم: "لا حجة في الخوف من العربي، لأن منعه من حقه ظلم، ولا يمكن من ظلم المستحق لأجل أنه يخاف من الظلم".[6]

لا نختلف مع محمد فتحة[7] حينما يُؤكد على قلة النوازل المتعلقة بالهلاليين في القرن السادس الهجري (12م) مقابل كثرتها في القرن الخامس والسابع والثامن الهجري (11-13-14م)، وهو الأمر الذي يعكس ارتباط أوضاع القبائل الهلالية ونشاطهم الحرابي بالأوضاع السياسية.

وفي سياق تحليله للصعوبات التي كَبحت عملية حدوث إدماج شامل للعرب الهلالية في المنظومة الصوفية، يُرجع الطاهر بونابي جانبا من ذلك إلى غياب التأطير الفقهي والسياسي الذي ينظم فكرة التوبة ويحافظ على

---

[1]) Jacques Berque: Les hilaliens repentis ou l'Algérie rurale au XVe siècle, d'après un manuscrit jurisprudentiel, Annales. Histoire, Sciences Sociales, EHESS, 25e Année, No. 5 (Sep. - Oct., 1970), pp. 1325-1353.

[2]) المازري: المصدر السابق، ص277؛ الونشريسي: المصدر السابق، ج6، ص147.

[3]) الونشريسي: نفسه، ج5، ص88.

[4]) نفسه، ج6، ص142.

[5]) نفسه، ج9، ص543.

[6]) المازري: المصدر السابق، ص359.

[7]) بنو هلال والاندماج الصعب، ضمن كتاب: من إينّاون إلى إستانبول – أعمال مهداة إلى عبد الرحمن المؤذن، تنسيق: عبد الأحد السبتي وعبد الرحيم بنحادة، كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، 2012، ص20.

مكاسب الإصلاح، فنصوص النوازل تعاملت بتشدد مع من يُبدون رغبتهم في التوبة، حيث تفرض عليهم شروطا تتعلق بالتخلص من مخلفات فسادهم (تجريدهم من المال المغصوب) وشروط عسكرية ضد قطاع الطرق، حيث يستند الفقهاء إلى فتوى الإمام مالك التي تعتبر قتال الأعراب المفسدين أحب وأكثر أجرا من قتال الروم، وهو ما أدى إلى نفور القبائل العربية من التوبة المشروطة، خاصة مع عدم تقديم فقهاء المغرب الأوسط خلال القرن 8هـ/14م لتسهيلات في شروط التوبة، وقد استمر هذا التشدد في الفتوى إلى القرن 09هـ/15م.[1] ومع ذلك، يبدو أن هناك فقهاءً عارضوا بعض الفتاوى المتشددة التي تقضي بقتال قُطَّاع الطرق والمغيرين في المغرب الأوسط.[2]

أحدث التعاطي الفقهي مع البدوي وشؤونه تنوعا في فتاوى الفقهاء، سواء ما تعلق بحكم التعامل التجاري مع الحرابيين في السلع المغصوبة أو المشتبه في غصبها، أو في مسألة بيع وسائل وأدوات الحرب والقتال لهم، أو في آليات ومتطلبات التوبة، وهو مجال مهم للدراسة والبحث، هذا بعيدا عن الشق الاقتصادي وانعكاسات هذه الاختلافات على دينامية الاقتصاد في المغرب الأوسط، والتأثير في مستويات التبادل بين البدو والحضر.

---

[1]) الطاهر بونابي: مظاهر المجال والدين والمجتمع، المرجع السابق، ص140-141.

[2]) المازوني: المصدر السابق، ج1، ص310.

2- اقتصاد المغازي (النشاط والأشكال):

أ. اقتصاد المغازي وأثره في إدماج العرب الهلالية

إذا كان تدخل الدول والإمبراطوريات القديمة والوسيطة منها في محاولة احتواء ودمج المجموعات البدوية بما فيها القبائل الهلالية خاصة في مرحلتها المشرقية قد أفضى إلى نتائج متباينة، ارتبطت عموما بمدى نجاعة مخططاتها وقابلية البدو للانخراط فيها، يكون التساؤل حول طبيعة تعامل السُّلط في المغرب الإسلامي على عهد الدول الصنهاجية والموحدية وهل هي سياسات مختلفة عن سياسات الإمبراطورية القديمة والوسيطة في المشرق؟ وإلى أي حد يمكن الإقرار بوجود تمايز في هذه السياسات؟ وإلى أي مدى يمكن اعتبار ركون بعض الدول في فترات من تاريخها إلى سياسة التوافق مع العرب الهلالية بمثابة محاولة للإخضاع؟

*** ملامح السياسة الإغرائية الزيرية**

يثير جورج مارسي بنوع من التعجب مسألة توهّم الخليفة الفاطمي أن يكون البدو تابعين له في إفريقية، رغم أنه اعتبر اصطحاب أمراءهم لمراسيم تولية جهات إفريقية إجراءات تقليدية، كما وتعجب من موقف المعز من العرب حينما اعتقد أنه يمكن الانتفاع بهم كمحاربين في جيشه، فرغبتهم في السلب والإغارة والاستحواذ على الممتلكات الموعودة كانت سببا في عدم فشل معاهدة زعيم رياح "مؤنس" مع المعز.[1] ففي ظل الاندفاع الذي ظهر على الهلاليين عشية ولوجهم إفريقية، ينفي "إسماعيل حامت" (1857-1932) وجود حس سياسي لديهم، ويُرجع بالمقابل التماسك النسبي لقبائلهم إلى خاصية التضامن الأسري.[2]

حاولت السّلط في المغرب الإسلامي توظيف الهلاليين سياسيا، فقد عمل الزيريون والحماديون على كسب ودّ القبائل العربية، التي استغلت الانقسامات السياسية لبسط سيطرتها وتوسيع مجالاتها، ورغم ذلك لم يغلق الأمراء الباب أمامهم حيث تعاونوا معهم عدة مرات.[3]

صحيح أن المعز[4] لم يهتم في البداية كثيرا لأمر الهلاليين، ولم يأخذ باحتياطاته، وربما كان يعتقد أنهم سيعودون من حيث جاءوا،[5] لكن عندما وصل أمير رياح "مؤنس بن يحيى الصنبري" إلى إفريقية قرّبه المعز واستماله وصاهره وتفاوض معه لاستدعاء قومه من العرب وتجنيدهم في الجيش الزيري، فكانت هذه أول خطوة في اتجاه دمج العرب الهلالية عن طريق اقتصاد المغازي من قبل السلطة الزيرية غير أنهم عندما دخلوا البلاد عاثوا فيها فسادا وأعلنوا

---

[1]) جورج مارسيه: المرجع السابق، ص223.

[2]) Ismaël Hamet: Op.cit, p244.

لتتبع الماضي السياسي للهلاليين قبل انتقالهم إلى بلاد المغرب، ينظر: راضي دغفوس: دراسات في التاريخ العربي الإسلامي الوسيط، ص ص30-54.

[3]) فاليرين: المرجع السابق، ج1، ص198.

[4]) يصف ابن خلدون حكم المعز بأنه: "أضخم ملك عرف للبربر بأفريقية وأترفه وأبذخه"؛ العبر، ج6، ص210.

[5]) ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص320.

الولاء للخليفة المستنصر،[1] مما دفع بالمعز إلى إلقاء القبض على بعض أفراد عائلة مؤنس، وكرد فعل على ذلك تزعم هذا الأخير حملة نهب وسلب وخطّط لدخول القيروان بعد أن يستولي على محيطها.[2]

سرّع انتصار الهلاليين على الزيريين في حيدران[3] سنة 443هـ/1052م من تقدم العرب نحو سهول القيروان، ليتجهوا خلال الشتاء جنوبا، لكنهم وبحلول فصل الربيع حاولوا الاتجاه مجددا نحو القيروان لذلك عمل المعز على صدّهم،[4] لكن وبعد سلسلة الهزائم التي تكبّدها، ومحاصرة العرب للقيروان، عزم على مواجهتهم فانهزم مجددا، ما شجّعهم على نهب البلاد إلى غاية رمضان من سنة 449هـ/1058م.[5]

الحصار المضروب على القيروان كان قاسيا على المستوى الاقتصادي، فعلى إثره "هلكت الضواحي والقرى".[6] وهو يدخل ضمن استراتيجية إضعاف قدرات العاصمة الزيرية بشكل منظم ومقصود.[7] وهو ما يفسر عدم توجه

---

[1]) ابن خلدون: العبر، ج6، ص20.

[2]) بورويبة: المرجع السابق، ص48.

[3]) "حيدران اسم جبل معروف بمقربة من القيروان"؛ التجاني: المصدر السابق، ص20؛ واختلف في موقع معركة حيدران حيث يذكر ابن خلدون أنها بنواحي قابس، في حين يقول ابن الأثير أنها على ثلاث مراحل من القيروان، وفي محاولة لتحديد موقعها الحالي يشير حسن حسني عبد الوهاب إلى أنها قرية ودران؛ المرجع السابق، ص49.

كما اختلفت بعض المصادر في تحديد تاريخ المعركة، فابن عذارى يذهب إلى أنها من حوادث سنة 443هـ؛ المصدر السابق، ج1، ص319؛ في حين يذكر ابن بسام والتجاني أنها وقعت سنة 444هـ؛ الذخيرة، ق4، مج2، ص614؛ الرحلة، ص18؛ ومحاولة لتجاوز هذا الاختلاف بناءً على بعض الإشارات المصدرية، يخلص دغفوس إلى حدوث وقعتان بين الهلاليين والزيريين تحملان نفس الاسم، على خلاف روجي إدريس الذي ينفي قيام أكثر من معركة بينهما وهي معركة حيدران في بداية عيد الأضحى سنة 443هـ. والوقعتان هما الأولى التي سماها ابن الأثير بـ "يوم العين" التي وقعت في 02 ذي الحجة، والثانية بعد مدة لا تتجاوز نهاية الشهر نفسه، كما أن جورج مارسيه تحدث عن معركتين: معركة حيدران الأولى (ذي الحجة 443هـ/1051م) وحيدران الثانية (444هـ/1052م). وإن كان دغفوس يتفق معه في عدد الوقعات إلا أنه لا يوافقه في تاريخ الثانية؛ راضي دغفوس: معركة حيدران والصراع الزيري الهلالي في القرن الخامس هجري / الحادي عشر ميلادي، الكراسات التونسية، مجلة العلوم الإنسانية، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، تونس، ع178، 1997، ص19؛ البشير بوقاعدة: خراب المدن بالمغرب الأوسط والأدنى بين 296هـ/909م-547هـ/1152م، رسالة ماجستير في تاريخ المشرق والمغرب، المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة، الجزائر، 2012/2013، ص178.

[4]) عدم مقدرة المعز على مواجهة الهلاليين، جعله مضطرا لإعادة العلاقات مع شيوخهم تخفيفا للضغط الذي تسبب فيه وجودهم حول العاصمة، غير أن دخولهم للمدينة بغرض التموين بالسلع كان يحدث بعض الاضطرابات، وفي إطار استراتيجية المعز في تأمين المدينة أعاد بناء سورها الذي افتقدته منذ حوالي مائتي وثلاثين (230) عاما وزوّج ثلاثا من بناته لزعماء رياح، وقد دامت وضعية الترقّب والضغط هذه على البلاط وسكان القيروان لخمس (05) سنوات استحالت فيها زراعة الأراضي المحيطة بالقيروان وتموين الأسواق وتسلّط فيها العرب؛ البكري: المصدر السابق، ص25؛ ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص325؛ ابن خلدون: العبر، ج4، ص80؛ جورج مارسيه: المرجع السابق، ص224؛ ابن بسام: المصدر السابق، ق4، مج2، ص614؛ رحلة التجاني، ص18؛ ينظر أيضا:

Gilbert Meynier: L'Algérie, Cœur du Maghreb classique De l'ouverture islamo-arabe au repli (698-1518), La découverte, Paris, 2010, p61.

[5]) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص215؛ وعندما كانوا يحاصرون العاصمة: "أمر السلطان كافة الناس بانتهاب المزروعات المحيطة بالقيروان وصبرة، وهي المنصورية، فسُرَّ المسلمون بذلك، وحسبوها من أرزاقهم وكان مصيرها إلى ما قدّر الله من فسادها وأكل البهائم لها"؛ ابن عذارى: المصدر السابق، ص317-318. وكان المعز من خلال توجيه رعاياه لنهب ما يحيط بالقيروان -إن صحّت الرواية- مدركا بأن أيامه فيها أصبحت معدودة.

[6]) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص217.

[7]) البشير بوقاعدة: المرجع السابق، ص175.

الهلاليين منذ البداية إلى مدينة القيروان مباشرة والتركيز قبل ذلك على الاستيلاء على محيطها، وبعد أن نفذت أموال المعز وتفرق رجاله.[1]

رغم أن الهلاليين كانوا سببا في خراب القيروان على إثر دخولها في رمضان من سنة 449هـ/1058م[2] وانتقال البلاط إلى المهدية وتطلُّعه أكثر نحو البحر، إلا أن الزيريين استمروا في توظيف بعض القبائل الهلالية، حيث ساهمت في مواجهة الغزو النورماني لسواحل إفريقية، في سنة 517هـ/1122م، على إثر المواجهة في حصن الديماس (بين المنستير والمهدية) وقد أشاد الأمير الزيري "الحسن" بدور العرب في صدّ هذه الغارة.[3] وبالتالي فإن توظيف العرب الهلالية لم يقتصر على المواجهات مع القوى الداخلية إنما كان في إطار صدّ الاعتداءات القدمة من البحر.

وضمن سياسة الإغراء التي اتبعها الزيريون تجاه الهلاليين، فقد تواصلوا مع القبائل التي كانت في صف الناصر قبيل معركة سبيبة 457 هـ/1065م، وعملوا على جعلها جزءًا من المخطط الذي يستهدف الإطاحة بالقوات الحمادية.[4] في ظل تشكّل مشهد جديد لتدبير التحالفات الهلالية-الهلالية والهلالية الصنهاجية.

*** اقتصاد المغازي في الدولة الحمادية وأثره في تهدئة العرب الهلالية**

استشعر الحماديون خطورة العرب الهلالية بعد الهزيمة التي تكبّدها الزيريون في حيدران سنة 443هـ/1052م، حينما كانت القوات الحمادية جزءًا منها،[5] وفي الوقت الذي تمكّن العرب من غزو إفريقية واضطر الزيريون لنقل مقر حكمهم إلى المهدية، ظهر من جديد الصراع بين الزيريين والحماديين.[1]

---

[1]) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص215.

[2]) جورج مارسيه: المرجع السابق، ص224؛ تذكر رسالة المستنصر – التي تعتبر الاستيلاء على إفريقية فتحا كبيرا يتطلب الإعلان عليه في المنابر وتبليغه في البوادي والحواضر- أنه وبعد تمكن العرب من إفريقية، أرسلوا وفدا من الأعيان إلى القاهرة: "واستصحب من مشايخ تلك الأعمال قوما رغبوا بالشرف في الهجرة إلى الحضرة، والمشافهة بالشكر والدعاء لما نجاهم الله تعالى منه من الغمرة، وكشف عن وجوههم بإضلال ذلك الخائن من الحيرة، والتماس تدبير أمورهم مما يؤذن بتمام صلاحها بعد أن كساهم الله برحمته رونقا، ونفى عن مشاربهم بحمد الله رنقا، فديارهم بالمسار مشمولة، وعراصهم بالتهاني مأهولة، ... وأنه خلف ابن باديس اللعين محصورا في مثفأة (المثفأة هي المنفى) من الأرض، محصولا على شفا جُرُف الأخذ والقبض، قد فغر الردى له فمه، ولن يبعد بعون الله أن يلتقمه"؛ السجلات المستنصرية، ص43-45.

[3]) التجاني: المصدر السابق، ص ص336-339.

[4]) ابن الأثير: المصدر السابق، ج8، ص372.

[5]) يفسّر جورج مارسيه وجود حوالي ألف (1000) فارس حمادي إلى جانب المعز، بالخطر المشترك أو واجب التضامن العائلي بين الأسرتين، لكنه يتهمهم بالتخاذل في ساحة المعركة؛ جورج مارسيه: المرجع السابق، ص227.

دفعت الوضعية التي آلت إليها المملكة الزيرية بالناصر إلى المسارعة لإعادة الدعوة للفاطميين ومبايعة المستنصر، بعد أن كان الحمّاديون قد قطعوا الخطبة للخليفة الفاطمي في وقت مبكّر منذ بداية القرن الخامس للهجرة (11م) خلال عهد حماد (405-419هـ / 1014-1028م) وأعلنوا مبايعة الخليفة العباسي. وجاء هذا التراجع بناء على التخوف من العرب ومحاولة لسد الطريق أمامهم، كل هذا رغم أن الحماديين كانوا في وضع سياسي – عسكري أفضل من الزيريين لاعتمادهم على قبائل صنهاجة، فضلا عن البنية الطبوغرافية لبلدهم؛ راضي دغفوس: معركة حيدران، المرجع السابق، ص22؛ العروي: المرجع السابق، ج2، ص94.

حصل أمير القلعة بن حماد بعد إعادة الدعاء للفاطميين سنة 446هـ/1054-1055م على لقب "شرف الدولة"؛ جورج مارسيه: المرجع السابق، ص227؛ حسن خضيري أحمد: المرجع السابق، ص78؛ بورويبة: المرجع السابق، ص51؛ جاء في رسالة المستنصر: "وخرج إليه ابن بلكين=

تعود جذور الاشتباك العنيف في سبيبة[2] 457 هـ/1065م، إلى ترحيب الناصر بطلب وفد من الأثبج الوقوف معهم ضد رياح، لأن ذلك يتيح للناصر التوسع في مجالات مهمة من إفريقية على اعتبار أن رياح تسيطر على الجزء الأكبر منها، والانتصار عليها يسمح له بالتدخل في شؤون الزيريين بالمهدية ويتيح له ضم بعض المناطق الجديدة شرقا.[3] في حين تشير روايات أخرى إلى أن التقدم الهلالي نحو المغرب الأوسط هو الذي دفع الناصر إلى التفكير في التوجه شرقا إلى معاقلهم في إفريقية.[4] ومهما يكُن، فإن التحضير للمعركة وتدبير التحالفات عَكَس وجود تصور لدى الحماديين بخصوص إدماج العرب الهلالية عن طريق اقتصاد المغازي، فكانت أطراف المعركة من الجانب الأول: الناصر بن علناس بن حماد وصنهاجة وزناتة والمعز بن زيري الزناتي وعدي والأثبج، وفي الجانب الثاني: رياح وزغبة وسليم بدعم من تميم.[5]

قبيل الموقعة، سار الناصر بن علناس و"المعز بن زيري" صاحب فاس في جيشهم، ونزلوا بالأربس (جنوب باجة)، لمواجهة رياح وزغبة بسبيبة، لكن المعز بن زيري المغراوي مكر بالناصر ومغراوة بدسيسة تنسب إلى "تميم بن المعز بن باديس"،[6] بحيث اتفق العرب أنصار الناصر على الهزيمة لصالح الزيريين، كما راسل تميم زعيم الزناتيين في جيش الناصر ورتَّب معه اتفاقا على انهزامهم.[7] وتفرقت زناتة منذ بداية المعركة مما أثر على صنهاجة، ولم يبق من جيش الحماديين في ساحة المعركة سوى أربعة وعشرون ألف (24.000) رجل.[8]

=صهره على أخته، وابن يلمو الذي هو مقدم قومه، وابن حماد الذي هو أخو صاحب قلعة كتامة (كيانه) مستأمنين، وبعفو أمير المؤمنين لائذين، وعلى بابه ترسلا في مثله عن صنهاجة وافدين"؛ السجلات المستنصرية، ص44.

[1]) يحمّل سعد زغلول عبد الحميد "الناصر بن علناس" مسؤولية التجني بما أنه الطرف الأقوى اقتصاديا وعسكريا آنذاك، معتبرا ذلك امتدادا للصراع الذي ظل يحكم العلاقة بين أبناء العمومة منذ انفصال الفرع الحمادي، ولعل ما أثار حقد الزيريين هو انتقال عدد من أهلها إلى الدولة الحمادية، وانتعاش فكرة الناصر المتمثلة في محاولة إعادة الوحدة بضم إفريقية والقيروان؛ تاريخ المغرب العربي، ج3 (الفاطميون وبنو زيري الصنهاجيون إلى قيام المرابطين)، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1990، ص452.

[2]) نسبة لمدينة سبيبة: "وهي مدينة قديمة أزلية، ... ولم يكن بإفريقية أخصب أرضا منها"؛ مجهول: المصدر السابق، ص161؛ "...كثيرة المياه والجنات وعليها سور من حجارة حصين ... وغلاتهم من الكمون والكروياء والبقول"؛ الإدريسي: المصدر السابق، ص294.

[3]) جورج مارسيه: المرجع السابق، ص228-229؛ اعتبر العروي تحالف الناصر بقواته الصنهاجية والزناتية مع الأثبج وعدي ضد رياح وزغبة وسليم بمثابة "الخطأ القاتل"؛ المرجع السابق، ج2، ص94.

[4]) ابن خلدون: العبر، ج6، ص27؛ ينظر تفاصيل أخرى أوردها ابن الأثير: المصدر السابق، ج8، ص372-373.

[5]) ابن الأثير: المصدر السابق، ج8، ص372.

[6]) ابن خلدون: العبر، ج6، ص27؛ ينظر تفاصيل أخرى أوردها ابن الأثير: المصدر السابق، ج8، ص372-373؛ مجهول: المصدر السابق، ص128-129.

[7]) سعد زغلول: المرجع السابق، ج3، ص453.

[8]) ابن الأثير: المصدر السابق، ج8، ص373؛ جورج مارسيه: المرجع السابق، ص228-229.

قُتل "القاسم بن علناس" شقيق الناصر، الذي اتجه نحو قسنطينة أين لاحقته رياح، ثم لحق بالقلعة حيث دارت بينهما منازلة انهزم فيها أيضا وخرّبت على إثرها القلعة ثم طبنة والمسيلة وضواحيها، بعد أن عاد الناصر في مائتي (200) فارس.[1]

أورد ابن بسام في الذخيرة[2] رسالة فيها امتداح للناصر ابن حماد وذم لقبيلة رياح التي كانت في طرف المواجهة، مما جاء فيها: (المديد)

أَبَا المنصُورِ مَا للدَّهر عَيـن سِواك فَوَارها فَهُو الصَّـلاحُ

وَلَا تَتعرَّضن إلى رِيـــاحٍ فَأعْدَى مَا عَلى العَيْنِ الرّياحُ

قبيلةٌ لَها فِي اللُّؤم بَـــأس وعِند المكْرَماتِ لَها جِمــاحُ

سبال اللُّؤم لا كَانت سبال وُجُــوه الذّل والخد الوِقَاحُ

أشارت معركة سبيبة إلى تشكل فريقين أو تكتلين من القبائل الهلالية، قد يكون له تأسيس تاريخي سابق، يرجع لتواجدهم بشبه الجزيرة العربية أو صعيد مصر، وسيؤثر في التوزيع القبلي والتحالفات مستقبلا. كما أن الناصر، لم يثنه انهزامه في سبيبة عن استغلال ضعف الزيريين ليشكل خطرا عليهم إلى غاية سنة 470هـ/1077م، حين عقد مع تميم صلحا، وزوج هذا الأخير ابنته "بلارة" للناصر.[3]

عجْزُ الحماديين عن مواجهة الهلاليين دفعهم إلى التحالف مع الأثبج والتنازل لهم عن البوادي، خاصة وأن الزيريين كانوا قد اعتمدوا على خصومهم من بني رياح وزغبة.[4] وبالتالي كانت سياسة التحالف هي الاستراتيجية التي تبناها الحماديون في التعامل مع الهلاليين، ويبدو أنها كانت فعالة إلى حد ما، خاصة وأن ظهور الهلاليين – حسب جورج مارسيه– في البلاد الحمادية لم يأخذ شكل الكارثة في البداية، لأن السلطة الحمادية كانت تعتقد مثل المعز أن الاتفاق والتعاون معهم ممكن ومفيد، لذلك لم يحدث قتال كبير بين الحماديين والهلاليين عند

---

[1]) ابن خلدون: العبر، ج6، ص27؛ ينظر تفاصيل أخرى أوردها ابن الأثير: المصدر السابق، ج8، ص372-373؛ مجهول: المصدر السابق، ص128-129؛ جورج مارسيه: المرجع السابق، ص228-229.

[2]) ابن بسام: المصدر السابق، ق4، مج2، ص348؛ انطوت نفس القصيدة على صورة مهمة للخطاب التاريخي الأندلسي في ذم الهلالية:

أناس في مفارقهم قرون ولكن بالفقاح هو النطاح

ولا تتزوجن لهم ببنت فللسودان عندهم مراح

بأرجلهن يستغفرن دأباً فأرجلهن في الدعوات راح

نفسه، ق4، مج2، ص348.

[3]) ابن الأثير: المصدر السابق، ج8، ص415؛ سعد زغلول: المرجع السابق، ج3، ص464؛ بورويبة: المرجع السابق، ص70؛ روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص294.

[4]) روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص289؛ وما ينبغي الإشارة إليه، هو أن القبائل العربية عندما دخلت إفريقية كانت موحّدة ولا تزال تحت تأثير صلح اليازوري، لكن الأمر أصبح مختلف بعد سنوات من وجودها في إفريقية، فقد ظهر حلفان عربيان يوالي كل واحد منهما جهة معينة، وربما هذا كان سببا في كون الدخول الهلالي إلى المغرب الأوسط يختلف من حيث الشدة عما حدث في إفريقية التي يمكن وصف ما حدث فيها بالصدمة.

وصولهم إلى المغرب الأوسط، لأن بلكين بن محمد ترك لهم الأرياف وحاول احتواءهم في جيشه، ومن بين الدوافع التي جعلته يتجه نحو هذا الخيار هو الصراع الذي حدث بين الهلاليين وزناتة.[1]

وقد عرف عهد المنصور بن الناصر بن علناس (ح481-498هـ/1088-1104م) الكثير من المحطات التي كان فيها احتكاك أحيانا وتعاون في أحايين أخرى مع العرب الهلالية، في ظل تحركاته لفرض سلطته بعد توليه شؤون الدولة، في بجاية وقسنطينة، فقد عمل على محاولة تحييد القبائل العربية المناوئة للدولة الحمادية والتي انخرطت في ثورة أبي يكنى بقسنطينة سنة 487هـ/1094م،[2] وفي إطار تطلعه للسيطرة على تلمسان سنة 496هـ/1103م، انخرط معه أحياء من الأثبج وزغبة وربيعة.[3]

بالموازاة مع ذلك، وفي ظل التهديد الذي شكّله العنصر الهلالي، لم يكن من اليسير التحكم فيه دون تقديم مقاربة اقتصادية يضمن من خلالها الحماديون ولاء الهلاليين، لذلك أقدم المنصور بن الناصر ثم خلفاؤه على إقرار نصف غلة البلاد للهلاليين.[4]

انعكس توظيف الهلاليين في الصراعات والحروب وبالتالي في اقتصاد المغازي على مضامين نص التغريبة، حيث يخلص عبد الحميد بوسماحة من خلال إحصاء مدة الحروب والمعارك التي خاضها الهلاليون طيلة مسار تغريبتهم، إلى أن أطول مدة تتعلق بالمعارك التي خاضوها كانت في بلاد المغرب حيث بلغت (240) يوما، تليها حروبهم في مصر التي وصلت في مجموعها (39) يوما،[5] على الرغم من أن هذه المعارك التي تتضمنها التغريبة تحاول أن تقدم الهلاليين كطرف وليس كعنصر تابع.

وبالنظر إلى السلطة التي يحوزها الفقهاء المالكية في المغرب الأوسط خلال هذه الفترة، فإننا نتساءل عن موقفهم من طبيعة تعامل الحماديين مع القبائل الهلالية، خاصة إذا استحضرنا الخلفيات التي بنى عليها الفقهاء مواقفهم من الهلاليين، فهم وفقا لما يذهب إليه سعدي شخوم[6] ينظرون إلى الهلاليين من منطلق أنهم كانوا مُوَالين للفاطميين الشيعة وتسببوا في خراب القيروان التي تعد مركزا محوريا للفقهاء المالكية، فضلا عن كون وازعهم الديني

---

[1]) بورويبة: المرجع السابق، ص119.

رغم الهزيمة الكبيرة التي تلقتها القوات الحمادية في سبيبة، والتي شجّعت العرب الهلالية للولوج إلى المغرب الأوسط، إلا أن السلطة الحمادية لم تتوقف نهائيا عن محاولة إدارة المسألة الهلالية، فقد قام المنصور في أواخر عهد أبيه الناصر بغزو غمرت ومغراوة الزناتيتين المتحالفتين مع الأثبج بسبب إغارة هذه القبائل الثلاث على الزاب، كما أغار على قبيلة بني توجين المتحالفة مع بني عدي، حيث أحضر ثلاثة من أمراء قبيلة عدي للناصر الذي وبخهم ثم قتلهم؛ روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص324؛ بورويبة: المرجع السابق، ص72-73.

[2]) ابن خلدون، العبر، ج6، ص232، 233.

[3]) ابن بسام: المصدر السابق، ق2، مج1، ص259؛ ابن خلدون، العبر، ج6، ص232، 233.

[4]) عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص189؛ جورج مارسيه: المرجع السابق، ص229.

[5]) عبد الحميد بوسماحة: المرجع السابق، ج1، ص204.

[6]) موقف فقهاء المالكية من القبائل الهلالية بالمغرب الأوسط، مجلة الحوار المتوسطي، جامعة سيدي بلعباس، مج4، ع1، 2013، ص17.

من هذا المنظور، يكون موقف الفقهاء المالكية من العرب موقفا مركّبا، يجمع بين استثمارهم في النصوص الدينية والتراث الاسلامي، وبين موقفهم من الشيعة، باعتبار الهلاليين محسوبين عليهم سياسيا على الأقل. وبهذا، فإن الموروث الديني الإسلامي والذاكرة العربية ساهمت في نسج تصورات مختلفة حول البدو، ألقت بظلالها على مستقبل علاقاتهم مع القوى السياسية والدينية والاجتماعية وتحديد مساراتها.

ضعيف مما أدى بهم إلى الوقوع في التجاوزات الشرعية. ومع ذلك فإننا نعتقد أن موقفهم الذي لم يكن واضحا بالقدر الكافي ارتبط بالمعطى السياسي.

بين التوظيف والاستعطاف والممالأة ومحاولة الإخضاع، تمحورت الاستراتيجية الحمادية في التعامل مع العنصر الهلالي، وإن كان المدخل السياسي الذي تبنته الدولة الحمادية (408-547هـ/1018-1152م) في تسيير الملف الهلالي لا يعكس بدقّة الملمح الاقتصادي بعيدا عن نسب الغلات التي كانت من نصيب القبائل الهلالية وانعكاسه على ترسيخ الطابع الاتكالي في تحصيل المعاش، وصولا إلى نقل العاصمة إلى الساحل، إلا أن تسخير السلطة الحمادية لجزء مهم من المردود الاقتصادي للمغرب الأوسط لصالح هذه القبائل يدخل ضمن استراتيجيتها التي مكّنتها من تأمين جزئي للدولة واقتصادها، لكنها لم تحقق اندماج حقيقي في المنظومة الاقتصادية للمغرب الأوسط، بحيث لم تظهر ملامح استقرار فعلي يقوم على العمل والإنتاج الزراعي، كما انعكست هذه العلاقة من جهة أخرى على تمادي الهلاليين في أعمالهم الحرابية، وبالتالي فإن خطط الأمراء الحماديين تجاه الهلاليين لم تؤد سوى إلى تلافي المواجهة المباشرة والحرب المعلنة، باعتماد سياسة إطلاق يد العرب الهلالية في الغلات وجباية الضرائب والسيطرة على بعض محاور الطرق. وفي مقارنة سريعة لمدى حضور اقتصاد المغازي في الدولتين الصنهاجيتين، ننتهي إلى أنه كان أكثر حضورا في الدولة الحمادية.

*** الإخضاع وانعكاساته على النشاط الاقتصادي الهلالي على عهد الموحدين**

انطلاقا من طبيعة الخلافة الموحدية الإمبراطورية، التي تستهدف التوسع وإخضاع الساكنة، فلا شك أن الإقدام على إدماج القبائل الهلالية في هيكل الدولة يعدّ من أولوياتها، وهي بذلك تكرّس التفكير الإمبراطوري القديم في التعامل مع العنصر البدوي، باعتباره مكونا مهما في تركيبة المجتمع، ومن شأن الاعتماد عليه أن يعزّز القدرات العسكرية والدفاعية للدولة ويسهم في الحد من تحركاته المنافية لمتطلبات الأمن والانضباط، وبالتالي تضاف جهودها في هذا الإطار إلى الخبرات الإمبراطورية السابقة ضمن ذات المسعى، ما يشير إلى حدوث نوع من التراكم على الأمد الطويل، الذي ينعكس بالضرورة على الموقف من الدولة ومسار الاندماج.

ارتبطت الانطباعات الأولى للموحدين عن العرب الهلالية بعلاقة الصدام بين الطرفين، حيث اعتبر الموحدون الهلاليين عقبة أمام طموحاتهم التوسعية، لذلك ورد في إحدى الرسائل الموحدية قبيل معركة سطيف 548هـ/1153م: "... ومن يرتضع أشطرها من الأعراب، ويودع أعمرها دواعي الجلاء والخراب"، "العرب المغمورين بغوامر الجهالة، المغرورين بأوامر الضلالة" وقد أمعنت الرسالة في وصف العرب بأشنع الأوصاف، حيث اعتبرتهم أصحاب القلوب المظلمة والأوباش اللئام. وأطلقت على سبيهم "سبي الكافرين".[1] وهو التوصيف الذي قد يكون الهدف منه شرعنة عملية السبي.

[1]) مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية، اعتنى بإصدارها: ليفي بروفنصال، المكتبة الاقتصادية، الرباط، 1941، الرسالة 9، ص ص28-34.

تساوقا وهذه الرؤية، كانت معركة سطيف سنة 548هـ/1153م حدثا مفصليا في علاقة القبائل الهلالية بالسلطة في المغرب الإسلامي وفي مستقبل اندماجها واستقرارها، فعلى إثرها تلقى الهلاليون أول هزيمة مدوّية ألحقتها بهم دولة الموحدين في إطار مخطط فرض سلطتها وتوسيع رقعتها، فكانت فرصة مهمة لإخضاعهم لسلطة الدولة والتدخل في تكييف توزيعهم وفقا لتصورات الموحدين.[1]

وفي إفريقية، كانت معركة القرن (15 ربيع الثاني 556هـ/1160م) بمثابة التحرك الموحدي الثاني تجاه الهلاليين بعد معركة سطيف، فبعد انتصار عبد المؤمن (487-558هـ/1094-1163م) على النورمان في المهدية، أراد التخلص من القبائل الهلالية في بعض جهات إفريقية وإشراكهم في الجهاد بالأندلس، وحتى لا يلفت الانتباه فقد انسحب عبد المؤمن إلى نواحي قسنطينة ليعود لاحقا ويفاجئهم في القرن بجهات القيروان، وانتهت المعركة بانتصار كبير للموحدين، الذين قاموا بتخميس الهلاليين وغنم أموالهم وإخضاعهم.[2]

قامت فكرة الدولة عند عبد المؤمن بن علي على تأسيس شبكة قوية من الالتزامات الدينية والمصالح السياسية والاقتصادية المشتركة والامتيازات الاجتماعية، وقد كانت مسألة الأسبقية في الدوائر الموحدية قضية أساسية.[3] وفي سياق توسيع شبكتهم يبرر الموحدون إخضاعهم للأعراب بغية توحيد الجهود في جبهة الأندلس،

=استعمل الموحّدون في أدبياتهم السياسية أسلوب التكفير لجزء من العرب الهلالية ممن كان يقفون ضد مشروعهم، وتخص بالذكر قبيلة رياح —في حديثها عن الانتصار المحقق-: "... ودارت أرحية حتوفها على الرياحيين ومن انضاف إليهم من الذين خلعوا عن أعناقهم ربقة الإيمان، ونبذوا وراء ظهورهم أسباب الأمان، وأثروا ناعق الشيطان على داعي الرحمان، أما سائر الأعراب فالرجاء فيهم متمكن، وطريق إحدى الخطتين لهم متبين، والقصد لهم بحسب نفيرهم أو نفورهم متعين..." وفي ذات الإطار وردت الأبيات الآتية في نفس الرسالة: (الطويل)

وَلَمَّـا طَغَتْ جَهلاً ريـاح وصـَرصَرت — دَهَتـها بِأَمـر الله دَاهـية إدّ

فلم تُغـن عَنها اللّات شَيئا ولا حمـى — نُفُوسـهم عَنها (عنّا) سُواعٌ ولا ودّ

رسائل موحدية، م ج، الرسالة رقم 9، ج1، ص81-82.

ويشترك القاموس الموحّدي في إطلاق ألفاظ متشابهة ومتطابقة أحيانا على مجموعات عدة، وهي في مجملها المجموعات المتمردة أو الخارجة عن سلطتها، فما أطلق على العرب أطلق على غيرهم من بنو غانية والأغزاز، حيث ارتبط ذكر العرب الخارجين عن السلطة الموحدية، والمثيرين للفوضى، بأوصاف ذات منطلقات دينية، كالمنافقين، و "ذؤبان الأعراب" الذين "ازدادوا إثما وانهملوا في استحلال المحارم جرأة على الله وبغيا، فتعيّن حسم دائهم، ووجب توجيه النظر إلى إطفاء نارهم ..."؛ رسائل موحدية، م ج، الرسالة رقم 31، ج1، ص146-152.

[1]) محمد بن ساعو: القبائل الهلالية في مشاريع الإخضاع السياسية الموحدية من خلال الرسائل والتقاديم، مجلة عصور الجديدة، جامعة وهران، مج10، ع1، مارس2020، ص101؛ ينظر الملحق رقم2: خريطة انتشار القبائل الهلالية في المغرب الإسلامي.

[2]) محمد حسن: الجغرافيا التاريخية لإفريقية من القرن الأول إلى القرن التاسع هجري 07-15م فصول في تاريخ المواقع والمسالك والمجالات، دار الكتاب الجديد المتحدة، بنغازي، 2004، ص98؛ كثيرا ما كان الموحدون يخشون ارتداد العرب عن طاعتهم، لما لهم في ذلك من سوابق، وقد جاء في إحدى الرسائل: "غدرة بني رياح كفرة النعمة" تذمرا من المتحالفين مع ابن غانية في إفريقية ضد الشيخ عبد الواحد الحفصي (ت618هـ/1221م) بوادي أبو موسى قرب جبل نفوسة سنة 606هـ/1209م؛ رسائل موحدية، م ج، الرسالة رقم 61، ج1، ص251.

[3]) Maribel Fierro: 'Abd al-Mu'min - Mahdism and Caliphate in the Islamic West, Oneworld Academic, London, 2021, p64.

وكأنهم يحاولون جعل الغزو في الأندلس بالنسبة للعرب الهلالية بمثابة الاستتابة، حيث جاء في ذات الرسالة:[1] (الطويل)

سَتَلْقى بِلاد الرُّوم مِنهُ حُتُوفَهَـا   وَيغشى أُولي الإلحادِ مِنْ ذِكره جُهد
وَمَا كَان هَذا الغزْو إلا مِنْ أَجله   فلمّا تجلَّى صبحه كَمُل القَصْــــدُ
وَقد صُرِفت نَحو المغارب عزمَـة   يبيــن لهَـا في كُــل نَاحِيــة وَقَـــد

في محطات الرضوخ للسلطة وخدمتها، تتغير التوصيفات الموحدية، حيث يصبح الهلاليون من أصحاب السوابق الكريمة في أوّل الإسلام،[2] وأهل العزم والشجاعة. فبعد أن ضم عبد المؤمن مملكة بجاية مثلا، كتب إلى العرب رسالة يستفزهم فيها للمشاركة في الجهاد بالأندلس، وختمت بأبيات شعرية، جاء فيها:[3] (المتقارب)

بَنِي الْعَمِّ مِنْ عَلْيَا هِلَالِ بْنِ عَامِرٍ   وَمَا جَمَعَتْ مِنْ بَاسِلٍ وَابْنِ بَاسِلِ

واستبشر جواب عبد المؤمن في رسالة إلى ابنه الأمير أبو يعقوب والي إشبيلية سنة 555 هـ، بإمدادات بشرية من العرب الهلالية لمواجهة ابن مردنيش (518-567هـ/1124-1172م) باشبيلية.[4] وقد عمل الموحّدون على تحفيز الهلاليين للجواز إلى الأندلس باصطحاب الأهل والأموال والممتلكات المنقولة، لإدراكهم أن ذلك سيكون دافعا سيكولوجيا لهم للاستماتة في القتال، ولإدراكهم أيضا أن جوازهم بعائلاتهم وأهاليهم سيكون عاملا مشجّعا على استقرارهم في الأندلس وعدم التفكير في العودة سريعا إلى بلاد المغرب، ناهيك عن كون ذلك من شأنه

---

[1]) رسائل موحدية، م ج، الرسالة رقم 9، ج1، ص81.

[2]) مجموع رسائل موحدية، الرسالة 26، ص152.

تشير ماريبال فييرو إلى أن انتساب (أو ادعاء النسب) المهدي ابن تومرت (ت524هـ/1130م) لآل البيت قد سمح له بطريقة ما من أن يرتبط بني هلال وبني سليم؛ Maribel Fierro: 'Abd al-Mu'min, Op.cit, p76.

[3]) عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص190.

[4]) رسائل موحدية، م ج، الرسالة رقم 9، ج1، ص82؛ لذلك كان وصول هذه الرسالة إلى الموحّدين في إشبيلية بمثابة البشرى لهم بتحقيق الانتصار، فقد قُرئت على المنابر، وانتسخ الناس نسخا من الشعر المرفق، وحفظوه وصانوه؛ وهذه مقاطع من القصيدة التي تضمنتها الرسالة: (الطويل)

وَيَصحبُنا مِن خَالصِ العرب مَعشر   أنَابُوا فمــــا ردّوا وتَابُوا فما ارتدّوا
رَأوا فــــــي ذَويِهم عِبرة فتيقّظوا   وكَـــان لهُم فِي غــي غَيرهم رُشد
سَتغــزوا بِلاد الرُّوم منهم عَصائب   وَتحمِي حِمى التَّوحِيد مِن خَيلهم جند
فَـــطُوبى لأهْلِ الغَرْب ماذا يَرونهُ   لَقــــد جلَّ قدراً أن يُحيط به حدَّ
جُيـــوش بِنصر الله تحمي عَليكم   يَــــروق بها وَهْد، ويَزهى بها نجْدُ
ويشجـــــي بمرآها الأعادي كأنَّما   عَليكــــم بها صمُّ الشوامخ تنهَدُّ
سَتعلــــمُ أرضُ الرُّوم أيُّ فوارسٍ   عَلـــى ظَهْرها منهم إذا وفد الوفدُ
وأيُّ رجـــالٍ للحُروب إذا بدتْ   أُســـود شَرَى يخشى ترائبها الأسْدُ
وإنَّا وإيـــاهُم لحتْمٌ غلابـــــــنا   لَهـــــم وكلام الوَحي ليس لهُ رد

ابن صاحب الصلاة: المصدر السابق، ص82.

التقليل من سطوة العرب ونزوعهم لأعمال النهب التي يمكن أن يقوموا بها، خاصة خلال فترات الهدوء، حيث يؤدي الفراغ إلى تفكيرهم في العودة إلى امتهان السلب. وربما كان وراء ذلك أيضا رغبة الموحّدين في توطين الهلاليين بالأندلس، حتى يتمكن هؤلاء من إبطاء عملية الاستحواذ المسيحية على المجالات الإسلامية. ثم إن اصطحاب الهلاليين للمنقولات والأموال يطرح مسألة الانعكاس الاقتصادي لهذا الإجراء على بلاد المغرب عامة والمغرب الأوسط بصفة خاصة.

حاولت الخطب الموحّدية في الهلاليين أن تشحنهم بالطاقة الروحية وتزرع فيهم وازعا دينيا يجعلهم متحمّسين للجهاد في الأندلس، بوصفه واجبا دينيا: "وذاكرنا الجماعة المذكورة –قبائل رياح– في ذلك ذكرى أفضت إلى قلوبهم، وخلصت إلى نفوسهم، وتغلغلت في بواطنهم، فتحرّكت إلى ذلك حفائظهم، وثارت لنصر دين الله عزائمهم، وسعت بهم إلى هذا القصد الميمون نيّاتهم وخواطرهم، وتلقّى جميع ذلك من البدار إليه، والسرور به، والوعد بالتشمير فيه، بما يرجى أن الله تعالى سيحقق أملنا وأملهم في نصر دينه، وإعزاز كلمته، وجهاد أعدائه، وأخذ من حادَّ الله ورسوله معرضا عن أمره، وناصب الإيمان بإشراكه وكفره".[1]

لكن السؤال المطروح، هل هذا الخضوع –الذي تحاول المصادر الموحّدية تصويره– استند على إيمان حقيقي بالمهمة المنوطة بهم في الأندلس، أم أن الأمر مرتبط بالخضوع للقوة الموحّدية التي فرضت سيطرتها على العرب الهلالية ولم يعد بإمكانهم رفض مطالبها؟، أم أن انخراطهم في هذا الوضع لا ينفصل عن جانب الارتزاق المتجذر في طبيعتهم باعتباره أسلوبا لإبراز بطولاتهم وإظهار كفاءتهم في الفروسية والقتال، بعد أن حدّت القوة الموحدية من حضورهم العسكري وحسمت معاركها معهم لصالحها، وهو أيضا طريق ورافد للاسترزاق وتحصيل المعاش والغنائم والفيء؟.

العودة إلى نصوص السلطة الموحّدية كفيل بالكشف عن بعض محددات السلوك الهلالي الاقتصادي، إذ ومن خلال ما جاء في رسالة[2] موجهة للخليفة الناصر (ت610هـ/1213م) بعث بها له المسؤولون عن حملة تأديب قبائل جشم بالمغرب الأقصى، يمكن أن الوقوف على بعض الاستنتاجات:

* محور اهتمام القبائل الهلالية هو الامتيازات، فعند وجود فرصة للتمرد والعودة إلى الحياة الطبيعية فإن الجماعات البدوية لا تدّخر أي جهد في ذلك، لكن بمجرد أن يُفرض عليها النظام مجددا وتُعاد إلى بيت الطاعة، فإنها تسارع إلى محاولة استعطاف الطرف الأقوى بغرض استعادة الامتيازات والعطاءات.

* أمام الرغبة في افتكاك الامتيازات، تعزز تفكك العصبية العربية في دائرتها الواسعة، بحيث أصبحت قبائل تشارك إلى جانب السلطة الموحدية في ردع قبائل عربية أخرى تلتقي في نفس العصبية، وهو الأمر الذي بدأ من خلال التجارب السابقة مع الزيريين والحماديين واستمر لاحقا مع الموحدين، هو ما سيكون دافعا مُهيّئا لعملية الاستقرار.

[1]) مجموع رسائل موحدية، الرسالة 26، ص153.
[2]) رسائل موحدية، م ج، ج1، الرسالة 55، ص232-239.

تدخل الدولة في تناقض صارخ حينما تكون بحاجة لقوة عسكرية تفرض بها سيطرتها على الناس وتحمي كيانها وتجبي من خلالها الضرائب، وفي نفس الوقت تحاول أن تحضر على رعاياها امتلاك السلاح والاستقواء. وهو ما يجعلها مضطرة للبحث عن عناصر تتوفر فيها الشجاعة وعدم الخضوع والعصبية، لإدماجها في وظائف العنف (كالجيش والشرطة) التي تحتاجها الدولة، وبالتالي فإنها تخصص الوظائف في العملية الاقتصادية للأغلبية الشعبية، وتختص بالعنف مجموعات مختزلة من العساكر والمحاربين الذين يتم استقطابهم من المجموعات القبلية. فالدولة بهذا المنظور الخلدوني لا يمكن أن تكون بمعزل عن تخصيص وظائف عنيفة وأخرى غير عنيفة، فالبدوي هو المشارك في الوظائف العنيفة، والحضري هو المعين في وظائف إنتاجية.[1]

وهنا يطرح سؤال مهم، يتعلق بدور السلطة في الدفع للاتجاه نحو نمط اقتصادي مستقر أم أن الأمر مرتبط بطبيعة وشكل الاقتصاد السائد في المنطقة؟.

أمكنت السياسة الموحدية من إحداث تحولات هامة وعميقة على طبيعة الوجود والسلوك الهلالي، فالخضوع لسلطة الدولة وللإطار العام الذي أسّس له الموحدون، هيَّأ الجو لبداية استقرار الهلاليين واندماجهم في المنظومة العسكرية (من خلال اقتصاد المغازي والتجييش والراتب) بما يتيح خدمة الاستراتيجية السياسية والعسكرية الموحدية في المغرب والأندلس، كما أن حركة توزيع القبائل وتحييدهم عن الحركات المعارضة كان لها الدور المهم في التخفيف من تأثيرهم الاقتصادي، ورغم أن مقاربة الموحدين في التعامل مع القبائل الهلالية كانت سياسية-عسكرية بالدرجة الأولى، إلا أنها انعكست إيجابا على حضورهم في الوسط الاقتصادي للمغرب الإسلامي عامة والأوسط بصفة خاصة، وبدأت تظهر مؤشرات الاستقرار وامتهان الزراعة والانخراط في علاقات اقتصادية متبادلة النفع مع العالم المستقر.

*** الهلاليون ما بعد الموحدين**

عند اعتلاء يغمراسن بن زيان (633-681هـ/1234-1282م) لمقاليد الحكم في دولة بني عبد الواد، أدرك أهمية العصبية القبلية في سير الدولة: "واستمال عشيرته وقومه وأحلافهم من زغبة بحسن السياسة والاصطناع وكرم الجوار"،[2] وتندرج هذه الخطوة في اتجاه ترسيخ القيم القبلية التي تحفظ له مشروعية التأسيس وينعكس ذلك في استراتيجيته الحربية المبنية على الكر والفر، وهو ما يؤكد تمسك يغمراسن بعوائد البداوة،[3] وكل ذلك انعكس على علاقة السلطة الزيانية بالهلاليين.

إلى جانب قبيلة زغبة، وفي إطار توطيد علاقاته مع القبائل العربية، وضبط محيط عاصمته، نقل يغمراسن بنو عامر بن زغبة من صحراء بني يزيد إلى جواره بصحراء تلمسان، حتى يكونوا سدا في وجه المعقل الذين كثر عيثهم

[1]) غابرييل مارتينيز غرو: موجز في تاريخ الإمبراطوريات كيف تنشأ وكيف تضمحل، ترجمة: علي نجيب إبراهيم، دار الكتاب العربي، بيروت، 2017، ص30-31.

[2]) ابن خلدون: العبر، ج7، ص106.

[3]) زهوة أعزيبي: ملامح المنظومة القيمية لمجتمع المغرب الأوسط خلال العصر الزياني (633-962هـ/1235-1554م) –جدل المثال والواقع–، أطروحة دكتوراه الطور الثالث في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ، جامعة محمد بوضياف المسيلة، 2017-2018م، ص26.

وفسادهم، فاضطروا للتراجع.[1] وبالتالي فقد اتجهت سياسته في التعامل مع القبائل العربية إلى محاولة خلق توازن يضمن له استقرار عاصمته ودولته.

لم تكن علاقة القبائل العربية ببني عبد الواد هادئة، بل تخللتها عديد المواجهات، التي قدّرت باثنين وسبعين (72) غزوة في عهد يغمراسن بن زيان، حيث يقول يحيى بن خلدون: "وتخلل هذه السنين من غزوات أمير المسلمين أبي يحيى، قدّسه الله، العرب بصحرائها اثنان وسبعون غزاةً"،[2] كما قام ابنه "أبي سعيد عثمان" (ت703هـ/1304م) بقتالهم وتشريد بعضهم للصحراء، أما أبو حمو موسى الأول (665-718هـ /1266-1318م) وابنه أبو تاشفين (692-737هـ/1293-1337م) فسخّرا للعسكرة إلى جانبهما بطون زناتة رفقة قبيلة سويد.[3] التي كان يغمراسن بن زيان قد أقطعها المناطق المحيطة بتلمسان.[4] رغم أن العلاقة معها شهدت بعض التشنج في بعض المراحل، في إطار تدبير التحالفات.[5]

لا يمكن ضبط صورة دقيقة عن السياسة الزيانية في التعامل مع القبائل العربية وبالتالي قراءة التوجه العام لإدماجها انطلاقا من بدايات الدولة –بالنظر إلى الحيز الزماني لموضوعنا–، ذلك أن الأمر حُكم بمتغيرات كانت تطرأ من حين لآخر، خاصة في ظل انعكاس الصراع الزياني الزناتي على توثيق الصلة بالقبائل الهلالية وظهور شبه إمارات عربية لاحقا في المنطقة، ناهيك عن الاختلاف البيّن بين الدولة الموحدية السابقة وبين الدولة الزيانية في التعامل مع الهلاليين، ومع ذلك يمكن الإقرار بأن إجراءات الزيانيين انتهت بالتراجع عن الكثير من المكاسب التي تمكّن الموحدون من إقرارها في إطار إخضاع وإدماج العرب الهلالية.

حريّ بنا أن نشير أيضا إلى توظيف الحفصيين للهلاليين في اقتصاد المغازي، ومن أمثلة ذلك إشراك حلفائهم من عرب دبّاب وسُليم ورياح وزغبة في حملة أمير إفريقية أبي زكرياء الأول (يحيى بن أبي محمد بن الواحد ابن الشيخ أبي حفص عمر) (ت647هـ/1249م) على تلمسان سنة 640هـ/1242.[6]

---

[1] ابن خلدون: العبر، ج6، ص56.

في إشارة متأخرة تعود للقرن 09هـ/15م لكنها تؤكد استمرار بعض المعطيات، يذكر أدورنو أنسلم خلال رحلته أنه في ضواحي تونس يوجد حوالي ثمانية آلاف (8000) أو تسعة آلاف (9000) عربي يتلقّون مكافآت من السلطة، وهم رجال شجعان ومحاربون ممتازون، غير أنه لا يُسمح لهم بقضاء الليل في مدينة تونس، ويفرض عليهم العودة إلى خيامهم خارجها، ثم إن هناك جزءا من العرب المعادين للملك يشنون عليه الغارات باستمرار؛ Deux récits de voyage, Op.cit, p219.

هذا النص يؤكد استمرار الهلاليين في سلوكهم الإغاري من جهة، ومن جهة ثانية يدل على استمرار عدم ثقة السّلط حتى في حلفائها من العرب، كما وأن الأمر يمكن تفسيره بأن السلطة تريد جعلهم كصفوف أمامية تواجه الغارات المحتملة.

[2] أبو زكريا يحيى بن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق: عبد الحميد حاجيات، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ج1، ص228.

[3] أمين كرطالي: سلطة شيوخ القبائل العربية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني، أطروحة دكتوراه علوم في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ، جامعة الجزائر2، 2018/2017، ص67.

[4] ابن خلدون: العبر، ج6، ص189.

[5] نفسه، ج6، ص60-61.

[6] يحيى بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص226.

وبالنظر إلى المحطات المهمة في علاقة السلطة بالهلاليين في بلاد المغرب، من خلال سياسات التعامل ومساعي الاحتواء ومخططات الإدماج، يتبين أن المرحلة الأولى من الحضور الهلالي بإفريقية والمغرب الأوسط (إلى غاية معركة سطيف سنة 548هـ/1153م) اتسمت بدور بارز للصنهاجيين بالدفع بالهلاليين نحو اقتصاد المغازي، من خلال كون بعضهم طرفا في النزاع، والبعض الآخر في مقام الولاء والتحالف والتوظيف، على الرغم من أن بعض مظاهر وأشكال اقتصاد المغازي استمرت خلال الحكم الموحدي وانتعشت خلال العهد الزياني.

ب. الأشكال[1]

انطلاقا من آليات ومظاهر الإدماج التي اشتغلت عليها السُّلط في المنطقة، والتي شجّعت الهلاليين على الانخراط في اقتصاد المغازي، يكون من المهم تتبع أشكال اقتصاد المغازي التي تعتبر بمثابة مردود اقتصادي مهم للقبائل الهلالية، على غرار الغنائم والأتاوات والراتب في الجيش والإقطاع والقبالات والخفارة، التي شكّلت في مجملها محور المغازي بالنسبة للعرب الهلالية بالمغرب الأوسط.

ويعترف الجنحاني قبل أربعة عقود أن المفاهيم المتصلة بالغنائم والجباية والإقطاع، ما تزال مطروحة للتحديد والبيان رغم ما كتب عنها في القديم والحديث، باعتبار أنها مفاهيم تطورت ضمن واقع اقتصادي واجتماعي معين مع اختلافها من منطقة لأخرى،[2] ويبدو أن الحكم الذي ذهب إليه لا يزال يكتسي راهنية بحكم قلة الدراسات في هذا الرواق أو اتّسام بعضها بإسقاط المفاهيم في ظل اختلافها أحيانا وتداخلها في أحايين أخرى.

على إثر معالجتنا لدور السُّلط في إفريقية المغرب الأوسط في إدماج القبائل الهلالية ضمن اقتصاد المغازي، نحاول أن نتتبع ذلك على مستوى الأشكال التي أخذتها هذه الموارد انطلاقا من بعض النماذج التي أتاحتها لنا المصادر التاريخية:

الغنائم

تأتي المغانم في مقدمة ما يدرُّه اقتصاد المغازي، باعتبار أن الغنائم هي ما أصيب من أموال أهل الحرب،[3] وقد مكّنت محطات المواجهة بين الهلاليين والصنهاجيين –التي رافقت دخولهم إفريقية والمغرب الأوسط، خاصة في ظل تحقيقهم لانتصارات مهمة في حيدران سنة 443هـ/1052م وسبيبة سنة 457هـ/1065م– من حصول القبائل الهلالية على مغانم كثيرة جراء انتهاب الأموال والمزروعات، والأسرى الذين أطلقوهم مقابل الفدية.[4]

لا شك أن أسلوب الكرّ والفر الذي كان يعتمده الهلاليون قد أسهم في حصولهم على الغنائم دون الحاجة إلى المواجهة المباشرة، وهذه الاستراتيجية كانت بالمقابل بمثابة الاستنزاف لما في أيدي الناس، خاصة في تلك المرحلة

---

[1]) ينظر الملحق رقم3: خريطة مناطق توزيع اقتصاد المغازي وأشكاله في إفريقية والمغرب الأوسط.

[2]) الحبيب الجنحاني: دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986، ص115.

[3]) محمد بن مكرم بن علي ابن منظور: لسان العرب، حرف الغين، مادة غنم، مج5، ج37، دار المعارف، القاهرة، ص3307.

[4]) راضي دغفوس: معركة حيدران، المرجع السابق، ص13.

التي كانت بين دخول الهلاليين إفريقية وخراب القيروان، التي تميزت بتعاظم حملات العرب. فعلى مدار خمس سنوات تسلّط الهلاليون خاصة وأنهم كانوا ينتقلون جنوبا وشمالا،[1] مما ضاعف غنائمهم ونوّع طرق تحصيلها.

على الرغم من أن الدولة الزيرية قد رخّصت لساكنة القيروان الاستيلاء على الزروع والأملاك قبل مغادرة المدينة وبالتالي فسح المجال للهلاليين لدخولها والعيث فيها، إلا أن العرب غنموا الكثير، نقدا وعينا وسبيا،[2] ذلك أن القيروان عاصمة وحاضرة كبيرة، وقد كانت من أهم حواضر البلاد وأرقاها آنذاك. ونظرا لحجم الغنائم المحصّلة بعد تخريب القيروان، فقد أرسل الهلاليون جزءًا منها إلى القاهرة: "وصل كثير مما نهب من قصور بني باديس من الأسلحة والعُدد والآلات والخيام وغيرها إلى القاهرة، فكان ليوم دخولها إلى القاهرة أمر عظيم من اجتماع النّاس واعتبار أهل البصائر بِتقلّب الأحوال".[3]

التطلّع لتحصيل المغانم والرغبة الجامحة التي تتملك الهلاليين في جمعها جعلت أنصار الناصر بن علناس (عدي والأثبج) يقدّمون على خيانته بالاتفاق على هزيمته لصالح الزيريين خلال معركة سبيبة 457هـ/1065م، مقابل الحصول على ثلث (3/1) الغنائم.[4] "فاستباحت العرب وزناتة خزائن الناصر ومضاربه"،[5] "وغنمت العرب جميع ما كان في العسكر من مال وسلاح ودواب وغير ذلك، فاقتسموها على ما استقر بينهم، وبهذه الوقعة تم للعرب ملك البلاد، فإنهم قدموها في ضيق وفقر وقلة دواب فاستغنوا وكثرت دوابهم وسلاحهم وقل المحامي عن البلاد".[6]

استغل العرب الصراعات الصنهاجية في مضاعفة أملاكهم، من خلال الغنائم المحصّلة على إثر التحالفات التي عقدوها مع الزيريين والحماديين. ولا شك أن معرفة الزيريين بأهمية الغنائم بالنسبة للهلاليين –ليس كمورد مادي فقط، لكن لارتباطها بمفهوم التغالب الذي تقوم عليه الثقافة البدوية–[7] قد دفعهم إلى جعلها محور الاتفاق بينهما، وحري بالذكر أن العرب وعلى إثر جمعهم للغنائم بعد نهاية المعركة، أرسلوا الألوية والطّبول وخِيَم الناصر بدوابها إلى تميم، فلم يقبلها، وقال: "يقبح بي أن آخذ سلب ابن عمي فأرضي العرب بذلك".[8] هذه الرواية –إن صحّت– تستدعي قراءة معمقة في موقف تميم من المعركة بالأساس ورؤيته لمستقبل علاقته مع الجار الغربي. ثم

---

[1]) البكري: المصدر السابق، ص25؛ ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص325؛ ابن خلدون: العبر، ج4، ص80.

[2]) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج3، ص75.

[3]) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، 215؛ الصيرفي: المصدر السابق، ص42؛ ويبدو أن الهلاليين بعد موجتهم الأولى نحو بلاد المغرب، أرادوا أن يثبتوا وفاءهم للفاطميين، من أجل تسهيل عملية جواز من بقي منهم شرق النيل، هذا إذا افترضنا أنه في هذه الفترة لم تكن المجموعات المعنية بالهجرة قد جازت فعلا.

[4]) تم ترتيب اتفاق على هزيمة الناصر أيضا مع تميم زعيم الزناتيين في جيشه؛ سعد زغلول: المرجع السابق، ج3، ص453.

[5]) ابن خلدون: العبر، ج6، ص27؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج8، ص372-373؛ مجهول: المصدر السابق، ص128-129؛ جورج مارسيه: المرجع السابق، ص228-229.

[6]) ابن الأثير: المصدر السابق، ج8، ص373.

[7]) علي الوردي: المرجع السابق، ص39.

[8]) الوزان: المصدر السابق، ج8، ص373.

ماهي الأسباب التي جعلت الزيريين يرتّبون اتفاقا مع العرب وبقية أطراف المعركة يحصلون بموجبه على جزء من الغنائم، ثم يرفض تميم الحصول على ما يمكن اعتباره رموز الحماديين ويعبّر عن تعاطفه مع الناصر؟.

أفرزت السيطرة الموحدية عهدا جديدا بالنسبة للهلاليين، حيث كانت معركة سطيف (548هـ/1153م) معلما حدّد العلاقة بين الطرفين، فتقلصت فرص المغانم بالنسبة للهلاليين على اعتبار أنهم رضخوا لسلطة الموحدين التي بسطت نفوذها على المنطقة، لكن هذا لم يمنع الهلاليين من استغلال جو الاضطراب في ظل انتشار حركات التمرد والغزو، ويبدو أن الرغبة في تحصيل الغنائم والامتيازات قد شجعتهم على مناصرة هذه الحركات والانخراط فيها، ومن ذلك حركة "علي بن الرند" في إفريقية، حيث شبّهت المصادر الموحدية الهلاليين المتحالفين معه بالجهلة والذئاب الضالة والفاسدين، وعلى الرغم من إخضاع الموحّدين للهلاليين إثر هذه الحركة التمردية، إلا أن نزول بنو غانية ببجاية سنة 581هـ/1184م، واتجاههم نحو إفريقية خلال حكم المنصور الموحدي، جعل العرب يقفون في صفهم؛ واستجابت لهم قبائل جشم ورياح، في حين وقفت زغبة مع الموحدين.[1] كما أن توظيف المحاربين والفرسان الهلاليين في العدوة الأندلسية كان بابا آخر للإرتزاق، ويمكن عدُّه بمثابة البديل في ظل الخضوع.

لقد شكّلت الغنائم موردا مهما للقبائل الهلالية، غير أن منحى ارتفاعها وانخفاضها قد خضع لعدة معطيات، منها ما تعلق بالهلاليين أنفسهم ومنها ما تعلق بطبيعة التحالفات ووضع القبائل في ظل سلطة الدول البربرية التي تفطنت لمحورية المغنم بالنسبة للعرب الهلالية.

الراتب في الجيش والإنعام السلطاني

الهلالي قوة محاربة مهمة، سبق وعرجنا على كيفية توظيفها كديمغرافيا مقاتلة من أطراف عِدَّة بإفريقية والمغرب الأوسط وحتى خارج هذا النطاق، وفضلا عن الغنائم التي يُحَصِّلها الهلاليون على إثر مساهماتهم في الغزوات فقد أقرّت الدول التي قاتلوا تحت رايتها راتبا في الجيش نظير الخدمات العسكرية المبذولة، سواء كان ذلك في الصراعات الزيرية — الحمادية، أو في حروب هؤلاء مع جيرانهم، وإن كنا نجهل حقيقة طبيعة الرواتب وقيمتها وكيفيات صرفها وتأديتها في هذه الفترة، إلا أن رسالة يوسف بن تاشفين (ت500هـ/1106م) للأمير الحمادي المنصور بن الناصر بن علناس (ح481-498هـ/1088-1104م) والمؤرخة في سنة 496هـ/1103م -على إثر حملة الحماديين على تلمسان التي كانت تحت نفوذ المرابطين- تقدّم إشارات غاية في الأهمية.[2]

الرسالة محلّ حديثنا جاءت في سياق لوم المرابطين للمنصور استعانته بالعرب ضدهم ومنحهم مقابلا مغريا: "... وتستدعي ذؤبان العرب وصعاليكهم من مبتعد ومقترب، فتعطيهم ما في خزائنك جزافا، وتنفق عليهم ما كنزه أوائلك إسرافا، ... كل ذلك تعتضد بهم، وتعتمد على تَعَصُّبهم لك وتألُّبِهم، وتعتقد أنهم جنّتك من المحاذير

[1] ابن خلدون: العبر، ج6، ص28.

[2] ابن بسام: المصدر السابق، ق2، مج1، ص259.

وحماك دون المقادير...".[1] هذا الخطاب المرابطي بلهجة التوبيخ، يعكس حجم ما يُغدقه الحماديون على العرب، ويعكس طبيعة اقتصاد المغازي وآليات توزيعه.

يتعلق نصيب كل قبيلة بحسب عدد الفرسان المشاركين، لذلك فقد اعتمد دفع الرواتب للجيش المتكون من العرب الهلالية على عدد وقوة القبيلة، فالحماديون يدفعون لأهل العشرات مئتين ولأهل المئتين آلافا.[2]

استمر الموحدون في الإنعام على الهلاليين، خاصة في احتفالات استقبال الأمراء والقادة العسكريين، على إثر الانتصارات التي يتم تحقيقها، وعلى سبيل الذكر فقد احتفل الإمام أبو يعقوب بانتصار جيش الموحدين على ابن مردنيش في مرسية بمقدم أخيه أبي حفص إلى مراكش سنة 560هـ/1165م، حيث نال العرب المقيمون حصّتهم من الإنعام، إذ منح لهم الكسوة التامة من العمائم والغفاير والبرانس والأكسية؛ كما حصل كل فارس على غفارة وعمامة وكسا وقبطية وشقة، وأنعم على جميع الغازين والقاطنين بذلك، ومنح لكل واحد من أشياخ العرب: "ماية دينار، ولساير عسكر العرب عشرون دينارا لكل فارس".[3]

كما قام الخليفة الموحدي قبيل جواز سنة 566هـ/1171م، الذي كان من ضمنه الهلاليون القادمون من جهات إفريقية والمغرب الأوسط، بتوزيع الإنعام: "وخرج لأشياخ العرب لكل شيخ منهم خمسون دينارا، ولكل رئيس منهم على قبيلة مايتا دينار، وكسا جميعهم بالقباطي والقمص والغفاير والعمائم، وأعطاهم السيوف المحلاة، والدروع السابغات، والبيض والقنا من الرماح الطوال، وأمر لهم بثلاثة آلاف فرس قسّموها على قبائلهم وأتباعهم ورجالهم، وظهر على العرب والموحّدين وعلى جميع العساكر السرور، وتمكّن لهم الاستبشار والنشاط.[4]

يُفسّر الإنعام على الهلاليين من حلفاء الموحدين في هذه المناسبات، بتعويل الموحّدين على الديمغرافيا المقاتلة للقبائل الهلالية في الجواز نحو الأندلس بالنظر إلى أهمية العنصر الهلالي وبالأخص الفرسان في المشروع الموحدي بالعدوة الأندلسية، ولعل إثارتهم للفوضى إثر تجميعهم بغرض الانتقال كانت سببا آخر في مضاعفة الأموال التي تمنح لهم من أجل استرضاءهم وتلافي الفوضى التي يحدثونها.

يشير صاحب الملعبة إلى أن الهلاليين لا يقدمون خدماتهم بالمجان، لذلك يحذر من خذلانهم لمجرد قطع الأعطيات:[5]

والعربي كالنّدى على الغـــرس	يوما تقطع عنو العْطَـا يخْذْل
أو كالعوسج ترى شجر خضرا	غدا يلقاك بشوك كـالظـربان
ما يعْطِيك لا زهَـــــر ولا ثمْرًا	ولو تسقي شجرة بما النيسان

[1]) ابن بسام: المصدر السابق، ق2، مج1، ص259.

[2]) نفسه، ق2، مج1، ص259.

[3]) ابن صاحب الصلاة: المصدر السابق، ص215-216.

[4]) نفسه، ص348-349.

[5]) عبد الله الكفيف الزرهوني: ملعبة الكفيف الزرهوني، تحقيق: محمد بن شريفة، المطبعة الملكية، الرباط، 1987، ص77-78.

وإن كان ما تضمنته هذه الأبيات يبدو وكأنه مجرد انطباع، لكنه يعكس التصور السائد حول متطلبات توظيف العناصر الهلالية كديمغرافيا مقاتلة، ضمن جيش الدولة.

الإقطاع[1]

الإقطاع في غالب التعاريف الفقهية هو هبة المال لهدف مصلحة الأمة، أما كمفهوم ارتبط بالأرض، فيقصد به أن يقوم الحاكم بمنح منفعة لفرد أو جماعة، ويتطلب مقابل ذلك تقديم فروض الطاعة والولاء.[2]

سيطر العرب على أراضي الزيريين عنوة، كما أن الكثير من الأراضي الحمادية حازها الهلاليون، رغم أن الدولة صالحتهم على نصف الغلة، ومع ذلك فقد حازوا نصيبا مهما من إقطاع الانتفاع الذي منحه إياهم

---

[1]) عُرفت القبائل العربية قبل الاسلام بنزعتها الإقطاعية، خاصة في الجهات المتاخمة للفرس والروم والجهات الجنوبية المتعودة على النظام الملكي، لكن أغلب القبائل العربية كانت تعيش ضمن "نظام ما قبل الحياة المدنية المتقنة"، حيث النظام القبيلي الذي يمتاز بديمقراطية فوضوية يأتي توازنها من التصارع على الأراضي والمراعي وغزوات الثأر، لكنها لم تعرف الملكية الموسعة بيد فرد واحد أو عصبة منظمة؛ عبد المجيد مزيان: المرجع السابق، ص175.

المقارنة بين الإقطاع الأوربي والإسلامي تؤدي إلى شيء من الارتباك، وبالتالي فهي لا تستقيم، إذ أن الإقطاع -الإسلامي- كمصطلح، اكتسب مدلولات مختلفة باختلاف فترات التاريخ الاسلامي، وليس الاختلاف بتعاقب الفترات بالضرورة بل كان معاصرا في أحيان كثيرة، ومن التحولات التي حدثت على الإقطاع في التاريخ الإسلامي هو تحوله من الإقطاع الإسلامي الأول إلى الإقطاع العسكري، بحيث كان الخلفاء يُقطِعون الأرض لخواصهم ويصرف مال الخراج في أعطيات الجند ومختلف المصالح ويوجه بقيته لبيت المال، وحدث التحول عندما أصبحت الأراضي –بما فيها أراضي الخراج والملكيات الخاصة– تقطع للأمراء والجند بدل العطاء، وفسّر هذا التحول بأنه نتاج الأنظمة المحلية السائدة قبل الإسلام، في حين فسّره آخرون بأنه بسبب ضعف الخلافة وقلة مواردها مقابل تسلّط الجند وشغبهم؛ عبد العزيز الدوري: أوراق في التاريخ والحضارة – أوراق في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2009، ص61-62.

أفرز هذا الوضع مشكلات أخرى متعلقة بالعمل الزراعي في ظل هذا التحول، ثم إنه ينبغي أخذ الفروقات بين الوضع في المشرق الإسلامي والمغرب بعين الاعتبار، ذلك أن التفسيرات التي قدّمها الدوري تقارب في مجملها الوضع في المشرق.

ولا بأس أن نعرج على السياقات التي ظهر فيها النظام الفيودالي وتطور في أوروبا، حيث أن الفيودالية مشتقة من "Fief" بمعنى إقطاعة، ولها دلالات الخير والجميل، وتفيد الأراضي الممنوحة مقابل الخدمة، خاصة الخدمة القنية، وقد ظهر النظام الفيودالي بداية في المملكة الإفرنجية خلال العصر الميروفنجي في بلدان ما بين الوار Loire والران Rhin، ففي القرن 06-07م شهدت الدولة الإفرنجية حروبا بين أبناء الملك حول الإرث، وانتهت بتوزيع الامبراطورية الكارولنجية لدويلات، ونتيجة وضعية الحرب هذه، لجأ الناس للأشخاص الأقوياء طلبا للحماية، ومقابلها كان عليهم تأدية الخدمة (محاربين – تابعين – ...)، لذلك فالفيودالية تقوم على الخدمة وتحول الرجال الأحرار إلى نصف أحرار، وحدث هذا التحول في ظل انهيار الامبراطورية الرومانية وانحلال البنيات الملكية الكارولنجية والتفكك السياسي على مستوى الموظفين السامين العسكريين، وتوفر بعض الشروط الاقتصادية والاجتماعية كتجزؤ العالم القروي وحماس القادة المحليين في بسط نفوذهم، فضلا عن تطور فن الحرب وبروز الفرسان، وتطور علاقات تبعية الرجل للرجل في ظل مجتمع متراتب وعلاقات الخدمة والتسخير ودفع الأتاوات؛ الهادي الهروي: القبيلة، الإقطاع، والمخزن، مقاربة سوسيولوجية للمجتمع المغربي الحديث 1844-1934، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2010، ص ص231-235.

وبالمقارنة بين النظام الفيودالي في أوروبا بنظام الإقطاع وتملك الأرض في المغرب الأوسط، نستنتج أن النظام الفيودالي الخالص رغم سلبياته إلا أنه كان ضمانة مهمة لاستمرارية النشاط الزراعي وترقيته، خاصة ما تعلق بالأقنان الذين يخدمون الأرض والذين ينتقلون من مالك إلى آخر بموجب انتقال الملكية أو حق الانتفاع، وهو ما لم يكن موجودا في بلاد المغرب، وعليه يمكن القول أن الزراعة في المغرب الأوسط لم تكن محصّنة وكانت قابلة للتضرر في أي لحظة.

[2]) الهادي الهروي: المرجع السابق، ص ص159-185.

الحماديون مقابل الخدمات المقدمة في عدة جهات من المغرب الأوسط، خاصة في قسنطينة وبونة والأوراس، حيث أصبحت هذه الأراضي من نصيب كرفة ورياح.[1]

وكان من الطبيعي أن تتضرر الإقطاعات الهلالية بقيام دولة الموحدين وتوجيه طموحاتها التوسعية شرقا، وهي التي أقرّت سياسة تقوم على تكسير بلاد المغرب الإسلامي من برقة إلى السوس الأقصى، في إطار ضبط العمليات المتعلقة بالخراج.[2] بغية تأمين مصدر دخل للدولة في بدايتها، ولعل هذه الاستراتيجية المنتهجة من قبل عبد المؤمن قد ولّدت شعورا مبكرا لدى القبائل الهلالية في إفريقية والمغرب الأوسط بفقدان امتيازاتها الإقطاعية والجبائية التي أقرها لها الصنهاجيون، ما دفعهم للاستجاشة استعدادا لمعركة سطيف سنة 548هـ/1153م. ونعتقد أن التحضيرات المهمة التي سبقت هذه المعركة تندرج ضمن مخطط هلالي استباقي للمحافظة على المواقع واستمرار السيطرة على الإقطاعات التي بحوزتهم وبالتالي الهيمنة على الأرض.

اختلفت الغاية من الإقطاع عند الموحدين باختلاف الظرفية التاريخية، ففي حالة الثورة كان الإقطاع وسيلة لتمليك الموحدين قبائلهم للأراضي المفتوحة، وفي طور الدولة أصبح الإقطاع مكرّسا لدفع جزء من الرواتب أو تسكينا أو تأليفا أو مقابلا لخدمة أو هبة.[3]

تساوقا ورهانات الدولة الجديدة وتطلعاتها السياسية والعسكرية والاقتصادية ولتحقيق استراتيجيتها، قدّمت بديلا يتيح للهلاليين وغيرهم من القبائل استعادة حيازتهم لبعض الإقطاعات، في إطار ما يسمى بإقطاع التسكين، والذي يُمنح بغرض تسكين النفوس واستجلاب طاعتها، مثل الذي منحه عبد المؤمن لرؤساء القبائل الهلالية في البلاد الشرقية،[4] حيث يقول عبد الواحد المراكشي في سياق تعداد إجراءات عبد المؤمن تجاه العرب الهلالية: "... وصيّرهم جندا له، وأقطع رؤساءهم بعض تلك البلاد".[5]

ومن النماذج الهلالية التي ذكرت المصادر تمليكها للمجالات، بنو يزيد بن زغبة الذين أقطعهم الموحدون، أرض حمزة من أوطان بجاية، حيث انتشروا بريفها وصحراءها وأصبحوا يد الدولة في المنطقة إلى أيام ابن خلدون،[6] وعرب المعقل الذين حصلوا على إقطاعات من الموحدين ثم الزيانيين "يمدُّون إلى أخذه اليد السفلى".[7] وفي إطار

---

[1]) Allaoua Amara: L'organisation Foncière Du Maghreb Central (viie -xive Siècle), Al-mawakif, Université Mascara, Volume 5, Numéro 1, Décembre 2010, p60.

[2]) علي ابن أبي زرع الفاسي: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص199؛ ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص112.

[3]) صابر عبد المنعم محمد علي البلتاجي: النظم والمعاملات المالية في المغرب عصر دولة الموحدين (564-668هـ/1130-1269م)، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ص220.

[4]) أحمد موسى عزالدين: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الشروق، بيروت، 1983، ص145.

[5]) المراكشي: المصدر السابق، ص189.

[6]) ابن خلدون: العبر، ج6، ص55.

[7]) نفسه، ج6، ص78.

تشكيل التحالفات الزيانية، أقطع يغمراسن ببلاد البطحاء وسيرات لبعض مشايخ سويد وهم يوسف بن مهدي وعنتر بن طراد بن عيسى مراري،[1] كما أقطع لبني عامر أراضي حول تلمسان ليكونوا حائلا بينها وبين المعقل.[2]

يجعل مصطفى أبو ضيف أحمد من الإقطاع محددا مهما في علاقة العرب بدويلات ما بعد الموحدين خلال وضعي الحرب والسلم، فخلال الحرب "ارتفعت قيمة العرب وأقطعوا الأراضي الواسعة وجباية القبائل المستضعفة..."، أما في فترات السلم فيستغني الحكام عن خدماتهم ويحاولون تجريدهم من امتيازاتهم، فيلجأ العرب للثورة والانخراط في الحركات التمردية.[3]

كما أن الحفصيين حينما لم يتمكنوا من الوقوف في وجه رياح، عملوا على استمالتهم بإقطاعهم الأراضي التي استولوا عليها، وخراج المدن التي يسيطرون عليها كمقرة ونقاوس والمسيلة، خاصة وأن مسالك التجارة الصحراوية كانت تحت رقابتهم، فتمكنت رياح في نهاية القرن 07هـ/13م من السيطرة على مضارب كرفة وإجبارها على اللجوء إلى جبل أوراس، وملكت المجالات التي كانت تظعن فيها.[4]

من المهم الإشارة إلى أن الإقطاع السلطاني الذي ينجرُّ عنه انتقال القبائل وتغيير مواقعها على نحو ما أُقرَّ لها، قد انعكس على جغرافية التوزيع القبلي في المغرب الأوسط، ودفع إلى بروز وتغلب قبائل أخرى وبأدوار مختلفة على تلك المجالات التي كانت محسوبة على القبائل السابقة، لأن بقايا القبائل التي تظل في مناطقها التقليدية تكون عرضة للإخضاع والسيطرة من القبائل المتربصة.[5]

الخَفَارة[6]

دفعت المخاطر على طول طرق القوافل التجارية والحجية إلى ضرورة اصطحاب الخفارة، وهم حراس مسلحون ينتدبون للحراسة والدفاع عن القافلة.[7] التي تقطع غالبا الأراضي والمجالات التي يسيطر عليها البدو، وبالتالي كانت الخفارة واحدا من النشاطات التي يقوم بها البدو بالأساس.[8] فعلى الرغم من أنه لا عناية خاصة لهم

---

[1]) نفسه، ج6، ص61.

[2]) نفسه، ج6، ص68.

[3]) أبو ضيف أحمد: المرجع السابق، ص113.

[4]) الطاهر طويل: الجغرافيا التاريخية لبلاد المغرب الأوسط (من ق02-10هـ/08-16م): الأوراس نموذجا –دراسة في المجال والعمران والمسالك، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة، 2020/2019، ص444.

[5]) نفسه، ج6، ص61.

[6]) جاء في لسان العرب: "خَفَرَ الرجلَ وخَفَرَ بِهِ وَعَلَيْهِ يَخْفِرُ خَفْراً :أَجاره وَمَنَعَهُ وأَمَّنَهُ، وَكَانَ لَهُ خَفِيراً يَمْنَعُهُ، وَكَذَلِكَ تَخَفَّرَ بِهِ .وخَفَرَه :اسْتَجَارَ بِهِ وسأَله أَن يَكُونَ لَهُ خَفِيرًا،... وفلانٌ خَفِيري أَي الَّذِي أُجيره. والخَفِيرُ :الْمُجِيرُ، فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ خَفِيرٌ لِصَاحِبِهِ، وَالِاسْمُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ الخُفْرَةُ والخَفارَةُ والخُفارَةُ، بِالْفَتْحِ وَالضَّمِّ، وَقِيلَ :الخُفْرَةُ والخُفارَةُ والخَفارَةُ والخِفارَةُ الأَمانُ، وَهُوَ مِنْ ذَلِكَ الأَوَّل .والخُفَرَةُ أَيضاً :الخَفِيرُ الَّذِي هُوَ الْمُجِيرُ .اللَّيْثُ :خَفِيرُ الْقَوْمِ مُجِيرهم الَّذِي يَكُونُونَ فِي ضَمَانِهِ مَا دَامُوا فِي بِلَادِهِ، وَهُوَ يَخفِر القومَ خَفارَةً .والخَفارَةُ :الذِّمَّةُ، وَانْتِهَاكُهَا إِخْفارٌ .والخُفارة والخِفارة والخَفارة أَيضاً :جُعْلُ الخَفِير؛ وخَفَرْتُه خَفْراً وخُفُوراً .وَيُقَالُ :أَخْفَرْته إِذا بَعَثْتَ مَعَهُ خَفِيراً؛ لسان العرب، حرف الخاء، مادة خفر، مج2، ج14، ص1209.

[7]) روبار برنشفيك: المرجع السابق، ج2، ص247-248.

[8]) عمل البدو العرب المتمركزون في سيناء مصر أيضا على التحكم في محاور الطرق المهمة، ويشير D. S. Richards إلى أنهم استغلوا المحور المهم للطريق الذي يسيطرون عليه بين غزة ومصر في سيناء لتقديم خدماتهم لرهبان دير "سانت كاترين" بسيناء، حيث يقومون بنقل البضائع والحجاج=

بالتجارة، -على الرغم من أنها تعدّ عند العرب من أفضل مهن الارتزاق-[1] إلا أنهم شاركوا في بعض عملياتها الضرورية التي من شأنها تأمين التجار والتجارات، حيث عملوا في تأمين القوافل التجارية مقابل أجرة كبيرة تسمى "الخفارة" وهي في العادة تتكافأ مع خطر العمل، وتقدم على شكل هدايا مما تحمله القافلة من سلع أو نقد،[2] ويقدّر مارسيه الكلفة المستحقة للقبائل العربية مقابل تكفّلهم بتأمين الطرق الرابطة بين المدن بأنها باهضة، ذلك أن الانتقال بين مدينة وأخرى دون إشراف القبيلة على الطرق كان أمرا خطيرا، إذا عرفنا أن التنقل بين المدن أصبح نادرا.[3]

حراسة القوافل وتأمينها باعتبارها ضرورة نمت على هامش شيوع الخوف وانتشار الغزو، وهي تعدّ امتيازا تتيحه السيطرة على المجال، فالقبيلة التي تمتلك السلطة على منطقة معينة هي المؤهلة لحماية القوافل المارة بها خاصة وأنها أدرى بمواطن الخطر فيها،[4] في المغرب الإسلامي تماما مثلما كان في شبه الجزيرة العربية، حيث كان جنوبها مصدرا للسلع في حين بلاد الحجاز التي تمر بها الطرق التجارية وفيها الأسواق، يسيطر بدوها على المحاور التجارية للطريق الغربي وبالتالي على التجارة.

يبدو أن جو الاضطراب واللاأمن العام الذي أصبح يطبع المجالات التي تسيطر عليها بعض الجماعات الهلالية، خاصة الطرق التجارية الكبرى التي تقطعها القوافل كالطريق الصحراوي المار عبر وارجلان[5] دفع بالسكان إلى طلب الخفارة من الهلاليين أنفسهم عندما يخرجون من مناطق تمركزهم، بل أن ذلك أصبح شرطا تفرضه هذه الجماعات، فالإدريسي عندما يذكر بادس التي تقع أسفل طرف جبل أوراس، يقول: "وهو حسن عامر بأهله، والعرب تملك أرضه وتمنع أهله من الخروج عنه إلا بخفارة رجل منهم".[6]

وعليه، فإن إشاعة الفوضى والشعور بغياب الأمن، والتهديد، بقدر ما ارتبط بالممارسات الهلالية، فإنه كان يمثل ضرورة بالنسبة لهم لضمان مداخيل إضافية مقابل إشرافهم على الخفارة والتأمين.

=وحماية الدير من القبائل المعادية من المناطق الأخرى، مقابل الإمدادات المالية والعينية التي يتحصلون عليها جراء هذا النشاط، لكن هذه الأنشطة لم تمنعهم من الإخلال بواجباتهم المادية تجاه السلطة المركزية، وأحيانا لم يلتزموا بالتعويضات المترتبة عنهم تجاه الدير، وقد وجدت اتفاقيات بين البدو والدير لتنظيم العلاقة وترتيب المصالح، وأورد الباحث بعض هذه الوثائق؛ D. S. Richards: St Catherine's Monastery and the Bedouin, pp151-181.

[1] الدمشقي: المصدر السابق، ص62.

[2] يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، ص141.

[3] جورج مارسيه: المرجع السابق، ص245.

[4] يوسف خليف: المرجع السابق، ص141.

[5] أحمد بن سعيد بن سليمان الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، تحقيق: إبراهيم طلاي، مطبعة البعث، الجزائر، 1974، ج2، ص462.

[6] نفسه، ج2، ص264، وموقعها اليوم بادس التي تبعد بحوالي خمس كيلومترات جنوب ليانا؛ ينظر:
Mohamed Meouak: Les Ziban entre Aurès et Sahara: une géographie historique de Biskra et de ses oasis du Moyen Âge à la fin de l'époque moderne, Academia Scientiarum Fennica, Helsinki, Finlande, 2017, p242.

ضمن نشاط تأمين السَّابِلة وطبيعة علاقته بالواقع السياسي، يقدّم ابن خلدون –في إطار رؤيته التي تجعل من طبيعة الملك مِحَكًّا لملاحظة تبعاتها على خضوع الرعية– إشارة مهمة حول عرب المعقل: "ولم يكن هؤلاء العرب يستبيحون من أطراف المغرب وتلوله حمى، ولا يعرضون لسابلة سجلماسة ولا غيرها من بلاد السودان بأذية ولا مكروه لما كان بالمغرب من اعتزازا الدين وسدّ الثغور وكثرة الحامية أيام الموحّدين وزناتة بعدهم، وكان لهم بإزاء ذلك إقطاع من الدول يمدون إلى أخذه اليد السفلى".[1] وفي الفترات التي تفقد فيها الدول سلطتها على الهوامش وبالتالي ترتفع مظاهر قطع الطرق يتضاعف الطلب على للتخفير وتزداد الحاجة له، ويتحدث النميري في الرحلة العنانية عن خفارات العرب التي صادفتهم في طريقهم بين بجاية وقسنطينة، والتي اضطر المرينيون إلى إزالتها.[2]

لكن هذا لا ينفي أن الدول كانت ضد الخفارة بالمطلق، بل أنها كانت أحيانا تضطر لشرعنة تسلط العرب على الطرق، فالسلطان المريني مثلا كان يدفع للقبائل الهلالية خلال مرور قافلة الحج اتقاء تعرضهم للقافلة: "للعرب في الطرقات ثلاثة آلاف دينار من الذهب ومن الكسى مائتان".[3]

على الرغم من صعوبة تحديد كل الطرق والمحاور التي كانت تتطلب الخفارة، إلا أنه يمكن القول بأن الأمر في الغالب متعلق بالمسالك التي تسيطر عليها القبائل البدوية والتي تقع ضمن إقطاعاتها.

القبالات والأتاوات[4] والمكوس[5]

يصنّف الدمشقي الجبايات والمكوس والرسوم والخراج والأعشار ضمن اكتساب المغالبة السلطاني الذي تختص به الدول،[6] لذلك عدّ ابن خلدون ديون الأعمال والجبايات من الوظائف الضرورية للملك،[7] وقياسا على ما يذهب إليه ابن خلدون من أن الدّولة في طور بداوتها إن كانت على سنن التّغلّب والعصبيّة تتطلب التّجافي عن أموال النّاس، وهو ما ينعكس على نشاطهم ورغبتهم في العمل والإنتاج، فتتحقق كثرة الاعتمار مما ينعكس لاحقا

---

[1]) ابن خلدون: العبر، ج6، ص78؛ قام السلطان المريني عامر بن عبد الله بن يوسف (ت708هـ/1308م) في رمضان من سنة 707هـ/1307م في ظاهر مدينة أنفا حيث استدعى أشياخ العرب، فسجن ستين (60) شيخا بسجن أنفا وقتل عشرين (20) رجلا منهم احترفوا قطع الطرق وقام بصلبهم على أسوار أنفا، وفي نفس الشهر قام بقتل وصلب ثلاثين رجلا من العرب قطاع الطرق بمدينة رباط الفتح؛ ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص392؛ وقد كانت أنفا تسكنها قبيلة سفيان؛ Pascal BURESI et Hicham EL AALLAOUI: OP. CIT, p367.

[2]) النميري: المصدر السابق، ص280.

[3]) أبو عبد الله محمد بن مرزوق التلمساني: المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق: ماريا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص454.

[4]) يحيل مصطلح الأتاوة إلى عدة معان، فهو يعني الخراج والجباية والرشوة أحيانا؛ محمد مرتضى الحسيني الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مصطفى حجازي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2001، ج37 ، ص27.

[5]) ورد عند ابن منظور: مكس :المكْسُ: الجِبَايَةُ، مَكَسَه يَمْكِسه مَكْساً ومكَسْتُه أَمْكِسه مَكْساً. والمكْسُ :دَرَاهِمُ كَانَتْ تُؤْخَذُ مِنْ بَائِعِ السِّلَع فِي الأَسواق فِي الْجَاهِلِيَّةِ. والماكِسُ: العَشَّار، وَيُقَالُ للعَشَّار: صَاحِبُ مَكْسٍ. والمكْسُ: مَا يأْخذه العَشّار؛ لسان العرب، باب الميم، مادة مكر، مج6، ج47، ص4248.

[6]) الدمشقي: المصدر السابق، ص53.

[7]) ابن خلدون: المقدمة، ص302.

على الجباية فيحدث الشطط وينعكس ذلك سلبا اقتصاد الدولة،[1] وهو الأثر الذي يمكن إسقاطه على تسلط العرب بالضرائب والجبايات والأتاوات على الناس، مما يدفعهم إلى الزهد في تحصيل العوائد.

على المستوى الأفقي، يُقدّم عبد المجيد مزيان قراءة ذكيّة –من منطلق ارتكازه على النص الخلدوني وربطه بالمظاهر التي استمرت ماثلة في الحياة البدوية– للتطور الذي عرفته صورة ثنائية الأتاوة والحماية، إذ أن تسلُّط البدو على مناطق الرعي والاستقرار خلال ترحالهم جعلهم يفرضون مقابل الحماية ضرائب سنوية على المجموعات الأخرى مع ضيافة البدوي خلال فترة نزوله، وقد تتطور العلاقة بفعل حسن التعايش بين الغالب والمغلوب إلى تخفيف السيطرة الضريبية، فتتطور العلاقة إلى شبه تحالف (حسن الضيافة مهما كان أمدها، وإعطاء الأسبقية في التبادل التجاري) ويكون لهذا التحالف المصلحي امتدادات اجتماعية لها علاقة بالمصاهرات. وهنا وفي ظل التغطية على هذه العلاقات تحت شعار الأخوة تصبح "الأتاوة ضيافة والحماية تحالفا".[2]

تحيلنا الجباية بما تضمنته من قبالات وأتاوات ومكوس في ظل الهلاليين وعلاقتهم بالسلطة من جهة وبالمجالات وقبائله من جهة ثانية، انطلاقا من النصوص المصدرية إلى تساؤلات مهمة، على غرار: ما مؤشرات سيطرة الهلاليين على المجابي وكيف كان بمقدورهم أن يصبحوا قوة جبائية لصالحهم خلال فترات من وجودهم بإفريقية والمغرب الأوسط؟ وهل أثبتت الاستراتيجية الإخضاعية الموحدية –التي سبق بيان بعض ملامحها– نجاعتها في تحويل الهلاليين من قابضين للمغارم إلى غارمين؟

خلال العهد الحمادي:

من خلال الإشارات التي وردت في بعض نصوص الرحلة والجغرافية يمكن التأكيد على أن المغرب الأوسط كان يُشكِّل وعاءً مهما للمجابي، فالبكري مثلا يقول متحدثا عن بونة: "ومستخلص بونة غير جباية بيت المال عشرون ألف دينار"، أما مدينة بير أزران القريبة منها فجبايتها عشرة آلاف دينار.[3] ويعبّر صاحب الاستبصار عن حجم مجابي مدينة القل، بقوله: "لها نظر وجباية عظيمة".[4]

انطلاقا من كون المغارم بابا مهما من أبواب التكسّب الهلالي،[5] فقد حاولت المجموعات البدوية العربية بعد ولوجها بلاد المغرب فرض سلطة محلية تمارس هيمنتها وقمعها عن طريق فرض الضرائب والغرامات، وبالتالي فإنها عملت على إنشاء قوة اجتماعية وسياسية تفرض من خلالها سلطتها، فأصبح الهلاليون يفرضون الضرائب على المزارعين وساكنة المدن، حيث يذكر البكري كيف حدث تغلب العرب على ساكنة مدينة سطيف: "فكانوا

---

[1]) ابن خلدون: المقدمة، ص346.

[2]) عبد المجيد مزيان: المرجع السابق، ص ص187-189.

[3]) البكري: المصدر السابق، ص55.

[4]) مجهول: المصدر السابق، ص127.

[5]) نفسه، ص188.

يعشّرونهم إذا دخلوها".[1] وذكر ابن خلدون أن الهلاليين بعد استيلائهم على الأقاليم المجاورة للقلعة كطبنة والمسيلة كانوا "يأخذون لهم الأتاوة على التصرف في أوطانهم".[2]

عدم مقدرة السلطة على وقف الزحف الهلالي، ومحاولةً للتقليل من حدّة الضرر الذي أحدثته الهيمنة الهلالية على المغرب الأوسط، جعل المنصور بن الناصر الحمادي يلجأ إلى اتباع سياسة شراء السلم، من خلال إطلاق اليد واسترضاء العرب الهلالية ومصالحتهم بإقرار منحهم نصف غلة البلاد من التمر والقمح وغيرها من المنتوجات الزراعية، وهو النهج الذي سار عليه خلفاؤه.[3]

بقدر ما كانت النسبة التي تؤول إلى الهلاليين كبيرة دون أي جهد وتثقل الكاهل ولا تشجع على الاستمرار في العمل الزراعي، إلا أن هذه الخطوة في المقابل وعلى جسامة تأثيرها قد حالت دون القضاء على الزراعة في المغرب الأوسط، لكن ينبغي أن نشير إلى أن هذا الاسترضاء الحمادي للعرب كان بغرض استغلالهم في المشاريع السياسية وتوظيفهم في الحملات العسكرية وحماية الدولة ودفعهم في حروبهم مع القبائل.

كان الحماديون في وضع تجاري أفضل من الزيريين لأنهم صالحوا العرب على نصف الغلة، وأعفوا البجائيين في البداية من الضرائب على التجارة التي تدخل المدينة وشجعوا التجارة البحرية، ما جعل بجاية من أهم مراكز التجارة التي تردها السلع من السودان، خاصة خلال فترات التوافق مع المرابطين.[4] ومع ذلك، يُعتقد أن الهلاليين سببوا تراجعا حادا للموارد الجبائية للزيريين والحماديين، من خلال استحواذهم في بعض المناطق على حقوق تحصيل المجابي، وبالتالي تضررت خزينة الحماديين.

خلال العهد الموحدي:

اتجهت السياسة الضريبية والجبائية للدولة الموحدية في بدايتها إلى تخفيف الأعباء المالية على المزارعين والتجار والحرفيين، من خلال إقرار جملة من التدابير التي من شأنها تشجيع الفئات المنتجة على الاستثمار، وجل الأدبيات الموحّدية تذهب إلى أن الخلفاء الموحّدين منذ بداية دولتهم، كانوا يعملون على إزالة المغارم غير الشرعية، معتبرين إياها من الأمور التي تتعارض والشريعة الإسلامية، وأخذًا لأموال الناس بالباطل، بل واعتبروا بعضها من الكبائر، حيث يقول عبد المؤمن بن علي في إحدى رسائله إلى الأندلس: "... ولقد ذكر لنا في أمر المغارم والمكوس والقبالات وتحجير المراسي وغيرها ما رأينا أنه أعظم الكبائر جرما وإفكا، وأدناها إلى من تولاها دمارا وهلكا ..."[5] وإجراءات من هذا النوع كانت ستنعكس حتما على النشاط الزراعي والتجاري، سواء ما تعلق بالفلاحة والتجارة البرية ونشاط الأسواق، أو التجارة البحرية.

[1]) البكري: المصدر السابق، ص76.

[2]) ابن خلدون: العبر، ج6، ص27.

[3]) عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص189؛ جورج مارسيه: المرجع السابق، ص229.

[4]) أحمد موسى: المرجع السابق، ص265.

[5]) رسائل موحدية م ج، ج1، ص64؛ ابن القطان: المصدر السابق، ص193.

أمرت المراسلات التي كانت تبعث بها السلطة لمختلف أقاليم الدولة، -ومن ذلك الرسالة التي وجهها الخليفة عبد المؤمن في سنة 548هـ/1153م إلى أهل قسنطينة- بإلغاء المكوس الجائرة والاقتصار على الجبايات الشرعية، ومشيدة بدور الموحدين في اتباع نظام جبائي شرعي: "وكان بهذه الأصقاع من آثار أهل الاختلاق والابتداع، ما علمتموه من القبالات والمكوس والمغارم وسائر تلك الأنواع. وكان الأشقياء من ولاتها يرون إيجابها وإلزامها شرعا يلتزمونه، وواجبا يقدمونه، ولا يلتفتون إلى ما أوجب الله من الزكوات والأعشار، بل كانوا يطرّحون ذلك اطّراح أمثالهم من الفجّار. وقد قطع الله بفضله أصولهم وفروعهم، وأزاح عن عباده جوهرهم ونزوعهم؛ ورد الأمر إلى أصله الأكرم ونصابه، وأُجري الشرع بالإمام المهدي -رضي الله عنه- على بابه، وأراح جميع أهل البلاد المعمورة بالتوحيد من جميع ما كانوا يكلفونه من المغارم، ويعرفونه من أسباب المظالم"[1]، ومع ذلك فإننا لا نستبعد أن بُعد المغرب الأوسط جغرافيا عن مركز الدولة قد جعله لا يستفيد بنفس الكيفية من الإجراءات التي كانت السلطة تُقِرُّها لصالح الصناع والحرفيين والتجار والأسواق.

يعبّر ابن خلدون عن الانعكاس الإيجابي للسياسة الموحدية في المغرب الإسلامي -عدا أفريقية-، بقوله: "... وكانت أحواله في دول الموحّدين متّسعة وجباياته موفورة".[2] فمن مظاهر نشاط الحركة الاقتصادية زيادة حجم مداخيل الدولة من الخراج، ويشير عبد الواحد المراكشي إلى أن خراج الدولة الموحدية زاد في عهد أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن وتنوعت أوجه تحصيله، خاصة بعد اتساع رقعة الدولة، ويؤكد على إلى أن جملة خراج أفريقية في سنة واحدة "وِقْر مائة وخمسين بغلا"، ناهيك عن بجاية وأعمالها وتلمسان وأعمالها والمغرب والأندلس.[3]

ومع الحرص على ضرورة تسيير الملف الضريبي بطريقة مختلفة، فقد كانت تحدث جملة من المخالفات الجبائية في مختلف جهات الدولة الموحدية، لذلك تقدم بعض المتضررين بشكايات في هذا الباب للخليفة أبي يعقوب.[4] وربما تدخل هذه الممارسات في خانة التجاوزات المحدودة.

---

[1]) مجموع رسائل موحدية، ص21؛ هشام أبو رميلة: علاقات الموحدين بالممالك النصرانية والدول الاسلامية في الاندلس، دار الفرقان، عمان، 1984، ص380.

أولى الموحدون أهمية بالغة لوظيفة القائم على شؤون المخزن (Trésor)، لذلك وضعوا جملة من الاعتبارات في التعيين على أشغال المخزن، والذي تتعدى مهمته القيام بالحسبة، حيث يتكفل القائم على أشغال المخزن إلى جانب أشغال الحسبة بأمور الجباية، فقد ورد في إحدى التعيينات على أشغال المخزن: "... لينظر في أشغالكم المصلحية وأعمال مجابيكم المختصّية"؛ Pascal BURESI et Hicham EL AALLAOUI: Op.cit, p377.

رغم أن الوثائق الموحدية التي تم نشرها ضمن تحقيق باسكال بريسي وهشام العلاوي بالغة الأهمية، غير أن غياب تأريخها بدقة وإغفال ذكر الأسماء المعنية بالتعيينات والاكتفاء بذكرها تحت مسمى (فلان) أو (ابن فلان) انعكس على موضعة النصوص بالنسبة لبحثنا أو لغيره من البحوث التي تستند إليه.

[2]) ابن خلدون: المقدمة، ص458.

[3]) عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص214.

[4]) رسائل موحدية م ج، ج1، ص522، 527.

في إحدى التقاديم التي يرجّح عزاوي أنها متعلقة بتينملل –وبالتالي عصبية الموحدين المصامدة–، يسجل غياب الحديث عن الأشغال المخزنية والمجابي، ما جعله يستنتج أنها كانت معفاة من الالتزامات المالية بسبب حظوتها ومكانتها، وبالتالي كانت تعامل بطريقة خاصة: "وأن تعلموا أن تلكم المدينة ... يجب لها من الاعتناء ومقدمة في تمشية مصالحها على سائر الأقطار والأرجاء..."[1] فهل كانت هناك سياسة جبائية تفضيلية للقبائل العربية؟ وهل تسعفنا النصوص المصدرية في تأكيد ذلك أو نفيه؟

بقيام الدولة الموحدية، أصبحت علاقة السلطة بالعرب مختلفة عن السابق، إذ كان ذلك إيذانا بعهد جديد، حيث يقول عبد الواحد المراكشي متحدثا عن عبد المؤمن بعد أن يذكر تغوّل العرب وسيطرتهم على الجباية: "فأزال ذلك من أيديهم".[2] وبذلك تقلّص تقلب العرب الجبائي لأن الموحدين في بداية دولتهم ألغوا المغارم غير الشرعي وتمكنوا من تحجيم الدور الهلالي على هذا المستوى.

قد يُفسّر تحالف بعض القبائل العربية مع حركات التمرد والغزو التي كان المغرب الأوسط مسرحا لها بمحاولة التحلُّل من دفع المغارم والحصول على امتيازات في ظل اقتصاد المغازي، فالغانيون مثلا حينما بسطوا نفوذهم على جزائر بني مزغنى ومليانة وأشير والقلعة وبجاية وقسنطينة أقروا المغارم على السّكان وأخذوا أموالهم وصادروا ممتلكاتهم.[3] مثلما يحاول محمد حسن أن يفسّر انخراط القبائل العربية مع الأغزاز وبنو غانية في مواجهتم للموحدين بأنه رد فعل على تقليص الموحدين لامتيازاتهم الاقتصادية كالتمتع بالإقطاعات وخفارة القوافل وعدم دفع الضرائب.[4]

أسند الموحدون لبعض القبائل الهلالية الإشراف على جباية الضرائب باعتبارهم يد الدولة في المنطقة، ومن ذلك بنو يزيد بن زغبة بأرض حمزة الذين أشرفوا على جباية سكانها من صنهاجة وزواوة.[5]

عززت السياسة الموحدية ونزوع بعض القبائل الهلالية إلى الحياة الحضرية إلى المساهمة وبطريقة غير مباشرة في دعم الخزينة، ومن أهم القبائل التي اتجهت نحو الاستقرار واتخاذ المدن قبيلة الضحاك ذات البطون الكثيرة، والتي استقرت في الزاب. والأمر ذاته ينطبق على لطيف الذين اتخذوا المدن بالزاب مثل: الدوسن وغريبوا وتهدوه ونقموه وبادس، وعامل الزاب يأخذ الجباية منهم جميعا.[6]

---

[1]) رسائل موحدية م ج، ج1، ص450. (المحقق)

[2]) عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص189.

[3]) مجموع رسائل موحدية، الرسالة 29، ص172؛ والرسالة مؤرخة في 05 ربيع الثاني 581هـ. والأمر نفسه ينطبق على جهات قابس حيث أحدث الغزيون والميورقيون أضرارا بالغة بزراعتها، وقاموا بقطع الطرق وممارسة الحرابة وتعطيل حركة التجارة؛ مجموع رسائل موحدية، الرسالة 30، ص183-184؛ للاطلاع على تفاصيل المسالك الداخلية والخارجية لإقليم الزاب بين القرنين 03-09هـ /09-15م ودورها في النشاط التجاري، ينظر: الصادق زياني: الجغرافية التاريخية لبلاد الزاب من نهاية الفتح الاسلامي إلى نهاية القرن 9هـ، أطروحة دكتوراه الطور الثالث في تاريخ المغرب الأوسط وحضارته في العصر الوسيط، قسم التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر- قسنطينة، 2018/2019، ص ص164-236.

[4]) محمد حسن: المدينة والبادية، المرجع السابق، ص45.

[5]) ابن خلدون: العبر، ج6، ص ص55-56.

[6]) نفسه، ج6، ص ص33-34.

ساهم تفكك جزء من العصبيات الهلالية وضعفها إلى تراجع أدوارها السلبية وتراجعها عن الرحلة الطويلة والظعن وبداية التخلي عن الإبل، والتوجه لتربية الأغنام وبداية الاستقرار، خاصة مع تقلص الحاجة لخدمات القبائل الهلالية عسكريا والاكتفاء بالعصبيات الحاكمة، وأصبحت قبائل غارمة.[1]

لم تظل الوضعية الاقتصادية في العهد الموحدي مشجعة وإيجابية، بل اتجهت نحو التراجع والانكماش، وهو الأمر الذي ينعكس بالضرورة على السياسة الجبائية للدولة، لذلك لا يستبعد عبد الحق الطاهري[2] عودة القبالات ورسوم الأسواق بعد معركة العقاب (609هـ/1212م)، وهي التي أزالها الموحدون في بداية عهدهم. خاصة وأنه في أواخر عهدهم انتفى حكم دولتهم في البوادي واقتصر سلطانهم على المدن، ما أدى إلى اضطراب الوضع.[3] وهنا نتساءل عن طبيعة الدور الهلالي في مسائل المجابي والقبالات في ظل تلاشي سلطة الدولة.

عهد دويلات ما بعد الموحدين

استمرت الجباية عاملا مهما في معادلة القوة والنفوذ، على دويلات ما بعد الموحدين، فقد انعكس استقرار عياض بجبل قلعة بني حماد، إلى بسط نفوذهم على القبائل وتولي استخلاص الجباية منهم للسلطان.[4] وعندما ملكت زناتة المغرب الأوسط انتقلت زغبة إلى تلوله، وسيطروا عليها وفرضوا الإتاوة على ساكنتها، وحاولت عرب المعقل المجاورون لهم من المغرب التغلب على مناطق النفوذ السابقة لزغبة وسيطروا على قاطنيها وفرضوا عليهم خفارة، حيث أصبحوا يأخذون منهم بكرات الإبل. وبعد بلوغ دولة زناتة مبلغا من القوة وأمام استفحال ممارسات العرب فإنها قامت بإعادتهم إلى صحراءهم والسيطرة مجددا على التلول. لكن بضعف زناتة ازداد ضغطهم للسيطرة على أكبر قدر من مجال المغرب الأوسط، واستمرت بعض القبائل الهلالية في الإشراف على جباية أنواع الضرائب، كبني عامر بن زغبة مثلا الذين أقروا ضريبة تسمى الغرارة، وتقدر بألف غرارة من الزرع.[5]

اقترن الإقطاع في الكثير من الحالات بالجباية، فالقبيلة التي تقتطع الدولة لها مجالا معينا يكون لها في الغالب حق جبايتها إما لصالح الدولة أو إليها مباشرة، فقبيلة سويد التي أقطعها يغمراسن ببلاد البطحاء وسيرات حظيت بامتياز قبض الأتاوة: "يقتضون أتاوتهم على الرعايا ولا يناكرهم فيها".[6]

وعلى إثر تملك المعقل مع أحلافهم قصور الصحراء التي شيدتها زناتة، مثل قصور السوس وتوات وتمنطيت ووراكلان وتسبييت وتيكورارين، تمكنوا في بعض الفترات من فرض سيطرتهم، وأصبحوا يُلزمون السكان بدفع الإتاوات والضرائب.[7] ويبدو أن توجه بعض القبائل العربية لخدمة السلطان وانتقال أعداد منها إلى جواره قد

---

[1]) محمد فتحة: بنو هلال والاندماج الصعب، المرجع السابق، ص39-40.

[2]) الدولة الموحدية أسس الشرعية والمشروع السياسي، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2015، ص191.

[3]) ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص288.

[4]) ابن خلدون: العبر، ج6، ص33.

[5]) نفسه، ج6، ص ص54-56.

[6]) نفسه، ج6، ص61.

[7]) نفسه، ج6، ص78.

أضعف بقاياهم في القفار التي كانوا يسيطرون عليها، مما يجعلهم دافعي أتاوات للقبائل التي تتغلب عليهم، وهو ما حدث لسويد حينما تغلبت على بقاياهم في القفار المعقل، التي فرضت عليهم "أتاوة من الإبل يعطونها ويختارونها عليهم من البكرات".[1]

كما كانت حصين بن زغبة -ومواطنهم بجوار بني يزيد إلى المغرب عنهم-، يأخذ منهم الثعالبة من بطون البعوث في ريف التيطري بأرض المدية الإتاوات والصدقات خلال حكم بني توجين للمدية[2] الممتد بين القرنين (07-08هـ/13-14م).

وبالتالي فإن مسألة الأتاوة لم تخضع لثنائية هلاليين-بربر، بل خضعت لمنطق القوة والسيادة، وهو ما يؤكده ابن خلدون حين يشخّص طريقة استحواذ العرب على المغارم وسعيهم لتحصيل المجابي، فتجدهم لأجل ذلك يعضون على الرئاسة بالنواجد لأجل بسط الزعامة وتحقيق مآربهم.[3]

كان وراء الرحلة العنانية الرغبة في ضمان الجباية لبيت المال المريني.[4] خاصة بعد أن رفع المرينيون الضرائب التي كان العرب قد أثقلوا بها كاهل الناس في المنطقة الممتدة بين بجاية وقسنطينة،[5] ويشير الحسن الوزان إلى استمرار الأعراب في إثقال كاهل ساكنة المغرب الأوسط بالإتاوات والمغارم، في مازونة والمدية والمسيلة.[6]

كمحصّلة لما سبق، نخلص إلى أن الهجرة الهلالية إلى إفريقية والمغرب الأوسط حُكمت بجملة من الأبعاد الاقتصادية التي كثيرا ما غيّبها المؤرخون أو دفعوا بالأبعاد السياسية والمذهبية لواجهة التفسيرات التي ترافق القراءات المتعلقة بتاريخ الهجرة، وقد تبيّن أن حضور العامل الاقتصادي في هذه الحركة قد كان بالغ الأثر، بداية بظهير التملك الذي عكس خلفية الفاطميين في توجيه القبائل الهلالية لسهول إنتاج الحبوب غراسة الزيتون، في ظل مؤشرات تراجع الاقتصاد المصري ومحاولة ضمان الاستمرار في التزود بالمواد الضرورية من الجهات الغربية، ولتحقيق هذا النفوذ الاقتصادي قدّمت جملة من المحفزات، على الرغم من عدم ضمان النتائج بحكم أن المجموعات الهلالية المعوّل عليها غير منضبطة.

من خلال ملاحقة بعض حلقات تعاطي السلطة في المغرب الإسلامي عامة والأوسط بصفة خاصة مع الهلاليين، يتبين أنها حاولت إخضاعهم بشتى الطرق، من خلال استخدامهم في الجيش وتهجيرهم والتدخل في إعادة توزيعهم، فضلا عن بعض الإجراءات التي تستهدف اتقاء ضررهم في فترات ضعف الدولة، وهو ما سمح

---

[1]) ابن خلدون: العبر، ج6، ص61.

[2]) نفسه، ج6، ص58.

[3]) ابن خلدون: المقدمة، ص188.

[4]) الهجرة الهلالية وأثرها في تغيير البنية الاجتماعية لبلاد الزاب، المرجع السابق، ص20-21.

[5]) النميري: المصدر السابق، ص280.

[6]) الوزان: المصدر السابق، ص36-41.

بالتدخل في تنظيم المجتمع القبلي، وبالتالي انعكست هذه الإجراءات على موقعهم في البنية الاقتصادية لإفريقية والمغرب الأوسط، حيث طبع الملمح العام انخراطهم في اقتصاد المغازي كمرحلة أولى.

رغم الأشواط المهمة التي تم قطعها لإدماج الهلاليين خلال الفترة الموحدية، إلا أن القول برضوخ القبائل الهلالية نهائيا للسلطة السياسية وتحقيق اندماج فعلي قد تحقق واقعا يعدّ مجازفة، ذلك أن انبعاث سلوكاتهم البدوية كانت تتحين فرص ضعف الدولة أو فترات الفراغ السياسي أو التمردات لتعود إلى الواجهة، معلنة استمرار ممارساتها. ومع ذلك فإن الموحدين قد تمكنوا إلى حد ما من ضبط السلوك الهلالي من خلال استمرارية بعض أشكال اقتصاد المغازي، لكن بدفع الهلاليين أيضا نحو الاستقرار وممارسة الأنشطة الفلاحية، في إطار سياسة الموازنة بين الوظائف العسكرية ووظائف الإنتاج.

اعتبرت أشكال اقتصاد المغازي مواردا مهمة بالنسبة للقبائل الهلالية، سمحت لها بتنويع مصادر معاشها، وهي بقدر ما تعكس نزوع الهلاليين نحو الاقتصاد العنيف فإنها تقدّم صورة عن توظيف سُلط المغرب الأوسط وإفريقية لهم في إدارة نزاعاتها وصراعاتها الداخلية والخارجية، ومحاولة صرفهم لاتقاء ضررهم، وهي استراتيجية يمكن وصفها بأنها آنية تستهدف تسيير مرحلة أكثر منها سعيا لضبط وضع على المدى المتوسط والبعيد.

من جانب آخر، يمكن الإقرار بأن اقتصاد المغازي أسهم في تعطيل عملية الاندماج في الاقتصاد الطبيعي، باستثناء تلك الجهود والمحاولات الموحدية في الدفع بالهلاليين نحو الاستقرار وبالتالي الانخراط في الاقتصاد الزراعي دون التخلي عن توظيفهم في الجهاد.

الفصل الثالث

الحضور الهلالي في المغرب الأوسط وأبعاده الاقتصادية

أولا: إشكالية تخريب العرب الهلالية للاقتصاد

1- في المصادر والكتابات العربية

2- في الدراسات الغربية

ثانيا: الوعاء الديمغرافي الهلالي وخلفية التوزيع بسهول الحبوب ومناطق الرعي

1- حجم الكتلة البشرية الوافدة والمعادلة الاقتصادية

2- التوزيع الهلالي في المغرب الأوسط

ثالثا: الاستقرار وإعادة الانتشار بعد معركة سطيف (548هـ/1153م)

1- جغرافية التوطين

2- مظاهر الاندماج

الحضور الهلالي في المغرب الأوسط وأبعاده الاقتصادية

أثار التخريب الاقتصادي على إثر دخول الهلاليين لإفريقية والمغرب الأوسط، جملة من الإشكاليات التي ناقشها المؤرخون القدامى والمحدثون على السواء، إذ اعْتُبر الحدث من طرف بعض مؤرخي المدرسة الكولونيالية بمثابة الانتكاسة والكارثة التي أدّت إلى تراجع كبير عرفته المنطقة في مختلف المجالات، واستند هؤلاء على بعض المظان التي عايش أصحابها الحدث أو كتبوا عنه لاحقا، في حين يرفض مؤرخون من خارج هذه الدائرة تحميل الهلاليين مسؤولية التراجع، وهو الأمر الذي يتطلب البحث في حقيقة ظاهرة التخريب بشقيها العمراني والزراعي انطلاقا من النصوص التي أرَّخت للهلاليين وللقراءات التي قُدّمت من خلالها.

تمشِّيا مع ما يطرحه موضوع حضور العرب الهلالية وأبعاده الاقتصادية، فإن التوزيع والانتشار الهلالي في مجالات المغرب الأوسط وقبل ذلك في إفريقية لا يمكن استحضاره بمعزل عن الاعتبارات الاقتصادية، لذلك فإن خريطة التوزيع تكشف بلا شك عن خصوصية المناطق التي اجتاحها الهلاليون واستحوذوا عليها وخلفية اختيار المجالات والمواقع، ناهيك عن تأثير حجم الكتلة البشرية الوافدة في التوزيع القبلي وفي الحياة الاقتصادية.

من هذا المنطلق، حريٌّ بنا أن نشير إلى بعض التساؤلات التي يطرحها الموضوع، ومن ذلك: كيف صوّرت المصادر العربية النتائج الاقتصادية للهجرة الهلالية إلى بلاد المغرب؟ وهل ارتبطت المشاهد التي نقلتها باعتبارات سياسية وإثنية واجتماعية واقتصادية معينة؟ إلى أي مدى يمكن الاتكاء على كتابات ابن خلدون رغم أنه لم يكن معاصرا للهجرة؟ وما هي المرتكزات التي استند عليها مؤرخوا المدرسة الكولونيالية في ربط الانحدار الحضاري والتراجع الاقتصادي للغرب الإسلامي بالهجرة الهلالية؟ وهل تمكّن الحولياتيون والحولياتيون الجدد من الانعتاق من شرنقة رصيد المدرسة الكولونيالية؟

ما حقيقة حجم الكتلة البشرية الوافدة إلى بلاد المغرب وتلك التي توزعت في مجالات المغرب الأوسط تحديدا في ظل نزوع بعض المصادر لتضخيم أعدادها؟ وما انعكاسها على المعادلة الاقتصادية في المنطقة؟ ثم ماهي ملامح التوزيع الهلالي في المغرب الأوسط جغرافيا واقتصاديا وما خلفية التموقع في السهول الواسعة للحبوب ومناطق الرعي؟ وكيف انعكست الاستراتيجية الموحدية بعد معركة سطيف 548هـ/1153م على جغرافية توطين العرب الهلالية وإعادة انتشارهم وفيما تبرز مظاهر إدماجهم؟ وما مدى نجاعة مخطط الاستتابة الموحدي في شقه الاقتصادي؟

أولا: إشكالية تخريب العرب الهلالية للاقتصاد

الحديث عن المكوّن البدوي الوافد واقتصاد بلاد المغرب يدفعنا تحت ضغط بعض القواسم المشتركة إلى استدعاء سؤال في غاية الأهمية، يتعلق بالظاهرة البدوية التخريبية بشمال إفريقيا منذ العصر القديم، والمرتبطة أساسا بالعنصر البدوي، نظرا لاشتراك النموذجين البدويين (الوندالي والهلالي) في غزو ذات المجال، والتعامل المتشابه للنصوص التي أرخت للحدثين بنفس المنطلقات والغايات طالما أنهم لم يؤرخوا لتجاربهم، التي كتبها غيرهم من رجال الكنيسة الكاثوليكية بالنسبة للوندال، والسلط السياسية والفقهاء بالنسبة للهلاليين.

يبرر بعض الباحثين[1] التركيز على التشابه بين الغزو الهلالي والوندالي، باشتراكهما في التخريب. مع أن هناك بعض المنزلقات التي تمنعنا من إجراء إسقاط تاريخي مكتمل الأركان على الحدثين اللذين عرفتهما المنطقة ذاتها في ظرفين مشابهين.

تحيلنا هذه المقاربة، التي تنبني عليها محاولات الإمساك ببعض الأبعاد الاقتصادية التي حكمت وأثّرت في الحضور الهلالي بالمغرب الأوسط إلى الالتفات نحو مسألة دافعية التخريب لدى الهلاليين، هل هي نتاج لطبيعتهم البدوية –كما أشرنا إليه سالفا- أم أن الأمر متعلق بالشحن السياسي الذي عرّضهم له الفاطميون عند دفعهم غربا؟، أم أنه لا يخلو أيضا من العامل النفسي الذي تمخض عن سنوات من الحصار الفاطمي في بلاد الصعيد، حيث كانوا محاصرين بحواجز طبيعية وعسكرية فرضت عليهم التحرك في مجالات محددة؟.

وحتى الإجراءات المرافقة لتوجيه الهلاليين نحو الغرب كتقسيم مجالات إفريقية عليهم والطابع شبه الرسمي الذي أخذته العملية، والدعم المادي والمعنوي الذي حظيت به القبائل الهلالية السباقة في الجواز، كلها عوامل أنتجت دفعا نفسيا قويا لهذه العناصر البدوية، بحيث شعرت بحماية الخلافة الفاطمية وهي تحمل تفويضا من قوة سياسية وعسكرية كبيرة آنذاك، مما جعلها تعتبر أنها ستواجه حركة انفصالية عن إمبراطورية ممتدة، كانت لا تزال في مرحلة قوة، وبتوظيف مختلف هذه المرة، إذ اعتادوا على أن يكونوا مرتزقة في الحروب، يتم توظيفهم من طرف القوى

---

[1]) Ismaëil Hamet: Op cit, p243.

خلال الفترة الرومانية، كانت بلاد المغرب قطبا اقتصاديا زراعيا مهما في المجال التجاري للبحر الأبيض المتوسط، وكانت منتجا مهما للحبوب والزيوت التي تنقل إلى روما؛ Andy Merrills & Richard Miles: The Vandals, Wiley-Blackwell, United States, 2010, p145.

يذهب كل من "آندي ميرلز" Andy Merrills و "ريتشارد مايلز" Richard Miles إلى أن الغزو الوندالي لم يحدث هزة قوية وتغيرا مفاجئا لاقتصاد المغرب القديم، حيث استمرت الكثير من جوانب الحياة الاقتصادية والزراعية والتجارية في المنطقة رغم التخريب الذي عرفته، بل إن بعض الصناعات والحرف استمرت بشكل جيد وحققت نموا اقتصاديا في بعض المدن، ويستندان في ذلك إلى نتائج أثرية تعود للفترة الوندالية، والملاحظ أن بعض التحولات بدأت منذ الفترة الرومانية المتأخرة وليس تزامنا مع الغزو الوندالي، ومن ذلك ما حدث على المستوى العمراني، حيث تم تحويل بعض المنشآت ذات الأهمية في المدينة كالمسرح ومجمعات الحمامات إلى مساكن خاصة؛ Andy Merrills & Richard Miles: Op. cit, p152-155.

وهو الملمح الذي أشار إليه بعض الباحثين أيضا بخصوص بداية التراجع الاقتصادي في الفترة السابقة لوصول الهلاليين، وبالتالي فإن التأثير الوندالي على القطاع الاقتصادي وإن كان سلبيا، إلا أنه لم يؤد إلى نتائج كارثية بالمعنى الاقتصادي، كما أنه لم يكن تغييرا سريعا، لأن بعض المراكز حافظت على حيويتها الاقتصادية ونشاطها.

المذهبية والسياسية المتصارعة، لكن هذه المرة، يشعرون أنهم في رحلة بحث عن وطن بعيدا عن أي قيود مباشرة من سلطة أخرى.

انطلاقا من هذه المعطيات، فإن تفسير السلوك التخريبي لدى القبائل الهلالية وحصره في دافع واحد يعتبر بمثابة المجازفة المعرفية، باعتباره تمظهرا لخلفيات اقتصادية وبيئية وسياسية ونفسية متشابكة ومعقدة، أفرزت ذلك التوجه نحو التخريب الذي تصاحبه عمليات النهب والسلب...

لا يمكن إنكار الضرر الذي تسببت فيه القبائل الهلالية بالمغرب الإسلامي عامة، والمغرب الأوسط بصفة خاصة، غير أن ما يثير الاختلاف بين الباحثين هو حجم ومستوى الضرر في حد ذاته، حيث يصور البعض المنطقة ساحة خراب وغزو وانتهاب ويشير إلى تقهقر النظام الاقتصادي وحدوث اختلالات عميقة في حركة السلع وانتشار ظاهرة اللصوصية وقطع الطريق، ويجعل من هذا الحدث معلما تاريخيا فاصلا بين حقبتين رئيستين: الأولى هي ما قبل الهلالية، والتي تتميز بالازدهار الاقتصادي، والثانية ما بعد الهلالية التي حل خلالها الخراب بالمنطقة وتراجع الاقتصاد وعمّت الفوضى. ومقابل هذا يذهب عدد آخر من الباحثين إلى اعتبار التراجع الاقتصادي الذي عرفته بلاد المغرب والذي تزامن مع دخول الهلاليين محكوم بخلفيات تاريخية وسياسية كانت تنذر بحدوثه، وما قدوم الهلاليين إلا عامل سرّع من وتيرة التقهقر.

لتتبع مختلف الكتابات التاريخية التي أفرزت هكذا توجهات في البحث التاريخي حول الهلالية، ولأن الأمر ليس منزّها عن الاعتبارات الإيديولوجية التي عادة ما تدفع أصحابها إلى الدفاع عن موقف دون غيره، فقد رأينا أنه من الضروري الإطلاع على تيمة الخراب والتراجع الاقتصادي في المصادر والدراسات العربية الحديثة، وكتابات الغربيين الذين قدّموا اجتهادات مهمة في هذا الموضوع تحديدا، خاصة وأنه أحدث في بعض الفترات تجاذبات ونقاشات مختلفة.

1- في المصادر والكتابات العربية

لا توجد مصادر تاريخية مختصة حصرا بموضوع الهلالية وانتقالهم إلى بلاد المغرب، لذلك يجد الباحث نفسه ملزما بالعودة إلى مظان الأدب التاريخي والجغرافي، من كتب التاريخ العام والرحلة والجغرافيا والسير والمناقب، وهو ما يتيح الاطلاع على رؤى وتصورات متعددة حول المجموعات الهلالية.

أ. المصادر العربية:

على الرغم من أن المصادر العربية التي كتبت عن العرب الهلالية وأثرهم الاقتصادي في بلاد المغرب تنتمي إلى النخب السياسية والعالمة الحضرية، ما يثير عديد الاعتبارات التي ترتبط بمدى موضوعيتها، إلا أنها تبقى تُشكِّل حجر الزاوية في معالجة الموضوع، لما تتيحه إشاراتها المهمة والدقيقة في أحيان كثيرة من ممكنات للقراءة والاستنتاج والتحليل.

تأتي مصنفات الجغرافية في مقدمة الكتب التي صوّرت بعض ملامح المشهد الاقتصادي بعد قدوم الهلاليين، وتكمن أهمية بعض المعطيات التي أوردتها هذه المصادر أنها تشير إلى الماضي الاقتصادي للمدينة أو المنطقة محل الحديث.

قدّم الإدريسي الذي يعدّ من أهم الجغرافيين في العصر الوسيط، الوضعية الاقتصادية لمدن ومجالات المغرب الأوسط بطريقة دقيقة، وبالتالي فالنص الإدريسي نص تفصيلي قد يُسعف في تجاوز الأحكام النمطية العامة التي ميّزت بعض الكتابات التاريخية، ربما لأنه تمتع بهامش كبير من الموضوعية في علاقته بالعرب الهلالية، فهو يشير إلى الآثار الوخيمة للتخريب الهلالي في كل من زويلة، طرابلس، القيروان، سرت، لبدة، أجدابية، برقة، أوجلة، زالة، ودان، ويصف بعض هذه الجهات بقوله: "أكثرها خلاء وعامرها قليل، وأهلها عرب مفسدة في الأرض، مغيرة على من جاورها". [1] ويذكر الخراب الذي لحق بعض جهات المسيلة، كقرية هان، التي تقع في فحص رملي وتبعد مرحلة على المسيلة، يصفها بقوله: "وهي الآن خراب". [2] ورغم أنه أشار إلى أن حصن القلعة والحصون القريبة منه كلها في مهادنة مع العرب، لكنه يؤكد على أن ذلك لم يمنع من الاحتكاك بين العرب والأجناد: "وربما أضرَّ بعضهم ببعض، غير أن أيدي الأجناد فيها مقبوضة وأيدي العرب مطلقة في الإضرار، وموجب ذلك أن العرب لها دية مقتولها وليس عليها دية فيمن تقتل". [3]

وفي المقابل، كان العرب لا يُقدمون على ترويع الناس ونهبهم في بعض الجهات، فهم لا يغيرون على الفضاء الحرم الذي يسكنه المرابطون، مثل المنستير التي يسكنها قوم متعبِّدون لا يلحق العرب بأشجارهم وعمائرهم الضرر، ويتحدث عن تعامل أهل تونس مع ثقات العرب، واستمرار الأنشطة الفلاحية في باجة.[4]

يشير ابن سعيد المغربي[5] إلى بعض المدن التي كانت عرضة للخراب بسبب الاجتياح الهلالي، مثل برقة، ودرنة، ويصف الوضع الذي آلت إليه سرت بعد دخول العرب إليها: "وقد خرّبها العرب ولم يبق فيها إلا قصور سكنها أتباعهم". [6]

لعل أغلب مشاهد الخراب التي نقلتها المصادر، تلك المتعلقة بالقيروان، حيث وردت الكثير من النصوص التي أرَّخت له شعرا ونثرا، مغاربية محلية أو مشرقية، فقد نظم ابن رشيق قصيدة معبّرة ومؤثرة في رثاء القيروان، مما جاء فيها: (الرجز)[7]

---

[1] الإدريسي: المصدر السابق، ص310-316.

[2] نفسه، ص256.

[3] نفسه، ص263.

[4] نفسه، ص282، 285، 290.

[5] المصدر السابق، ص147.

[6] نفسه، ص127؛ حدث ذلك رغم أن الهلاليين وخلال مسيرتهم من برقة إلى إفريقية لم يصطدموا بمواجهة حقيقية مع القبائل البربرية المنقسمة والمتنافسة أصلا؛ Ernest Mercier: Op. cit, Tome 02, p17

[7] أبو علي الحسن ابن رشيق القيرواني: ديوان ابن رشيق القيرواني، جمع وترتيب: عبد الرحمان باغي، دار الثقافة، بيروت، 1989، ص ص204-212.

أَعْظِمْ بِتِلْكَ مُصيبَةً ما تَنْجَلي حَسَراتُها أَوْ يَنْقَضي كـلمَلَوانِ
لَو أَنَّ ثَهْلاناً أُصيبَ بعُشْرهـا لَتَدَكْدَكتْ مِنْها ذُرا ثَهــلان

وهذا ابن الأثير يتحدث عن الهلاليين بأنهم: "شنّوا الغارات وقطعوا الطريق وأفسدوا الزروع وقطعوا الثمار وحاصروا المدن ... ونزل بإفريقية بلاء لم ينزل بها مثله قط" وقام الهلاليون بـ: "هدم الحصون والقصور وقطعوا الثمار وخربوا الأنهار".[1] ويذكر عبد الواحد المراكشي (ق06-07هـ/12-13م) أنهم "... عاثوا في القيروان عيثا شديدا، أوجب خرابها إلى اليوم".[2]

ويصف المقريزي (القرن 08-09هـ/14-15م) بدوره تخريب عاصمة الزيريين بعد حصار طويل: "استولت العربان على حرمه وداره وغلمانه، وقتلوا الرجال وسبوا النساء، وانتهبوا ما كان في دوره وقصوره؛ وعاثوا في البلد ينهبون ويأسرون ويقتلون" "فخربت القيروان حينئذ إلى اليوم" و"نزل بأهل إفريقية بلاء لا يوصف".[3]

وهذا ابن الخطيب، الذي عاش في فترة متأخرة (ق08هـ/14م) لا يزال يستذكر –حينها- ما وصله عن خراب القيروان، وينقل الصورة التي بقيت متواترة حول الهلاليين وظاهرة التخريب: "سبوا البلاد وأيتموا الأولاد، وانتهبوا الطارف والتلاد، وحسبك بدخول مدينة القيروان شهرة ووقيعة شنيعة، وإلى اليوم فالخطب بهم لا يرفع والوطن الخصيب الرحيب قفر بلقع".[4]

كان وقع خراب القيروان كبيرا على النخب السياسية والحضرية عامة، لذلك خلّدته العديد من النصوص الشعرية المعاصرة له، التي بكتها ورثتها، لأن سقوط القيروان باعتبارها مركزا حضريا مهما في بلاد المغرب يعدّ نكبة في تاريخ المنطقة.

النصوص الرّسمية هي الأخرى لا تخلو من توصيفات الخراب الهلالي، فإحدى الرسائل الموحّدية تشير إلى خطورة الوضع الذي آلت إليه بعض مناطق إفريقية كقفصة، قبل أن يتملّكها الموحّدون، حيث جاء في إحدى الرسائل الموحّدية: "... وكان شذّاذ العرب وشرّادهم يلوذون بذَراه، ويسندون فيما يريغونه من عنادهم ويحاولونه من اضرارهم وافسادهم إلى جنابه ويأرزون إلى حماه ..."[5] والوزان بدوره، يذكر الممارسات التي رافقت الانتشار

[1]) ابن الأثير: المصدر السابق، ج8، ص296.
[2]) عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص189.
[3]) اتعاظ الحنفا، ج2، 215؛ ينظر أيضا: الصيرفي: المصدر السابق، ص42؛ ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص321.
كتب شعراء القيروان عن سقوط هذه المدينة بحزن كبير، ومن أهم هؤلاء الشعراء: ابن رشيق (390- 456هـ أو 463هـ/1000-1064م أو 1071م) وابن شرف (390-460هـ/1000-1068م)، وكانا في بلاط المعز بن باديس، وقد فرا إلى صقلية بعد نكبة القيروان؛ سعد بوفلاقة: بكاء القيروان في الشعر المغربي بعد اجتياحها من قبل الهلاليين، مجلة حوليات، جامعة الجزائر1، ج27، ع2، 2015، ص287.
[4]) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج3، ص75.
[5]) رسائل موحدية، م ج، الرسالة رقم 30، ج1، ص151-152.

الهلالي في بوادي إفريقية، كفرض الضرائب والتكاليف على سكانها.[1] والتخريب الذي تعرضت له جهات قابس على إثر الدخول الهلالي.[2]

ب. كتابات ابن خلدون

يعدّ النص الخلدوني من أهم المتون التي يستند إليها الباحثون في موضوع العرب الهلالية، وهو الذي حاول أن يؤرخ للخراب الهلالي[3] بعد قرون من حدوثه، وقد خصّت التوصيفات التي قدّمها حول المجموعات الهلالية موجة الخراب الأولى إلى جانب مظاهر استمرار الضرر الاقتصادي.

بداية، يضع ابن خلدون نمط المعيشة الهلالية في خانة "العدوان"، لأن الهلاليين البدو كانوا يعيشون على ما تجنيه رماحهم، وهمهم الوحيد هو الاستيلاء على ما في أيدي الناس.[4] مستغلين ضعف الدول في المغرب الإسلامي في تخريب العمران والاستيلاء عليه.[5] لذلك حمّلهم المسؤولية الكاملة في خراب المغرب الإسلامي: "... وإفريقية والمغرب لما جاز إليها بنو هلال وبنو سليم منذ أول المائة الخامسة وتمرّسوا بها لثلاثمائة وخمسين من السنين قد لحق بها وعادت بسائطه خرابا كلها بعد أن كان ما بين السودان والبحر الرومي كله عمرانا تشهد بذلك آثار العمران فيه من المعالم وتماثيل البناء وشواهد القرى والمِدَر والله يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين".[6]

وابن خلدون، الذي يعتبر من أهم المشتغلين على ثنائية البداوة والتحضر، يربط بين تملّك البدو للبسائط وخرابها، ليس في بلاد المغرب فحسب، بل حتى في اليمن والعراق والشام، إذ يقول: "وانظر إلى ما ملكوه وتغلّبوا عليه من الأوطان من لَدُن الخليقة كيف تقوّض عمرانه واقْفر ساكنه وبدّلت الأرض فيه غير الأرض".[7] وكنموذج لتوصيف الخراب الذي أحدثته القبائل الهلالية، بعد استيلائها على القلعة والمسيلة وطبنة، يقول: "وعطفوا على المنازل والقرى والضياع والمدن فتركوها قاعا صفصفا أقفر من بلاد الجن وأوحش من جوف العير، وغوّروا المياه واحتطبوا الشجر وأظهروا في الأرض الفساد".[8]

يشير ابن خلدون إلى اتساع دائرة الخراب بوصول الأفواج اللاحقة من العرب بعد مكاتبتهم، حيث خربوا المدينة الحمراء وأجدابية وأسمرا وسرت.[9] ويستحضر إفريقية وبرقة للاستدلال على تأثير تناقص العمران وخرابه على مستوى النمو الاقتصادي بها، حيث يقول: "واعتبر حال هذا الرّفه من العمران في قطر أفريقية وبرقة لما خفّ

[1]) المصدر السابق، ج1، ص46-47.

[2]) الوزان: المصدر السابق، ج1، ص46؛ اضطر المعز أمام السلوك الهلالي في جهات قابس لمواجهتهم، قبيل وصولهم إلى القيروان؛ ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص317.

[3]) المثل العربي: "إذا عربت خربت" مستوحى من التجاوزات التي قام بها الهلاليون والخراب الذي أحدثوه؛ Ismaël Hamet: op cit, p244.

[4]) ابن خلدون: المقدمة، ص334.

[5]) نفسه، ص191.

[6]) نفسه، ص188.

[7]) نفسه، ص188.

[8]) ابن خلدون: العبر، ج6، ص27.

[9]) نفسه، ج6، ص20؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص217.

سكنها وتناقص عمرانها كيف تلاشت أحوال أهلها وانتهوا إلى الفقر والخصاصة. فضعفت جباياتها فقلّت أموال دولها بعد أن كانت دول الشيعة وصنهاجة بها على ما بلغك من الرّفه وكثرة الجبايات واتّساع الأحوال في نفقاتهم وأعطياتهم. حتى لقد كانت الأموال ترفع من القيروان إلى صاحب مصر لحاجاته ومهماته وكانت أموال الدولة بحيث حمل جوهر الكاتب في سفره إلى فتح مصر ألف حِمل من المال يستعدّ بها لأرزاق الجنود وأعطياتهم ونفقات الغزاة".[1] ويرجع ابن خلدون سبب تلاشي بعض ملامح الحياة الحضرية التي عرفتها أفريقية منذ العهد الأغلبي إلى تغلّب بدو العرب الهلاليين عليها وتخريبها، إذ لم يبق منها إلا بعض الآثار العمرانية بالقلعة والقيروان والمهدية.[2]

انطلاقا من كتابات ابن خلدون، التي شكّلت مصدرا مهمّا للمهتمين بالتأريخ للعرب الهلالية، كيف فهم الباحثون منظور ابن خلدون واصطلاحات كتابته؟ وإلى أي مدى يمكن أن يُعتمد على منظوره في إبراز حقيقة تخريب العرب الهلالية لاقتصاد بلاد المغرب، خاصة وأنه عاصر استمرار هيجان هذه القبائل وضررها الاقتصادي؟

ج. الدراسات الأكاديمية:

أثار موقف ابن خلدون الذي يُحمّل مسؤولية خراب بلاد المغرب للعرب جدلا كبيرا بين الباحثين، من يرى أنه موقف مبني على نظرة علمية يفسّر بها طبيعة العمران ووقع الهجرة الهلالية وانعكاساتها على المسار التاريخي للمنطقة ضمن طوري البداوة والتحضر، وبين من يرى أنه يمثّل أيضا موقفا شخصيا، ارتبط بموقعه السياسي كونه محسوبا على بلاط الحكم، الذي كان يعكس هواجس دول العصبيات البربرية في إخضاع الهلاليين.

انطلاقا من قراءته لنصوص ابن خلدون، ينتهي آلان ويبر Alan Weber[3] إلى أن الثقافة العربية قد تطورت بشكل طبيعي من البداوة إلى الاستقرار، حيث تمثل البداوة مرحلة تسبق ممارسة الزراعة، والبدو يظهرون على أنهم عرق متهور وعنيف، سلوكهم يتناقض والمبادئ الأساسية للحضارة وسيادة القانون، لأن التحرك والتجوال هو نقيض الثبات المنتج للحضارة. ومع ذلك، فهم يتميزون بنقاء نسبهم وشجاعتهم وولائهم. في المقابل، يعكس تصور ابن خلدون أن سكان المدن ضعفاء، كجزء من أطروحته العامة القائلة بأن الحضارات تنتقل من نقاء بسيط أصلي إلى صقل ثم إلى ضعف أخلاقي وفساد.

وإذا كان علاوة عمارة قد أشار إلى أن ابن خلدون وقع في تناقض صارخ بين التنظير والتأريخ للهلالية، فالمقدمة التي ألّفها في قلعة بني سلامة "البدوية"، أشار فيها إلى إمارة بني مزني ببسكرة، بوصفها نموذجا للعائلة الهلالية التي تمكنت من تأسيس "ملك"،[4] والتأسيس هنا في مقابل التخريب والإفناء؛ فإن "إيف لاكوست" Yves Lacoste (1929-) ينفي عن ابن خلدون الترويج لفكرة أن الهلاليين قاموا بإحداث تغييرات عميقة على المغرب الإسلامي، فما ورد في المقدمة حسب لاكوست لا يعكس بالضرورة حدثا محليا ولكنه يحلل البنى

[1]) ابن خلدون: المقدمة، ص458.

[2]) نفسه، ص463.

[3]) Alan Weber: Op. cit, p130.

[4]) الهجرة الهلالية وأثرها في تغيير البنية الاجتماعية لبلاد الزاب، المرجع السابق، ص24.

السياسية والاجتماعية للمنطقة، ولم يفرد دراسة مفصلة للأثر الهلالي. صحيح أن ابن خلدون ضمّن المقدمة ملاحظات حول سلوك العرب البدو وخراب المناطق التي استحوذوا عليها، لكن انتقاده للعرب المخرّبين كان بمثابة مقارنة لهم بغيرهم من العرب ممن نجحوا في تأسيس إمبراطوريات.[1]

لا شك أن موقف ابن خلدون من العرب لا ينفصل عن رؤيته العامة حول تطور العمران البشري، لكن لا يجب أن نغفل على أنه محسوب على الحضر والأرستقراطية، فضلا عن كونه رجلا سياسيا، ثم إنه كان بعيدا زمنيا عن الغزوة الهلالية، لكنه في المقابل عاصر استمرار هيجانها وحرابتها.

وبالانتقال إلى التخريب الاقتصادي تحديدا بغض النظر عما أفرزته الأطروحات التي حاولت مناقشة النسق الخلدوني، فقد تنوعت الدراسات التاريخية الأكاديمية من حيث حدّة أحكامها على العرب الهلالية، فبعضها يقرّ بالتخريب الهلالي وانعكاسه على اقتصاد المنطقة، وبعضها يتجاوز طرح الخراب بإغفاله والاتجاه نحو الإشادة بدور هذه القبائل في تعريب اللسان، في حين توجّه دراسات أخرى أصابع الاتهام لابن خلدون تارة –كما أشرنا– وللمستشرقين من أنصار المدرسة الكولونيالية الذين وظفوا كتاباته تارة أخرى.

تُحمِّل بعض الدراسات السلطة الصنهاجية مسؤولية الأضرار الهلالية على الاقتصاد في بلاد المغرب، لأنها –حسبهم– لم تحسن التعامل معهم، وتستند إحدى الأبحاث[2] التي تتناغم وهذه الرؤية إلى إشادة البكري (ت487هـ/1094م) بعمارة القيروان وتطورها، وتتساءل كيف أن البكري الذي عاصر فترة دخول الهلاليين يقدم معطيات تتناقض مع ما قدمه كل من العبدري (ق07هـ/13م) وابن عذارى (ق8هـ/14م) وابن خلدون (ق08-09هـ/14-15م)، وإن كانت لا تنفي الوضع الذي آلت إليه القيروان، إلا أنها تربطه بالأحداث الموالية التي عرفتها كهجوم الناصر وثورات قراقوش والغانيين؛ مع أنه ينبغي التنبيه إلى أن البكري نقل بعض المعطيات عن ابن حوقل والوراق، وبالتالي فإن التسليم بنصه في مجمله والاستدلال به لا يخلو من منزلقات.

من الدراسات التي حاولت تحميل الهلاليين جزءا من التدهور الاقتصادي، مقابل الإشادة بأدوار أخرى، أطروحة حسين مؤنس، التي تؤكد الخراب الذي تسبب فيه الهلاليون، إذ يقول: "... أنزلوا بإفريقية والمغرب الأوسط خرابا بالغا كان له أبعد الأثر في تاريخ البلاد"، ووصف أعمالهم بالهمجية واعتبرها نكبة كبرى، تسببت في "الخراب الأكبر للمغرب" والقضاء على عمرانه، لكنه يخلص للقول: "لم تكن الغزوة الهلالية إذن شرا خالصا، بل كان شرا تأتّى عنه خير كثير".[3] ويقصد به التعريب والجهاد ضد النورمان والأندلس.

غير أن مقابلة السلبي بالإيجابي، عادة ما يكون نتاج غياب دراسات متخصصة في الجانب الاقتصادي، والتي من شأنها حصر الإشكاليات في دراسة موضوعية، غير مثقلة بالإيديولوجيا والتوجيه، والتوصيفات العامة عادة ما

---

[1]) Yves Lacoste: Op. cit.

[2]) فايزة محمد صالح أمين سجيني: المرجع السابق، ص169-173.

[3]) حسين مؤنس: المرجع السابق، ص176-177.

تنتهي إلى القول بأن الوضع مزدهر، والحركة التجارية حيوية، والزراعة منتجة، لكن عندما تنتقل المصادر إلى ذكر بعض النماذج والمناطق تعطي صورة مغايرة للأحكام العامة.

يذهب باحثون آخرون، على غرار العروي[1] إلى أن الحديث عن التراجع الاقتصادي والحضاري الذي عرفته بلاد المغرب منذ القرن الخامس هجري لا يمكن عزله بأي شكل من الأشكال عن الإطار التاريخي العام المرتبط بعالم البحر المتوسط ووضع الخلافتين الفاطمية والعباسية والحروب الصليبية، لذلك فهو ينتقد بشدة التعامل التقليدي مع مظاهر الوضع في المغرب الاسلامي، ويشير في هذا الصدد إلى عوامل مرتبطة بهذا التراجع، منها ما هو ديمغرافي، ومنها ما ارتبط بالتجارة البحرية التي تعدّ التجارة الصحراوية رافدها المهم، فضلا عن التعارض بين وحدة السلطة عند نصارى الغرب باعتبار روما مركز البابوية وافتراق المسلمين. وهي العوامل التي يرى أنه من صميم البحث التركيز عليها رغم أنها ليست من اختصاص مؤرخ المغرب.

أما محمد حسن،[2] فيرفض تحميل العرب الهلالية لوحدهم مسؤولية التراجع الذي شهدته المنطقة، معتبرا التطور السلبي –كما يسميه– نتاج جملة من المقدمات والظروف، لا تعدو أن تكون الهجرة الهلالية إلا حلقة منها أسهمت في تسريع اندثار الهياكل الحضرية التقليدية لما شكّلته من ضغط على المدن وانكفاء العمران الحضري.

2– في الدراسات الغربية:

أ. الكتابات الفرنسية:[3]

أثارت قضية الخراب والارتدادات الاقتصادية التي أحدثها الانتقال الهلالي إلى بلاد المغرب نقاشا كبيرا بين المؤرخين الفرنسيين، تزامن والاحتلال الفرنسي للجزائر واستمر لاحقا، حيث أعطى هؤلاء تفاسير متنوعة لهذه الظاهرة، ما دفع بجاك بيرك لأن يخلص إلى أن حسم الجدل حول طبيعة التأثير الاقتصادي للهلاليين على المنطقة يتطلب حفرا بحثيا عميقا من خلال المصادر والوثائق ذات العلاقة المباشرة بالحدث، معتبرا تحميل العرب الهلالية مسؤولية إحداث قطيعة في تاريخ المغرب، بمثابة "الفكرة التاريخية الشائعة المبتذلة".[4]

---

[1]) المرجع السابق، ج2، ص98-99.

[2]) المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي، ج1، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة تونس الأولى، 1999، ص35-36.

[3]) كتب العديد من الباحثين حول الهجرة الهلالية في كتابات المؤرخين الفرنسيين، ومن ذلك:

- علاوة عمارة: الهجرة الهلالية وإشكالية انحطاط حضارة المغرب الإسلامي الوسيط، المرجع السابق، ص ص07-36.
- محمد الشريف: الهجرات الهلالية من خلال بعض الكتابات الفرنسية المعاصرة، ضمن أعمال ندوة التحركات البشرية والهجرات اليمانية إلى الشام وشرق وشمال إفريقيا، قبل ظهور الإسلام وبعد ظهوره، يومي: 23-24 نوفمبر 2004، الرباط، المغرب، تحرير: محمد أبو صوة وسعيد بنسعيد العلوي ويوسف محمد الصواني، منشورات المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر، ليبيا، 2005، ص ص 395-418.
- عبد السلام همال: هجرة قبائل بني هلال وبني سليم إلى المغرب منتصف القرن 05هـ/11م – من خلال كتابات بعض مؤرخي المدرسة التاريخية الاستعمارية الفرنسية (1830-1962)، المرجع السابق.

[4]) محمد الشريف: المرجع السابق، ص416-417.

كان للإيديولوجية الكولونيالية تأثير قوي في توجيه النقاش وبلورة التصورات المتعلقة بالموضوع، والهدف هو التغطية على سياسة الاستعمار الفرنسي، باعتبار الفرنسيين يسيطرون على مجال عاش على مر تاريخه مراحل من التبعية، ويسعون من خلال ذلك إلى إضفاء نوع من الشرعية على تواجدهم بالجزائر، ناهيك عن تطبيق سياستهم الرامية إلى إثارة الحساسيات بين العرب والبربر، بما يخدم مصالحهم وتوجهاتهم.[1]

اعتبرت الترجمة الفرنسية لمقدمة ابن خلدون سنة 1836م والتي ترجمها المستشرق الإيرلندي الأصل ويليام ماك جوكين "البارون دوسلان" (1801-1878م) William Mac Guckin "Baron de Slane" إنجازا مهما بالنسبة للدراسات الاستشراقية، غير أن عبد السلام همال يسجل ملاحظتين رئيستين حولها، الأولى: متعلقة بطبيعة الترجمة، لأن دوسلان تعمَّد وضع كلمة عرب كلما وجد ألفاظ: أعراب، بدو، رحل ... والثانية: ترتبط بالتركيز على الأحكام التي قدّمها ابن خلدون حول العرب الهلالية وفي مقدمتها التخريب، والتي وجد فيها المؤرخون الاستعماريون ضالتهم لخدمة توجهاتهم في الكتابة التاريخية، فوصف توظيفهم للمتن الخلدوني بـ "الاستغلال".[2]

أقام هؤلاء المؤرخون منظورهم على أحد مستويات نصوص ابن خلدون، كما أخذوا عن الإدريسي، فاعتبروا الهجرة الهلالية بمثابة "احتلال العرب لبلاد البربر"، حيث قدّمت الإيديولوجيا الاستعمارية عديد التوصيفات التي تعكس الرؤى التي أحدثها التعاطي مع هذا الحدث، فاصطلح عليه: "الكارثة الهلالية"[3] أو "الكارثة الكبرى" Grande catastrophe[4] بتعبير إيميل فيليكس غوتييه Émile-Félix Gautier، أو النكبة الكبرى والبلية[5] Fléau، فنسب للهلاليين تراجع اقتصاد بلاد المغرب، وحمّل البدو مسؤولية تراجع الزراعة المستقرة في بلاد المغرب بعد وصولهم في القرن 05هـ/11م، ودافع مؤرخوا النص الاستعماري كجورج مارسييه Georges Alfred Marçais وغوتييه –القادم من حقل الدراسات الجغرافية– على هذا الطرح بشراسة، غير أن بعض المؤرخين الفرنسيين تحفظوا على هذه الأطروحة، وقللوا من تأثير الغزوات الهلالية، بل شككوا في أزمة القرن الحادي عشر.[6]

يرى جورج مارسي وغوتييه أن تراجع اقتصاد بلاد المغرب تسببت فيه الهجرة الهلالية، مستندين في تفسيرهم على كتابات بعض الرحالة والمؤرخين العرب، التي يضفون عليها طابعا إيديولوجيا، مركزين على تعارض المستقرين

---

[1]) محمد الشريف: المرجع السابق، ص405.

[2]) عبد السلام همال: المرجع السابق، ص171.

[3]) أول من استعمل مصطلح "الكارثة الهلالية" هو المؤرخ وعالم الإسلاميات "روبار برونشفيك" Robert Brunschvig؛ علاوة عمارة: الهجرة الهلالية وإشكالية انحطاط حضارة المغرب الإسلامي الوسيط، المرجع السابق، ص16.

[4]) Emile Félix Gautier: Op. cit, p413.

[5]) محمد الشريف: المرجع السابق، ص399.

[6]) Mohamed Ouerfelli et Élise Voguet (eds): Le monde rural dans l'Occident musulman médiéval. (Revue des Mondes Musulmans et de la Méditerranée, 126.) Aix-en-Provence: Presses Universitaires de Provence, 2009, p17.

والرحل بسبب اختلاف أنماط المعيشة واعتبار الاستقرار محرك الحضارات والتقدم، واتهام العنصر العربي بأنه مخرّب بطبعه، وأن التخريب الهلالي أتى على ما بقي من تأثيرات حضارية رومانية وأضر بحضارة المغرب، وبالتالي يكون الاستعمار الفرنسي أمام ضرورة استعادة الدور الحضاري المغربي والخروج من الانحطاط وتحقيق الإقلاع.[1]

تساوقا وتحميله لمسؤولية الخراب للعرب، فإن جورج مارسيه اعتبر حكام بلاد المغرب ضحايا للهلاليين وأن تسييرهم العشوائي لملف الهجرة الهلالية كان غير موفق.[2] ويتتبع مسار العرب في المنطقة، ليثبت استمرارية فكرة التخريب والنهب لديهم، إذ يعتبر أن غزو الغانيين كان فرصة لهؤلاء العرب لبعث مشاعرهم المتعطشة للسلب، فساهموا في إحداث تدهور اقتصادي بالمنطقة، بعد أن تمكنوا من تحييد البربر على مناطق زراعية مهمة استغلوها في نشاطهم الرعوي، خاصة وأن الجهات الممتدة من جنوب إفريقية إلى سهول وهران كانت مجالات زناتية.[3]

ما ضاعف الأضرار الهلالية وعطّل التنمية في المغرب الإسلامي، هو أن هؤلاء البدو لا يخضعون لحكومة ولم يؤسسوا لحضارة، حسب غوتييه الذي يشيد أيضا بكتابات جورج مارسيه في هذا الإطار، ويتفق تماما مع ابن خلدون، عندما يذهب إلى أن العرب البدو لا يفكّرون في الاستيلاء على السلطة السياسية أو تولّيها، وبالتالي، فهم لا يحوزون أي مشروع سياسي، كما أنهم في الوقت نفسه لا يجتمعون حول قائد يمكن أن يحتويهم أو يوجّههم، وقد اشتهروا بالظلم واللصوصية وقمع السّكان وسرقة المسافرين، أما تمكّنهم من تأسيس مملكة قابس الهلالية فيدرجه في خانة الاستثناء.[4]

ينتقد جلبرت مينيي (1942-2017م) Gilbert Meynier أطروحات غوتييه وأتباعه ممن اعتمدوا على ابن خلدون، والذين حاولوا تصوير المنطقة على أنها كانت أرض الرخاء قبل الهجرة الهلالية،[5] وبعد قدوم الهلاليين أصبحت —حسبهم- عرضة لجحافل العرب الهمجية، الذين سلبوا القرى وحوّلوا البساتين إلى مناطق رعي لهؤلاء البدو الرحل. في حين يعتقد أن النتائج التي توصّل إليها كل من شارل أندري جوليان (1891-1991م) Charles-André Julien وهادي روجي إدريس (1912-1978م) Hady Roger Idris كانت مختلفة نوعا ما.[6]

من خلال تتبع علاوة عمارة لكرنولوجيا الكتابات الفرنسية حول موضوع الهلالية، يصف الأفكار التي قدّمها إرنست مارسيه في كتابه الصادر سنة 1875 "تاريخ استقرار العرب بإفريقيا الساحلية" بالعنصرية، وهي من أقدم

---

[1]) فاليرين: المرجع السابق، ج1، ص250-251.

[2]) جورج مارسيه: المرجع السابق، ص234.

[3]) نفسه، ص ص239-242.

[4]) Emile Félix Gautier: Op. cit, p409-416.

[5]) هذه الصورة تعكسها أيضا عديد المصادر الجغرافية كالمقدسي (القرن 04هـ/10م) مثلا، الذي أشار للوضع الاقتصادي المزدهر في مختلف جهات المغرب الأوسط، ويقدم خريطة اقتصادية متنوعة النشاطات والمنتوجات والتجارات، معدّدا الإمكانيات والثروات التي يتمتع بها هذا الإقليم. وبالتالي فهو يعكس حالة الرخاء الاقتصادي للمنطقة قبل وفود الهلاليين؛ المقدسي: المصدر السابق، ص227-229.

[6]) Gilbert Meynier: Op.cit, p63.

الإشارات في الكتابات الاستعمارية التي تحمّل العرب مسؤولية انحطاط المغرب الإسلامي، وهو الذي عزز بحوثه في هذا الاتجاه بإصدار: "قلعة بني حماد" سنة 1888، وتوالت بعده جهود الباحثين الذين حاولوا توظيف تاريخ المغرب الوسيط في قالب إيديولوجي كجورج مارسي الذي حضّر أطروحة دكتوراه حول: "العرب في بلاد البربر"[1] وإميل فليكس غوتييه أحد رواد الاتجاه الكولونيالي العلمي، صاحب كتاب "أسلمة إفريقيا الشمالية ... القرون المظلمة للمغرب"، وأدرج "لويس هلفن" (1880-1950م) Louis Halphen الهلاليين ضمن الحركات المحطمة لحضارات العالم في كتابه "الشعوب المتبربرة"، ورغم أن شارل أندري جوليان عرف بمعاداته للنزعة الاستعمارية إلا أنه اعتبر في كتابه "تاريخ إفريقيا الشمالية" هجرة الهلاليين أهم حدث مأساوي في العصور الوسطى، كما أن لوسيان غولفان (1908-2002م) Lucien Golvin وروجي لوتورنو (1907-1971م) Roger Le Tourneau وغاستون وايت (1887-1971م) Gaston Wiet أجمعوا على الأثر السلبي للهلاليين على اقتصاد المغرب الإسلامي.[2] ووصف ألفرد بل (1873-1945) Alfred Bel الهلاليين بـ "الأوزاع من البدو" الذين نشروا الخراب في طريقهم، مبررا حكمه باستناده على مصادر إسلامية عاصرت الغزو الهلالي.[3]

بدوره، عنون روجي إدريس الباب الرابع من دراسته حول الدولة الصنهاجية في جزئها الأول والذي تناول فيه الغزو الهلالي بـ "الكارثة"، وهي الدراسة التي أشرف عليها روبار برنشفيك، حيث يعتبر هذا الحدث كارثة سياسية واقتصادية لم يسبق لها مثيل، أدت إلى "نكبة الأمير الناكث للعهد".[4] ويبرر اعتباره للغزوة الهلالية بأنها "كارثة" لكون المصادر الإسلامية تتفق على ذلك: ابن خلدون، التجاني، ابن عذارى، ابن الأثير، النويري، وحتى المعاصرين لهذا الحدث يقدمون نفس التصور: ابن بسام، ابن رشيق، ابن شرف، أبو الصلت، ابن شداد ...[5]

وفي مقاله[6] الذي عقّب فيه على نقد "بونسي" (1912-1980م) Jean Poncet لما حمّله للعرب من مسؤولية في كارثة إفريقية، يعّبر روجي إدريس عن معارضته للاستنتاج الذي خلص إليه بونسي والذي ينفي مسؤولية الغزاة عن الكارثة بحجة أن إفريقية الزيرية كانت تعاني جملة من الصعوبات والاضطرابات، والتي يتساءل عن السبيل لإثباتها وتحديدا لإثبات دورها المهم في ما آل إليه الوضع في إفريقية.

1) هذه الأطروحة السابقة لأطروحة غوتييه، بمثابة منهل للكثير من الدراسات والأعمال التاريخية اللاحقة، رغم أنها في حقيقتها كامنة ومتضمنة في كتاب كاريط Carret: بحوث في أصول وهجرات القبائل الرئيسية بإفريقيا الشمالية، الذي صدر سنة 1853، ينظر: محمد الشريف: المرجع السابق، ص402.

2) علاوة عمارة: الهجرة الهلالية وإشكالية انحطاط حضارة المغرب الإسلامي الوسيط، المرجع السابق، ص12-14.

3) إيناس عكه: المرجع السابق، ص74.

4) روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص245؛ Hady Roger Idris: L'invasion hilālienne, Op.cit, p362.

5) Roger Idris: De la réalité de la catastrophe hilâlienne, Op.cit, p390.

6) Ibid, p392.

ومع ذلك، ظل بونسي مصرا على أن إدريس لا يريد أن يتعرض للمصادر بالنقد، وينفي أن يكون الهلاليون قد قاموا بمجازر خلال استيلائهم على إفريقية، أما ما حدث في حيدران سنة 443هـ/1052م فهو "تدافع" بين قوتين، ويحاول بونسي أن يفكك أطروحة إدريس من داخلها، حينما يتتبع المؤشرات والمعطيات التي أوردها والتي تعكس عدم مسؤولية العرب الكاملة في خراب إفريقية، وهنا ينبه إلى ضرورة طرح جملة من الأسئلة كتخلي الزيريين على القيروان دون قتال وهي التي ظلت صامدة خلال أزمات داخلية وخارجية، ولماذا سعى المعز للتحالف مع الهلاليين؟ ليعود ويذكّر برفضه لاستخدام غوتييه نصوص ابن خلدون لتبرير نظرية عنصرية للتاريخ المغاربي.[1]

كانت مجلة حوليات الشهيرة –التي تأسست سنة 1929 من قبل مارك بلوخ (1886–1944م) Marc Bloch ولوسيان فيفر (1878–1956م) Lucien Febvre من جامعة ستراسبورغ Strasbourg– مسرحا لتبادل وجهات النظر بين إدريس وبونسي، وهو ما يثبت أن ما يسمى بـ "الكارثة الهلالية" أحدثت نقاشا واسعا بين المؤرخين الفرنسيين، وقد سمحت التقاليد العلمية هناك ووجود مجلات منفتحة على الأثر الذي تعكسه المقالات والأطروحات المقدمة ضمنها بتفاعل المؤرخين وتناول هذه المواضيع في أطرها الأكاديمية.

على الخط، دخل كلود كاهن (1909–1991م) Claude Cahen ضمن هذا النقاش، معلنا اتفاقه مع بونسي في أن التراجع الاقتصادي الذي شهدته إفريقية لم يحدث فجأة ولم يكن ذلك بسبب الهجرة الهلالية فقط، إنما بدأ ذلك منذ فترة، خاصة مع نقل الفاطميين لمركز الإمبراطورية من إفريقية إلى مصر، مع ما رافقه من نزوح بشري ومالي كبير.[2] يقرّ كلود كاهن أن التراجع الاقتصادي والتفكك السياسي في بلاد المغرب بعد الهجرة الهلالية لا يمكن إنكاره، لكنه يتساءل عن مدى مسؤولية البدو في هذا التدهور، ويشير إلى أن الإجابة على الإشكالية التي تطرحها هذه الرؤية تتطلب دراسة كرونولوجية مقارنة دقيقة، وليس فقط الارتكاز على إشارات عامة.[3] وهو نفس الطرح الذي يتبناه إيف لاكوست الذي يعتبر من أشد المنتقدين لمؤرخي المدرسة الاستعمارية، مطلقا عليهم توصيف: "أصحاب النظريات الاحتيالية"، حيث حاول دحض الكثير من الاتهامات –كما يسميها– التي ألصقت بالعرب البدو،[4] وتجاوز مستوى التبرئة للهلاليين بالتركيز على الأدوار الإيجابية لهم.

نبّه الجغرافي "جون بونسي" الذي ينتمي إلى مدرسة الحوليات الفرنسية، إلى أن النصوص التي تتهم القبائل العربية متأخرة وبعيدة عن الحدث (يقصد ابن خلدون) رغم وجود فتاوى فقهاء القيروان التي أشارت لهذه الاضطرابات، وحاول العودة إلى تتبع ما يشير إلى بوادر الأزمة الاقتصادية منذ الفترة الزيرية بالاستناد إلى أعمال "غواتين" Goutéen التي أظهرت أزمة التجارة بين مصر وإفريقية ابتداءً من النصف الأول من القرن الحادي عشر بسبب التنافس بين الفاطميين في مصر والحماديين والمرابطين في المغرب واتجاه السُّلطة الحمادية إلى الانفاق

---

[1]) Jean Poncet: Encore à propos des hilaliens : la «mise au point» de R. Idris", Annales, 1968, 23 année- N.3, p660-661.

[2]) Claude Cahen: Quelques Mots Sur Les Hilaliens, Op.cit, p130-131.

[3]) Claude Cahen: Nomades et sédentaires, Op. cit, p423-437.

[4]) Yves Lacoste: Op. cit.

غير المنتج وإهمال أعمال الرّي؛ وفي المقابل اعتبر النصوص التي تمتدح ازدهار إفريقية الزيرية عمل غير موثوق لحاشية البلاط. مؤكدا على أن الأزمة لم تمس إلا الجهات الهشّة طبيعيا وأن باقي إفريقية كانت في حالة جيدة خلال العهد الحفصي.[1] لذلك فهو يرفض تحميل العرب لوحدهم خراب القيروان وإفريقية، مشيرا إلى أن تميم بدوره ساهم في تخريب بعض جهات إفريقية، عندما حاصر قابس في سنة 473-474هـ/1081-1082م، ونفس الأمر مع غابة صفاقس حينما أمر بحرقها وتدمير محيط المدينة سنة 492-493هـ/1099-1100م.[2]

اقتصر بونسي في تشريحه للوضع الاقتصادي وعلاقته بالدخول الهلالي على إفريقية فقط، رغم أن القبائل الهلالية تواجدت في كامل بلاد المغرب، ومن جهة ثانية فإنه يعود إلى فترة متأخرة عن أزمة منتصف القرن الحادي عشر الميلادي وتحديدا إلى الفترة الحفصية ليبين أن الاضطراب الواقع لم يؤثر في كامل المنطقة واقتصر على المناطق التي تميزت بكونها على أهبة الاستعداد للتأزم. وهو من خلال هذا التفسير يغفل التحولات التي حدثت في المنطقة والتي أثّرت على الجانب الاقتصادي وعلى السلطة وعلى الهلاليين أنفسهم من خلال بداية اندماجهم في الحياة الاقتصادية ببلاد المغرب.

مقارنة حجم اهتمام ومنجز المدرسة الكولونيالية بمختلف اتجاهاتها ومراحلها (الإثنوغرافيا العسكرية، الإثنوغرافيا المدنية، الأنثروبولوجيا التكتيكية، الإثنولوجيا المتراجعة، ما بعد الذكرى المئوية)، بما قدّمته مدرسة الحوليات الفرنسية حول موضوع الأثر الهلالي في البداية، يشير إلى أن هذه الأخيرة لم تنافس طرح المدرسة الاستعمارية، نظرا لأن المغرب الأوسط لم يكن مجالا لاهتماماتها البحثية، رغم أن دراسات منتسبيها قدّمت إضافات مهمة عمّقت البحث في نسق القبيلة ووسعت دائرة المعالجة –انطلاقا من الموروث الكولونيالي– لمسائل التخريب والتعريب والاستقرار والبداوة.[3]

كمحصّلة لعرض الأسطوغرافيا الفرنسية مع محطات نقدية من خلال دراسات بعض الباحثين، يكون السؤال المطروح: هل لا يزال النقاش العلمي مفتوحا ضمن هذا الملف؟. وكمحاولة للإجابة وبعد أن يستعرض باسكال بوريسي Pascal Buresi ومهدي غويرݣات Mehdi Ghouirgate[4] الجدل التأريخي الذي وقع بين المؤرخين الفرنسيين، يشيران إلى أن هذا النقاش كان خلال فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر (1830-1962)، حيث برزت محاولات التحليلات العرقية (البربر – العرب) لصالح الرؤية السياسية، لذلك فإن جلبرت مينيي يعتقد

[1]) فاليرين: المرجع السابق، ج1، ص252-253.

[2]) Jean Poncet: le mythe de la "catastrophe" hilalienne, Op. cit, p1117.

ظاهرة التخريب لم تكن دخيلة على المنطقة، فقد كانت ممارسة حتى من طرف السلطة، حينما تقوم بحملات تخريبية على بعض المدن في إطار الصراعات السياسية والمذهبية؛ ومن ذلك تخريب وارجلان وتاهرت؛ ولتتبع حقيقية خراب المدن في المغرب الأوسط يمكن العودة إلى: البشير بوقاعدة: خراب المدن بالمغرب الأوسط والأدنى، المرجع السابق.

[3]) إيناس عكه: المرجع السابق، ص ص94-99.

[4]) Pascal Buresi, Mehdi Ghouirgate: Le Maghreb XIe-XVe siècle, Armand Colin, Paris, 2013, p51.

أن مؤرخ اليوم قد تحرر من النظرة الاستعمارية، لذلك فهو يرى أن سؤال: هل الهجرة الهلالية كانت سلبية أم إيجابية، غير مطروح على المستوى الاجتماعي، لأن القبائل أصبحت تعيش في مجال واحد، وأن المسألة بقيت مثارة من طرف الإيديولوجيين خاصة.[1]

إن ربط باسكال ومهدي للجدل التاريخي بالثنائية العرقية في توظيفاتها السياسية، لا يُبقي الملف الهلالي في ميدان البحث العلمي لوحده، بل سيستمر جرّه إلى الملعب السياسي كلما استدعت ضرورات التوظيف الإيديولوجي والصراع السياسي وحتى الثقافي واللغوي أحيانا.

ب. الكتابات الأوربية غير الفرنسية:

لم يستقطب موضوع الهلالية الأقلام التاريخية غير الفرنسية بتلك الحدة والانخراط الواسع، ومع أن الدراسات الاستشراقية الألمانية والأنجلوسكسونية كانت أقل كمّا، إلا أن علاوة عمارة يشيد بأحكامها المعتدلة التي اتخذتها بخصوص الهلاليين مقارنة بمخرجات المدرسة الفرنسية.[2] ونقلا عن ذات الباحث، فإن المستشرق الإنجليزي ميكائيل برات Michael Brett يعدّ من بين الباحثين الذين اعتبروا ما تم الترويج له بخصوص مسؤولية العرب في خراب المغرب الاسلامي بمثابة الأسطورة التي وُظّفت لخدمة الأغراض الاستعمارية.[3]

ومن الباحثين الألمان الذين كتبوا عن الهلاليين مؤخرا: جيرالد سوشتر Gerald Schuster،[4] وعمله في أصله عبارة عن أطروحة دكتوراه قدمها في جامعة توبنغن Tübingen تحت إشراف: هاينز هالم Heinz Halm، وقد رفض جيرالد -الذي يبدو متأثرا بأطروحة بونسي- استخدام مصطلح الغزو للتعبير عن وصول الهلاليين إلى بلاد المغرب، وينفي عن المصادر توصيفها للهجرة بالكارثة، كما يؤكد على أنها لم تشر إلى أن "السير غربا" كان ذا أهمية استثنائية، فباستثناء ابن خلدون والنويري وابن الأثير لم يخصص غيرهم فصولا مستقلة عن وصول الهلاليين، وهو ما يؤكد أنهم لم يلمسوا في ذلك نقطة تحول للبلاد.

الدراسات الإسبانية حول الموضوع جاءت متأخرة مقارنة بالفرنسية، ومن الباحثين الذين اقتربوا من الموضوع "خوسي راميراز دل ريو" José Ramírez del Río الذي لا ينكر التغييرات العميقة التي أحدثها العرب في بلاد المغرب، لكنه لا يتفق مع الفكرة التي تقول بأن الهجرة الهلالية هي سبب الانحطاط الذي شهدته المنطقة.[5] غير أنه يعود ويؤكد على أن عواقب الحضور الهلالي كانت وخيمة وامتدت حتى إلى فترة ما بعد الموحدين، لأنهم أصبحوا عاملا من عوامل الاضطراب، وأصبحت فترات استقرار السلطة المركزية وحدها الكفيلة

---

[1]) Gilbert Meynier, Op.cit, p63-64.

[2]) علاوة عمارة: الهجرة الهلالية وإشكالية انحطاط حضارة المغرب الإسلامي الوسيط، المرجع السابق، ص15.

[3]) نفسه، ص27.

[4]) Gerald Schuster: Op. cit, p52.

[5]) José Ramírez del Río, J: "Documentos sobre el papel de los árabes hilalíes en el al-Andalus almohade: traducción y análisis", al-Qanṭara, 35-2, 2014, p362.

بضمان الدفاع على المناطق الزراعية في بلاد المغرب ضد هجماتهم، وهو ما من شأنه أن ينعكس على مستوى الرخاء الاقتصادي.[1]

الباحثة الإسبانية المختصة في الدراسات العربية والإسلامية بجامعة مورسيا Murcia "فيكتوريا أقيلار سيباستيان" Victoria Aguilar Sebastián[2] بدورها تعتقد أن التركيز على موضوعة الخراب والكارثة فيه شيء من المبالغة، وإن كانت لا تنكر الأثر السلبي الذي أحدثه الهلاليون في المجال الاقتصادي، إلا أنها تعود إلى النصوص الجغرافية التي أشارت إلى الضرر الهلالي وترتكز على بعض الإشارات المتعلقة بمعاملة البدو للمستقرين وازدهار الزراعة والتجارة ببعض جهات المغرب الإسلامي لتقدم بعض المؤشرات التاريخية التي تقوّض خطاب الكارثة والخراب من داخله.

اعتبر موضوع الهلالية وأثرهم الاقتصادي والسياسي في بعض الفترات إشكالية متداولة، لما أثاره من نقاش تاريخي مهم، ولعل مخرجاته المرحلية دفعت الباحثين من غير الفرنسيين إلى الانخراط في هذا النقاش وتقديم وجهات نظرهم، من منطلق محايد إلى حد ما، ومع كل ما يقال حول الكتابات الفرنسية، إلا أنها لم تكن كلها متأثرة بالمدرسة الكولونيالية، بل الكثير من الاجتهادات أسهمت في تعميق المعرفة التاريخية المتعلقة بهذا الموضوع.

مما سبق عرضه، يتبين أن الضرر الهلالي على بلاد المغرب عامة وعلى المغرب الأوسط بصفة خاصة، قد كان مؤثرا، خاصة ذلك المتزامن ولحظة الولوج والتسلل، ويمكن إبراز الضرر على مستويين هما:

- على النمط البدوي، الذي كان مرتبطا بقبيلة زناتة بصفة أكبر، حيث أدى وفود الهلاليين إلى حيازتهم المجالات الشرقية من المغرب الأوسط من الزناتيين، والذين بدأوا بدورهم حينها في العودة إليها بعد أن اضطروا لمغادرتها تحت الضغط الفاطمي عندما اتجهوا غربا، وبالتالي تأثر بدو المغرب الأوسط بالبدو الهلاليين الوافدين.

- النمط المستقر (الزراعي والحضري)، حيث أدى التأثير الاقتصادي الهلالي إلى تحول المزارع والبساتين والحقول إلى مراعي، مما دفع إلى تدهور أوضاع الفلاحين والمدن والنشاط الحرفي والتجاري بها، فضلا عن انعكاسه على أمن الطرق وحيويتها، وتقلص مظاهر التحضر بالمنطقة بسبب الخراب والهجران الذي لحق ببعض الحواضر.

---

[1]) José Ramírez del Río, J: Op.cit, p370.

[2]) Victoria Aguilar Sebastián: Tribus árabes en el Magreb en época almohade, Op. cit, p85-87.

ثانيا: الوعاء الديمغرافي الهلالي وخلفية التوزيع بسهول الحبوب ومناطق الرعي

1- حجم الكتلة البشرية الوافدة والمعادلة الاقتصادية

إن الدافع وراء محاولتنا لتقديم قراءة في عدد الهلاليين الوافدين إلى بلاد المغرب عامة، ليس مردّه الانخراط في نقاش تاريخي مرتبط بمسألة القوة والعدد، بقدر ما هو خاضع لمعادلة التأثير الاقتصادي، ولا بد أن الخوض في إحدى هوامش الديمغرافيا التاريخية[1] يدفع بنا إلى تركيز الجهود بمحاولة استغلال الإحصائيات والمصادر باختلاف طبيعتها، وفي مثل دراستنا التي تنتمي إلى فترة العصور الوسطى وتحديدا بين القرنين 05 و07هـ 11 و13م، يمكن أن ندرجها ضمن التصنيف الذي أورده كل من غوييليام Pierre Guillaume وبوسو Jean-Pierre Poussou[2] والذي يجعل هذه الفترة التي تتميز بغياب الإحصائيات الدقيقة أو عدم تكاملها وجزئيتها ومحليتها، -ما يعطّل الوصول إلى معرفة ديمغرافية حقيقية- ضمن مرحلة ما قبل الديمغرافيا، ومع ذلك يمكن العمل جزئيا على جوانب ديمغرافية باستغلال ما توفر من إحصائيات وإشارات.

لا تقدّم المصادر التي أرّخت للانتشار والاستقرار الهلالي في بلاد المغرب إحصائيات دقيقة حول تعداد العرب الهلالية، إذ تحدثت عن ذلك بعبارات إنشائية يطبعها في الغالب توجيه للقارئ على أن أعدادهم كانت غفيرة، والمعطيات المتاحة بالنسبة لنا بدورها يمكن تقسيمها زمنيا، بين تلك التي تشير إلى حجم كتلتهم الديمغرافية خلال الانتقال، وبعد الانتقال، ولأن الصورة تبقى غامضة فقد حاولنا تتبع الإشارات المرتبطة أيضا بتعدادهم من خلال ما ذكرته المصادر بمناسبة مواجهتهم مع الموحدين ونقل أعداد منهم إلى الأندلس، فضلا عن أولئك الذين ظلوا في مصر أو انتقلوا جنوبا نحو بلاد السودان.

تتأتى أهمية معرفة حجم الكتلة البشرية الوافدة إلى المغرب الإسلامي من خلال ربطها بحجم التأثير الاقتصادي على المنطقة، فكلما كان العدد كبيرا، كان التأثير أعمق. وينبغي الأخذ في الحسبان عند محاولة تقدير عدد الهلاليين، تعداد أولئك الذين استمروا في مناطقهم سواء التقليدية أو في مصر، فرغم أن المقريزي يقر بأن السليميين لم يبق منهم في الحجاز، وأنهم انتقلوا إلى مصر وإفريقية: "ثم تحولوا إلى مصر وإفريقية ولم يبق لهم عدد ولا بقية ببلادهم وصار لهم بإفريقية عدد عظيم".[3] لكن هذا لا ينفي بقاء جزء منهم في مصر بعد الانتقال غربا

---

[1]) على الرغم من أن الديمغرافيا التاريخية تعتني بدراسة ديمغرافية الماضي الإنساني، إلا أن المؤرخين يتنازلون عن دراسة التركيبة السكانية فيها، بسبب غياب الإحصائيات والمعلومات، فيكون المؤرخ ملزما بتوظيف ما يحوزه من معطيات على أكمل وجه؛ محمد حبيدة: الديمغرافيا التاريخية من الإجرائية الكمية إلى المقاربة الكيفية، مجلة كنانيش، منشورات كلية الآداب، وجدة، ع1، 1999، ص ص11-16؛ وتعتبر مجلة كنانيش أهم مجلة عربية مهتمة بالديمغرافية التاريخية، صدر العدد الأول منها في سنة 1999، تصدر عن مجموعة البحث في الديمغرافيا التاريخية جامعة محمد الأول بوجدة، ويرأس تحريرها مصطفى نشاط، لكنها توقفت عن الصدور سنة 2002.

[2]) Pierre Guillaume Jean-Pierre Poussou coaut: Op.cit, p36-42.

[3]) المقريزي: البيان والإعراب، ص66.

وحتى في الحجاز، إذ تؤكد بعض الإشارات المصدرية وجود أعداد مهمة من العرب بمصر، والبعض الآخر تم إجلاؤه إلى برقة لاحقا.[1] وهو ما يؤكد أن ما بقي كان يشكل عددا مهما وبالتالي قوة ضغط لا يستهان بها.

يصف إبراهيم إسحاق[2] حديث المؤرخين العرب عن الجلاء الكلي لقبائل هلال وسليم من مواطنها الأولى شكلا من أشكال المغالاة، نظرا لاستمرار تواجد بعضهم في ديارهم ومضاربهم، ودعما لما ذهب إليه، يُقدّم بعض الإشارات المصدرية التي تؤكد تواصل تواجد مجموعات منهم –وإن بشكل محدود- في الحجاز.

ولئن كانت أغلب الأعداد التي غادرت صعيد مصر قد انتقلت إلى بلاد المغرب، فإن بعضها اتجه نحو بلاد السودان، ومنهم: جزام وطيء وجهينة من عرب الشمال، وكنانة وفزازة وغث وربيعة وجوزان وهلال.[3] وعليه، يكون البحث في خلفيات التوجه نحو الجهات الجنوبية الغربية ضروريا، لما قد يتيحه من نتائج تتعلق بأسباب الهجرة الهلالية عامة ومساراتها، فضلا عن حجم الكتلة البشرية التي اتخذت المسالك والوجهة الجنوبية.

وفي المقابل، لا يستبعد بعض الباحثين[4] قيام بعض القبائل الهلالية بهجرة عكسية في حركة تشريق (عودة على الأعقاب) من بلاد المغرب إلى مصر عن الطريق الساحلي، وهم الذين يطلق عليهم: "العرب المغاربة"، حيث اتجهوا شرقا بسبب أزمات متباعدة بعد القرن 05هـ/ 11م، مثلما حدث كذلك مع قبائل السعادى وأولاد علي الذين توجهوا من ليبيا إلى مصر، ناهيك عن دخول مجموعات هلالية إلى بلاد السودان انطلاقا من بلاد المغرب.

---

[1]) يشير النويري إلى أن سنة 469هـ/1077م، شهدت خروج جموع من قيس وسليم وفزارة على أمير الجيش الفاطمي، فقاتلهم وانتصر عليهم وطردهم إلى برقة، وفي نفس السنة انتصر على جهينة والجعافرة والثعالب وقتل منهم الكثير ونقل أموالهم إلى المستنصر؛ المصدر السابق، ج28، ص152. وما يؤكد أن عددا مهما من القبائل العربية ظلت بمصر، هو إشارة المصادر المصرية إلى مشاركتهم سنة 464هـ/1072م بجهات القاهرة في حركات التمرد؛ ابن ميسر: المصدر السابق، ص38، وسنة 469هـ/1077م، حينما قامت "جماعة كثيرة" من عرب جهينة والثعالبة والجعافرة لقتال أمير الجيوش بدر بمدينة طوخ العليا بصعيد مصر: "فأفنى أكثرهم قتلا، وغرق من فرّ منهم بحيث لم ينج منهم إلا يسير"؛ نفسه، ص43؛ كما يشير إلى حادثة مماثلة سنة 488هـ/1095م؛ نفسه، ص62.

والهلاليون الذين بقوا في الصعيد لا تزال ذريتهم إلى اليوم، حيث استقروا وانتقلوا من طور البداوة والتنقل إلى الاستقرار وفلح وزرع الأرض والمتاجرة بغلاتها، مع احتفاظهم بالفروسية وركوب الخيل وما يقع بينهم من فتن ومواجهات؛ عبد الحميد يونس: المرجع السابق، ص70. وانتقل بعضهم جنوبا إلى سودان وادي النيل ضمن حملة السلطان المملوكي المنصور قلاوون (ح678-689هـ/1279-1290م) سنة 686هـ/1287م؛ إسماعيل حامد إسماعيل علي: بنو هلال وأثرهم الحضاري في سودان وادي النيل منذ القرن السابع وحتى القرن العاشر هجري، قراءات إفريقية، الرياض، 2021، ص61.

[2]) المرجع السابق، ص47-84.

[3]) أخذ عرب الصعيد ثلاثة طرق نحو بلاد السودان: **الأول**: من أسوان من صعيد مصر إلى بلاد النوبة في شمال السودان، **الثاني**: من مصر إلى برقة، ثم طرابلس وتونس والمغرب وهو الطريق الذي سلكه الهلاليون بقيادة "أحمد معقور الهلالي" من تونس عابرين الصحراء الكبرى نحو دارمَبَا ودارفور، والطريق **الثالث**: الذي يبدأ من أسيوط مرورا بواحات مصر في الصحراء الغربية لتعبر الصحراء الكبرى نحو بحيرة تشاد؛ محمد يوسف محمد: تاريخ الهجرات العربية إلى إفريقيا جنوب الصحراء – تشاد نموذجا، دورية كان التاريخية، السنة 11، ع42، ديسمبر 2018، ص35؛ ويرجع دخول الهلاليين إلى بلاد السودان إلى وقت متأخر من القرن 03هـ/09م واستمر توافدهم في فترات لاحقة؛ إسحاق إبراهيم: المرجع السابق، ص65؛ وتعتبر الدراسة التي قدّمها إبراهيم إسحاق واحدة من أهم الدراسات التي تتبعت الحضور الهلالي في بلاد السودان.

[4]) إبراهيم إسحاق: نفسه، ص107-108.

لم تذكر المصادر عددا محددا للعناصر الهلالية الجائزة إلى بلاد المغرب، ويشير الطابع الإنشائي المعبِّر عنها إلى الكثرة، على شاكلة: الجحافل،[1] سيل العرم،[2] الجيش،[3] الخلق العظيم،[4] الجراد المنتشر،[5] الخلق الكثير،[6] وتشير المصادر التاريخية[7] لبعض الملامح الديمغرافية للقبائل الهلالية بعد الانتقال،[8] خاصة بعد عقود من وجودها بالمنطقة، غير أن الإشارات التي وردت بهذا الخصوص، لا تكاد تخرج عن دائرة النصوص الموحدية، التي تنزع غالبا إلى تضخيم عدد المحاربين الهلاليين لتضفي على انتصارها بعدا بطوليا، خاصة في معركة سطيف،[9] التي نشبت مع قبائل وليست مع كيان سياسي، لذلك لا تتردد فيكتوريا أقيلار Victoria Aguilar Sebastián[10] في التعبير عن اعتقادها بالمبالغة في الرسائل الموحدية بغية تضخيم الانتصار العسكري المحقق على العرب.

---

1) السجلات المستنصرية، ص44.

2) ابن بسام: المصدر السابق، ق4، مج2، ص614؛ التجاني: المصدر السابق، ص18.

3) ابن ميسر: المصدر السابق، ص17.

4) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج3، ص72.

5) ابن خلدون: العبر، ج6، ص20.

6) ابن الشماع: المصدر السابق، ص137؛ أما المصادر التي ذكرت أعدادا وإحصائيات تقريبية فقط كانت جزئية متعلقة بالمحاربين والفرسان غالبا؛ ينظر مثلا: ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص317، ص320؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص21، 211؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج8، ص296؛ التجاني: المصدر السابق، ص20-21؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص215؛ الزهري: المصدر السابق، ص112؛ ابن بسام: المصدر السابق، ق4، مج2، ص614.

7) ينظر مثلا: المقريزي: البيان والإعراب، ص66؛ المازوني: المصدر السابق، ج1، ص309؛ الوزان: المصدر السابق، ج1، ص50-56.

8) بعض مؤرخي الديمغرافيا يذهبون إلى أن عدد سكان شمال إفريقيا بما في ذلك مصر بين ثمانية (08) وتسعة (09) ملايين نسمة، ويمكن تقدير سكان المغرب لوحده خلال القرن 10هـ/16م بحوالي 03.5 مليون نسمة، لكن الجزم بهذه الأرقام صعب في غياب قواعد وثائقية دقيقة. وإن كان العبدري في نهاية القرن 07هـ/13م وابن خلدون فيما بعد يشيران إلى انخفاض ديمغرافي بسبب الأزمة؛ وفي المقابل، وبالجهة الشمالية من البحر المتوسط عرف عدد سكان أوروبا في الريف والحضر تزايدا كبيرا لكنه سجل تراجعا بعد وصول الطاعون الأسود (748هـ-1347م/753هـ-1352م)، ليعود التزايد السكاني بصفة ملحوظة ابتداءً من 854هـ/1450م؛ ويمكن تأويل وصول عدد كبير من الرحل إلى بلاد المغرب على أنه سبب ونتيجة للانخفاض الديمغرافي في نفس الوقت. علما أن المغرب عرف في القرن 05هـ/11م وصول هجرتين من الرحل: هجرة الهلاليين من الشرق، وهجرة المرابطين من الجنوب الغربي، هذا التزامن يدعو إلى الاعتقاد أن المغرب عرف فترة عجز بشري في هذه الفترة سهّلت وقد تكون تسببت في نشاط حركة الهجرة نحوه؛ فاليرين: المرجع السابق، ج1، ص ص244-646.

9) ينظر مثلا مما جاء في هذه النصوص: "... إلى أن انتهوا ما لا ينتهيه العدّ خيلا ورجلا، وعمّروا أنجاد تلك الأرض وأغوارها وعرا وسهلا، فما استطاعتهم حملا، ولا وسعت أن تكون لهم قرارا ولا أن يكون لها أهلا"؛ مجموع رسائل موحدية، الرسالة 9، ص29-30؛ "حتى ظنت أن الحتوف تهابها، وأمر الله لا يطرقها ولا ينتابها، اغترارا بعددها وعديدها..."؛ نفسه، الرسالة 9، ج1، ص81.

10) Victoria Aguilar Sebastián: Tribus árabes en el Magreb en época almohade, Op. cit, p107.

قدّمت فيكتوريا أطروحتها للدكتوراه سنة 2002، في جامعة كومبلتنسي Universidad Complutense بمدريد، تحت إشراف "مرسيدس غارسيا أرينال" (CSIC) Mercedes García-Arenal، الحائزة سنة 2019 على جائزة الأبحاث الوطنية في مجال العلوم الإنسانية "El Premio Nacional de Investigación" الممنوحة من وزارة العلوم والابتكار الإسبانية.

كما تتيح ذات المصادر[1] تتبع بعض الاحصائيات المتعلقة بالهلاليين الجائزين إلى الأندلس تحت سلطة الموحدين، ونعتقد أن هؤلاء في غالبهم يمكن توصيفهم على أنهم يمثلون القوة الأكثر جنوحا للمواجهة والتجند، الأمر الذي قد ينعكس على تركيبة الهلاليين الذين ظلوا مستقرين ببلاد المغرب، من حيث كون الهجرة نحو الأندلس فرصة لتحييد هؤلاء، ومنه الحد من عمليات الغزو والنهب.

من الضروري الإشارة إلى أن وجهة القبائل الهلالية التي نقلت من إفريقية وأجزاء من المغرب الأوسط غربا، كانت نحو الأندلس والمغرب الأقصى، في إطار استراتيجية الموحدين لتجنيد الهلاليين للجهاد ولتفكيك مجموعاتهم، ووضعها تحت المراقبة، من خلال تقريبهم من مركز السلطة ومحاولة تحقيق الإنعاش الاقتصادي في بعض جهات المغرب الأقصى، كبلاد الهبط وتامسنا وتادلا.[2]

انطلاقا من المعطيات المصدرية المتاحة حول الهلاليين الذين نُقلوا إلى بلاد الأندلس، خاصة في الفترة الموحدية، يتبيّن أن الأعداد الجائزة كانت كثيرة، وبغض النظر إن كان استقرارها هناك طويلا أو قصير الأمد، فإن زحزحتهم من إفريقية ومجالات المغرب الأوسط تعتبر في حد ذاتها خلخلة للخريطة الديمغرافية بالمنطقة، مما أدى إلى تقليص عددهم وحجم تأثيرهم موازاة مع توجه بعضهم نحو حياة الاستقرار.

أمام تكتّم المصادر رقما، تعسّر على الباحثين تقدير التوصيفات والعبارات الانشائية، ومع ذلك، اجتهد بعضهم في تقديم أعداد حول الهلاليين الوافدين إلى بلاد المغرب، وقد تراوحت التقديرات في مجملها ما بين خمسين ألف (50.000) إلى مليون (1.000.000) نسمة.[3]

ومع ذلك، يبقى من الصعب تقديم عدد معين للهلاليين الوافدين إلى بلاد المغرب، وذلك نظرا للأسباب الآتية:

* وصولهم إلى بلاد المغرب في شكل مجموعات وموجات متفرقة.

---

[1]) ينظر مثلا: ابن الأثير: المصدر السابق، ج9، ص431-432؛ ابن صاحب الصلاة: المصدر السابق، ص90، ص361، ص152، مجموع رسائل موحدية، الرسالة 26، ص ص154-156.

[2]) مع ذلك حاولت بعض القبائل تغيير مواقعها التي فرضها عليها الموحدون، ومع الأضرار التي رافقت ذلك، كانت السلطة الموحدية تتدخل لإعادة النظام والتوطين؛ رسائل موحدية، م ج، ج1، ص232؛ وقد نقل المنصور سنة 584هـ/1188م الكثير من الأثبج بعد إخماد ثورة بني غانية، "وكانت للسلطان عليهم عسكرة وجباية"؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص43.

[3]) ينظر مثلا:

Gilbert Meynier: Op.cit, p53; Yves Lacoste: Op. cit; Ernest Mercier: Op. cit, Tome 02, p17; Mohamed Meouak: Op. cit, p117; Radhi Daghfous: Les Hilaliens et le pouvoir politique en Ifrīqiya à la fin du Moyen Âge, Mélanges de l'école française de Rome, Année 2003, tome 115- N 1, pp. 493.

العلوي التقي: أصول المغاربة – القسم العربي الهلاليون بالمغربين الأدنى والأقصى، مجلة البحث العلمي، جامعة محمد الخامس – المعهد الجامعي للبحث العلمي، ع35، 1985، ص400؛ حسين مؤنس: المرجع السابق، ص168؛ بوفيل: تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير، ترجمة: الهادي أبو لقمة ومحمد عزيز، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ليبيا، ط2، 1988، ص117؛ العروي: المرجع السابق، ج2، ص94.

* عدم وجود إحصائيات تقريبية –على الأقل– ضمن المصادر التي عالجت فترة القرن الخامس للهجرة (11م).

* النصوص التي أرّخت للانتقال أو تحدثت عن الهلاليين، هي إما نصوص السلطة، التي تسعى لتضخيم عددهم، حتى تعكس رمزية الانتصار أو تبرر انتكاسة الهزيمة، أو بعض النصوص الرحلية والجغرافية التي أخذت انطباعات معينة جعلتها تنحو ذات المسار.

* عدم استقرار القبائل الهلالية في مناطق بعينها، وكثرة تحركاتهم سواء بإرادتهم أو تحت ضغط القبائل الأخرى، أو رضوخا لسياسات الدول، التي حاولت توزيعهم وفق ما يخدم مصالحها، جعل من تتبعهم في المصادر وحجم كتلتهم البشرية أمرا على غاية من الصعوبة.

يبدو أن الكتلة الديمغرافية الهلالية في موجاتها نحو بلاد المغرب عامة كانت معتبرة، إذا أخذنا بعين الاعتبار ذلك الفراغ الديمغرافي الذي عرفه المغرب الأوسط بصفة خاصة، مما انعكس على وضعية الاقتصاد في المنطقة ليس بسبب أعداد الهلاليين فحسب، لكن لطبيعتهم البدوية بالدرجة الأولى، حيث أن درجة التأثير كانت مرتبطة بهذا المعطى أيضا. وبلا شك، فإن حركة القبائل الهلالية في ربوع الغرب الإسلامي، خاصة تلك التي تدخلت السلطة الموحدية في إعادة توزيعها كان لها انعكاس على طبيعة التأثير الاقتصادي والتقليل من حجم الثقل الديمغرافي ومحاولة للتخفيف من حجم البداوة.

2- التوزيع الهلالي في المغرب الأوسط

انطلق الهلاليون غرب النيل بين (441-442هـ/1049-1050م)؛[1] ومثلما حدث اختلاف في تحديد تاريخ دقيق للانطلاق، نلاحظ ضبابية في تقدير تاريخ وصولهم إلى إفريقية.[2] ويبدو أنهم وصلوا إلى برقة سنة

1) ذكر المقريزي أن بداية توجه الهلاليين غربا كانت في سنة 441هـ/1049م؛ اتعاظ الحنفا، ج2، ص216؛ في حين يتفق عبد الحليم عويس مع التاريخ الذي ذكره ابن الأثير، من أن السنة التي زحف فيها العرب على المغرب هي 442هـ/1050م؛ عبد الحليم عويس: المرجع السابق، ص177؛ كما يذهب جلبرت مينييه إلى أن الدفعة الأولى من الهجرات الهلالية حدثت سنة 1050م؛ ينظر:

Gilbert Meynier: Op. cit, p52.

يقدّر حسين مؤنس تاريخ وصول الهلاليين إلى إفريقية بسنة 443هـ؛ المرجع السابق، ص168؛ في حين يذكر روجي إدريس أن وصول الهلاليين إلى إفريقية كان قبل ذلك، في سنة 442هـ/1050-1051م؛ المرجع السابق، ج1، ص251.

يعيدنا الغموض وصعوبة تحديد تاريخ دقيق للانتقال، إلى ذلك الاختلاف الذي حدث بين المؤرخين في تحديد عهدة الوزير التي تم خلالها التخطيط والتنفيذ لهذه العملية، وبما أن معالجتنا لهذه الاشكالية انتهت إلى أنها حدثت خلال عهدة اليازوري الذي أضيفت له الوزارة، فتوسعت بذلك صلاحياته السابقة؛ في محرم 442هـ/ ماي-جوان 1050م؛ فإنه لا يمكن الحديث عن عبور فعلي للهلاليين نحو إفريقية قبل هذا التاريخ، مع الإشارة إلى أن عملية الإصلاح والترتيبات التي صاحب عملية الانتقال أخذت هي الأخرى وقتا؛ ابن مُيسّر: المصدر السابق، ص3؛ روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص247-248؛ وبالتالي فإننا نرجح نهاية سنة 442هـ/1051م تاريخا لانطلاق القبائل الهلالية.

2) لا بد من الإقرار أن مسار الهلاليين من مصر إلى بلاد المغرب، كما مسارهم من مواطنهم الأولى إلى مصر، يكتنفه بعض الغموض، ويفتقر إلى التفاصيل التي تمكننا من تقديم ملمح دقيق عن آلياته، تنظيماته، التعداد البشري المكوّن لهذه التحركات، طبيعة المرافق الحيواني، الجانب التمويني والأمني، وغيرها من ضوابط وترتيبات انتقال كتلة بشرية عبر مسارات طويلة.

انطلاقا مما ورد في السيرة الهلالية، يجتهد محمد حسن في تحديد مسلكين اتخذهما الهلاليون لدخول المجال الإفريقي:=

443هـ/1051م،[1] فوجدوا المراعي الشاسعة غير آهلة، لأن المعز كان قد أباد ساكنتها من زناتة، فاستقروا بها،[2] وبعد استحواذهم على ما وجدوا من أموال وخيرات، كاتبوا من بقي في مصر ليلحقوا بهم،[3] واستكملوا مسيرتهم مرورا بالمدينة الحمراء وأجدابية وأسمرا وسرت، فاستقرت قبائل لهب من سُليم وأحلافها رواحة وناصرة وغمرة ببرقة، في حين اتجهت قبائل دياب وعوف وزغب وجميع بطون هلال "كالجراد المنتشر" نحو إفريقية.[4]

انتهى التوزيع العام للقبائل العربية في المغرب الإسلامي إلى انتشار سُليم في شرق إفريقية (برقة وطرابلس وضواحيها) وهلال غربها: "... فتصارعوا على البلاد، فحصل لسُليم الشرق ولهِلال الغرب".[5] وبذلك حدث اقتسام إفريقية سنة 446هـ/1054م، حيث كان لزغبة طرابلس وما يليها بعد أن حاصروها وأمعنوا فيها القتل والنهب.[6] أما مرداس بن رياح فقد ملكوا باجة وما يليها. لتظهر ملامح قسمة جديدة بعد اكتساح الهلاليين

=**الأول (صحراوي)**: من الواحات الغربية إلى الفزان، إلى غدامس، فجنوب إفريقية.

الثاني (ساحلي): من الفزان إلى السرت، ثم مصراتة، طرابلس، قابس، القيروان، زغوان، تونس.

المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي، ج1، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة تونس الأولى، 1999، ص38-39.

وبالعودة إلى التدقيقات المتعلقة بالمسار الهلالي، وبعملية حسابية تقريبية؛ إذا قدّرنا تاريخ انطلاق الهلاليين من الصعيد في نهاية سنة 442هـ (01 ذو الحجة 442هـ) مثلا، الذي يوافق 21 أفريل 1051م، وتاريخ وصولهم لحيدران ونشوب المعركة في 02 ذو الحجة 443هـ / 10 أفريل 1052م حسب تقديرات بعض الباحثين، يكون مجموع الأيام التي قطع فيها الهلاليون مسافة تزيد عن 2500 كلم، هي 355 يوم (سنة تقريبا)، بمعدل: 07 كلم يوميا. ويؤخذ بعض الاعتبار أن الأفواج الأولى من الهلاليين كانت مشكّلة من المحاربين وتتكون من مجموعات صغيرة، مما يسهّل تقدمها وتحركاتها، فضلا عن عدم وجود مقاومة منظمة من طرف السكان المحليين على طول هذا الجزء. والتقدير المقترح يبدو لنا أقرب إلى الصواب، خاصة إذا عرفنا أن الجمل بإمكانه قطع أكثر من 20 كلم خلال ست (06) ساعات من المسير في اليوم، مع أن قدرته على المسير تصل إلى خمسة عشر (15) ساعة يوميا في الحالات الاستثنائية، وهو ما يجعله يقطع مسافة تقدر بين 50 و60 كلم؛ حسن حافظي علوي: دراسات صحراوية – الماء والإبل والتجارة، دار أبي رقراق، الرباط، 2014، ص152.

[1]) حسين مؤنس: المرجع السابق، ص168.

[2]) ابن الأثير: المصدر السابق، ج8، ص296؛ ابن خلدون: العبر، ج4، ص80.

[3]) ابن الشماع: المصدر السابق، ص137.

[4]) ابن خلدون: العبر، ج6، ص20؛ يعتبر حسين مؤنس الهلاليين الأكثر إغراقا في البداوة وغلظة في معاملة الناس والإضرار بهم مقارنة بالسُّليميين؛ المرجع السابق، ص168؛ وهذه الطبيعة التي تشير إلى تمايز هذه المجموعات البدوية رغم أنها كانت تقتسم ذات المجالات ومرّت بنفس الظروف التاريخية تقريبا، تدعو إلى البحث في خلفياتها.

[5]) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص217؛ إضافة إلى القبائل المذكورة من زغبة ورياح والأثبج وقرة (وكلهم من هلال بن عامر)، لا يستبعد ابن خلدون أن يكون ضمنهم بنو عدي الذين يعتقد أنهم تلاشوا وافترقوا في القبائل، وهو الأمر الذي ينطبق على ربيعة، على أنه يعتقد أنهم من يُطلق عليهم المعقل؛ وخلال مسير الهلاليين إلى إفريقية انضمت إليهم في برقة قبيلة تُنسب إلى عبد مناف بن هلال. ومن غير الهلاليين هناك فزارة وأشجع من بطون غطفان، وجشم بن معاوية بن بكر بن هوازن وسلول ابن مرة ابن صعصعة، وعدوان بن عمر بن قيس بن عيلان. وطرود بطن من فهم بن قيس، إلا أنهم كلهم مندرجون في هلال وفي الأثبج منهم خصوصا، لمقتضى الرئاسة التي كانت عند دخولهم إفريقية في يد الأثبج وهلال، فصاروا مندرجين ضمنهم بحكم دخولهم تحت رئاستهم؛ العبر، ج6، ص23؛ ذلك أن سكنى البدو لا تستقيم دون الانخراط في عصبية ما، تدفع عنها العدوان؛ المقدمة، ص159؛ كما أن بنو بعجة، وهم بطن من بطون الهلاليين من القبائل التي استقرت في المنطقة الممتدة بين مصر وإفريقية؛ القلقشندي: نهاية الأرب، ص177. ومن القبائل المهاجرة أيضا "الحَجْر" من بطون العرب التي لم يلحقها النسّابة بقبيلة معينة، وهم مستقرون حول قابس على طريق الجريد؛ السويدي: المرجع السابق، ص100.

[6]) ابن الأثير: المصدر السابق، ج8، ص296؛ ابن خلدون: العبر، ج4، ص80؛ الوزان: المصدر السابق، ج1، ص46.

لمجالات إفريقية والمغرب الأوسط، بحيث كان لهلال (رياح، زغبة، المعقل، جشم، ترنجة، الأسيح، شدلد، الخلط، سفيان) من قابس إلى المغرب.[1]

سمح تقدم الهلاليين نحو عمق إفريقية، من اجتياح سهول القيروان، وطيلة فترة محاصرتهم لها كانوا يتّجهون خلال الشتاء جنوبا.[2] إلى غاية انتصارهم لاحقا على الزيريين في معركة حيدران سنة 443-444هـ/1052م، وقد تمت عمليات الاستيلاء على إفريقية عبر خطوات ومراحل، حيث كانت غاراتهم الأولى جريئة لكنها حذرة، إذ يضطرون للهجوم والغزو ثم التراجع، تحاشيا للمواجهات المباشرة، ومع احتكاكهم بالزيريين وتعرفهم على إفريقية وتركيبتها أصبحوا أكثر جرأة ورغبة في السيطرة والتوسع، خاصة وأن الجغرافية الطبيعية لإفريقية لم تشكل حاجزا طبيعيا أمام أطماعهم التوسعية، وكان انتقال الزيريين إلى المهدية كعاصمة بحرية إيذانا بتوسع القبائل العربية الهلالية والسليمية في السهول الداخلية.

يشير ابن خلدون إلى معالم التوزع السكاني بعد مجيئ الهلاليين، حيث اضطر البربر إلى سكن الجبال، في حين استولى العرب على البسائط والسهول، وهو الأمر الذي سيطرح إشكالا مرتبطا بالنشاط الزراعي، ويؤكد ابن

---

[1]) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص217؛ يشير عبد الحميد يونس إلى أن الاقتسام (لسليم الشرق ولهلال الغرب) لا يستقيم مع الهجرة غير النظامية، ويرجح أن هذا الترتيب قد تم بعد حدوث الهجرة بزمن؛ المرجع السابق، ص71.

[2]) البكري: المصدر السابق، ص25؛ ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص325؛ ابن خلدون: العبر، ج4، ص80؛ ابن بسام: المصدر السابق، ق4، مج2، ص614؛ التجاني: المصدر السابق، ص18؛ جورج مارسيه: المرجع السابق، ص224؛ ينظر أيضا:

Gilbert Meynier: Op. cit, p61.

أفرز استيلاء العرب على القيروان وفرار ساكنتها نحو تونس وسوسة، خريطة قبلية جديدة للمنطقة، كانت قد تشكلت ملامحها منذ 446هـ/1054م، حيث أحاطت زغبة ورياح بالقيروان، وكانت طرابلس وما يليها من نصيب زغبة، وباجة وما يليها من نصيب مرداس بن رياح، ليقتسموا البلاد مرة ثانية، فكان لهلال من تونس إلى الغرب وهم رياح وزغبة والمعقل وجشم وقرة والأثبج والخلط وسفيان؛ من خلال وثيقة تقديم شيخ العرب التي وردت ضمن مجموعة الخزانة العامة بالرباط، والتي حققها وأخرجها كل من باسكال بروسي وهشام العلاوي –وهي تخص الفترة (1224-1269م)–، يتبين أن قبيلة سفيان أو أحد فروعها على الأقل استقرت بإقليم أنفا بالمغرب الأقصى؛ ينظر:

Pascal BURESI et Hicham EL AALLAOUI: Op.cit, p367-369.

وسيطر "عابد بن أبي الغيث" على مدينة تونس، وملك "أبو مسعود" بونة صلحا، ثم استولوا على المهدية، وتوسعت سيطرتهم على كامل ضواحي إفريقية؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص22؛ وشهدت هذه المرحلة توسعات مهمة للحماديين شرقا خاصة في المناطق التي فقد المعز سلطته عليها، حيث ولّى "الناصر بن علناس" (ح 454-461هـ/1062-1088م) على تونس من ملوك القلعة: "عبد الحق بن عبد العزيز بن خراسان" سنة 451هـ/1059م، بعد أن وفدت مشيخة تونسية إلى علناس لهذا الغرض، وحاول عبد الحق كسب العرب؛ ابن خلدون: نفسه، ج6، ص211، ص217؛ غير أن بن خراسان وتحت الضغط اضطر إلى تغيير تبعيته إلى تميم؛ سعد زغلول: المرجع السابق، ج3، ص460.

وفي سنة 460هـ/1066-1067م فتح الناصر مدينة الأربس ومن معه من الأثبج، كما أخضع القيروان وأصبح واليها "ابن ميمون" تابعا له، غير أنه وبعد مغادرة الناصر لها سنة 461هـ/1067-1068م بعث إليها تميم جيشا مما أدى إلى فرار واليها؛ بورويبة: المرجع السابق، ص69؛ روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص319؛ لم تكن معركة سبيبة حدا فاصلا بين محاولات التدخل الحمادي في جهات إفريقية، حيث استمر الوضع إلى غاية آخر الأمراء الحماديين "يحيى بن العزيز" الذي وجّه بعض الحملات هناك، وكان بعضها بتحالفه مع العرب مثل غزو المهدية سنة 529 هـ/1135-1136م أو 530هـ/1136-1137م؛ بورويبة: المرجع السابق، ص94.

الخطيب القرشي التلمساني[1] ذلك، حينما يتحدث عن فرار مغراوة وبنولومة وتوجين إلى ساحل البحر بعد قدوم الهلاليين.

كان تسلل العناصر الهلالية إلى الجهات الشرقية من المغرب الأوسط سابقا لمعركة سبيبة 457هـ/1065م، لكن هذه الأخيرة فتحت شهيتهم أكثر، رغم أن الجغرافي لاكوست ينفي عن الهلاليين نية التوسع غربا، لأن هدفهم كان حركة شمال جنوب (من التل إلى حافة الصحراء) بحثا عن المراعي الموسمية لقطعانهم، ولم تكن لديهم الرغبة في الابتعاد عن أراضيهم التقليدية، وغالبا ما كانت تحركاتهم غربا بإرادة من الحكام.[2] فضلا عن اضطرارهم للحركة والبحث عن مواقع جديدة نتيجة الصراعات القبلية التي تحدث بينهم.

أدى انهزام الناصر في معركة سبيبة إلى انسياح العرب نحو المغرب الأوسط،[3] وقد تسربوا إليه عبر ثلاثة منافذ:[4]

1- الطريق الصحراوي الرابط بين برقة – قفصة ليسيطروا على الطريق الذي يربط وارجلان وجنوب الأوراس والزاب، ويشمل نفوذهم بسكرة وطبنة والمسيلة والقلعة، وهي المناطق التي تنتشر فيها زناتة.

2- ولجوا عبر المنفذ الذي يتيحه المجال الممتد بين الأطلسين التلي والصحراوي خاصة بعد معركة سبيبة، وهو المجال الذي يحتضن دولة بني حماد، حيث تقدموا من نواحي الأربس مرورا بوادي السّاحل وجبال البيبان، وقد عمل الصنهاجيون على مواجهة الهلاليين في هذه الجهات.

3- المناطق القرب ساحلية والساحلية، مثل القالة بونة وقسنطينة وجبال البابور، وهي مواطن كتامة، ولم تشر المصادر إلى مواجهات بين القبائل المحلية والهلاليين في هذه المجالات، وقد يفسّر الأمر على كون الهلاليين من أنصار الفاطميين.

إذ وبعد عجز صنهاجة عن مواجهة الهلاليين وتحقيقهم لتوسعات كبيرة في إفريقية، اجتهدت زناتة في محاولة صدهم في إفريقية والمغرب الأوسط، فقد جهّز صاحب تلمسان من بني خزر جيشا بقيادة "أبي سعدي اليفرني" ومعهم بني واسين وغيرهم، وبعد حروب بين الطرفين انهزمت زناتة وقتل اليفرني بنواحي الزاب، ما جعل الصراع بينهم يصل إلى جبل راشد. وكانت هذه الخطوة من زناتة المغرب الأوسط لتلافي نفس مصير زناتة إفريقية، لكن انتصار بني هلال على زناتة جعلهم يزيحونهم عن الزاب، أين استقر الهلاليون، حيث تركوا للحماديين المدن وأخذوا

---

[1]) المصدر السابق، ص84.

[2]) Yves Lacoste: Op. cit.

قبل موقعة سبيبة، لم ترافق عملية ولوج الهلاليين في البداية موجة تخريب كبيرة مثلما حدث في إفريقية والقيروان، خاصة وأن الأمير الحمادي بلكين بن محمد (447-454هـ/1055-1062م) استعان في بداية حربه ضد زناتة سنة 450هـ/1058-1058م، بقبيلتي الأثبج وعدي الهلاليتين وكان الانتصار حليفه، وهذه الخطوة تبين إرادة بلكين في التعامل مع الهلاليين بحيث حاول كسبهم إلى صفه من خلال استخدامهم في حروبه؛ البشير بوقاعدة: المرجع السابق، ص199؛ بورويبة: المرجع السابق، ص55؛ ويعتقد عبد الحليم عويس أن وجود القبائل العربية في مسرح الأحداث بالمغربين الأوسط والأدنى امتص قدرا كبيرا من طاقة الصنهاجيين، ولولا هذه القبائل العربية لقُضي على الوجود الزناتي بالمغرب؛ المرجع السابق، ص137.

[3]) عبد الحليم عويس: المرجع السابق، ص131.

[4]) أيمن كرطالي: سلطة شيوخ القبائل العربية، المرجع السابق، ص58.

الأرياف، في حين سارت زناتة إلى الصحراء غربا.[1] ويعبر ابن خلدون عن الوضع في إقليم الزاب بعد تغلب الهلاليين عليه: "وغلب الهلاليون قبائل زناتة على جميع الضواحي وأزاحوهم عن الزاب وما إليه من بلاد إفريقية، وانشمر بنو واسين هؤلاء من بني مرين وعبد الواد وتوجين عن الزاب إلى مواطنهم بصحراء المغرب الأوسط".[2]

أفرز وصول القبائل الهلالية إلى المغرب الإسلامي عامة والمغرب الأوسط بخاصة خريطة قبلية جديدة، غير أنها اتسمت بالحركية والتغير طوال الفترات اللاحقة، فقد استحوذت القبائل الهلالية على المجالات الشرقية من المغرب الأوسط مستغلة الفراغ الديمغرافي الذي انجر عن انهيار أقوى العصبيات البربرية (كتامة وهوارة)، بينما تمكنت زناتة في الجزء الغربي من المغرب الأوسط من إعاقة التقدم الهلالي، حيث كانت قبائل بني بادين الزناتية بمثابة الحاجز الذي عرقل تقدمهم، وقد كانت هذه القبائل ممتدة بين قلعة سعيدة والمدية، لذلك فقد كان انتشار الهلاليين في الجهات الشرقية للمغرب الأوسط في النصف الثاني من القرن 05هـ/11م، أما نزوحهم غربا فقد كان في القرن 06هـ/12م.[3] وتعبيرا عن الانتشار الواسع للرياحيين في المغرب الأوسط يقول النويري: "أما هلال بن عامر بن صعصعة، فالبطن مشهور، وقد نزلوا المغرب من تلمسان إلى طرابلس".[4]

انعكس تقدم الهلاليين نحو القلعة سلبا، حيث بدأت تظهر بوادر شلل اقتصادي بسبب استقرار بني هلال في محيطها، وهو ما أدى إلى عرقلة حركة المرور والأنشطة الزراعية.[5] ويصف ابن خلدون هذا الإضرار بالقلعة والأقاليم المجاورة كالمسيلة وطبنة: "فنازلوها وخربوا جنباتها وأحبطوا عروشها، وعاجوا على ما هنالك من الأمصار مثل طبنة والمسيلة فخربوها وأزعجوا ساكنيها، وعطفوا على المنازل والقرى والضياع والمدن فتركوها قاعا صفصفا أقفر من بلاد الجن وأوحش من جوف العير، وغوّروا المياه واحتطبوا الشجر وأظهروا في الأرض الفساد، وهجروا ملوك إفريقية والمغرب من صنهاجة وولاة أعمالها في الأمصار، وملكوا عليهم الضواحي يتحيفون جوانبهم ويقعدون لهم بالمرصاد".[6]

التخريب الهلالي الذي لحق ضواحي القلعة لم يكن بنفس الشدة التي حدث بها تخريب القيروان وضواحيها، ويمكن أن يرجع ذلك إلى كون الهلاليين ليسوا طرفا مباشرا في الحرب ضد الناصر إنما كانوا حلفاء لتميم، عكس ما حدث خلال حصار القيروان عندما كانوا يمثلون طرفا في النزاع، خاصة وأنهم كانوا في مهمة للانتقام للفاطميين

---

[1]) ابن خلدون: العبر، ج6، ص27؛ بورويبة: المرجع السابق، ص54-55؛ يربط العروي بين جواز زناتة إلى الأندلس جندا مرتزقة بعد فقدانهم السيطرة على الطرق التجارية والتسلط الذي تعرضوا له في المغرب الأقصى، ودخول الهلاليين إلى المغرب الأوسط، فانتقال زناتة ترك فراغا استغلته القبائل الهلالية الباحثة عن المراعي والكلأ، والتخفيف من عدد السكان حسبه سهّل عملية تحويل المزارعين إلى رعاة خاصة في ظل غياب سلطة سياسية قوية؛ المرجع السابق، ج2، ص100.

[2]) ابن خلدون: العبر، ج7، ص84.

[3]) مصطفى بن عريب: مجتمع المغرب الأوسط المتغيرات والعلائق (من القرن الرابع الهجري إلى سقوط دولة الموحدين 668هـ/ 1269م، القرن العاشر – الثالث عشر ميلادي)، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ، جامعة محمد بوضياف المسيلة، 2016/2017، ص101-102.

[4]) النويري: المصدر السابق، ص348.

[5]) جورج مارسيه: المرجع السابق، ص229.

[6]) ابن خلدون: العبر، ج6، ص27.

من الزيريين، حتى وإن كان الحماديون أبناء عمومة الزيريين. وقد يكون موقع القلعة وحصانتها سببا في صعوبة اقتحامها كما حدث مع القيروان، لكن وبما أن اندفاعهم نحو مجالات جديدة في المغرب الأوسط، كشف لهم وجود بيئة مناسبة لتنقلاتهم واستقرار بعضهم فإن ذلك شجعهم على التمادي في التوسع وحيازة المجال.

يعتبر جورج مارسيه الريف الحمادي أكثر حظا من إفريقية، لانتشار الهلاليين به، وهم أقل بأسا وشدة من الرياحيين الذين وصلوا أولا إلى إفريقية وكانت لهم الأسبقية في الاستحواذ عليها، مما جعل الهلاليين الذين وصلوا لاحقا يضطرون للتوغل غربا نحو الريف الحمادي لعدم مقدرتهم على منافسة الرياحيين في مجالاتهم، وسمح لهم الحماديون بالاستقرار دون تقديرهم لعواقب هذا القرار، والملاحظ أنه وبعد ثلاثة قرون من هذا الاستقرار كانوا لا يزالون في هذه المناطق دون تغيير مواقعهم.[1]

أما قبيلة المعقل فحدث معها عكس الذي حدث مع الهلاليين، حيث كان وصولها إلى بلاد المغرب باكرا لكنها اكتفت بالبقاء في حدود صحراء إفريقية والمغرب الأوسط، ماعدا قبيلة ثعلبة من المعقل التي استقرت بمتيجة، في حين زحفت معظم عائلات المعقل نحو تافيلالت بسبب هجومات الوافدين الجدد. أما بنو سليم فقد استقروا في طرابلس، وفي سنة 625هـ/1228م طلب منهم الحفصيون الاستقرار في سهل القيروان صيفا فأخرجوا منها الرياحيين الذين استقروا في جهات قسنطينة.[2]

استقر الأثبج شرق الأوراس، حيث قاموا بإخضاع قبائل كتامة وهوارة هناك، وانتشرت دريد بين قسنطينة وبونة، وفي المناطق المجاورة للصحراء شرق الأوراس سكنت قبائل بني قرة بعد أن تركوا برقة سنة 468هـ/1075م، تحت ضغط بني سليم.[3] وقد نافس هؤلاء العرب زناتة في المغرب الأوسط. وتوغلت قبائل زغبة وبني مالك وبني عروة جنوبا في صحراء المغرب الأوسط، حيث جاوروا قبيلة مسوفة الصنهاجية،[4] بعد أن انتهى الصراع بين رياح وزغبة بين سنتي 466–467هـ/1073–1075م، حيث قامت رياح بطرد زغبة من إفريقية مما دفعها للتوجه نحو مجالات الدولة الحمادية.[5]

كانت الأثبج الهلالية هي الأسبق في جهات الزاب، لكنها تراجعت لصالح الرياحيين، وخاصة الذواودة الذين تغلبوا على الأثبج، ومع ذلك بقيت بعض الجماعات المحلية المنتمية للواتة وزناتة مستقرة في بلاد الزاب.[6] ولو أن

---

[1]) جورج مارسيه: المرجع السابق، ص231–232؛ في حين يشير إرنست ميرسي إلى أن كل محاولات الصد التي انتهجها الحماديون لوقف تقدم الهلاليين، باءت بالفشل؛ Ernest Mercier: Op. cit, Tome 02, p21.

[2]) جورج مارسيه: المرجع السابق، ص232.

[3]) ابن خلدون: العبر، ج6، ص31؛ الشيخلي: المرجع السابق، ص152–153.

[4]) المرجع نفسه، ص156.

[5]) في السنة الموالية 468هـ / 1076م وصلت إلى إفريقية قبائل أخرى من عرب برقة ونزلوا حول القيروان؛ ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص329؛ سعد زغلول: المرجع السابق، ج3، ص462.

[6]) علاوة عمارة: الهجرة الهلالية وأثرها في تغيير البنية الاجتماعية لبلاد الزاب، المرجع السابق، ص22–23.

بعض المصادر لا تحدد بدقة طبيعة القبائل الهلالية التي استحوذت على تلك المجالات، فالإدريسي مثلا، يكتفي بالحديث عن عمارة العرب لبعض حصون بسكرة، كحصن بشر[1] وجهات مقرة.[2]

نتيجة الانتشار الهلالي في الزاب وحركة القبائل فيه، حدث تحول مجالي جديد، إذ تحول من زاب رياح – الذواودة، إلى زاب شرقي لرياح –كرفة، الذين امتد نفوذهم إلى الجهات الشرقية من جبال الأوراس، في حين كان الزاب الغربي، الشمالي، والجنوبي تحت حكم بني رياح بزعامة الذواودة.[3] وقد استقر من بطون رياح أولاد مسعود وأولاد عساكر وأولاد سباع من الدواودة بنقاوس ومقرة والمسيلة.[4]

يحاول الإدريسي رسم خريطة التّماس التي تعكس أقصى امتداد للهلاليين شمالا خلال القرن (06هـ/12م)، فعند تتبعه للطريق الرابط بين بجاية والمسيلة يشير إلى أن الباب[5] هو الحد الذي تصله الغارات الهلالية: "وهي جبال يخترق بينها الوادي الملح، وهناك مضيق وموضع مخيف وإلى هاهنا تصل غارات العرب وضررها".[6] وعليه، فقد كان الجبل بمثابة الحاجز الطبيعي أمام تقدم العناصر الهلالية شمالا.

وابتداء من المكان المسمى الباب وما يليه جنوبا في الطريق إلى المسيلة يتكرر ذكر تأثير العرب وأضرارهم على المجال، فخلال حديثه عن سوق الخميس يقول: "وهذه الأرض كلها تجولها العرب وتضر بأهلها"، وبها حصن في أعلى الجبل به مياه جارية ولكن مزارعها قليلة، "ولا تقدر العرب عليه لمنعته". وهو تأكيد لما ذهبنا إليه سلفا من أن التضاريس كانت عقبة طبيعية نحو التقدم الهلالي. ومع وجود الحصانة الطبيعية إلا أن السكان لم يتركوا مجالاتهم دون حماية ففي سوق الإثنين، الذي يعتبر قصرا حصينا والعرب محدقة بأرضه، تم جعل رجال يحرسونه.[7]

ويجعل الإدريسي جبل سحاو حاجزا طبيعيا يمنع العرب من العبور شماله، وهو جبل في الطريق بين قسنطينة وبجاية، حيث يصفه: "وهو من أعظم الجبال علوا وأسماها ارتقاء وأصعبها مسلكا ... وهذا الجبل لا تتعداه العرب إلى غيره ولا تجوزه".[8] ونعتقد أنه إلى جانب هذا المعطى التضاريسي الذي يحد من تقدّم العرب شمالا، هو وجود قبيلة من البربر لم يذكر الإدريسي اسمها عُرفت بالتحصن والشدة والممانعة، وحتى الجهات المكلّفة بجمع الجبايات لا تحصل على مرادها إلا إذا نزلت في الخيل والرجال، وكان صغار وكبار القبيلة يمتلكون السلاح: "ومن عوائدهم أن

[1]) الإدريسي: المصدر السابق، ص270.

[2]) نفسه، ص264.

[3]) الصادق زياني: المرجع السابق، ص79.

[4]) الطاهر طويل: المرجع السابق، ص444.

[5]) مضيق جبال البيبان حاليا، والبيبان هي سلسلة جبلية بمنطقة برج بوعريريج، تندرج ضمن الأطلس التلي.

[6]) الإدريسي: المصدر السابق، ص262.

[7]) نفسه، ص262-263.

[8]) نفسه، ص267.

صغيرهم وكبيرهم لا يمشي من موضعه إلى موضع غيره إلا وهو شاكي السلاح بالسيف والرمح والدرقة اللمطية".[1] وبالتالي فإن الهلاليين دفعوا البربر أكثر نحو الالتزام بالتحصن في المدن والجبال والمناطق الوعرة.[2]

وتغلبت العرب على الأراضي التقليدية لكتامة، إذ يؤكد الإدريسي ذلك حينما يستعرض في حديثه عن الطريق الرابط بين القل وقسنطينة والتي يجعلها في مرحلتين، وهي في الأصل مجالات كتامة، التي تمتد عمارتها متجاوزة أرض القل وبونة، حيث يقول: "ولم يبق من كتامة في وقت تأليفنا لهذا الكتاب إلا نحو أربعة آلاف رجل، وكانوا قبل ذلك عددا كبيرا وقبائل وشعوبا".[3]

بهذا التتبع للتوزيع الهلالي خلال القرن الأول منه في المغرب الأوسط، يتبين أنهم ركزوا على سهول الحبوب والمراعي التي أصبحت تحت سيطرتهم، والتي أجلوا أصحابها من ساكنة الأرياف إلى الجبال، ومع أنهم استباحوا مجالات عديدة في المناطق الشرقية للمغرب الأوسط خلال هذه الفترة، إلا أنه لا يمكن الجزم بإمكانية وضع خريطة دقيقة لمناطق نفوذهم، ذلك أنهم ظلوا في حركة شبه دائمة ولم يجنحوا للاستقرار نهائيا، الأمر الذي أدى بالضرورة إلى إنتاج واقع جديد في المنطقة، تميز بإعادة ترتيب التوطين في هذه المناطق.

ثالثا: الاستقرار وإعادة الانتشار بعد معركة سطيف 548هـ/1153م:[4]

التواجد الهلالي في المغرب الأوسط كان محكوما بعديد الاعتبارات السياسية والاقتصادية المتعلقة برؤية السلطة لهذا المكون القبلي في المنطقة وطبيعة التحالفات والرهانات السياسية والعسكرية المطروحة، لذلك فإنه إضافة إلى طبيعة القبائل الهلالية المتسمة بالحركة، فقد كان للدور الموحدي يد في تحريك وتوزيع الهلاليين وتوطينهم.

1- جغرافية التوطين:

طيلة الفترة الحمادية، ظلت القبائل الهلالية تتقلب في مجالات عدة ومناطق مختلفة من المغرب الأوسط، خاصة في مناطقه الشرقية، حيث شجّعتهم سياسة الحماديين خاصة مع توجهها البحري وإطلاق أيديهم في ريفها على اختيار المواقع الاستراتيجية بالنسبة لهم، مع أن ذلك لم يمنع تحركهم ضمنها، لكن ومع وصول الموحدين إلى المغرب الأوسط، بدأت ملامح هذا التوزيع تتغير.

---

[1]) الإدريسي: المصدر السابق، ص268.

[2]) إبراهيم جدلة: المرجع السابق، ص161.

[3]) الإدريسي: المصدر السابق، ص269.

[4]) حول معركة سطيف 548هـ/1153م التي نشبت بين الموحدين –بعد أن استولوا على بجاية الحمادية– والهلاليين المتمركزين في الأجزاء الشرقية من المغرب الأوسط وفي إفريقية، فضلا عن آليات الإدماج الموحدي للقبائل الهلالية، ينظر: محمد بن ساعو: المرجع السابق، ص ص86-104؛ ويعترف بعض الباحثين بأن بعض حيثيات وتفاصيل المعركة لا تزال غامضة؛

Victoria Aguilar Sebastián: La política de Abd Al-Mu'min con los árabes de Ifriqiya, Historia, ciencia y sociedad: actas del II Coloquio Hispano-Marroquí de Ciencias Históricas, [celebrado en] Granada, 6-10 noviembre de 1989, 1992, p23.

عندما كان الخليفة الموحدي عبد المؤمن[1] في طريقه إلى بجاية من أجل فتحها، وفد عليه بالجزائر أميران من العرب: "أبو الجليل بن شاكر" أمير الأثبج، و "حبّاس بن مشيفر" من رجالات جشم، فتلقاهما بالمبرة وعقد لهما على قومهما. ثم أكمل مسيرته وفتح بجاية.[2] ويبدو أنه عشية الدخول الموحدي إلى المغرب الأوسط لم يتجاوز العرب الجزائر وسهول متيجة، وهنا نقصد العرب باعتبارهم حائزي مجالات لا مرتزقة أو عناصر في الجيش. وما يؤكد ذلك أيضا هو أن الإدريسي (القرن06هـ/12م) يشير إلى أن المجال الممتد بين تلمسان وتاهرت يسكنه بنو مرين وورتطغير وزير وورتيد وماني واومانو وسنجاسة وغمرة ويلومان وورماكسين وتوجين وورشفان ومغراوة وبنو راشد وتمطلاس ومنان وزقارة وتيمني، وكلها بطون زناتة: "وهم أصحاب هذه الفحوص وهم قوم رحالة ضواعن ينتجعون من مكان إلى آخر غيره، لكنهم متحضرون، وأكثر زناتة فرسان يركبون الخيل"[3] ويذكر ذات الجغرافي عند حديثه عن المجال الممتد بين دور مدين إلى مرسى القل على مسافة يومان هي أرض للعرب.[4] فعشية التوسعات الموحدية غربا، كانت الجهات الغربية للمغرب الأوسط منطقة انتشار للقبائل الزناتية، كما أن أغلب المجالات التي سيطر عليها العرب كانت لزناتة.

بعد فتح عبد المؤمن لبجاية سنة 547هـ/1152م، هرب "ميمون" وزير ابن حماد إلى قبائل العرب.[5] وهو ما يؤكد انتشار العرب بالجهات الجنوبية لبجاية إلى قسنطينة. كما فرّ سلطان بجاية يحيى بن العزيز الحمادي من عاصمته أمام عسكر الموحّدين، وكتب أبو عبد الله محمد الكاتب (ابن دفرير) وهو أحد كتّاب الدولة الحمادية رسالة موجهة لأمراء العرب الهلالية بتلك الجهات عن يحيى، طالبا عونهم ومستنجدا بهم.[6]

اعتبر العرب مجاورة عبد المؤمن بن علي تهديدا مباشرا لوجودهم بالبلاد، فاجتمعوا. ووقعت معركة سطيف سنة 548هـ/1153م، وعلى إثر الانتصار الذي حققه الموحدون، نقلوا معهم إلى مراكش الكثير من نساء وأطفال الهلاليين، وراسل محمد بن عبد المؤمن أمراء العرب، يبلغهم بأن نساءهم وأبنائهم في حمايتهم، فسارع العرب إلى مراكش، فأعطاهم الخليفة أهلهم وأكرمهم.[7] وكان من بين أسرى العرب من زعمائهم: الحسن ويحيى،

[1]) أول اتصال بين الموحدين والهلاليين، حدث عندما كان ابن تومرت عائدا من المشرق، أين تقبل هدية قدمها له الثعالبة من عرب المغرب الأوسط، فأهداها بدوره لعبد المؤمن؛ عبد الحق الطاهري: نظام الحكم عند الموحدين —الوسائل والمؤسسات، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2018، ص44.

[2]) ابن خلدون: العبر، ج6، ص28.

[3]) الإدريسي: المصدر السابق، ص257.

[4]) نفسه، ص267.

[5]) ابن عذارى: المصدر السابق، ج3، ص131.

[6]) ومما جاء في هذه الرسالة: "...فعند ذلك اعتزلنا محلة الفتنة وملنا إلى مظنة الأمنة، وبعثنا في أحياء هلال نستنجد منهم أهل النجدة، ونستنفر من كنّا نراه للمهم عدّة، وأنتم في هذا الأمر أول من يليهم الخاطر وتثنى عليهم الخناصر"؛ عماد الدين محمد بن محمد الكاتب الأصفهاني: خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء المغرب ج1، تحقيق: محمد المرزوقي ومحمد العروسي المطوي والجيلاني بن الحاج يحيى، الدار التونسية للنشر، تونس، 1986، ص180.

[7]) ابن الأثير: المصدر السابق، ج9، ص390-391.

فأسكنا بمراكش "في رفاهية ورزق جار".[1] ولم يكن سلوك عبد المؤمن تجاه الأسرى أداء منتصر كريم، بل هو خطة سياسية يسعى لخدمة مآربه، لأن وراء الأسرى الخاضعين بعض الزعماء العرب المقهورين.[2]

ترك الخليفة من غنائم وسبايا العرب في فاس ومكناسة وسلا، وحمل معه إلى مراكش أمراءهم وعيالهم، وردّ لهم الخليفة عيالهم ومنحهم المال وصرفهم لبلادهم.[3] وهو ما يشير أن عددا منهم عاد راجعا إلى إفريقية والمغرب الأوسط، ليتم في وقت لاحق الاستنجاد بهم في حرب الأندلس.

لم تستقر الخريطة القبلية التي أصبحت عليها إفريقية والمغرب الأوسط، حيث أسهمت الفترة الموحدية في إحداث بعض التغييرات عليها، وذلك في إطار سياسة الموحدين فيما تعلق بإدارة المجموعات والعصبيات القبلية وتوزيعها في جهات الغرب الإسلامي، بما يتيح لها التحكم الدقيق والتوظيف الأنسب لها، ومن ذلك قيام الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي سنة 555هـ/1160م بنقل عدد كبير من الهلاليين إلى المغرب الأقصى، إذ يذكر صاحب روض القرطاس متحدثا عن عبد المؤمن: "فسار حتى وصل إلى مقربة من وهران فطلبه عرب إفريقية في الوداع بالرجوع إلى حللهم فأسعفهم بذلك، ونقل منهم إلى المغرب ألفا من كل قبيلة بعيالاتهم وأبنائهم، وهم عرب جشم".[4] وفي إطار نظرته للعرب الهلالية فقد أوصى عبد المؤمن بن علي أولاده بـ: "أخل إفريقية من العرب وأجلهم إلى بلاد المغرب، وادخرهم لحرب ابن مردنيش إن احتجت إلى ذلك".[5]

كان الأثبج من الهلاليين الأكثر عددا، وقد استقروا قرب جبال الأوراس لكن الفتنة التي وقعت بينهم، دفعت نحو المواجهة بين قرة وكرفة وعياض من جهة ودريد من جهة أخرى، واستمر النزاع بينهم إلى غاية قيام دولة الموحدين، التي نقلت مقدم وقرة وتوابعهم من جشم إلى تامسنا بالمغرب الأقصى.[6] وقد أدى تراجع أهمية قبيلة الأثبج ونقل بعض بطونها غربا وركون بعضهم للاستقرار بقرى الزاب وجبل أوراس إلى الدفع بجيرانهم من رياح للاستيلاء على نواحي قسنطينة،[7] حيث أصبحت المنطقة الممتدة من حد قسنطينة إلى بجاية، وجنوبا إلى المسيلة والزاب من مجالات رياح؛[8] في حين استقرت عياض بجبل قلعة بني حماد، وبسطوا نفوذهم على القبائل وأصبحوا يتولون استخلاص الجباية منهم، حيث كانت مواطنهم بين ثنية غنية والقصاب إلى وطن بني يزيد بن زغبة.[9]

---

[1]) التجاني: المصدر السابق، ص344.

[2]) Victoria Aguilar Sebastián: Tribus árabes en el Magreb en época almohade, Op. cit, p109.

[3]) أبي بكر بن علي الصنهاجي البيذق: أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1971، ص76.

[4]) ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص199؛ ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص112.

[5]) ابن خلدون: العبر، ج6، ص372.

[6]) نفسه، ج6، ص31.

[7]) الطاهر طويل: المرجع السابق، ص450.

[8]) ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، ص126، ص145، القلقشندي: نهاية الأرب، ص267.

[9]) ابن خلدون: العبر، ج6، ص33.

كما ظلت الضحّاك في الزاب، حتى أصبحوا في جملة مسعود بن زمام والزواودة (الدواودة)[1] الذين تمكنوا من التغلب على لطيف رغم بطونهم الكثيرة (اليتامى، اللقامنة، ...) فافترق جمعهم واتخذوا المدن بالزاب مثل: الدوسن وغربيوا وتهوده ونقموه وبادس، وبينهم في قصورهم فتن وحروب بين المتجاورين.[2] كما سكن بطنا العمور (قرة وعبد الله) الضواحي والجبال بين جبل أوراس شرقا إلى جبل راشد، يبتعدون عن سكنى التلول لقلة عددهم وخوفهم من حامية الدول، لذلك يفضلون مواطن القفر والجدب،[3] وسكنت عروة بن زغبة جبل بني راشد.[4]

بعد تحالف بعض العرب مع بني غانية والأغزاز،[5] كافأ المنصور زغبة لوفائها للموحدين وتحالفها مع بني يادن من زناتة لحماية المغرب الأوسط، بإقرار سكنها بين المسيلة وشرق تلمسان في القفار، وملك بنو يادن وزناتة التلول، في حين غرّب رياح وجشم نحو المغرب الأقصى بالموازاة مع نقل بعضهم للأندلس.[6] حيث وبعد أن أجهز الموحدون على البرغواطيين في تامسنا، قرروا تعميره بالهلاليين.[7] خاصة بعد إخماد ثورة بني غانية، حيث نقل المنصور سنة 584هـ/1188م كثيرا من الأثبج "وكانت للسلطان عليهم عسكرة وجباية".[8]

---

[1]) الزواودة (الدواودة) أبناء داود بن مرداس بن رياح؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص44.

[2]) نفسه، ج6، ص33-34؛ يذهب أحمد عزاوي إلى أن قبيلة الدواودة من عرب رياح والتي عرفت بترددها بين الطاعة والتمرد على السلطة الموحدية، قد اضطر الموحّدون إلى نقلها غربا بعد الانتصار الذي حققه الخليفة "يوسف بن عبد المؤمن" في قفصة على المتمرد "ابن الرند"، وذلك بغية توظيفهم في الأغراض العسكرية؛ نصوص تاريخية عن الغرب الإسلامي، مطبعة ربا نيت، الرباط، 1431هـ / 2010م، ص63.

وقد قيل في نكث رياح للعهد: (المديد)

إذا حلفت رياح فاتهمها	ورأس الحنث ما حلفت رياح

ابن بسام: المصدر السابق، ق4، مج2، ص348.

[3]) ابن خلدون: العبر، ج6، ص35.

[4]) نفسه، ج6، ص75.

[5]) يقارن محمد حسن بين دوافع كل من الأغزاز وبنو غانية في مواجهتم للموحدين، حيث أن المغامرين الأغزاز وصلوا إفريقية بغية تكوين الثروة وربما كانوا يفكرون في تأمين الطريق الصحراوي الرابط بين مصر وبلاد السودان الغربي، وبالتالي فإن دوافعهم اقتصادية بالأساس، أما الغانيون فقد كان هدفهم إحداث شرخ في الدولة الموحدية والسيطرة على المحور العمودي ميورقة – بجاية – قسنطينة – الزاب – واحات مزاب – الجريد، وهو شبيه بالمحور الرابط بين المجال الصحراوي والمتوسطي، الذي أسسه المرابطون: غانة – أودغست – سجلماسة – مراكش – فاس – قرطبة؛ ولم يكن لهذه الحركات تأثير كبير لولا انخراط بعض القبائل العربية فيها بعد أن قلّص الموحدون امتيازاتهم الاقتصادية كالتمتع بالإقطاعات وخفارة القوافل وعدم دفع الضرائب، المدينة والبادية، المرجع السابق، ص45.

[6]) ابن خلدون: العبر، ج6، ص54؛ أنزل رياح ببلاد الهبط وجشم تامسنا وغمارة. وقد كان لهذا التغريب نتائج اقتصادية وخيمة حيث كان البدو يغيرون على طرق التجارة والمجالات الزراعية، وأثروا في توزيع القبائل وملكيات الأراضي، فغلبوا على دكالة وضغطوا على غمارة للتوجه نحو الجبال، وغلبوا جزولة بالسوس. وهو ما جعل المنصور يندم على نقلهم؛ أحمد موسى: المرجع السابق، ص98-99.

[7]) محمد حجاج الطويل: من تامسنا إلى الشاوية، ضمن كتاب: البادية المغربية عبر التاريخ، تنسيق: إبراهيم بوطالب، منشورات كلية الآداب، الرباط، 1999، ص48-49.

[8]) ابن خلدون: العبر، ج6، ص43.

دريد التي تعتبر أعز الأثبج، كانت مواطنهم بين بلاد العناب إلى قسنطينة إلى طارف مصقلة،[1] وهم بطون كثيرة،[2] منهم أولاد عطية الذين كانت لهم تلة ابن حلوف من أرض قسنطينة، ثم تلاشوا، وخلفتهم فيها توبة الذين زحفوا إليها من طارف مصقلة، ولما عجزوا عن رحلة القفر تركوا الإبل واتخذوا الشاء والبقر وأصبحوا من القبائل الغارمة، وربما أصبحوا مطالبين بالانضمام إلى عسكر الدولة فيختارون لها بعض أفرادهم للانضمام إلى جيش السلطان؛[3] في حين أصبحت مواطن بنو عامر بن زغبة بالمغرب الأوسط قبلة تلمسان مما يلي المعقل، وكانت مواطنهم قبل ذلك في آخرها مما يلي المشرق، حيث كانوا مع بني يزيد حيا واحدا يشرفون على مواطن حمزة والدهوس،[4] وأقطع الموحدون لبني يزيد بن زغبة أرض حمزة من أوطان بجاية مما يلي بلاد رياح والأثابج فانتشروا في ريفها وصحراءها.[5]

في القرن 08هـ/14م، كانت خارطة الاستقرار الهلالي أكثر وضوحا، بحيث استقرت قبائل رياح في السهول الداخلية والساحلية الشرقية والأوراس وبلاد الزاب والحضنة والصحراء الشرقية، واستقرت قبائل الديالم وسويد في السهول الداخلية والساحلية الغربية والجهات الغربية للصحراء.[6]

دفعت سيطرة الهلاليين على مجالات واسعة في المغرب الأوسط بعض قبائل البربر البدوية إلى التوجه نحو الحياة الحضرية متخلية عن حياة البداوة والترحال بالتدرج، في ظل عدم مقدرتها على منافسة العرب. كما نعتقد أن البدو في المناطق الجنوبية شكلوا ضغطا على البدو الموجودين في المنطقة التي تتوسط الصحراء والتل ودفعهم للتوجه شمالا.

كما اتّجهت بعض القبائل البدوية المحلية أمام انتشار الهلاليين في المجال الشرقي لبلاد المغرب وسيطرتهم على المراعي والمناطق المنتجة، إلى الانضواء تحت سلطة بعض القبائل وأخذ إسمها كفرع منها حتى تضمن الحصول على نصيب من المراعي.[7]

اعتمد الموحدون في تعاملهم مع الهلاليين طريقة توزيعهم وتفريقهم وإعادة توطينهم في مناطق أخرى، مثلما فعلوا حينما نقلوهم إلى المغرب الأقصى، وهي الاستراتيجية التي يمتدحها "راسل هوبلي" Russell Hopley

[1]) طارف مصقلة: نسبة لـ "Mascula"، وهو الاسم القديم لخنشلة.

[2]) ابن خلدون: العبر، ج6، ص32.

[3]) نفسه، ج6، ص33.

[4]) نفسه، ج6، ص68؛ ويعبر ابن سعيد المغربي (ق07هـ/13م) عن المجالات التي حازها العرب: "وبين هذا الجبل (يقصد جبل أوراس) ومدينة بونة مجالات للعرب"؛ المصدر السابق، ص145.

[5]) ابن خلدون: العبر، ج6، ص55.

[6]) الطاهر بونابي: مظاهر المجال والدين والمجتمع، المرجع السابق، ص128-129.

[7]) Gilbert Meynier, Op. cit, p61.

كآلية لدمج الهلاليين وتطويعهم.[1] في حين، يعتبر محمد المغراوي أن هجرة الهلاليين إلى المغرب الأقصى خلال العهد الموحدي يندرج ضمن أزماته المتعددة، والسبب في ذلك –حسب رأيه- عدم تغير طبيعة استقرارهم ونمط معيشتهم منذ قرن من وصولهم إلى إفريقية، فقد ظلوا مصدرا للفوضى وطمس الانجازات الحضارية للصنهاجيين، وما جعلهم يتمادون في ذلك كونهم أقاموا بمناطق صحراوية مستقلة عن أي إطار سياسي من شأنه أن يضبط سلوكهم، وهو ما لم يكن مقبولا استمراره في ظل الدولة الموحدية المعروفة بالهاجس التنظيمي والضبط الأمني.[2]

هذا الأمر الذي جعل الخليفة الموحدي المنصور (ح580-595هـ/1160-1199م) يندم في أواخر عهده على نقل للهلاليين إلى المغرب الأقصى، حيث يقول ابن أبي زرع: "ولما اشتد به المرض، قال ما ندمت على شيء فعلته في خلافتي إلا على ثلاث وددت أني لم أفعلها، أولها: إدخال العرب من إفريقية إلى المغرب، لأني أعلم أنهم أصل فساده...".[3]

وحتى في فترة ما بعد الموحدين، استمرت الخريطة القبلية في المغرب الأوسط في التغير.[4] وذلك بسبب استمرار نفس الظروف التي حكمت طبيعة وجودهم سابقا؛ فالحفصيون مثلا لم يتمكنوا من الوقوف في وجه رياح، لذلك حاولوا استمالتهم، خاصة وأن مسالك التجارة الصحراوية كانت تحت رقابتهم، فتمكنت رياح في نهاية القرن 07هـ /13م من السيطرة على مضارب كرفة وإجبارها على اللجوء إلى جبل أوراس، وملكت المجالات التي كانت تظعن فيها، كما انقسم الدواودة بعد مواجهة المستنصر الحفصي لهم سنة 666هـ/1218م إلى بني عساكر الذين استقروا بالتل وخضعوا للحفصيين، وبني مسعود البلط الذين استمروا في انتجاعهم ومحاربتهم للحفصيين.[5]

1) Russell Hopley: Nomadic Populations and the Challenge to Political Legitimacy: Three Cases from the Medieval Islamic West, in: The Articulation of Power in Medieval Iberia and the Maghrib, éd: Amira K. Bennison, British Academy, by Oxford University Press, 2014, p243.

يبدو أن مشاركة الهلاليين رفقة القبائل البربرية في الحملة الحمادية ضد المرابطين لاحتلال تلمسان سنة 476هـ/1083م؛ كان لها دور مهم في تعرف الهلاليين على الأجزاء الغربية من المغرب الأوسط؛ الشيخلي: المرجع السابق، ص156.

2) محمد المغراوي: الموحدون وأزمات المجتمع، جذور للنشر، الرباط، 2006، ص91.

3) ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص230.

4) ابن خلدون: العبر، ج6، ص134؛ لسان الدين محمد بن عبد الله ابن الخطيب (713-776هـ): نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، نشر وتعليق: أحمد مختار العبادي، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، د.ت، ص25.

5) الطاهر طويل: المرجع السابق، ص ص444-448.

2- مظاهر الاندماج

لا شك أن محاولات الاحتواء والادماج بدأت منذ وصل الهلاليون إلى مشارف المغرب الأوسط، بل وقبل ذلك من خلال مقدمات التواصل الأولى التي تبناها الحماديون من خلال إشراكهم في اقتصاد المغازي كما أشرنا سالفا، غير أن الاتجاه نحو خطوات أكثر عملية نحو إدماجهم الفعلي كانت قد برزت على عهد الموحدين، وإن كان مدخل المقاربة الموحدية في ذلك سياسية – عسكرية بالدرجة الأولى، إلا أن ملامحها وانعكاساتها الاقتصادية كانت ملموسة إلى حد ما.

فضلا عن الإجراءات التي اتخذتها السلطة الموحدية تجاه القبائل الهلالية والسليمية، خاصة ما تعلق بنقل بطون منها نحو المغرب الأقصى، فإنها كانت تسيّر ملف الهلاليين ضمن رؤية تعكس الصبغة الدينية في التعاطي معها، أو على الأقل في تفسير خلفية التعامل معها وشرعنته، فبما أن الموحّدين كانوا ينظرون إلى الخارجين عن سلطتهم، خارجين عن دائرة الإسلام الحقيقي، فإنهم اعتبروا الخضوع لهم نوعا من التوبة، والكثير من الإشارات التي أوردتها النصوص الموحدية تؤكد ما ذهبنا إليه.[1]

في تقييمه للتجربة الموحدية ضمن استراتيجية إدماج العرب، اعتبرها الخليفة الموحدي يوسف (558-580هـ/1136-1184م) في سنة 576 هـ/1180م ناجحة في بعض جوانبها، من خلال حشدهم للجهاد بالأندلس، كتكفير عن خطاياهم واستدراك لتصرفاتهم وإصلاح لأعمالهم، وبالتالي فإن الموحّدين ينظرون إلى هذه العملية على أنها نوع من الإستتابة السياسية والدينية للقبائل العربية: "وكنّا –وفقكم الله- أعلمناكم أن العرب – أصلحهم الله- يرجى لهم أن يتلافوا زللهم، ويستدركوا خطلهم، بغزو في جزيرة الأندلس –حاطها الله- يكفّر الله (بها) خطاياهم ويصلح عملهم..."[2]

---

[1]) ينظر مثلا ما جاء في الرسالة التاسعة من رسائل بروفنصال: " ... فعادة هذا الأمر العزيز هي الاحتمال والإجمال، والرفق بالجهّال، ومقابلة البعيد الصعب بالتقريب والاسهال، لتشملهم التوبة بحسناها، وتقابلهم الرحمة بأكرم وجوهها وأسناها، وتتناولهم كلمة التوحيد بلفظها ومعناها؛ إذ لا مراد من أهل الدنيا إلا توبة يصدقونها، وعقيدة بالإيمان يحققونها، ويد الطاعة يمدّونها إلى الشريعة ويلقونها"؛ مجموع رسائل موحدية، الرسالة 9، ص29.

وفي رسالة أخرى ربط الموحّدون التوبة الهلالية بامتثالهم لنداء الجهاد في الأندلس: "وكل من كان من هؤلاء العرب قد أساء الظن بما ركب من قبل من جرم، واكتسب من إثم، وتوقف على داعي الله وقد دعاه إلى ما يحييه على بصيرة وعلم؛ فقد بادر الآن بالامتثال، وفوّض للانتقال، ورجا أن يختم عملُه بالرباط في تلك الجزيرة محتسبا على الله بنفسه، باذلا في طاعة مولاه جهده، مبايعا بذلك ربه حتى يمحو ما سلف ..."؛ مجموع رسائل موحدية، الرسالة 26، ص155.

ورد في إحدى رسائل الخليفة الموحدي يوسف (558-580هـ/ 1136-1184م)، -الذي تمكّن خلال فترة حكمه من إخضاع عديد القبائل العربية ونقلها للجهاد في الأندلس-: "... حتّى صفّى الله مشاربه، وخلص من الشوب مشارعه، ووقف بأهل الانتزاء من أصناف مشغبيه على تائب أناب بقلبه، وندم على ما فرّط من ذنبه..."؛ رسائل موحدية، م ج، الرسالة رقم 9، ج1، ص122.

[2]) ويشير محقق الرسائل أحمد عزاوي إلى أن العرب المقصودين بهذه العملية هم عرب رياح، حيث تحركت هذه القبائل غربا منخرطة بذلك في المشروع الموحدي بعد اجتماع الخليفة بزعمائهم، في حين بقيت المحاولات مستمرة مع بنو سليم بجهات طرابلس لمحاولة إخضاعهم؛ رسائل موحدية، م ج، الرسالة رقم 30، ج1، ص160.

أشار صاحب الملعبة إلى ضعف الوازع الديني لدى القبائل الهلالية، وعبّر عن تقصيرهم تجاه العبادات والواجبات الدينية؛ الزرهوني: المصدر السابق، ص107.

وبذلك فقد نظر الموحدون في بعض مراحل دولتهم بعين الرضى لحصيلة مساعيهم لإخضاع وإدماج العرب الهلالية، حيث يقول الأمير محمد الناصر الموحّدي بمناسبة حملته على بني غانية في إفريقية: "... وأما الأعراب فقد دنا قصيُّها، ودان عصيُّها، وأَلقيت بهذا الجناب رجالها وعصيّها".[1] غير أن هذه المواقف أخذت في التحول بسبب جملة من التطورات، في حين كان لأبي يوسف يعقوب المنصور (580-595هـ/1184-1199م) رأي آخر، بحكم استمرار العرب في عيثهم وفسادهم.[2]

على إثر الخراب الذي حل بإقليم تامسنا بعد حرب الموحدين على البرغواطيين هناك، بعد أن كان يتميز بازدهاره الاقتصادي وإنتاجه الزراعي المهم، قرّر الموحدون تعميره بالهلاليين على أمل إعادة إنعاشه واسترجاع نشاطه الزراعي واستئناف إنتاج الحبوب بعد أن سجّلت هذه المادة تراجعا ملحوظا، إلا أن مشروع الخليفة يعقوب ابن المنصور فشل بسبب استمرار القبائل العربية المهَجّرة في نمط معيشتهم البدوي القائم على الرعي والترحال، وبذلك فإن نقل قبائل بدوية إلى مجال رطب متميز بتنوع تضاريسه وغطاءه النباتي كان غير محسوب العواقب، لأن الانتقال من نمط إلى آخر بالنسبة للقبائل العربية يتطلب مرور أجيال عدة، حتى يحدث تحول من هذا النوع.[3]

ما ينبغي الإشارة إليه، هو أن مداخل عملية الاندماج الهلالي لم تكن سياسية نابعة من دوائر السلطة فقط، بل يمكن ملاحظة آليات أخرى للاندماج، على غرار التلقي الصوفي، حيث صاحب بداية استقرار القبائل الهلالية تأثرهم بالأفكار الدينية الصوفية ونشاط الزوايا، حيث تغلغلت هذه الأفكار لدى بعض القبائل منذ نهاية القرن 06هـ / 13م كزغبة والدواودة، وظهر أولياء من الهلاليين مثل: أبي يوسف الدهماني وغيث بن قاسم الحكيمي، الذين حرصوا على استقطاب أبناء جلدتهم.[4]

بالاندماج في منظومة التصوف، أصبح الطلبة من القبائل العربية يفدون على كبار المتصوفة، وقد تأقلم الفقيه الصوفي "أبو زيد عبد الرحمن الوغليسي" (ت786هـ/1384م) مع التحاق طلبة من العرب على دروسه ببجاية حيث بسّط مقدمته الفقهية "الأحكام الفقهية على مذهب مالك" "الوغليسية" وحرص على مراعاة المحيط الذي قدم منه هؤلاء الطلبة المتسم بالسلب والنهب، ليركز على اجتناب المعاصي، وهو ما أسهم في توبة الكثير من فرسان الهلالية.[5]

---

[1]) مجموع رسائل موحدية، الرسالة 27، ص ص 151-156.

[2]) ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص230.

[3]) محمد حجاج الطويل: المرجع السابق، ص48-49.

[4]) الطاهر طويل: المرجع السابق، ص579.

[5]) الطاهر بونابي: مظاهر المجال والدين والمجتمع، المرجع السابق، ص129-131؛ يذكر ابن خلدون أن رجلا من رياح وهو "سعادة الرياحي" في بلاد الزاب نشأ على العبادة والزهد، وعزم على إحياء السنة، فاجتمعت حوله الكثير من زعامات العرب هناك، "واشتد على قاطع الطريق من شرار البوادي"، وطلب من عامر الزاب "منصور بن فضل بن مزني" بإعفاء الرعايا من المكوس والغرامات، وهو ما جعله يفكر في الإيقاع به، لكن مناصريه وقفوا معه وبايعوه على إقامة السنة. فعمل على خلق زعامات موازية من العرب إضافة إلى طلب إمدادات من صاحب بجاية الأمير "خالد بن أبي زكريا"، ورغم ذلك قام أنصار سعادة انطلاقا من مقر زاويته بطولقة بمحاصرة بسكرة سنتي 703-704هـ/ 1303-1304م، وشهدت السنوات=

التعاطي الفقهي مع التوبة الهلالية أفرز عديد النوازل التي عكست عمق الظاهرة الهلالية في ارتباطها باستغراق الذمم والحرابة، وانطلقت المقاربة الفقهية غالبا في التجاوز على هذه الممارسات المتوارثة، من بوابة التخلي عما بأيدي مستغرقي الذمم والحرابيين الذين يرغبون في الابتعاد عن حياة الإغارة والسلب والنهب، ورد المظالم لأهلها.[1]

وفضلا عن المعطى السياسي والديني، فقد كانت هناك اعتبارات متعلقة بالمحيط البيئي والاقتصادي في المغرب الأوسط، دفع بالهلالية نحو التأقلم والتصالح تدريجيا مع حياة الاستقرار، حيث يشير ابن خلدون إلى أن أهل الزاب من أفاريق الأثبج وبعد عجزهم عن الظعن استقروا بقراه التي كانت لزناتة، وأول قرية نزلوها هي قرية "حيّاس" ببسكرة، "ثم كثروا وتسايلوا وأخذوا مع أهل بسكرة بحظ وافر من تملّك العقار والمياه. ثم انتقلوا إلى البلد واستمتعوا منها بالمنزل والظلال، وقاسموا أهلها في الحلو والمر، وانتظم كبارهم في أرباب الشورى من المشيخة".[2]

عملية تفكيك القبائل الهلالية التي تنباها الموحدون ونقل بعضها من المغرب الأوسط إلى الأقصى تمخض عنها ضعف بعض القبائل وبالتالي تحولها من قبائل محاربة إلى قبائل مخزنية، مثلما حدث مع بعض بطون الأثبج التي استقرت في قرى الزاب وجبل أوراس.[3]

إن الحكم على مدى كون توبة العرب الهلالية توبة "نصوحا" يفرض تتبع مسار الاندماج إلى نهاية الفترة الموحدية وما بعدها، وهو الأمر الذي يتطلب العودة إلى المصادر التي تقدم بعض المؤشرات، وهذا في حقيقته مجال لبحث واشتغال آخر، والتوبة هنا مثلما يتصورها جاك بيرك –الذي اهتم بالبحث في موضوع الهلالية انطلاقا من النصوص النوازلية– ليست مجرد حدث أخلاقي أنتجته حياة مادية معينة فقط، إنما هي أيضا واحدة من أهم عوامل التوزيع الاقتصادي.[4]

ومن المعطيات التي تشير إلى وضع الهلاليين في المغرب الإسلامي عامة في فترات متأخرة من موضوع دراستنا، أنه وفي نهاية القرن 07هـ/13م، استأنف شيوخ القبائل العربية مغامراتهم في مجالات الحفصيين، حيث انتشرت القبائل العربية في إفريقية، وأمام ضغوطاتهم على الحكومة الحفصية اضطرت إلى منح القبائل المتمركزة في

=الموالية صراعات كبيرة بين الطرفين؛ ابن خلدون: العبر، ج6، ص51-52؛ وتؤكد هذه الحركة حدوث تحولات هامة وعميقة على مستوى البنية الثقافية والاجتماعية وحتى الاقتصادية لبعض القبائل الهلالية.

وحول مسار أسلمة الأعراب وانخراطهم في المنظومة الزهدية والتصوفية؛ كتب صالح علواني عن نموذج الجهات الداخلية لإفريقية:

ALOUANI Salah, Tribus et Marabouts. A'râb et walâya dans l'intérieur de l'Ifriqiya entre le V^e/XII^e et le XII^e/XVIII^e siècles, Helsinski, Annales Academiae Scientiarum Fennicae, 2010, p307.

[1]) إيناس عكه: المرجع السابق، ص179.

[2]) لم يدم هذا التوافق بين السكان والمستقرين الجدد بفعل استنكاف "بنو زيان من انتظامهم معهم وحسدوهم على ما آتاهم الله من فضله"؛ العبر، ج6، ص586.

[3]) الطاهر طويل: المرجع السابق، ص450.

[4]) Jacques Berque: Op.cit, p. 1347.

وسط وشرق البلاد مناطق شاسعة على شكل إقطاعات، فاجتاحت البداوة البلد وفق توصيف برونشفيك؛[1] كما يشير النميري إلى اصطدام المرينيين أكثر من مرة مع الأعراب في جهات قسنطينة والزاب، ويحاول أن يعكس تعطشهم للسلب والنهب.[2]

يشير كل من أحمد بن بلخير وعبد القادر بوعقادة إلى أن الحملات العسكرية المرينية (الأولى بقيادة الأمير أبي الحسن علي بين 731-749هـ/1331-1348م، والثانية بقيادة الأمير أبي عنان فارس بن علي بين 749-759هـ/1348-1358م) قد أسهمت في تقويض استقرار العرب الذي ظهرت ملامحه خلال العهد الموحدي، واعتبرا أن الكتابات التي تنتمي إلى البلاط المريني كابن مرزوق التلمساني (ت781هـ/1379م) والكفيف الزرهوني (ت749هـ /1348م) وابن الحاج النميري (ت768هـ/1367م) كانت تبريرية لخيارات مرينية أثّرت على استقرار القبائل العربية من خلال تخريب قصورها والدفع بها إلى العودة للنشاط الحرابي.[3] هذه الخلخلة التي أعادت جزءا من العرب الهلالية إلى طبيعتها البدوية تحيلنا إلى مراجعة سؤال حقيقة الاندماج والاستقرار الهلالي قبل هذه الحملات، حتى نتلافى الوقوع في نفس المسار الذي ميّز البحث في آثار التخريب عشية دخول العرب الهلالية إلى بلاد المغرب. ذلك أن الانخراط في حركات التمرد بقدر ما يشير إلى ضعف الدولة وغيابها، فإنه قد يشير إلى عدم الاندماج الحقيقي في المنظومة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن العودة إلى الحياة البدوية في أول منعطف للمواجه مع الدولة يشير إلى هشاشة الاستقرار.

إن انتقال الهلاليين بما يكتنزه موروثهم البدوي الخالص من خصائص وسمات اجتماعية واقتصادية وثقافية إلى بيئة جديدة، في ظل سُلط سياسية هشّة، جعلهم يبادرون بإدارة هجرتهم مرحليا ومحاولة التشبث ببداوتهم؛ ومع التضارب الذي نلاحظه على المصادر في ضبط تعدادهم ظل السؤال المرتبط بحجم التأثير على الوضع الاقتصادي بالمغرب الأوسط قائما، وقد عُدَّ التخريب الهلالي من مواضيع تاريخ المغرب الإسلامي التي أحدثت نقاشا محتدما في فترات معينة، غير أن الطروحات التي استمد منها النقاش حيويته، كانت محل استقطاب إيديولوجي مرتبط بالمدرسة التاريخية الكولونيالية من جهة والكتابات النضالية في جهة أخرى، مع أن كل طرف يحاول توظيف بعض النصوص المصدرية التي تخدم توجهه، ولا ينفي هذا بعض الأعمال الأكاديمية التي دفعت نحو معالجة مسألة الخراب خارج الدائرة الإيديولوجية.

وفي تتبع مسار توزيع القبائل الهلالية بالمغرب الأوسط، يبدو جليا دور العامل الاقتصادي في تحديد مجالات الانتشار والاستقرار، حيث كانت السهول الداخلية التي تجمع بين زراعة الحبوب والرعي مجالا خصبا لانتشار

---

[1]) المرجع السابق، ج2، ص136.

[2]) النميري: المصدر السابق، ص383-484؛ أما في الجانب السياسي، فكانت الاستراتيجية المحكمة غائبة في التعامل مع الهلاليين، خاصة في تجارب الزيانيين التي كانت مرتبطة بالاعتبارات السياسية والعسكرية؛ الطاهر بونابي: مظاهر المجال والدين والمجتمع، المرجع السابق، ص141.

[3]) أحمد بن بلخير وعبد القادر بوعقادة: الحملات العسكرية المرينية وأثرها على استقرار قبائل عرب بني هلال في القرن 08هـ/14م، المجلة التاريخية الجزائرية، مخبر الدراسات والبحث في الثورة الجزائرية، جامعة المسيلة، مج5، ع2، 2021، ص ص418-422.

القبائل الهلالية، وهو أمر مخطط له من قبل الفاطميين، منذ اللحظة التي أقروا فيها ظهير التملك، ويبدو أنهم أرادوا من وراء ذلك ضمان استمرار إمدادات الحبوب والزيتون إلى مصر، على الرغم من إدراكهم أن فرص الإضرار بهذه السهول أكبر من نسب الوصول إلى مبتغاهم الذي فرضته الظروف التي كانت تمر بها مصر.

لقد أسفر دخول الهلاليين للمنطقة على اختلالات في الدولتين الزيرية والحمادية، على الرغم من أن انتشار القبائل الهلالية المتسم بالتغير والانتقال داخل نفس المجال، شهد خلال الفترة الموحدية تحولات مهمة، دفعت بها حاجات سياسية – عسكرية واقتصادية بالنسبة للسلطة الموحدية، فكانت عوامل مهمة في سياق التوطين الهلالي ضمن مفاهيم الاحتواء والتوبة بغرض تحقيق الاندماج.

الفصل الرابع

أثر الحضور الهلالي في الفلاحة والرعي

أولا: مظاهر التحولات الفلاحية في المغرب الأوسط ... من الاقتصاد الزراعي إلى الرعوي

1- ملكية الأراضي والمساحات المزروعة

2- الزراعات المحدودة

أ. البستنة

ب. الزراعة في الواحات

3- المحاصيل الزراعية ومردود الثروة الغابية

4- تكاليف العمل الزراعي

5- الأوساط الزراعية وتأمين المزارعين

ثانيا: الثروة الحيوانية والرعي

1- الثروة الحيوانية

أ. الإبل

ب. الغنم والماعز

ج. الخيل

2- الرعي والمجالات الرعوية في المغرب الأوسط

أ. الرعي المرتبط بالزراعة

ب. الرعي الموسمي والخالص (الانتجاع البعيد)

3- انعكاسات التوسع الرعوي

أثر الحضور الهلالي في الفلاحة والرعي

أَسَّست بعض الدراسات العربية والأجنبية التي اشتغلت على التأثيرات الاقتصادية الناجمة عن الهجرة الهلالية أحكامها على معطيات غير مكتملة في الغالب، ولم يسْعَ أصحابها إلى تفكيك البنية الاقتصادية أو ملاحقة التغيرات الطارئة على الأرض الزراعية وتنظيماتها وحرفة الزراعة والرعي وتربية المواشي، والتي تأثرت بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بالحضور الهلالي في المغرب الأوسط.

التحول في طبيعة النشاطات الاقتصادية جراء الهجرة الهلالية، يمكن تعقُّب ملامحه من خلال بعض الإشارات المصدرية، التي استند إليها القائلون بعمق التأثير البدوي في الانتقال من الاقتصاد الزراعي إلى الاقتصاد الرعوي، على غرار ما ذهب إليه "أندرو واطسون" Andrew M. Watson، وفي المقابل يقلل فصيل آخر من الباحثين ككلود كاهين من التأثير الهلالي في هذا التوجه.

في ظل التباين في الأطروحات التي تحاول رصد التحولات الاقتصادية في القرن الخامس الهجري (11م) والقرون اللاحقة، يكون من المهم الوقوف على المعالم البارزة التي من شأنها بلورة رؤية حول الموضوع، انطلاقا مما أوردته المتون المصدرية للعصر الوسيط في عهدي الحماديين والموحدين، رغم قصور المادة التاريخية عن تقديم صورة واضحة وشاملة عن طبيعة التحولات التي يتغيا هذا الفصل تتبعها، إلا أن ما توفَّر من إشارات تظلُّ متكئا مُهمًّا في سبيل إبراز المظاهر العامة التي طبعت النشاط الفلاحي والرعوي في المغرب الأوسط في ظل الحضور الهلالي.

وعليه نتساءل: ماهي العناصر الاقتصادية التي تتيح لنا معرفة مدى إحداث العرب الهلالية لتحولات ملموسة في واقع الزراعة والرعي بالمغرب الأوسط؟ وكيف انعكس انتشار قبائل بني هلال في سهول الحبوب ومناطق الرعي على هذه الأنشطة الفلاحية من حيث طبيعتها وحجم ممارستها ومردوديتها؟ ثم أيضا من خلال انعكاسات الممارسات الهلالية ضمنها؟

أولا: مظاهر التحولات الفلاحية في المغرب الأوسط ... من الاقتصاد الزراعي إلى الرعوي

على أهمية الزراعة كنشاط اقتصادي رئيس، فإن ابن خلدون يربطها بالمذلّة التي تلحق المشتغل بها،[1] خاصة في حال الاستكثار الذي يؤدي إلى تراكم المغارم، فيكون بذلك الغارم ذليلا.[2] وفي الغالب لا يتنازل البدوي المتغلب للاعتناء بالزراعة، لأنه في عداد المحاربين ومربي المواشي، فيسعى إلى امتلاك الرعاة والعبيد ليقوموا بالأعمال بدلا عنه.[3]

عمّقت النزعة الاستقلالية لدى البدو من تحللهم من كل ما من شأنه أسرهم –وفقا لتصورهم- سياسيا وجغرافيا وحتى معاشيا، وقد عبّر واحد من شعراء البدو وهو الملتمس الضبعي (ت43ق هـ/580م) عن ذم الاستقرار وترك حياة الترحال وانتظار حصاد المحاصيل الزراعية، حينما ذكر قبيلة إيّاد التي أقامت في تكريت على نهر دجلة وامتهن أفرادها الزراعة:[4] (الكامل)

لَسنا كَمَن حَلَّت إيادٌ دارَها تَكريتَ تَنظُرُ حَبَّها أَن يُحصَدا

يجعل "أندرو واطسون"[5] من القرن 05هـ/11م محطة مهمة لملاحظة تراجع الزراعة في المشرق والمغرب الإسلاميين على فترات مختلفة وبدرجات متفاوتة، ويربط ذلك بحركات الغزو والتحركات السياسية التي شهدها العالم الإسلامي آنذاك (السلاجقة، الصليبيون، الأيوبيون، المغول والعثمانيون في الشرق، بنو هلال، المرابطون، الموحدون، النورمان والإسبان في الغرب)، ورغم أن التاريخ الزراعي لهذه المناطق في ظل الغزاة الجدد -كما يسميهم- غير مكتوب، إلا أن ملامح التراجع كانت واضحة، خاصة وأن هذه الغزوات حطّمت منشآت الري وتسببت في هروب الفلاحين، وفي حالة امتهان الزراعة، قد يتم التوجه نحو زراعات لا تتناسب ونوع التربة بحيث تفضل محاصيل الحبوب والرعي، على خلاف ما كان سائدا في فترات الانتعاش الزراعي أين سادت بعض الزراعات المتخصصة، كما سببت هذه الغزوات أيضا الإفراط في فرض الضرائب على الفلاحين وتوسّع الامتيازات العسكرية المتمثلة في الإقطاع، والتي يتمتع أصحابها ببعض المزايا مما يؤثر على الضرائب وطبيعة إدارة الأرض.

---

1) استنادا إلى قول الرسول محمد –ﷺ- عندما رأى السكة (يقصد الأداة المستخدمة في حرث الأرض) ببعض دور النصارى: "ما دخلت هذه دار قوم إلا دخله الذل"؛ أبي عبد الله بن محمد اسماعيل البخاري: صحيح البخاري، كتاب الحرث والمزارعة، باب ما يحذر من عواقب الاشتغال بآلة الزرع أو مجاوزة الحد الذي أمر به؛ رقم الحديث: 2321، دار ابن كثير، دمشق، 1423هـ/2002م، ص558؛ وقد يفسّر الأمر على أن الارتباط بالزراعة وبالأرض عموما يجعل الإنسان مستعدا لتقديم التنازلات في سبيل حفاظه على أرضه من جهة، ويحول بينه وبين الجهاد والغزو من جهة ثانية.

2) ابن خلدون: المقدمة، ص494.

3) استمر هذا النظام إلى القرن 20م عند الطوارق، الرقيبات، العطاونة، وبعض قرى الشعانبة وأولاد جرير؛ عبد المجيد مزيان: المرجع السابق، ص188.

4) جرير بن عبد العزي (عبد المسيح) الملتمس الضبعي: ديوان شعر الملتمس الضبعي – رواية الأثرم وأبي عبيدة عن الأصمعي، تحقيق: حسن كمال الصيرفي، معهد المخطوطات العربية، جامعة الدول العربية، القاهرة، 1970م، ص277.

5) Andrew M. Watson: Agricultural Innovation in the Early Islamic World: The Diffusion of Crops and Farming Techniques, 700–1100, The Journal of Economic History, Vol. 34, No. 1, The Tasks of Economic History (Mar., 1974), p32-33.

تتوافق هذه الرؤية مع الأطروحة التي تذهب إلى أن توافد القبائل العربية إلى المغرب الإسلامي قد تمخض عنه تراجع الأنشطة المرتبطة بالاستقرار والزراعة خاصة، لصالح حياة الترحال وممارسة الرعي، واعتبروا ذلك مظهرا من مظاهر التدهور الاقتصادي، فالزراعة كنشاط اقتصادي أنبل –حسبهم- من الرعي الذي يربطونه بحياة الترحال.[1]

ينفي "كلود كاهن" Claude Cahen المتخصص في التاريخ الاقتصادي للإسلام الرأي الذي يقول بأن البدو مناهضون للزراعة، مستندا في ذلك إلى أمثلة من التاريخ تثبت تكامل نمطي الحياة والإنتاج لتحصيل فوائد متنوعة، ويعتبر ذلك شكلا من أشكال تقسيم العمل، بحيث أن البدو لا يعيشون فقط في علاقات حسن جوار مع المزارعين، لكنهم يضيفون إلى هذه العلاقات اقتصاديا، ذلك أن قطعانهم تساهم في تهيئة بعض المناطق الزراعية لتكون ترتبها في وضع أفضل لممارسة الزراعة، من خلال السماد الطبيعي التي تنتجه بطريقة غير إرادية.[2] لكن هذا إذا افترضنا وجود نشاط زراعي في المناطق التي يمارسون فيها الرعي بالأساس.

لتتبع وملاحقة بعض تفاصيل ملامح التحول الاقتصادي في المغرب الأوسط عقب الهجرة الهلالية، يمكن التركيز على بعض المحاور على النحو الآتي:

1- ملكية الأراضي والمساحات المزروعة

من المهم بداية، وقبل الحديث عن الأثر الهلالي على ملكية الأراضي في المغرب الأوسط، بيان طبيعة ملكية الأرض الفلاحية، التي توزعت بين الأراضي الخاصة، والأراضي الجماعية، وأراضي الوقف وأراضي الدولة، وفقا للتفصيل الذي يتضمنه الشكل الآتي:[3]

---

[1]) فاليرين: المرجع السابق، ج1، ص258.

[2]) Claude Cahen: Quelques Mots Sur Les Hilaliens, Op. cit, p131.

[3]) محمد بلحسان: ملكية الأراضي الزراعية وطرائق استثمارها في المغرب الأوسط من خلال كتب النوازل، دورية كان التاريخية، السنة 10، ع35، مارس 2017، ص142-144.

يعترف أحمد موسى بأن النظرة الفقهية للأراضي وأحكامها، ورغم أهميتها في فهم مشكلة الملكية، إلا أن الإشكاليات المتعلقة بها بخصوص حكم أرض المغرب، هل هي عشرية أم خراجية صلحية، أم خراجية عنوية أم مختلطة، تزيد من تعقيد الفهم حول المسألة؛ المرجع السابق، ص130.

الشكل رقم01: ملكيات الأراضي في المغرب الأوسط

ملكية الأراضي في المغرب الأوسط

أراضي خاصة
(مملوكة لأصحابها لهم حق التصرف فيها).

أراضي جماعية
(تمتلكها جماعة، تشترك في استغلالها).

أراضي الوقف (الحبس).

أراضي الدولة

الأراضي الموات
(البور، المعطلة، البيضاء):
عادة ما يقطعها الحاكم لمن يستصلحها وتتحول لملكيته

أراضي المخزن
(أراضي تابعة للدولة)

أراضي الظهير:
تمنحها الدول لبعض القبائل أو الجماعات، نظير الخدمات التي يقدمونها، وتعطى على سبيل الانتفاع وليس التملك

الأراضي الموظفة:
هي الأراضي التي تفرض عليها الدولة وظيف (ضريبة).

أسفرت الهجرة الهلالية عن تحولات ملحوظة في ملكية الأراضي بالمغرب الأوسط، إذ تقلصت مساحات أراضي الدولة (الأراضي العامة) بتملك الهلاليين للبوادي والسهول، وتركُّز ملكيات الدولة بما هو داخل أسوار المدن.[1] حيث استغل الهلاليون الإقطاعات الكبيرة التي استحوذوا عليها كمراعي لمواشيهم، وبالتالي يكون قدومهم قد أسهم في تفكيك وإضعاف إقطاع الدولة لدى الزيريين كما الحماديين.[2]

أفرز الانتشار الهلالي في مختلف مناطق المغرب الأوسط ظاهرة التضييق على المزارعين، وحملات النهب والسلب التي يقومون بها، والتي تذهب ضحيتها الملكيات الزراعية، وغالبا ما تؤدي هذه الأوضاع المتّسمة بغياب الأمن والشعور بالتهديد وشيوع الخوف إلى هجران الناس أراضيهم، وعرضها للبيع بأثمان رخيصة. وقد انعكس هذا التحول في طبيعة تملك الإقطاعات الذي تميز بتدهور واضطراب نظام ملكية الأرض[3] على طبيعة وكمية المحاصيل الزراعية التي تنتجها الأراضي، خاصة تلك الواقعة على أطراف الدولة وهوامشها والبعيدة عن تأثير هيكلها الإداري والعسكري، فلا نستبعد التراجع الملموس في إنتاج الحبوب والزيتون التي كانت المحاصيل الأكثر زراعة في السهول الداخلية، في وقت كان على الهلاليين الحرص على استدامة النشاط الزراعي بالمناطق التي يستحوذون عليها مادام الحماديون قد صالحوهم على نصف الغلة.

لما أقدم "عبد المؤمن بن علي" على ضمّ الجهات الشرقية أمر "بتكسير بلاد إفريقية من برقة إلى السوس الأقصى طولا وعرضا بالفراسخ والأميال، وأسقط الثلث (1/3) من التكسير في مقابلة الجبال والأنهار والسباخ، وما بقي قسط عليه الخراج وألزم كل قبيلة قسطها من الزرع والورق، وهو أول من أحدث ذلك بالمغرب".[4] والهدف من هذا التوجه في التعامل مع الأرض، في بداية عهد الدولة، هو تأمين مصدر دخل للدولة، خاصة وأن الموحدين أقروا بداية عدم اعتماد بعض القبالات والضرائب غير الشرعية.

عَدَّ الموحّدون أنفسهم فاتحين، لذلك قاموا بتقسيم الأراضي إلى أراضي فتح صلحي وأراضي فتح عنوي، وتحولت بعض الأراضي التي كانت مملوكة إلى فيء، انتزع من أصحابها حق الملكية وأصبح لهم حق الاستغلال فقط، مقابل تسديد الخراج. فالقبائل التي خضعت بالقوة تعتبر أراضيها في عداد أراضي الفتح العنوي مع بقاءها في يد أصحابها مقابل دفع الخراج (بين النصف والربع)، وفي حال أخضعت القبائل بالقوة ثم ثارت على الموحدين، فإن أراضيها تنتزع منها الملكية وتحول إلى الدولة.[5]

رغم غياب المؤشرات المتعلقة بطبيعة الملكية العقارية للأراضي واستغلالها ضمن النصوص التاريخية خلال الفترة الموحدية، إلا أننا لا نستبعد تضرر الهلاليين من السياسة الموحدية في إعادة التكسير ومسح الأراضي الذي

---

[1]) أحمد موسى: المرجع السابق، ص130.

[2]) Allaoua Amara: L'organisation Foncière Du Maghreb Central, Op.cit, p60.

[3]) الجنحاني: المرجع السابق، ص127.

[4]) ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص199؛ ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص112.

[5]) الطاهري: الدولة الموحدية، المرجع السابق، ص193-195.

أقدم عليه الموحدون في بداية عهد دولتهم، حيث كان تخوفهم من ضياع امتيازاتهم مباشرة عندما وصل عبد المؤمن إلى بجاية بغية ضمها.

لكن الدولة الموحدية انتزعت الامتيازات بيد لتمنحها باليد الأخرى، فضمن استراتيجيتها ذات المرجعية الإمبراطورية أقرت إقطاع التسكين[1] الذي يُمنح لبعض القبائل بغرض تسكينها وضمان طاعتها وجعلها بمثابة يد الدولة[2] وأيضا لتحفيزها ومكافئتها على انخراطها في مشاريعها العسكرية داخل حدود الدولة أو خارجها، وفي مواجهة حركات التمرد الداخلية أو القوى الأجنبية.

إقرار هذا النوع من الإقطاع الذي لم يكن بدعة موحدية، فقد راعى إلى جانب ما ذكرناه المتطلبات المرافقة لتغيير المواقع القديمة للقبائل التي تستفيد منه، سعيا لتفكيك التكتلات التي قد يدفع إليها التقارب في مناطق الانتشار، مثلما حدث حينما اجتمع الهلاليون قرب سطيف لمواجهة الموحدين.

وقد كان بعض الخلفاء الموحدين يتفضلون ببعض الإقطاعات كملكيات خاصة تهبها الدولة، مثلما فعل عبد المؤمن بن علي خلال فتحه لبجاية، حينما سأل عائلة بإحدى قرى بجاية عن وضعها الاجتماعي، وبناء على ذلك منحهم "أرضا واسعة للحرث، وأعطى كل واحد منهم ألف رأس من الغنم ومثلها من البقر، وأربعة آلاف دينار، وكتب لهم ظهير بالعز والأمان والإحسان..."، وهم أربع بنين توفي عنهم والدهم.[3]

انعكست سياسة حيازة وتملك الأرض التي تبناها الموحدون، فضلا عن الإجراءات التي قاموا بها من تشجيع المزارعين والإنفاق على المشاريع الزراعية ومنشآت الري على ازدهار الزراعة وتوسع المساحات المزروعة.[4] لكن في المقابل، لم يكن الإقطاع العسكري محفزا للنهوض الزراعي، بقدر ما كان شكلا من أشكال المكافئة.

وكشفت رحلة النميري (القرن 08هـ/14م) عن عمليات الاغتصاب الهلالي لأراضي المجموعات المحلية إلا أنها عكست في الوقت نفسه نجاحها في الاستقرار والدفع باقتصاد قصورها وممارسة الأنشطة الفلاحية والرعوية.[5]

أما ملكية الأراضي الرعوية فتبقى غامضة، حيث كانت في عموم العالم الإسلامي جماعية، وتُفسّر هذه القاعدة بأنها راجعة لتفاهة المنتوج الاقتصادي للأراضي الرعوية، ولانتشار النظام القبيلي أو شبه القبيلي المقتصر على تربية المواشي، وكثيرا ما كانت هذه الأراضي محل صراعات كبيرة بين المجموعات الرعوية التي تزيح بعضها بعضا، ولم تكن اشتراكية الكلأ التي أوصى بها الحديث النبوي معترفا بها إلا في نطاق قبيلي.[6]

رغم إقرارنا بالاختلاف الكبير بين النظام الاقتصادي الإقطاعي / الفيودالي في أوروبا واقتصاد بلاد المغرب، إلا أن ذلك لا ينفي بعض المظاهر التي تشترك فيها الحياة الاقتصادية بالمغرب الأوسط مع الفيودالية، كالصراع

---

[1]) أحمد موسى: المرجع السابق، ص145.

[2]) ابن خلدون: العبر، ج6، ص55.

[3]) ابن القطان: المصدر السابق، ص176.

[4]) صابر عبد المنعم البلتاجي: المرجع السابق، ص365.

[5]) علاوة عمارة: الهجرة الهلالية وأثرها في تغيير البنية الاجتماعية لبلاد الزاب، المرجع السابق، ص20-21.

[6]) عبد المجيد مزيان: المرجع السابق، ص224.

على المجالات الرعوية والموارد المائية وإن كان في غالبه صراعا قبليا، التفكك السياسي في بعض المراحل، دخول قبائل ضعيفة أو صغيرة أو أفراد تحت سلط قبائل وعصب قوية، للحصول على الحماية، إلى جانب فرض الخدمة العسكرية (الجهاد) على القبائل الهلالية مثلا وإقطاعهم الأراضي، هذه مجرد مظاهر لا تندرج في صلب الظاهرة الفيودالية، في ظل غياب الإطار العام للفيودالية في العالم الإسلامي عامة وفي المغرب الأوسط بصفة خاصة.

لقد كان لقدوم الهلاليين دور في تغير وضعية الأراضي الزراعية والرعوية سواء من حيث تملكها وحيازتها أو من حيث الأنشطة الفلاحية والرعوية المزاولة بها، خاصة وأن الهجرة الهلالية تزامنت وفترة الضعف التي كانت تمر بها الدولة الحمادية مع تصاعد أطماع الجماعات الهلالية في الحيازة والاجتياح، لولا كبح هذه الرغبة خلال الفترة الموحدية التي حاول خلفاؤها في بدايتها إعادة ضبط الأمور، وتوظيف الأراضي كورقة اقتصادية لخدمة مشاريعهم في فرض الأمن والإخضاع والتوجيه نحو الجهاد.

لكن، وفي ظل اكتساح الهلاليين للمجالات التقليدية للزراعة والمتمثلة في سهول الحبوب والزيتون وتمكنهم خلال فترات متعددة من تملك إقطاعات ضمن هذا النطاق وما انجر عنه من انعكاس على حجم وطبيعة الإنتاج الزراعي، يكون التساؤل الملحّ حول الزراعات المحدودة التي كانت تمارس داخل أسوار المدن والحصون والمناطق البعيدة عن الانتشار الهلالي، ما هو واقعها في ظل هذه المتغيّرات، وهل كانت محكومة بنفس العوامل والظروف وانتهت إلى نفس النتائج؟

2- الزراعات المحدودة

أ. البستنة

في مقابل بعض الكتابات التاريخية التي تركز على حجم الخراب الهلالي على القطاع الزراعي في بلاد المغرب، تتيح لنا مصادر الرحلة والجغرافية خاصة، ملامح أخرى عن حقيقة الحياة الاقتصادية في المنطقة، وبعض إشاراتها لا تكاد تشير إلى تراجع مهول في هذا القطاع، فالمتتبع لوصف البكري (ت 487هـ/1094م) للمجال الممتد بين برقة وحتى تبسة –على سبيل المثال–، يلاحظ ازدهارا زراعيا وتجاريا.[1] على الرغم من أن نصوص البكري لا يمكن سحبها عنوة على فترة الدراسة، باعتبار أنها لا تغطيها من جهة، وتستند لمعطيات سابقة لها في أحيان أخرى.

من خلال تتبعنا لجل نصوص الرحلة والجغرافية التي أوردت إشارات اقتصادية متعلقة بالمنطقة، فضلا على الدراسة الإحصائية التي أخضعنا لها نص الاستبصار، نلاحظ نوعا من التباين في تصوير الوضع الاقتصادي، خاصة ما تعلق بالزراعة البستنية داخل المدن والزراعة في فحوصها، فمحاولة التوصل إلى نتائج أكثر دقّة وصدقية بخصوص الحياة الفلاحية يستدعي تسليط الضوء على الزراعة بمختلف أصنافها، بما فيها البستنة وغراسة الأشجار المثمرة، وزراعة الحبوب والزراعة في الواحات.

[1]) البكري: المصدر السابق، ص ص 06-49.

يأتي هذا التركيز والتوجه نحو البستنة –رغم أنها برزت وتوسعت منذ الفترة الحمادية–، انطلاقا من أن الهجرة الهلالية قد دفعت إلى الاهتمام أكثر بالبستنة والمساحات المسوّرة والمحصنة ما يحقق اكتفاء غذائيا لساكنة المدن، في ظل تقلص الزراعات شبه الواسعة والنشاطات الزراعية التي تمارس في مساحات مفتوحة في السهول بعيدا المدن. وتأسيسا على ذلك، تم جرد أغلب الإشارات التي أوردتها المصادر بخصوص واقع الزراعة البستنية في المغرب الأوسط ضمن الجدول الآتي:

الجدول رقم03: الإشارات المصدرية حول البستنة والزراعات المحصّنة في المغرب الأوسط

المنطقة	الاشارة المصدرية	المصدر
بونة	**سبوس (زاوى) (قرب بونة)**: "ولها مساجد وأسواق وحمام وهي ذات ثمر وزرع"	البكري: المصدر السابق، ص55.
	بونة: تتميز بإنتاج الفواكه[1] والعسل، وكانت الفواكه تنقل منها إلى المناطق المجاورة، مثل مرسى الخرز.	الإدريسي: المصدر السابق، ص290-291.
	بونة: تحوز مؤهلات كبيرة تسهم في ازدهار زراعة البستنة، في مقدمتها المياه السطحية التي تشق سهلها.	مجهول: المصدر السابق، ص127.
	بونة: من أكثر المناطق إنتاجا للعسل (وإنتاج العسل عادة ما يرتبط بالبستنة)	البكري: المصدر السابق، ص54. مجهول: المصدر السابق، ص127.
القل	"... وهي كثيرة الفواكه والخيرات والعنب فيها كثير، فيها تفاح جليل".	مجهول: المصدر السابق، ص127.
جيجل	عندما استولى عليها رجار، أصبح سكانها يرتفعون إلى الجبل، وفي فصل الشتاء عندما تغادرها المراكب ينزلون إليها، ورغم امتلاكها لمؤهلات زراعية وانتاجية كبيرة؛ إلا أن عدم استقرارها أثر في ديناميكية الإنتاج والاتجار.	الإدريسي: المصدر السابق، ص268.
	جيجل كثيرة العنب والتفاح والفواكه، خاصة وأنها على جبل كتامة الذي يتميز بخصوبته، مما جعلها تنقل بعض فواكهها إلى بجاية.	مجهول: المصدر السابق، ص128.
بجاية	تنتج التين، وسائر الفواكه التي تتعدى حاجة السكان فتوجه إلى مناطق أخرى.	الإدريسي: المصدر السابق، ص259-260.
	حصن تاكلات: (قرب بجاية) به بساتين وجنات ليحيى بن العزيز (صاحب بجاية)، ويتميز بفواكهه ولحومه الكثيرة والرخيصة وسوق دائمة.	الإدريسي: المصدر السابق، ص262.

[1]) وهي ذات الملاحظة التي دوّنها أبو القاسم ابن حوقل (ت367هـ/977م)؛ صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1996، ص77.

	تنتج بجاية كميات مهمة من الفواكه والثمار، وما أهلها لذلك هو المياه السطحية التي تزخر بها حيث تتوزع البساتين على ضفاف نهر جار.	مجهول: المصدر السابق، ص130.
	تتميز بجاية بزراعة التين.	ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، ص142.
مرسى الدجاج[1]	تنتج مدينة مرسى الدجاج الكثير من الفواكه، ويحمل منها التين شرائح طوبا ومنثورا إلى الكثير من الأقطار وهي مشهورة به.	الإدريسي: المصدر السابق، ص259.
	تنتشر فيها البساتين والجنات.	مجهول: المصدر السابق، ص131.
متيجة وجزائر بني مزغناي	سهل متيجة المتصل بجزائر بني مزغناي يتميز بخصوبته ووفرة مياهه.	مجهول: المصدر السابق، ص132.
مدينة قزرونة[2]	"مدينة على نهر كبير، عليه الأرحا والبساتين ويقال لها متيجة".	البكري: المصدر السابق، ص65-65.
شرشال	فيها الكروم والتين وسرفجل غريب كبير وذو أعناق كأعناق القرع الصغار.	الإدريسي: المصدر السابق، ص258.
برشك[3]	تتميز بكثرة الفواكه والمزارع	الإدريسي: المصدر السابق، ص258.
تاجنة[4]	تكثر فيها زراعة أشجار التين.	الإدريسي: المصدر السابق، ص251.
تنس	"بها فواكه وخصب...، وبها من الفواكه كل طريفة ومن السفرجل الطيب المعنق ما يفوت الوصف في كبره وحسنه"	الإدريسي: المصدر السابق، ص251.
	مدينة تنس تتميز بأسواقها الكثيرة والنشيطة، وسلعها رخيصة	مجهول: المصدر السابق، ص133.
مستغانم	وهي مدينة "ذات عيون وبساتين وطواحين ماء، ويبذر في أرضها القطن فيجود، وهي بقرب مصب نهر شلف".	البكري: المصدر السابق، ص69.
	هي مدينة صغيرة، بها أسواق وجنات وبساتين.	الإدريسي: المصدر السابق، ص271.
وهران	"ذات مياه سايحة وأرحاء ماء وبساتين"	البكري: المصدر السابق، ص70.
	نهر سي سي بن دمر (قرب وهران): "نهر كبير عليه بساتين كثيرة"	البكري: المصدر السابق، ص71.
	لها وادي يجري عليه بساتين وجنات وتنتج الفواكه والعسل والسمن والزبد.	الإدريسي: المصدر السابق، ص252.
	مدينة كثيرة البساتين والثمار لوفرة مياهها.	مجهول: المصدر السابق، ص134.

1) حاليا، موقعه بمدخل مدينة زموري البحري، شرق بومرداس.

2) بضواحي مدينة البليدة حاليا.

3) هي مدينة قوراية غربي ولاية تيبازة حاليا.

4) حاليا، هي إحدى بلديات ولاية الشلف، وتقع في الشمال الغربي لمقر الولاية.

هنين	يتميز بكثرة ثماره.	البكري: المصدر السابق، ص80.
ندرومة	تتميز بكثرة مزارعها وثمارها	البكري: المصدر السابق، ص80.
	"كثيرة الزرع والفواكه رخيصة الأسعار. ولها بسائط خصيبة ومزارع كثيرة ... وبساحلها نهر ماء يسيل؛ وهو نهر كثير الثمار"	مجهول: المصدر السابق، ص135.
تبسة	"وهي كثيرة الثمار والأشجار"	البكري: المصدر السابق، ص49.
	"بساتين كثيرة وفواكه عجيبة، ويجود فيها الجوز حتى يضرب به المثل بإفريقية"، وجراء الهجرة العربية والخراب: "والمسكون اليوم من تبسا إنما هو قصرها، وعليه سور من حجر جليل" "ولمدينة تبسا بساتين كثيرة وفواكه عجيبة"	مجهول: المصدر السابق، ص163-164.
باغاية	"ذات أنهار وثمار ومزارع"	البكري: المصدر السابق، ص50.
بلزمة	"وهو في بساط من الأرض كثير المزارع والقرى، وهي مدينة كثيرة الأنهار والثمار والمزارع"	البكري: المصدر السابق، ص50.
نقاوس	وهي كثيرة الأشجار والبساتين وفيها سوق قائمة ومعايش كثيرة، وتنتج الجوز بكثرة حيث يتم نقله إلى المناطق المجاورة	الإدريسي: المصدر السابق، ص264.
	"مدينة كثيرة الأنهار والثمار والمزارع، كثيرة شجر الجوز، منها يحمل الجوز إلى قلعة بني حمّاد وإلى بجاية وإلى أكثر تلك البلاد".	مجهول: المصدر السابق، ص172.
قسنطينة	تتميز بإنتاجها الوفير من الفواكه.	مجهول: المصدر السابق، ص165.
جبل العَنصل[1]	"فيه مدن وعمائر وقرى كثيرة وهو أخصب جبال إفريقية؛ فيه جميع الفواكه من التفاح الجليل والسفرجل الذي لا يوجد مثله في بلد والأعناب الكثيرة"	مجهول: المصدر السابق، ص166.
ميلة	تتميز بكثرة أشجارها وثمارها وفواكهها.	الإدريسي: المصدر السابق، ص265.
سطيف	"حصن سطيف كبير القطر كثير الخلق كالمدينة" كثير المياه والأشجار المثمرة والفواكه، ومنه يحمل الجوز الذي تنتجه إلى سائر الأقطار، ويتميز بطيبته ورخص ثمنه بها.	الإدريسي: المصدر السابق، ص269.
	تتميز بكثرة بساتينها وأشجارها ومياهها مما جعل إنتاج الفواكه والثمار فيها كثير، ما انعكس على الأسعار التي كانت رخيصة.	مجهول: المصدر السابق، ص166.
الغدير (غدير وارّو)[2]	"أسواق عامرة وفواكه كثيرة وهي رخيصة الطعام واللحم وجميع الثمار، قنطار عنب فيها بدرهم"	البكري: المصدر السابق، ص60.

[1]) ويسمى: "جبل بني زلدوي" بالقرب من ميلة، والذي تسكنه قبائل من البربر؛ مجهول: المصدر السابق، ص166.

[2]) حاليا تسمى: برج الغدير، تقع جنوب مدينة برج بوعريريج.

القلعة	تتميز بكثرة الفواكه والخصب ورخاء أسعارها	الإدريسي: المصدر السابق، ص254.
	قلعة أبي طويل (قلعة حماد) تتميز بكثرة الزرع ووفرة الخيرات.	مجهول: المصدر السابق، ص167.
	كانت تتميز قبل الغزو الهلالي بالبساتين "الأنيقة"	ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج3، ص86.
المسيلة	"وللمدينة أسواق وحمامات وحولها بساتين كثيرة، ويجود عندهم القطن، وهي كثيرة اللحم، رخيصة السعر".	البكري: المصدر السابق، ص59.
	تنتج الفواكه والبقول	الإدريسي: المصدر السابق، ص254.
	كثيرة البساتين وفيها المياه العذبة التي تشقها.	مجهول: المصدر السابق، ص172.
مقرة	"هو بلد كبير ذو ثمار وأنهار ومزارع"	البكري: المصدر السابق، ص51.
بسكرة	"كثيرة النخل والزيتون وأصناف الثمار"، وفيها بساتين كثيرة.	البكري: المصدر السابق، ص52.
	تنتشر في بسكرة بساتين الفواكه والزيتون، حيث يشقها نهر ينحدر من جبل أوراس.	مجهول: المصدر السابق، ص173.
	كانت تنقل منها مختلف أصناف الثمار إلى تونس وبجاية.	ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، ص126.
طولقة	"حولها أنهار، وهي كثيرة البساتين بالزيتون والأعناب والنخل والشجر وجميع الثمار"	البكري: المصدر السابق، ص72.
طبنة[1]	"لها بساتين يسيرة"... وبالقرب منها يوجد "نهر بيطام": "إذا حمل سقى جميع بساتينها وفحوصها، ويقول أهلها: بيطام بيت الطعام، لجودة زرعها".	البكري: المصدر السابق، ص51.
	تتميز بكثرة مياهها وبساتينها وزروعها، وإنتاج القطن والحنطة والشعير والفواكه والتمور.	الإدريسي: المصدر السابق، ص263.
	تتميز مدينة طبنة ببساتينها ومياهها، حيث توجه مياه النهر الذي يشقها إلى صهريج كبير تُجمّع فيه المياه، ثم تسقى بها البساتين.	مجهول: المصدر السابق، ص172.
تهودة[2]	"كثيرة الثمار والنخيل والزرع ... ولها أموال كثيرة" "بها أسواق وفنادق ونهر ينصب في جوفيها من جبل أوراس،... وحولها بساتين كثيرة من أصناف الثمار وضروب البذر".	البكري: المصدر السابق، ص72-73.
	"كثيرة البساتين والزرع والنخل وجميع الثمار"	مجهول: المصدر السابق، ص174.
	تنتج بساتينها مختلف أنواع الفواكه والثمار	مجهول: المصدر السابق، ص175.
بادس/باديس[3]	تتميز بأسواقها ومزارعها جليلة.	البكري: المصدر السابق، ص74.

[1]) يعترف روجي إدريس بناء على ما ذكرته المصادر، بعدم تأثير الزحفة الهلالية على ازدهار طبنة؛ المرجع السابق، ج2، ص90.

[2]) اسمها الحالي "سيدي عقبة"، على بعد عشرة كيلومترات جنوب شرق بسكرة؛ ينظر: Mohamed Meouak: Op.cit, p201.

[3]) بينها وبين تهودا مرحلة؛ البكري: المصدر السابق، ص74؛ وموقعها اليوم بادس التي تبعد بحوالي خمس كيلومترات جنوب ليانا؛ ينظر: Mohamed Meouak: Op.cit, p242.

تيهرت	تتميز ببساتينها وتنوع ثمارها، وتميز السفرجل الذي تنتجه لطعمه الجيد ويسمى "القارس".	البكري: المصدر السابق، ص66-67.
	"تتميز بتجارتها وبضائعها وازدهار أسواقها وبمزارعها وضياعها وغلاتها وفواكهها خاصة بوجود العيون ووفرة المياه، وكثرة الأبقار والأغنام ونتاج البراذين والخيل، وإنتاج العسل والسمن.	الإدريسي: المصدر السابق، ص256.
	تشتهر تيهرت ببساتينها وثمارها الكثيرة، وما يميزها هو السفرجل ذو الطعم والرائحة الحسنة.	مجهول: المصدر السابق، ص178.
قلعة هوارة[1]	تتميز بخصوبتها وبساتينها وثمارها ومزارعها.	مجهول: المصدر السابق، ص178.
مليانة	"ذات أشجار وأنهار، تطحن عليها الأرحاء"	البكري: المصدر السابق، ص61.
	تسقى أراضيها وبساتينها وجناتها ومزارعها من نهر شلف وعليه أرحاء.	الإدريسي: المصدر السابق، ص253.
	"ولمدينة مليانة مياه سائحة وأنهار وبساتين فيها جميع الفواكه، وهي من أخصب بلاد إفريقية وأرخصها أسعارا".	مجهول: المصدر السابق، ص171.
مدينة الخضراء[2]	"كثيرة البساتين"	البكري: الصدر السابق، ص61.
	تتميز بزراعة الكروم والسفرجل، ولها سوق يقصده سكان المنطقة.	الإدريسي: المصدر السابق، ص253.
تلمسان	**قلعة ابن الجاهل**: (جنوب تلمسان) تتميز بكثرة ثمارها وأنهارها.	البكري: المصدر السابق، ص77.
	قرية العلويين: قرب تلمسان، "لهم بها جنات ومياه جارية من عيون".	الإدريسي: المصدر السابق، ص250.
	"كثيرة الخصب رخيصة الأسعار كثيرة الخيرات والنعم"	مجهول: المصدر السابق، ص176.
مازونة	تتميز بالبساتين والمزارع، ولديها يوم سوق يجتمع فيه البربر بالفواكه والألبان والسمن، وتتميز بإنتاجها الكبير للعسل، "وهي من أحسن البلاد صفة وأكثرها فواكه وخصبا".	الإدريسي: المصدر السابق، ص268.

التعليق على نتائج الجدول وتحليلها

الانطباع الذي عكسه نص الاستبصار حول ازدهار البستنة، تعمّق أكثر مع الإشارات التي رصدتها بقية المصادر، خاصة كتب الرحلة والجغرافية، إذ تبين النزوع أكثر نحو الزراعة المحصنة داخل المدن، وهو ما دفعنا أيضا إلى تحديد طبيعة المدن النماذج، حتى نتبين الملمح بأكثر دقة.

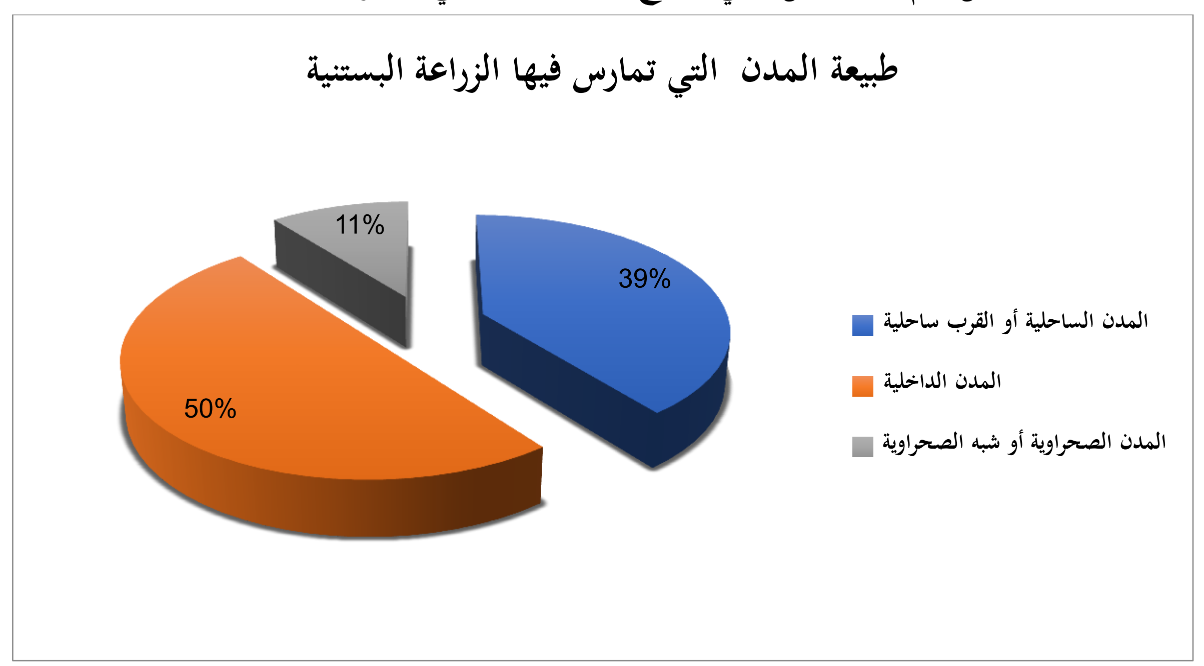
[1]) هي قلعة بني راشد حاليا، جنوب غرب مدينة غليزان.

[2]) قرب تنس، وهي مدينة كبيرة يمر بقربها نهر عليه الأرحاء، وتسكنها قبائل مدغرة وبنو دمر ومديونة وبنو واريفن؛ البكري: المصدر السابق، ص75.

بالعودة إلى المدن الواردة في الجدول السابق، يمكن تصنيفها كالآتي:

مجموع المدن النماذج	الساحلية أو قرب ساحلية	المدن الداخلية	شبه الصحراوية
38	15	19	04

الشكل رقم02: تمثيل بياني يوضح طبيعة المدن التي تنتشر فيها زراعة البستنة



يعكس التمثيل البياني لانتشار زراعة البستنة الحضرية، توزيعا يتناسب إلى حد ما مع انتشار الحواضر والمدن والقرى المحصنة، خاصة وأن المنطقة الداخلية التي تتربع على الهضاب والتلول لديها من الإمكانيات الزراعية ما يجعلها في الصدارة رغم أن النسبة الموضحة لا تبدو كبيرة مقارنة بما تملكه من مؤهلات.

تدفعنا هذه التحليلات إلى البحث في محفّزات استمرار النشاط البستني في مدن المغرب الأوسط -بالشكل الذي تقدمه المصادر- خلال فترة الدراسة وحدود الارتباط بالهلالية، ويمكن أن نقدم دعما لذلك، الاعتبارات الآتية:

- البعد الجغرافي عن التأثير الهلالي:

الكثير من الجهات الشمالية الساحلية والقرب ساحلية لم يصلها المد الهلالي بشكل كبير، وبالتالي استمر فيها النشاط الزراعي والبستني بصفة خاصة دون وجود تهديدات أمنية خطيرة، من شأنها الحد من العمل الفلاحي، فضلا عن كونها تشرف على بعض الموانئ التي جعلتها منفتحة على التجارة المتوسطية.

مع أن هذه المدن لم تكن بعيدة عن التأثيرات المتوسطية، فمدينة جيجل مثلا كانت عرضة لحملات ملك صقلية "رجار" روجر الثاني Roger II (1095-1154م)، مما يدفع سكانها للُّجوء إلى جبل على بعد ميل

منها، وفي فصل الشتاء عندما تغادرها المراكب ينزلون إليها، ورغم امتلاكها لمؤهلات زراعية وإنتاجية كبيرة خاصة في إنتاج الألبان والسمن والعسل والزروع والحوت الكثير؛ إلا أن عدم استقرارها أثر في ديناميكية الإنتاج والاتجار.[1]

وتأكيدا لما ذكرناه سابقا، فإن بعض الباحثين[2] يذهبون إلى أن الجزء الغربي من المغرب الموحدي كان النشاط البستني فيه أكثر ازدهارا، والسبب في ذلك أن الجهات الشرقية عانت من الغزو الهلالي والنورماندي، في الوقت الذي كانت بعض مدن الجزء الغربي تحقق الاكتفاء الذاتي.

- نتائج محاولات تفكيك العصبية الهلالية وتغريب الهلاليين:

شكّلت الصدمة الأولى التي رافقت دخول الهلاليين تأثيرا سلبيا بلا شك في الزراعة المستقرة والبستنة بصفة خاصة، غير أن هذا التأثير يبدو أنه أخذ في التراجع، خاصة مع بداية نقل أعداد مهمة من الهلاليين إلى الجهات الغربية والأندلس من طرف السلطة الموحّدية، مما انعكس إيجابا على الوضع الزراعي في المنطقة، وإن كان النص الذي نستشهد به يخص بلاد الجريد -وهو مؤرخ في رمضان 583هـ/1187م-، إلا أن تقاطعه الجغرافي مع مجال دراستنا وتشابه الظروف يجعلنا نستند عليه، حيث تذكر إحدى الرسائل الموحّدية أن بلاد الجريد كانت وفيرة المحاصيل الزراعية، غنيّة بالحدائق والجنّات، ومدنها تحقق اكتفائها الذاتي وأمنها الغذائي، بل كان يُصدّر منها إلى غيرها مختلف أنواع الثمار، خاصة من توزر حاضرة هذا الإقليم.[3]

تشير بعض الدراسات[4] إلى أن اتساع نطاق الزراعة في الساحل بما فيها زراعة القمح والشعير وقصب السكر وزيادة إنتاج الأخشاب، في ظل انحسار الزراعة في السهول والتوجه القوي نحو زراعة البستنة، هو في جانب منه انعكاس لجهود الموحدين الرامية لتوفير الظروف المناسبة للزراعة، رغم أنهم شُغِلوا منذ الثلث الأخير من القرن 06هـ/12م بمحاربة الممالك النصرانية في الأندلس والتّصدّي لبني غانية في إفريقية والقبائل العربية المتحالفة معهم.

- التركيبة القبلية لمحيط المدن وفحوصها:

استمر البربر في سكنى فحوص بعض المدن، ما شكّل حاجزا بشريا في وجه التأثير الهلالي، وحال دون اختراق الجماعات البدوية لها، فمدينة مليانة مثلا، التي كان يسكنها بنو واريفن، حافظت على حيويتها الزراعية.[5] خاصة وأن جنوبها "جبل وانشريس" كانت تسكنه قبائل البربر كمكناسة وحرسون وأوربة وبنو أبي خليل وكتامة

[1]) الإدريسي: المصدر السابق، ص268.

[2]) بغداد غربي: العلاقات التجارية للدولة الموحدية، رسالة دكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية، قسم الحضارة الإسلامية، جامعة وهران1، 2015/2014، ص32.

[3]) مجموع رسائل موحدية، الرسالة 31، ص197.

[4]) كمال خلفات: العلاقات الاقتصادية بين المغرب الأوسط والمغربين الأدنى والأقصى من القرن 04-07هـ/10-13م، أطروحة دكتوراه الطور الثالث في تاريخ المغرب الأوسط وحضارته في العصر الوسيط، قسم التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الاسلامية، قسنطينة، 2019-2020، ص81.

[5]) البكري: المصدر السابق، ص69.

ومطاطة وبنو مليلت وبنو وارتجان وبنو أبي خليفة ويصلاتن وزولات وبنو واتشموس وزواوة ونزار ومطغرة وواترين وبنو أبي بلال وايزكروا وبنو أبي حكيم وهوارة.[1]

– حصانة المدن:

لاقى الهلاليون صعوبات في اقتحام بعض المدن الداخلية والقرب ساحلية، الأمر الذي جعلها تحافظ على وتيرتها الاقتصادية إلى حد ما، فمدينة ميلة[2] مثلا، التي عجز العرب عن اقتحامها نظرا لحصانتها ودفاع سكانها، رغم أنهم استطاعوا السيطرة على الجبال والأقاليم المحيطة بها،[3] والتي كانت تتميز بكثرة أشجارها وثمارها وفواكهها.[4] وفي مدينة تبسة التي تعرضت للخراب جراء الهجرة العربية، انحصر النشاط الزراعي بها في قصرها، حيث يقول صاحب الاستبصار: "والمسكون اليوم من تبسا إنما هو قصرها، وعليه سور من حجر جليل".[5]

وبالتالي، فإن المدن المحصّنة حافظت إلى حد ما على جزء من الممارسات الزراعية داخل أسوارها، على الرغم من أن غزو البداوة لمحيطها قد صعّب من استمراريتها بنفس الوتيرة والإنتاجية.

– انحصار الطاقات المنتجة داخل المدن:

نذهب إلى القول بأن جزءا من اليد العاملة المشتغلة في القطاع الزراعي انسحبت إلى المدن بعد أن وصل الاجتياح الهلالي فحوصها وضواحيها، وهو الاستنتاج الذي يسعفنا في تأكيده الإسقاط التاريخي لعملية لجوء التجار عند سقوط القيروان إلى القلعة بحثا عن بيئة استثمارية أفضل، ورغم أن هذا الانتقال حضري-حضري، إلا أن قاسمه المشترك هو الابتعاد عن دوائر الخطر.

ونرجح أن عددا من الفلاحين ممن كانوا يزاولون أنشطتهم الفلاحية في فحوص المدن وعلى ضفاف الأودية خاصة في زراعة وإنتاج الحبوب، قد تحولوا إلى ممارسة زراعة البستنة داخل المدن.

– طبيعة الزراعات والمحاصيل البستانية:

تنوعت الزراعات والمحاصيل البستانية المنتجة في المغرب الأوسط، فقد أشار الرحالة والجغرافيون إلى انتشار زراعة التين في مناطق مختلفة من المغرب الأوسط، خاصة في جبال زواوة وقسنطينة وجيجل ونقاوس، ومرسى الدجاج الذي يجفف تينه ويصدّر. كما انتشرت زراعة الجوز والتفاح والإجاص والعنب في بجاية وجيجل ونقاوس وسطيف...[6] وبالتالي فإن انتشار الزراعة البستنية وتنوع محاصيلها، خلال فترة الدراسة لم يقتصر على الأجزاء الغربية، فحتى الجزء الشرقي من بلاد المغرب وخاصة شرق المغرب الأوسط استمر في ممارسة هذا النشاط في كثير

[1]) الإدريسي: المصدر السابق، ص253.

[2]) "وأهلها من أخلاط البرابر جملة والعرب تحكم بخارجها، وكانت في طاعة يحيى بن العزيز صاحب بجاية"؛ الإدريسي: نفسه، ص265.

[3]) عبد العزيز فيلالي وإبراهيم بحاز: مدينة ميلة في العصر الوسيط، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2017، ص42.

[4]) الإدريسي: المصدر السابق، ص265.

[5]) مجهول: المصدر السابق، ص163-164.

[6]) فاليرين: المرجع السابق، ج1، ص266.

من المدن، ومنها ما كانت تصدر منتوجاتها إلى الأقاليم المجاورة خاصة في فترات الاستقرار السياسي. وهذه الزراعات كانت تتوافق في الغالب مع سكن المدينة والقرية، حيث تنتشر البساتين المحاذية للبيوت.

- انعكاس السياسة الاقطاعية للسلطة:

انعكست السياسة الإقطاعية للسلطة على طبيعة انتشار النطاقات الزراعية، وربما راعى إقطاع الأراضي المخزنية المخصصة تحديدا للفلح لصالح بعض النخب هذا المعطى، فغالبا يستفيد هؤلاء من أراضي تستجيب لشروط الأمن ومن بينها قربها من المناطق المأهولة والمدن حتى يتسنى لمنتفعيها استغلالها بممارسة الأنشطة الفلاحية.

اتّجهت السلطة الزيانية نحو تكريس هذا المشهد، من خلال سياستها لإقطاع الأراضي لصالح النخب التلمسانية من الفقهاء والمتصوفة والشرفاء، ويسمى هذا النوع من الإقطاعات بالمدشر، حيث تمارس فيه الفلاحة، ما جعل الكثير من البيوتات التلمسانية تتوارث حرفة الفلاحة،[1] ومثال ذلك مدشر "ترشت" قرب الحنايا على أميال من تلمسان كان قد أقطعه السلطان يغمراسن بن زيان لأبي إسحاق التنسي (ت680هـ/1280م)، الذي سعى بدوره لتملك قطعة ضمنه بشرائها وبالتالي وسّع من مساحة هذا الإقطاع وزرعه، خاصة وأنها كان معفى من أشكال الجبايات.[2] ويفسّر الطاهر بونابي ظاهرة الاحتراف السلالي للفلاحة في البيوتات التلمسانية التي جمعت بين ثنائية البداوة وحرفة الفلاحة بهذه الامتيازات التي حصّلتها.[3]

وعلى الرغم من انعكاس هذه السياسة على نشاط البستنة داخل المدن والمناطق المأمونة، إلا أنها لم تؤثر بقوة في طبيعة النشاط نظرا لمحدوديتها وأفق العمل الفلاحي لدى المنتفعين بها في الغالب.

ب. الزراعة في الواحات:

أكثر الإشارات المصدرية حول الزراعة الواحاتية تخص الصحراء الشرقية للمغرب الأوسط، غير أنها تعود في أغلبها لمراحل سابقة للوجود الهلالي بالمنطقة، رغم أن الزاب شهد حضورا هلاليا مبكرا.

تشير المصادر الجغرافية إلى انتشار زراعة الواحات بما فيها النخيل –التي تعود إلى فترات قديمة- في الزاب وطبنة وتهودة وبادس؛[4] كما كانت واركلان وريغ من المناطق المشتهرة بإنتاج التمور،[5] فضلا عن واحة طولقة[6] وبسكرة، التي عرفت انتشار زراعة النخيل والزراعات المرافقة له، فكانت تنتج عدة أنواع من التمور،[7] منها "الصيحاني" الذي يسمونه: "الكسبا"، ويعرف في بلاد المشرق بـ "السيماني"، ويعتبر من أجود أنواع التمور، إضافة

---

[1]) الطاهر بونابي: مظاهر المجال والدين والمجتمع، المرجع السابق، ص177.

[2]) أبو عبد الله محمد بن مرزوق التلمساني: المناقب المرزوقية، تحقيق: سلوى الزاهري، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 2008، ص280.

[3]) الطاهر بونابي: مظاهر المجال والدين والمجتمع، المرجع السابق، ص177.

[4]) البكري: المصدر السابق، ص72-73؛ الإدريسي: المصدر السابق، ص263؛ مجهول: المصدر السابق، ص ص171-175.

[5]) ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، ص126.

[6]) البكري: المصدر السابق، ص72.

[7]) الإدريسي: المصدر السابق، ص264.

إلى نوع آخر يسمى "اللبارى"، وهو أبيض وأملس، ولجودته وتميزه، كان عمال عبيد الله الشيعي يرسلونه إليه خصيصا.[1]

من خلال مقابلة خريطة الانتشار الهلالي ومناطق انتشار زراعة النخيل والبستنة في الواحات، يتضح التقاطع بينهما، حيث كانت بلاد الزاب من أكثر المناطق التي اختارتها المجموعات الهلالية للانتشار والاستقرار، ومع ذلك يبدو أن إنتاج التمور استمر في ظل الانتشار الهلالي، رغم صعوبة معرفة مستوى الإنتاج وكميته، فالمرجح أن الصراع الذي حدث في الزاب بمجيء الهلاليين قد أثر في تراجع الإنتاج مرحليا، على الرغم من أننا لم نتوصل بأصول تثبت أو تنفي ذلك.

يذكر ابن خلدون أن قبائل مضغرة أخذت طريقة زراعة النخيل عن العرب: "ومن قبائل مضغرة أيضا بصحراء المغرب كثيرون نزلوا بقصورها واغترسوا شجرة النخل على طريقة العرب".[2] مع أننا لا نجزم إن كان ابن خلدون يقصد فعلا بالعرب الهلاليين أو عرب الفتح أو غيرهم.

ومعلوم أن القصور تحتوي على الواحات والبساتين وتنتشر فيها الزراعة، والكثير من القبائل العربية استوطنت القصور بالصحراء، وبالتالي فقد كانت تمارس المهن التي يفرضها هذا النمط من الاستقرار وهو زراعة النخيل والبستنة الواحاتية، مع ما يلزمه من اعتماد على الري. ولا نستبعد تضرر الزراعة في القصور التي خرّبها العرب.

3- المحاصيل الزراعية ومردود الثروة الغابية

تأكيدا للاستنتاجات السابقة، لا بد من تفحّص المصادر التي قدّمت بعض الملامح الاقتصادية المتعلقة بالمحاصيل الزراعية في المغرب الأوسط خلال فترة الدراسة، طبيعتها وحجمها، للرسُوّ على نتائج أكثر دقة، رغم أن معالجة التراجع أمر في غاية الصعوبة والتعقيد، بسبب:

- حضور معطيات تخص القرن 04هـ /10م مندمجة مع معطيات القرنين 05 و06هـ/11-12م خاصة في المصادر الجغرافية.

- وتيرة التراجع لم تحدث دفعة واحدة، بل كانت من بطيئة إلى متوسطة، بسبب مقاومة المُلَّاك والمزارعين والسلطة.

يمكن تتبع بعض مؤشرات الإنتاج الزراعي في المغرب الأوسط، من خلال التركيز على الحبوب، المنتجات البستنية، والزيتون:

---

[1]) البكري: المصدر السابق، ص52؛ مجهول: المصدر السابق، ص173.

[2]) ابن خلدون: العبر، ج6، ص158.

أ. زراعة وإنتاج الحبوب: [1]

الحبوب هي المادة الغذائية الرئيسة في مائدة المغرب الأوسط، والمنطقة معروفة منذ الفترة القديمة بإنتاج القمح خاصة، وتتركز مناطق زراعة الحبوب بصفة خاصة في السهول الساحلية والداخلية:

الجدول رقم04: انتشار زراعة الحبوب في المغرب الأوسط.

المنطقة	الإشارة المصدرية	المصدر
بونة	**بونة:** كانت بونة، تنتج القمح والشعير في مواسم الإصابة، لكن حالها تردت وضعفت وقلت عمارتها بعد أن تغلبت العرب على أراضيها الواسعة واستيلاء رجار عليها سنة 548هـ.	الإدريسي: المصدر السابق، ص291.
سبوس (زاوى) (قرب بونة):	تتميز بزروعها.	البكري: المصدر السابق، ص55.
مدينة بجاية:	بواديها ومزارعها تنتج بكثرة الحنطة والشعير.	الإدريسي: المصدر السابق، ص259-260.
مدينة مرسى الدجاج:	تتميز الأراضي المحيطة بها بخصبها، فتنتج الكثير من الحنطة.	الإدريسي: المصدر السابق، ص259.
جزاير بني مزغنى:	في باديتها تعيش قبائل البربر التي تزرع الحنطة والشعير وتربي المواشي من الأبقار والأغنام والنحل، لذلك فإنهم ينتجون بكثرة السمن والعسل ما يفوق حاجتهم، لذلك يتم تصديرها إلى الأقاليم المجاورة والبعيدة.	الإدريسي: المصدر السابق، ص258.
مدينة قزرونة	"مدينة على نهر كبير، عليه الأرحا والبساتين ويقال لها متيجة، ولها مزارع ... وبها عيون سائحة وطواحين ماء".	البكري: المصدر السابق، ص65-65.
شرشال:	إنتاجهم من الحنطة والشعير يفوق حاجتهم.	الإدريسي: المصدر السابق، ص258.
مدينة برشك:	تتميز بكثرة الحنطة والشعير.	الإدريسي: المصدر السابق، ص258.
مدينة تنس:	"بها فواكه وخصب وبها إقلاع وحط ولها أقاليم وأعمال ومزارع وبها الحنطة ممكنة جدا وسائر الحبوب موجودة وتخرج منها إلى كل الآفاق في المراكب".	الإدريسي: المصدر السابق، ص251.
	كانت تنس من المناطق المنتجة للحبوب، جزء منه يتم تصديره إلى الضفة الشمالية خاصة نحو السواحل الأندلسية.	ابن سعيد المغربي: المصدر السابق،

[1]) لتتبع توزيع الانتشار الجغرافي لأنواع الزراعات والمحاصيل الزراعية في الدولة الحمادية، ينظر: بورويبة: المرجع السابق، ص129-134.

		ص142.
قصر الإفريقي[1]	"ذات مسارح ومزارع كثيرة".	البكري: المصدر السابق، ص53.
مدينة تيفاش[2]	"بها عيون ومزارع كثيرة".	البكري: المصدر السابق، ص53.
تامديت[3]	"لها مزارع واسعة وحنطتها موصوفة".	البكري: المصدر السابق، ص53.
قرية مسكيانة	"قرية عامرة قديمة وبها زروع ومكاسب وعيون".	الإدريسي: المصدر السابق، ص295.
مدينة باغاي	"وكانت لها بواد وقرى وعمارات والآن كل ذلك قليل فيها، وحولها عمارات برابر يعاملون العرب وأكثر غلاتهم الحنطة والشعير وقبض معاونيها وتصرف أحوالها لأشياخها".	الإدريسي: المصدر السابق، ص276.
قسنطينة	"بها أسواق وتجار وأهلها مياسير ذوو أموال وأحوال واسعة، ولهم معاملات للعرب وتشارك في الحرث والادخار، فالفحوص المحيطة بها ممتدة وتزرع فيها الحنطة والشعير، والحنطة تقيم بها في مطاميرها مائة سنة لا تفسد" ذلك أن مطاميرها من الحجر نظرا لطبيعتها التضاريسية، ولكل دار مطمورتان وثلاث وأربع منحوتة في الصخر.	الإدريسي: المصدر السابق، ص265-266.
مدينة تامسلّت	"مدينة جليلة للزرع والضرع".	البكري: المصدر السابق، ص53.
مدينة دكّمة[4]	"على نهر كبير ذات مزارع ومسارح".	البكري: المصدر السابق، ص53.
فحص عجيسة[5]	هو فحص واسع "كثير الزرع والضرع".	مجهول: المصدر السابق، ص167.
الغدير (غدير وارّو)[6]	فيها العيون، من بينها عين مخلد التي ينبعث منها نهر سهر[7] الموجود بالمسيلة، وساهم وجود العيون في انتشار الأرحاء.	البكري: المصدر السابق، ص60.

[1]) مدينة سوق أهراس حاليا.

[2]) تيفاش، حاليا بلدية ضمن دائرة مداوروش ولاية سوق أهراس.

[3]) مدينة مداوروش حاليا.

[4]) قرب مدينة الغدير.

[5]) بالقرب من مدينة الغدير.

[6]) "وبشرق مدينة الغدير مدينة أولية يقال لها طِرْفَلَة لا تعدل بها قرية، وهم يقولون طرفلة طرف من الجنة"؛ البكري: المصدر السابق، ص60؛ ويبلغ عدد سكان غدير وارّو حوالي ستون ألفا (60.000 نسمة): "يسكنه بنو يغمراسن من هوارة على عيون طيبة يعتدّون في ستين ألفا"؛ البكري: المصدر السابق، ص76.

[7]) "تخرج منه عيون نهر سهر، وهو نهر المسيلة وهو المعروف بالوادي الرييس"؛ البكري: المصدر السابق، ص54.

	الغدير مدينة محدثة وأهلها من البدو لهم أراضي ومزارع وتتميز بمحاصيلها الزراعية الوفيرة.	الإدريسي: المصدر السابق، ص261.
مدينة القلعة	"من أكبر البلاد قطرا وأكثرها خلقا وأغزرها خيرا وأوسعها أموالا وأحسنها قصورا ومساكن وأعمها فواكه وخصبا وحنطتها رخيصة ولحومها طيبة سمينة".	الإدريسي: المصدر السابق، ص254.
	فيها ذخائر بني حماد وبها أموالهم ومدخراتهم مختزنة، وبها دار الأسلحة ومخازن الحنطة التي تتميز بمحافظتها على خصائص الحنطة بحيث تخزن العام والعامين دون أن تفسد أو تتغير،[1] وتتميز بكثرة فواكهها ولحومها ورخاء أسعارها، ولأنها بلاد زرع وخصب فإن السوائم والدواب تصلح فيها "وفلاحتهم إذا كثرت أغنت وإذا قلّت كفت فأهلها أبد الدهر شباع وأحوالهم صالحة".	الإدريسي: المصدر السابق، ص261.
المسيلة[2]	تتميز بمزارعها الشاسعة، ونظرا لوفرة مياهها فقد كانت تنتج الفواكه والبقول واللحوم والقطن والقمح والشعير، ويربي أهلها سوائم الخيل والأغنام والبقر، وتتميز المسيلة بكثرة سكانها وتجارها.	الإدريسي: المصدر السابق، ص254.
التيطري	**قرية ابن مجبر**: كثيرة المياه والزروع، تسكنها زناتة.	الإدريسي: المصدر السابق، ص256.
	مدينة ماما: تتميز بمزارعها وغلاتها وكثرة حنطتها.	الإدريسي: المصدر السابق، ص256.
	قرية ماورغة: تتميز بزراعاتها وخصبها ومياهها الجارية.	الإدريسي: المصدر السابق، ص254.
	قرية ريغة: تتميز بأراضيها الزراعية الواسعة.	الإدريسي: المصدر السابق، ص254.
مدينة مليانة	"ذات أشجار وأنهار، تطحن عليها الأرحاء".	البكري: المصدر السابق، ص61.
	تسقى أراضيها وبساتينها وجناتها ومزارعها من نهر شلف وعليه أرحاء.	الإدريسي: المصدر السابق، ص253.
مدينة مقرة	بها المزارع والحبوب، وتنتج بكثرة الكتان.	الإدريسي: المصدر السابق، ص263.
طبنة	تتميز بإنتاج الحنطة.	الإدريسي: المصدر السابق، ص263.
مدينة بادس	"يزدرعون بها الشعير مرتين في العام على مياه سايحة كثيرة عندهم".	البكري: المصدر السابق، ص74.
	التي تعتبر آخر إقليم بلاد الزاب يزرع فيها الشعير مرتين في السنة، بفضل المياه السطحية التي تتوفر عليها.	مجهول: المصدر السابق، ص175.

[1]) يبدو أن مناخ المنطقة شبه الجاف، قليل الرطوبة هو ما يجعل الحبوب المخزنة تحافظ على خصائصها الغذائية وسلامتها.

[2]) يسكن المسيلة من البربر بنو برزال ودنداج وهوارة وصدراتة ومزاتة؛ الإدريسي: المصدر السابق، ص254.

تيهرت	من بين أبواب تيهرت هناك باب يسمى باب المطاحن. ونعتقد أن تسمية باب المطاحن ترتبط بكثرة المطاحن التي تطحن الحنطة.	البكري: المصدر السابق، ص66-67.
فحص زَيْدُور[1]	يتميز بالإنتاج الوفير للقمح.	مجهول: المصدر السابق، ص134.
تلمسان	عليها نهر سطفّيف الذي عليه الطواحين.	البكري: المصدر السابق، ص77.

التعليق على الجدول وتحليل النتائج:

تتيح المعطيات التي يعكسها الجدول أعلاه، مجموعة من الملاحظات المهمة ذات الصلة بالتأثير الهلالي على زراعة وإنتاج الحبوب في المغرب الأوسط منذ دخول الهلاليين وإلى غاية سقوط الدولة الموحدية، ومنها:

* المناطق الساحلية وشبه الساحلية التي استمرّت في منأى عن التأثير الهلالي المباشر، استمر فيها إنتاج الحبوب، وتشير ملاحظات الرحالة والجغرافيين إلى المحاصيل الوفيرة من القمح والشعير، التي حققت فيها الاكتفاء الذاتي وكان ينقل من بعضها إلى مدن أخرى كشرشال وتنس. وبالمقابل، يسجل تراجع الإنتاج في بعض المناطق الساحلية كبونة، بسبب الإضرار الهلالي والنورماندي. مع أن بعض المناطق الساحلية لم تكن تمارس فيها زراعة الحبوب، حيث يشير الإدريسي إلى أن مدينة مرسى الخزر المعروفة بعدم توفرها على الأقوات، وتجلب إليها من بوادي العرب المجاورة.[2] وهذا يؤكد على استمرار زراعة الحبوب في بعض المناطق التي ينتشر فيها العرب، وعموما فإن المعطيات المتعلقة بريف الساحل (السهول الساحلية) مختلفة عن المعطيات المتعلقة بالسهول الداخلية (سهول الحبوب) حيث الحضور القوي للهلالية.

* الحديث عن انتشار الطواحين في بعض المناطق، يحيلنا إلى الإقرار بانتشار زراعة وإنتاج الحبوب فيها، والملاحظ أن الإشارات حولها تتعلق بالمناطق الساحلية التي تحوز شبكة هيدروغرافية سطحية، تسمح باستغلالها في الري وفي تشغيل الطواحين المائية، وبالتالي فقد ارتبطت زراعة الحبوب في بعض المناطق بنطاقات السقي، حيث كانت المزارع ضمن المساحات المسقية التي تستفيد من مياه الأودية والينابيع الطبيعية، خاصة في ضواحي وفحوص المدن.

* عُرفت الفترة الحمادية بزراعة الحبوب (القمح والشعير) حيث انتشرت في كل من قسنطينة، قلعة بني حماد، باغاية، طبنة، بونة، جيجل، سطيف، بجاية، الجزائر، متيجة، شرشال، برشك، بنطيوس.[3] وعرفت بعض الفترات السابقة للغزو الهلالي إنتاجا مهما للحبوب في بلاد المغرب ارتبطت بسنوات الرخاء والتساقط، حيث يشير ابن أبي زرع[4] في أحداث سنة 380هـ/990م: "... كان الزرع لا يجد من يشتريه لكثرته، وكان الحراثون يتركونه في

[1]) يمتد بين أرشقول وتلمسان.

[2]) الإدريسي: المصدر السابق، ص290-291.

[3]) بورويبة: المرجع السابق، ص129.

[4]) المصدر السابق، ص102.

فدادينهم ولا يحصدونه لرخصه". غير أن انتشار الهلالية في المغرب الأوسط، كان له أثر في تقلص المساحات المزروعة وبالتالي الإنتاج الزراعي وزراعة الحبوب خاصة، لأن مزارع الحبوب تنتشر خارج المدن المحصنة، عكس زراعة البستنة. ويؤكد عمر موسى[1] على انحسار المناطق المزروعة في البلاد الشرقية مقابل ازدهار سواحل تل الأطلس الشرقي، وحتى جهود الموحدين في إعادة ازدهار هذه المناطق لم تفلح إلا جزئيا، كنجاحهم في فحوص مليانة وعجيسة والتيطري، أما مظاهر الإخفاق فتظهر في المنطقة الممتدة من القيروان إلى قلعة بني حماد، والمجالات شبه الصحراوية. وانعكس وضع زراعة الحبوب في ظل هذه الظروف على المحصول، حيث تقلصت زراعة القمح والشعير والحنطة وتركزت داخل أسوار المدن، واختفت بعض الزراعات من مناطق مختلفة في المغرب الأوسط كالزعفران وقصب السكر.

فضلا على أن اشتراك سكان قسنطينة مع العرب في الأعمال الزراعية وادخار المحاصيل والحبوب،[2] توجد مؤشرات عن توجه بعض الجماعات الهلالية إلى الاستقرار (المؤقت غالبا) لأنه مرتبط بزراعة الحبوب التي تكون موسمية ومتعلقة بفترات معينة عكس الأشجار المثمرة والبستنة التي تتطلب استقرارا دائما.

* مسألة أخرى، متعلقة بالمصادر التي أشارت إلى الإنتاج الزراعي والحبوب خاصة، مثل الإدريسي، تدفعنا إلى التساؤل إن كان جزء من الأحكام التي قدّمها تعود إلى فترة سابقة لوصول الهلالية لبعض المناطق في المغرب الإسلامي، بما أنه زاوج في كتابته بين الملاحظة والرجوع إلى المصادر السابقة، كابن حوقل، خاصة وأن بعض ما تضمنته نزهة المشتاق تشير إلى تصوير وضعية بعض المناطق قبل القرن السادس الهجري (12م)، مثلما هو الحال عندما يتحدث عن المسيلة والقلعة.

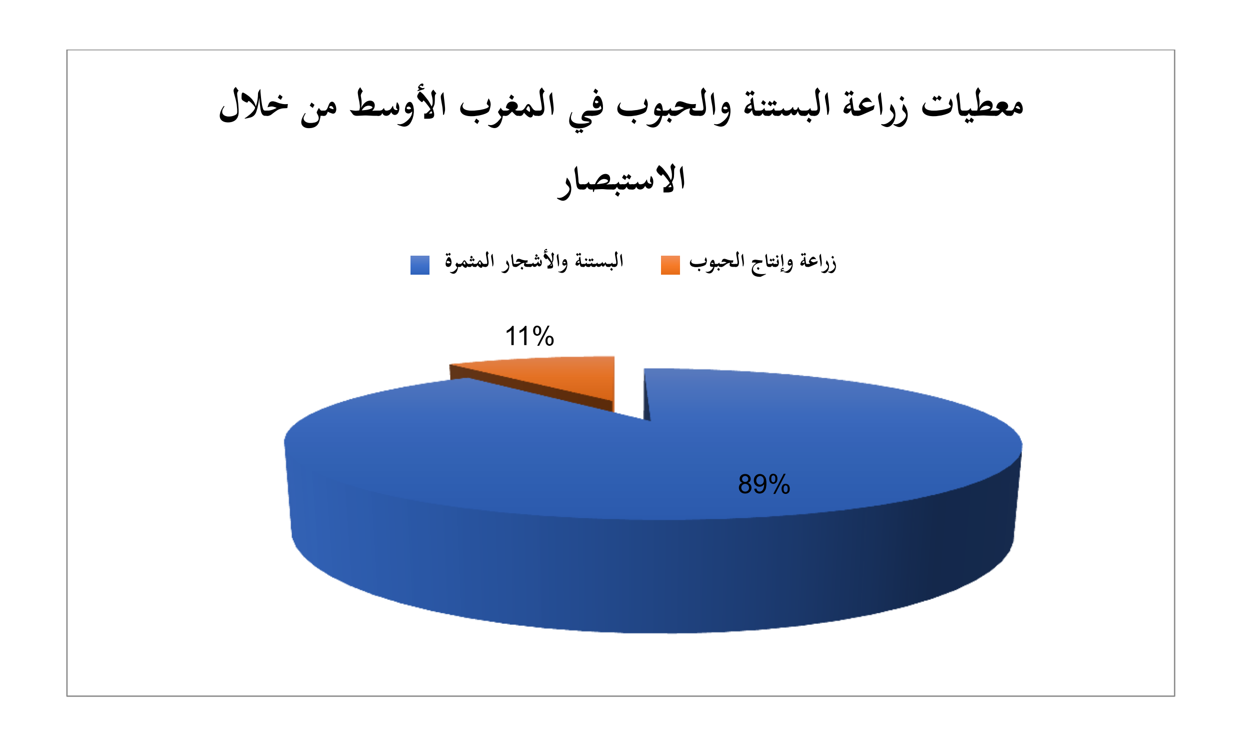
* القارئ لما أورده صاحب الاستبصار حول الوضعية الزراعية للمغرب الأوسط، يخلص إلى رسم صورة إيجابية عن طبيعة الإنتاج الفلاحي وتنوعه ومردوديته، غير أن التمعّن في المؤشرات والتوصيفات التي قدّمها يدرك أنها تتعلق في جانب كبير منها بزراعة البستنة والأشجار المثمرة، وهو ما دفعنا للمقارنة ضمن نصه بين المعطيات المتعلقة بالحبوب والحنطة مقابل تلك المتعلقة بالبستنة والزراعة داخل المدن (الزراعات المحصنة) في المغرب الأوسط:

---

[1]) المرجع السابق، ص193.

[2]) الإدريسي: المصدر السابق، ص265-266.

الشكل رقم 03: مقارنة معطيات زراعة البستنة والحبوب في المغرب الأوسط من خلال الاستبصار[1]



بناء على ما ورد في الاستبصار، الذي عاش صاحبه في القرن 06هـ/12م فإن زراعة الحبوب أو بالأحرى الزراعة خارج المدينة تمثّل نسبة ضعيفة مقارنة بالزراعة المحصنة داخل المدينة، ورغم أن الاعتماد على مصدر واحد في تقدير الوضع الزراعي أمر لا يخلو من المجازفة، إلا أنه يعكس تراجع ممارسة النشاط الزراعي خارج المدينة، لكن السؤال الذي يترتب عن هذه الوضعية يتعلق بانعكاس كميات الإنتاج وطبيعته على النمط الغذائي للسكان.

ب. الزيتون والثروة الغابية

عرفت بلاد المغرب بزراعة الزيتون ومنتوجات الزيتنة منذ العصر القديم، ويقول المقدسي في معرض وصفه لبلاد المغرب: "... قد غاب في الزيتون مدنه، وبالتين والكرامات أرضه...".[2]

من ملامح التأثير الهلالي على القطاع الزراعي ببلاد المغرب، تراجع إنتاج بعض المحاصيل الزراعية، وفي مقدمتها الزيتون بصفة خاصة، وقد عكست بعض الإشارات المصدرية انطباعا مفاده أن الهلاليين كانوا في شبه حرب ضد شجرة الزيتون، وهي رمز الحياة الزراعية المستقرة في المنطقة.

توقفت غابة إفريقية المكونة أساسا من أشجار الزيتون عن الإنتاج بسبب تخريب العرب، وهي الغابة التي يشير العبدري إلى مساحتها الشاسعة، حيث تم اجتيازها في مدة ثلاثة أيام: "... وطريق الساحل على غابة إفريقية، وهي غابة عظيمة من زيتون بعل يحمل كثيرا، ويعتصر زيتا طيبا، كالحل في زيتون الشام سواء، ولكنه ليس

(1) عدد الإشارات الموظفة ثمانية وعشرون (28) إشارة مصدرية من الاستبصار، (عدد التكرارات: 03 للزراعة خارج المدينة، و25 لزراعة البستنة).

(2) المقدسي: المصدر السابق، ص215-216.

في الشام منه غابة متصلة كاتصال هذه مع عظمها، وقد قطعناها في ثلاثة أيام، ولكنها الآن معطلة لفساد البلاد واستيلاء العربان عليها، فانقطعت منفعتها رأسا حتى صار الزيت بإفريقية مجلوبا من جزيرة جربة".[1]

يذكر الجغرافي الفرنسي "هنري شيرمر" Henri Schirmer[2] سنة 1893، أن الزاب في القرن 05هـ/11م حقق ازدهارا كبيرا، حيث مارست فيه زناتة زراعة الزيتون والنخيل والحبوب، إلى أن جاء الهلاليون، فبدأت الحروب بين الغزاة والسكان الأصليين، والتي أدت إلى تراجعها، ورغم أن منطقة الزاب بدأت في التعافي اقتصاديا منذ نهاية القرن التاسع عشر،[3] حيث بدأت تستعيد ازدهارها القديم، غير أن بساتين الزيتون ظلت مختفية.

ينبّه برونشفيك إلى أن زراعة القمح أقرب للبدو من البستنة، ذلك أن الدورة الزراعية للقمح سريعة، عكس الأشجار التي تستدعي الاستقرار الدائم، وهو ما يفسر تراجع إنتاج الزيتون وزراعة أشجاره،[4] بسبب استباحة بساتينه وتحويلها إلى مراعي.

في تتبعه لنص الإدريسي، يخلص دومنيك فاليرين[5] إلى أنه لا يشير إلى تراجع زراعي كبير في جنوب بجاية، بل إنه يلمّح إلى تعدد الزراعات، خاصة وأن بجاية لم تكن مستوردا كبيرا للمنتجات الزراعية، وبالمقابل كانت صادراتها الرئيسية من منتجات الرعي، وإن كان هذا المؤشر يؤكد على الدور الهلالي في إتاحة وتوفير المنتجات الرعوية، إلا أننا لا ننفي التوجه الرعوي للاقتصاد البجائي منذ القديم نظرا لطبيعة المنطقة الجبلية. فضلا عن كون المناطق الجبلية التي تحيط بها تمارس في زراعة الزيتون بشكل كبير ولا تزال إلى اليوم من المناطق التقليدية في إنتاج الزيتون وزيت الزيتون.

إلى جانب التراجع في الإنتاج الذي سُجِّل على المحاصيل الزراعية المعاشية، فإن الثروة الغابية التي توجه أخشابها عادة لبعض الصناعات الحرفية، إضافة إلى كونها مصدرا للطاقة ومادة تدخل في دبغ الجلود، ومنها تستخرج بعض أنواعه الزفت والقطران[6] قد تراجع مردودها هي الأخرى، حيث يشير بوفيل[7] إلى أن الثروة الغابية تضررت بمقدم الهلاليين لأنهم دمروا معظم الغابات بأنفسهم أو عن طريق قطعانهم، مما أدى إلى تراجع إنتاج الأخشاب الموجهة لصناعة السفن، الأمر الذي أثر بدوره على أجيال القراصنة المنحدرة من تلك المناطق.

---

[1]) محمد البلنسي العبدري: الرحلة المغربية، تقديم: سعيد بوفلاقة، منشورات بونة للبحوث التاريخية، 2007م، ص152؛ ورغم الأضرار التي ألحقها الهلاليون والنورمانيون بزراعة الزيتون، إلا أن تصدير زيت الزيتون من إفريقية لم يتوقف، رغم ارتفاع أسعاره؛ لطفي بن ميلاد: المرجع السابق، ص264.

[2]) نقلا عن: Mohamed Meouak: Op.cit, p117.

[3]) تزامنا وتثبيت الاحتلال الفرنسي لأركانه بالمنطقة، وهذا التفسير عادة ما يتبناه أنصار المدرسة الكولونيالية في تفسير تاريخ الجزائر.

[4]) روبار برنشفيك: المرجع السابق، ج2، ص227.

[5]) المرجع السابق، ج1، ص259.

[6]) نفسه، ج1، ص271.

[7]) المرجع السابق، ص117.

أما إنتاج الأعشاب الطبية، فلا تشير المصادر إلى تراجعه، خاصة في المناطق الجبلية المحصنة، فجبل ميسون[1] ببجاية، والذي يتميز بعلوه، فيه الكثير من النباتات والأعشاب الطبية مثل: شجر الحضض والقولوفندوريون والبرباريس والقنطوريون الكبير والرزاوند والقطون والإفسنتين...[2] غير أن عمليات استغلال الأعشاب الخاصة تكون قد شهدت بعض التراجع، بسبب غياب الأمن في المجالات التي يسيطر عليها العرب، فضلا عن إنهاكها بفعل الرعي غير المنتظم.

4- تكاليف العمل الزراعي

إلى جانب تقلص حجم النشاط الزراعي في المغرب الأوسط، بسبب انتشار العرب الهلالية، فقد ارتفعت تكاليف الإنتاج وأصبحت مضاعفة، حيث أصبح الفلاح مضطرا لاستئجار يد عاملة إضافية بأجرة مرتفعة، لغرض القيام بالأعمال الزراعية في ظل الظروف غير الآمنة، إذ يعتبر العمل في ظلها نوعا من المجازفة، كما أن نوعية المنتوج ستتضرر بسبب الإخلال برزنامة الزرع والجني التي لها اعتبار مهم في مدى قيمة المنتوج الغذائية ونوعيته، خاصة في محاصيل محددة مثل الزيتون، فإلى اليوم لا يزال في بعض قرى الجزائر انطلاق موسم جني الزيتون متعلقا بقرار من طرف أعيان القرية أو ثاجماعث، والتي تعلن عن الموعد بناء على اعتبارات مختلفة، منها المناخية ومنها المرتبطة بظهور علامات النضج، لأن الموعد مهم في تحديد نوعية الزيتون والزيت المحصل وكميته.

الأمر نفسه ينطبق على إنتاج الحبوب، فقد أصبح الفلاح مضطرا لاستئجار غيره من أجل الحصاد، ولم يعد بإمكانه التكفل بالأشغال الزراعية بمفرده، ونظرا لتزايد الأخطار فقد كان العاملون في الحصاد يأخذون ديناراً لسبعة أيام حصاد، فضلا عن طعامهم، إضافة إلى ارتفاع تكاليف نقل المحصول إلى المدينة بثلث دينار لكل حمل، وهو ما جعل التكاليف المترتبة عن الحصاد والنقل تعادل أو تفوق قيمة نصف المحصول، في حين لو توفرت الشروط الأمنية لوفر المزارع على نفسه الكثير من التكاليف لأنه يعتمد على اليد العاملة الخاصة به.[3]

لم يؤد الغزو الهلالي إلى تراجع كم المحاصيل الزراعية خاصة الزيتون والحبوب فقط، بل ضاعف تكاليف إنتاجها وتسويقها وجعل الفلاحين ينقطعون عن مزارعهم، وهو ما تكشف عنه إحدى النوازل التي استفتي فيها المازري، في الأراضي والمزارع التي استقطعها العرب لأنفسهم "واقتسموها بالسيف"، فأصبحوا يحولون بين المزارعين ومزارعهم، مما جعلهم يستعجلون في القيام بأعمالهم الفلاحية ويتسرعون من أجل العودة إلى مدائنهم خوفا من العرب، حتى أنهم أصبحوا يضطرون لترك جزء من محاصيلهم كالزيتون لبعدهم ومخاصمتهم لهم من أجله، مما جعلهم يصرفون تكاليف إضافية، كجمع الزيتون قبل نضجه مقابل دفع ثلثه (3/1) وقد تصل النسبة إلى النصف

---

[1]) تتفق المواصفات المذكورة عن جبل مسيون مع الجبل المسمى حاليا "يما قوراية" Yemma Gouraya.

[2]) الإدريسي: المصدر السابق، ص259-260.

[3]) المازري: المصدر السابق، ص360.

(2/1)، في حين كان بمقدورهم إذا توفرت الظروف الأمنية المناسبة القيام بالعملية في وقتها بعد نضجه ودون الاضطرار لتكليف غيره بالعملية مما يسمح له بتوفير تلك التكاليف.[1]

هذا الوضع، انعكس سلبا على المردود الزراعي الذي شهد تراجعا، وعلى الأسعار التي سجّلت ارتفاعا، وبالتالي أضر بالقدرة الشرائية للسكان، وقلّص من حجم مداخيل الدولة؛ ووضع بهذه الصورة هو يشير إلى أزمة اقتصادية حادة مرّت بها المنطقة.

5- الأوساط الزراعية وتأمين المزارعين:

أدى انتشار الهلاليين في ربوع المغرب الأوسط، وتركزهم قرب المزارع والأراضي الفلاحية إلى انتشار الخوف والرعب في أوساط المزارعين الذين يمارسون أنشطة الفلح والسقي وحصاد المنتوج، فاضطر كثير منهم إلى هجران مزرعته، لأن الانتقال للقيام بالعمل الفلاحي يعتبر مخاطرة كبيرة، في ظل انتشار الفوضى والتهديدات وغياب الأمن.

ومن جهة أخرى، تحولت بعض القبائل الهلالية إلى تأمين الطرق والقوافل بالمقابل، وعليه، فإنه لا يستبعد أن بعضها كان يؤمن الفلاحين وأشغال الفلح، حيث كانوا يتقاضون دينارا عن كل سانية (حقل مروي) إثر انتهاء الحصاد في أوائل الربيع.[2]

لم يكن من مصلحة العرب القضاء النهائي على الإنتاج الزراعي، فقد كانت هناك أرباح يجنيها العرب من خلال ترك الفلاحين يمارسون الزراعة لصالحهم، حيث تظهر اقتسام العرب للأراضي واستغلال الفلاحين لخدمتها كأجراء. وهناك اتفاق بين الرحل والمستقرين حيث يذكر الإدريسي سكان الحصون جنوب بجاية الذين يهادنون العرب. هذا التوافق السياسي والاقتصادي بين الرّحّل والمستقرين، يترتب عنه ضمان الأمن الذي لم تتمكن الدولة من توفيره أحيانا، علما أن الاعتداءات كانت في أغلبها من الرحل أنفسهم.[3] وتكون الحماية في بعض الأحيان بموجب عهد بين الحامي والمحمي تقوم من خلاله القبائل البدوية بأخذ الخمس عل بعض الفلاحين مقابل حماية مزارعهم وحقولهم.[4]

أدّى غياب الأمن وشيوع الخوف إلى تراجع في النشاط التجاري في المناطق التي يسيطر عليها الهلاليون أو يقومون بغاراتهم عليها، مما انعكس سلبا على الإنتاج الزراعي وعلاقة المستقرين بالبدو.

---

[1]) نفسه، ص360؛ الونشريسي: المصدر السابق، ج1، ص374-375؛ رغم أن النموذج المستند إليه من إفريقية، إلا أنه يعكس الظاهرة بصفة عامة.

[2]) نفسه، ج8، ص229.

[3]) فاليرين: المرجع السابق، ج1، ص257-258.

[4]) الطاهر طويل: المرجع السابق، ص225.

ثانيا: الثروة الحيوانية والرعي

1- الثروة الحيوانية

الطبيعة الجغرافية والمناخية المتنوعة للمغرب الأوسط جعلته يحظى بتنوع حيواني مهم، منه ما يرتبط بحياة الاستقرار ومنه ما يرتبط بحياة الترحال والتنقل، وإن لم تكن الهجرة الهلالية قد غيّرت كثيرا من طبيعة الثروة الحيوانية المغرب-أوسطية، إلا أنها أسهمت بلا شك في إحداث بعض التغير في ملمحها.

الأنعام بالنسبة للعرب البدو مصدر رزق مهم لحياتهم ومرافق لحلهم وترحالهم، فعليها يقومون وعلى ألبانها يقتاتون، "ويتخذون الدفء والأثاث من أوبارها وأشعارها، ويحملون أثقلهم على ظهورها...".[1]

الظروف التي تزامنت ومقدم الهلاليين إلى المنطقة، وعلاقتهم بالسلطة حينما حصلوا على امتيازات اقتصادية مهمة، قبل قيام وتوسع الدولة الموحدية، وحيازتهم لمجالات رعوية استراتيجية، فضلا عن رؤوس المواشي التي صارت بحوزتهم، سواء ما نقلوها معهم على قلّتها، أو ما استحوذوا عليها في طريقهم إلى المنطقة وفي مواجهاتهم مع القبائل المحلية، كل ذلك جعلهم يؤسسون لقاعدة مهمة في تربية المواشي، مما أدى إلى تزايد الثروة الحيوانية التي يحوزونها بالمغرب الأوسط، إذ وعقب انهزامهم في معركة سطيف سنة 548هـ/1153م، تعبّر الرسالة التي تصف الهزيمة عن اختلاطهم بمواشيهم "اختلاط الأنعام بالأنعام"، وشملت هذه المواشي الإبل والأبقار والأغنام والخيل: "... بين **إبل راتعة وسائمة،** وخدور على عمدها منصوبة قائمة، **وأبقار وأغنام لم تُحط بها الأبصار، ولا قيّدها في عيون الناظرين التناهي والانحصار** ... وغير ذلك من أنواع الأنفال ... حيّ إلى جنب حيّ، وشيء متّصل بشيء، **مسيرة أربعين أو خمسين من الأميال**".[2] " وفي موضع آخر من ذات الرسالة تذكر استعدادات الهلاليين للمعركة: "إلى أن انتهوا ما لا ينتهيه العدُّ **خيلا** ورجلا".[3] وبعد نهاية المعركة: "انصرف الخليفة والموحدون إلى مراكش بالغنائم والعربيات والجمال فرحين مسرورين".[4] وأدى تفرق الهلاليين وفرارهم من الموحّدين، إلى عدم قدرتهم على أخذ أنعامهم ومواشيهم معهم، لأن ذلك سيبطئ من حركتهم.

لم يكن التغيّر الذي حدث حول طبيعة الثروة الحيوانية وتعدادها ليُلاحظ مباشرة عقب الزحف الهلالي، بل إن الأمر يمكن تتبعه من خلال الفترة التي قضتها العرب الهلالية في إفريقية والمغرب الأوسط منذ دخولها منتصف القرن الخامس هجري (11م)، لأن الاستحواذ على المجالات، بعد سلسلة الاصطدامات مع القوى المحلية، دفع إلى تطوير تعداد الماشية الهلالية.

واستبعادنا لدخول هذه الرؤوس الكثيرة من المواشي مع الهلاليين إلى بلاد المغرب، مبني على معطيات اقتصادية بالدرجة الأولى، لأن الهلاليين كانوا يعيشون ظروفا صعبة بصعيد مصر قبيل انتقالهم إلى بلاد المغرب،

---

[1]) ابن خلدون: العبر، ج2، ص16.

[2]) مجموع رسائل موحدية، الرسالة 9، ص33؛ وهذه واحدة من المبالغات التي ينطوي عليها النص الموحدي، فالحديث عن خط متصل بين 65 و80 كلم من الغنائم والأسرى يراد به التدليل على حجم الانتصار الذي حققه الموحدون، وهو يدخل ضمن الدعاية السياسية في طور توسع الدولة.

[3]) نفسه، الرسالة 9، ص30.

[4]) البيذق: المصدر السابق، ص75.

وبالتالي فإننا نرجح أن تراكم هذه الثروة الحيوانية حدث بعد سيطرتهم على مجالات إفريقية وشرق المغرب الأوسط وهي مجالات توفر المراعي الخضراء والمياه، مما يساعد على مضاعفة الإنتاج الحيواني، خاصة وأن النصوص المرافقة للهجرة الهلالية لا تكاد تشير إلى ضخامة تعداد المواشي المرافق لهذه الغزوة، بل بالعكس من ذلك، إذ أن نص ابن الأثير يؤكد ما ذهبنا إليه، فهو عندما يتحدث عن نتائج معركة سبيبة سنة 457هـ/1065م يقول: "وبهذه الوقعة تم للعرب ملك البلاد فإنهم قدموها في ضيق وفقر وقلة دواب فاستغنوا وكثرت دوابهم وسلاحهم وقل المحامي عن البلاد".[1]

وتأسيسا على ما سبق، فإننا نستشف أن التطور في تملك الثروة الحيوانية حدث خلال عقود من الوجود على أرض المغرب الإسلامي عامة، والأوسط بصفة خاصة. ورصدا للملمح العام حول هذه الثروة بالمغرب الأوسط، خاصة ما تعلق بالحيوانات المرتبطة بطبيعة الحياة الهلالية، نوردها كالآتي:

أ. الإبل:[2]

انطلاقا من المؤشرات المتاحة بخصوص واقع تربية الإبل في المغرب الأوسط، فالأمر أسبق بكثير من قدوم الهلاليين،[3] ويذكر ابن حوقل[4] الذي عاش في القرن 04هـ/10م أن البربر كانوا يمتلكون الإبل أكثر من العرب

---

[1]) ابن الأثير: المصدر السابق، ج8، ص373.

[2]) يُعتقد أن تدجين الجمل الوحيد السنام في شبه جزيرة العرب قد بدأ في الألف الثالثة قبل الميلاد، وقد نشط المصريون في رعايته شمال غرب الجزيرة العربية، ويذكر الكتاب المقدس الرعاة البدويين باسم "المديانيين"؛ رُبرت هُيْلَنْد: المرجع السابق، ص121؛ حيث جاء في الكتاب المقدس: "ويجيئون كالجراد في الكثرة وليس لهم ولجمالهم عدد"؛ سفر القضاة 06: 05، دار الكتاب المقدس، القاهرة، ط4، 2006، ص197، وللجمل حضور مهم في الثقافة العربية وفي الشعر العربي، ولديه رمزية في بعض المحطات التاريخية المهمة، كموقعة الجمل 36هـ/656م.

[3]) برز دور الجمل في الأحداث التاريخية ببلاد المغرب تزامنا واختفاء الفيل بطريقة عكسية، حيث كان المزارعون يطاردون الفيلة لإبعادها على مجالهم الحيوي والحصول على العاج، وفي المقابل كان الرحل يروضون الجمل لأنه يتلاءم مع محيطهم الطبيعي ونمط حياتهم؛ محمد البشير شنيتي: أثر الضغط الديمغرافي على بيئة السهوب في العهد الروماني – اختفاء الفيل وتفاقم البداوة، مجلة آثار، ع1، مج6، جامعة الجزائر، 2008، ص41؛ وهو ما ساعدهم في التوغل في القفر والوصول إلى عمق الصحراء. ويذكر جورج مارسيه أن بلاد المغرب، شهدت تربية الإبل توسعا في عهد سلالة سيفير Séveres وزاد عدد الجمال من نوع وحيد السنام في القرن الرابع الميلادي؛ المرجع السابق، ص236.

يشير بروديل إلى أن الجمل المنتشر في الجزيرة العربية وصل إلى منطقة المتوسط في القرن الأول للميلاد، وانتشر أكثر مع الفتح الإسلامي في المشرق والمغرب، وهو جمل يتميز بعدم تحمل البرودة والحياة الجبلية، عكس الجمل ثنائي السنام الذي يمتلك القدرة على السير في الجبال وتحمل البرودة، لذلك يرجع فشل الفتح العربي في آسيا الصغرى وبعض جهات فارس إلى عجز الجمل عن التعايش مع هذه الطبيعة، وهو ما يفسّر أيضا أن الجبال أمكنة بعيدة عن اهتمامات العرب، وبالتالي اتخذت منها بعض المجموعات والأقليات مكانا للتحصن؛ المتوسط والعالم المتوسطي، ترجمة: مروان أبي سمرا، دار المنتخب العربي، بيروت، 1993، ص32.

وقع اختلاف بين المؤرخين في علاقة الجمل بمنطقة شمال إفريقيا، حيث ذهب بعضهم إلى أنه عاش في الصحراء الكبرى منذ فجر التاريخ، وقام سكان المنطقة بتدجينه منذ العصر الحجري الجديد "النيوليتي"، استنادا إلى بقايا عظام متحجرة عُثر عليها في تنزانيا، تعود إلى تاريخ متقدم جدا عن دخول الجمل الآسيوي إلى شمال إفريقيا خلال العهدين الفرعوني والروماني؛ في حين يذهب البعض الآخر إلى أن دخوله إلى شمال إفريقيا كان في العهد الفرعوني أو الروماني؛ على أن من بين أولى الإشارات للجمل في النصوص المكتوبة تضمنها التقرير العسكري المتعلق بانتصار قيصر على يوبا الأول (85-46 ق م) في معركة طبسوس Thapsus بسوسة سنة 46 ق م، حينما غنم قيصر إثنان وعشرون (22) جملا، ليصبح أكثر حضورا وشهرة ببلاد المغرب منذ نهاية العهد الروماني؛ حسن حافظي علوي: المرجع السابق، ص122.

[4]) المصدر السابق، ص95.

خاصة قبائل زناتة وصنهاجة الصحراء ومنهم المرابطون. وقد كان التجار المغاربة يذهبون بالكثير من الجمال إلى بلاد السودان محملة بالسلع، ولا يحتاجون الكثير منها في طريق العودة لحملهم كميات الذهب، فيضطرون لبيعها بدراهم معدودة.[1] لذلك، فإننا نعتقد أن هذه الطريقة كانت شكلا من أشكال تصدير الإبل من بلاد المغرب إلى بلاد السودان الغربي.

يقول ابن خلدون: "وربما كانت الإبل من مكاسب أهل النجعة منهم شأن العرب، ومعاش المستضعفين منهم بالفلح ودواجن السائمة ومعاش المعتزين أهل الانتجاع والاظعان في نتاج الإبل وظلال الرماح وقطع السابلة "[2] يتميز الجمل فضلا عن انقياده وحقده، بصبره على الماء لعشرة أيام وعلى العلف لثلاثة أيام، ويتميز بحمله للأثقال التي ينهض بها ويبرك بها.[3] وبإمكان الجمل العربي (ذو السنام) أن تكون الحمولة فوق ظهره بيسر 273 كلغ.[4] و"الإبل أصعب الحيوان فصالا ومخاضا وأحوجها في ذلك إلى الدفء"، لذلك يضطر مربوا الإبل إلى إبعاد النجعة بحثا عن مناطق الدفء.[5]

يعتبر الإبل عماد التجهيز في القوافل التجارية، التي تقاس مدى ضخامتها بعدد رؤوس الإبل التي ترافقها، حيث تسير على شكل سلسلة طويلة، وللقافلة التجارية اعتبارات عديدة مرتبطة بالإبل، حيث يتم الحرص على تخيّر أوقات المسير والراحة والكلأ ومقدار تحميل السلع عليها.[6]

وتستند "إِليس فُوقي" Élise Voguet في تحديد مستويات البداوة إلى ابن خلدون والنصوص النوازلية، إذ أن درجة الإغراق في البداوة مرتبطة بامتلاك الرّحل لقطعان الإبل، التي يقومون بالإشراف على رعيها وتنقلها،

---

[1]) الوزان: المصدر السابق، ج2، ص259-260.

[2]) ابن خلدون: العبر، ج6، ص116.

[3]) أبو العباس شهاب الدين بن فضل الله العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (في الحيوان والنبات والمعادن)، تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1996، ص29.

[4]) روبرت إيروين: الجمل، التاريخ الطبيعي والثقافي، ترجمة: أحمد محمود، هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، أبوظبي، 2012، ص30.

[5]) ابن خلدون: المقدمة، ص152؛ بفضل الخلايا الدموية البيضاوية الشكل غير المنواة، يستطيع الجمل تخزين كميات كبيرة من الماء في مجرى الدم، حيث يكون بمقدوره شرب 27 غالونا (حوالي 121 لتر) من الماء خلال عشر دقائق، دون التعرض لفرط التميه. كما أن الجمل بإمكانه شرب المياه المالحة، والسير لمدة شهر دون ماء في حالة توفر المرعى المعقول، كما ويمكنه السير من خمسة إلى سبعة أيام دون طعام أو ماء. ويقطع الجمل في السير المعتاد ثلاثة أميال في الساعة، وفي وضع العدو بإمكانه قطع 12 إلى 14 ميلا (حوالي 19 إلى 22 كلم) في الساعة، وكل ما غنى الحادي "قائد الجمال" كلما كانت الجمال أسرع. يفضل الجمل قضاء من ثماني (8) إلى عشر (10) ساعات في الرعي، مع الحركة أثناء ذلك بغية زيادة وتنويع الغذاء، وهو الأمر الذي يسمح بتخفيف الأضرار على الحياة النباتية. أما فضلاته الغنية بالنشادر، فهي مفيدة كسماد؛ روبرت إيروين: المرجع السابق، ص ص22-29؛ والأكيد أن كل هذه المؤهلات جعلت منه يساهم في تطوير التجارة عبر الصحراء الكبرى.

ومن ميزات الناقة، أنها توفر الحليب لمدة إحدى عشر شهرا في السنة أو تتجاوز، في حين الماعز والغنم والبقر تدر الحليب في حدود خمسة أشهر في السنة، علما أن الناقة تستمر فترة حملها إثنى عشر (12) شهرا أو أكثر؛ روبرت إيروين: المرجع نفسه، ص36.

[6]) خالد زنيد: الإبل وأهميتها الحضارية في شبه الجزيرة العربية خلال القرن الأول الهجري / السابع الميلادي، مجلة العلوم الانسانية، جامعة منتوري – قسنطينة1، ع18، ديسمبر 2002، ص183.

لذلك، فهي تؤكد على الحضور اللافت للجمل في الحياة البدوية، إذ وإلى جانب كونه وسيلة مهمة تستخدم في النقل والحرب، فإن تربيته أيضا أدّت إلى توافر مادة اللحم.[1]

استمد الجمل أهميته بالنسبة للبدو من كونه متعدد الخدمات والمنتجات، إذ هو الوسيلة الأولى لاختراق الصحاري وشق الرمال، فعلى هودجه يقطع البدوي مسافات طويلة بأثقاله، بحثا عن الكلأ والماء ومناطق التخييم والاستقرار المؤقت، ولحومه وحليبه وألبانه وأجبانه وجه المائدة الغذائية، ووبره وجلده كسوة وكساء للبدن والخيمة. ولهذه الاعتبارات فقد كانت الإبل من الحيوانات التي اهتم بتربيتها الهلاليون، لأنها كانت ترافقهم في حياتهم المتنقلة، وكثيرا ما كانت الإبل والخيل في تنافس على صدارة اهتمام الهلاليين، تبعا لاهتماماتهم المرحلية ودرجة الإغراق في البداوة، خاصة وأن رؤوس الإبل التي رافقتهم غربا قد وجدت بيئة مناسبة لها، مما سمح بتوسع نشاط تربيها.

وقد كان الهلاليون يضطرون أحيانا إلى التخلي عن الإبل، حينما يقررون الجنوح لحياة الاستقرار، فقبيلة توبة مثلا خلفت أولاد عطية على تلة ابن حلوف من أرض قسنطينة، حيث زحفوا إليها من طارق مصقلة (خنشلة)، ولما عجزوا عن رحلة القفر تركوا الإبل واتخذوا الشاء والبقر وأصبحوا من القبائل الغارمة، وربما أصبحوا مطالبين بالعسكرة فاختاروا بعض أفرادهم للانضمام إلى جيش السلطان.[2]

ب. الغنم والماعز:

يؤكد أبو الفضل الدمشقي على أن الماشية لا تصلح إلا لاثنين: "لرجل له زرع ومواضع رعي إما في ملكه أو مستأجره ويقرُّها في القرية التي زراعته فيها وله أعوان وكفاة، أو لرجل بدوي يرحل في طلب المراعي ويسكن بيوت الشعر ويستوطن البرّ وله عز من عشيرة".[3]

تشير وثائق التجارة بالمغرب الأوسط، وفي بجاية تحديدا، خلال الفترة الحمادية ما بعد الهلالية إلى تصدير الجلود والصوف، وهو ما يؤكد أن تربية الأغنام والماعز كانت منتشرة إلى جانب الأبقار.[4] وتدرّ الأغنام والماعز موارد على غاية من الأهمية، ففضلا عن لحومها وحليبها وأجبانها، تستغل جلود الماعز في صناعة الخيام، وهي البيوت المتنقلة التي يأوي إليها البدو الرحل.

تستدعي تربية الماشية تتبع مناطق الكلأ، لذلك برزت التنقلات بين السهل والجبل من جهة، وبين مراعي الشمال ومراعي الجنوب من جهة ثانية، حيث تضطر القبائل إلى التنقل صيفا من الجنوب إلى الشمال وليس الرعاة فقط، وهو ما يتطلب الاستقرار المؤقت، مع ما ينجر عنه من ضرورة توفير التغذية للعدد المعتبر من المتنقلين

---

[1]) Élise Voguet: Op.cit, p315.

من الإشكاليات المطروحة على مستوى بعض المصادر خاصة النوازل، هو عدم الوضوح بشأن البدو المقصودين، هل هم من العرب أم من البربر، لاشتراك العناصر البدوية في نمط حياتها، وهو ما تؤكده ذات الباحثة؛ ينظر: Élise Voguet: OP CIT, 331-334.

[2]) ابن خلدون: العبر، ج6، ص33.

[3]) الدمشقي: المصدر السابق، ص52.

[4]) فاليرين: المرجع السابق، ج1، ص272.

ضمن هذه الرحلة فضلا على أنها تعتبر فرصة للتبادل التجاري بين الرعاة المتنقلين من سكان الجنوب والمزارعين المستقرين في التل، وهو ما ينعكس بصورة مباشرة على التجارة بين البحر وبلاد السودان، ثم إن هذه الحركة الترحالية تولي أهمية كبيرة لمنطقة السهوب التي تتوسط التل والصحراء خاصة من جهات الحضنة والزاب، حيث تعتبر منطقة استراتيجية لتربية الماشية المتنقلة، وهو ما جعل بجاية تحاول التحكم في هذه الجهة لأنها مكان لجوء المتمردين ومكان لرعي القطعان ومرور المنتوجات نحو إفريقيا السوداء.[1]

ظل الهلاليون ينقلون معهم مواشيهم وخيامهم أينما ذهبوا، فحتى خلال نقل الموحدين للهلاليين إلى الأندلس سنة 566هـ/1171م، كانت ترافقهم مواشيهم، ففي مدينة المهدية قرب الرباط: "... شرب خيل العساكر ومواشيهم ومواشي الناس وشربهم".[2] وهي الميزة التي عمّقت العلاقة بين البدو الهلاليين والمواشي، خاصة الأغنام والماعز لسهولة انتقالها في النجعات البعيدة.

تعكس المؤشرات المتعلقة بتربية الأغنام استمرار انتعاشها، فقد كانت الأغنام أكثر المواشي عددا في بلاد المغرب، حيث يذكر ابن بطوطة وهو في صدد وصف ما شاهده من خيول في جزيرة القِرم: "وهي ببلادهم كالغنم ببلادنا، بل أكثر، فيكون للتركي منهم آلاف منها".[3]

ج. الخيل:

إذا كان الإبل حيوانا اقتصاديا بالنسبة للبدو، فإن الخيل إلى جانب ذلك حيوان نفوذي يحدّد درجة الغنى والشهرة والمكانة في المجموعة، وبالاعتماد عليه تتم التنقلات السريعة وعمليات الإغارة.[4] وناهيك عن دوره في الحياة البدوية، يعتبر العمري الخيول: "أحسن الحيوانات بعد الإنسان صورة"، فضلا عن تميزها بالذكاء والسرعة وطاعة الفارس.[5]

للخيول حضور مهم في المغرب الأوسط، حيث حرص البربر على تربيتها وترويضها منذ القدم، فكانت لها مكانة خاصة لأنها ارتبطت بالفروسية وقيمها، والكثير من المحطات التاريخية التي مرّت بها المنطقة تؤكد على المكانة

---

[1]) فاليرين: المرجع السابق، ج1، ص273.

[2]) ابن صاحب الصلاة: المصدر السابق، ص360.

[3]) ابن بطوطة: المصدر السابق، ص327.

[4]) عفيفي علي غازي: المرجع السابق، ص205.

[5]) ابن فضل الله العمري: المصدر السابق، ص22؛ عادة ما توظف الخيل عسكريا، فمن مظاهر قوة الجيش اعتماده على الفرسان، وقد اعتبر القرآن الكريم إعدادها للحروب بمثابة عامل لزرع الرعب في صفوف العدو، لذلك حث عليها:﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾؛ الأنفال، 60.

يعدّد أبو الدمشقي جملة الصفات الجيّدة والمزايا المستحسنة في الخيول العربية ويشير إلى العيوب التي تظهر على بعضها أيضا؛ المصدر السابق، ص51-52.

والأهمية التي حظيت بها الخيول.[1] لقد تمتعت الخيول النوميدية بشهرة تجاوزت الحدود المحلية، فكان يحرص على اقتنائها الأمراء والفرسان، ما جعل الدولة تشرف على تربيتها في حضائر ومزارع خاصة تضم آلاف الرؤوس.[2]

عرفت بلاد المغرب انتشار الخيول البربرية، التي تتميز عن العربية ذات الانتشار المحدود في بلاد المغرب بالامتلاء والحسن، غير أن الخيول العربية سريعة وخفيفة،[3] وكانت الخيول البربرية تصدّر من إفريقية[4] ومختلف أقاليم بلاد المغرب نحو بلاد السودان.[5]

بالمقابل، ساهمت الخيول العربية في نقل البدو العرب من طور لآخر، حيث سهلت عليهم عمليات التنقل والإغارة، لذلك عرفوا بتمييزهم لأنواعها وفصائلها وحرصوا على سلامة ونقاء نسبها، حيث اشتهر النجديون بخيلهم وسُليم بالتبريز في هذا المضمار، ما جعل الكتب تذكر أسماء بعض الخيول، فعند بني هلال بن عامر مثلا كان الخيل المسمى "أعوج الأكبر" الذي يعدّ من أشهر خيول العرب ومن أكثرها ذكرا. وانطلاقا من ذلك، فقد احتجزت الخيول مكانة مهمة عند الهلاليين، فكانت العلاقة بين الفارس وخيله بمثابة علاقة القرابة، تعكس ذلك التعاطف والحب بينهما، حتى أن الفارس كان يعرف بفرسه لا بقسماته وزيّه.[6] وانعكست هذه العلاقة الوطيدة

---

[1]) نوال بلمداني: الفروسية وتربية الخيل بالمغرب الأوسط أصالة وتراث، ضمن كتاب: قضايا من تاريخ المغرب الأوسط، تنسيق وتقديم: عبيد بوداود، منشورات مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية، جامعة مصطفى اسطمبولي، معسكر، 2017، ص ص241-268.

[2]) محمد البشير شنيتي: التوسع الزراعي الروماني وظاهرة البداوة في الجزائر القديمة، مجلة الدراسات التاريخية، جامعة الجزائر، مج1، ع2، 1986، ص10.

[3]) الوزان: المصدر السابق، ج2، ص262-263.

يُعتبر الحصان العربي سلالة رئيسة نظرا لميزاته الطبيعية وتأثيره في سلالات أخرى، بفضل قدرته على نقل صفاته الوراثية كالذكاء وقدرة التحمل والجمال. والحصان العربي هو حصان حرب بالدرجة الأولى، عكس الجمال التي تستخدم كدابة للتحميل، وكان العرب في المعارك –على النقيض من التقاليد الغربية– تفضل امتطاء الفرس على الفحول، لأن الفرس أكثر انصياعا وأقل ميلا نحو تحدي الأحصنة الأخرى، ونظرا لتقديرها فقد كانت مقربة وتبيت في خيمة العائلة وتترك مع الأطفال؛ إلين ووكر: الحصان، التاريخ الطبيعي والثقافي، ترجمة: رامي البيروتي، هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، أبوظبي، 2010، ص ص73-75.

[4]) Ernest Mercier: op cit, p384.

[5]) الوزان: المصدر السابق، ج2، ص176.

وذلك نظرا للإقبال الكبير لملوك السودان عليها، ولقيمتها فقد كانت تستبدل بالعبيد، حيث يتحصل التجار المغاربة بين خمسة عشر (15) إلى عشرين (20) عبدا عن كل فرس، وذلك لصعوبة تجارة الخيول نظرا لمشقة الطريق وندرة المياه، إضافة إلى أن الخيول تستعمل كسلاح حديث آنذاك؛ علي حامد خليفة الطيف: المراكز التجارية الليبية وعلاقتها مع ممالك السودان الأوسط وأثرها على الحياة الاجتماعية خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين، الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ط1، طرابلس، ليبيا، 2003م، ص102؛ خاصة أن الخيول السودانية المحلية تمتاز بقصر قامتها، مقابل قوة تحمل الخيول المغربية وعلوها وسرعتها؛ الحسين بولقطيب: العلاقات التجارية بين المغرب والسودان الغربي خلال العصر الوسيط، مجلة أمل، ع6، السنة الثانية، الدار البيضاء، 1995، ص23-24.

ونظرا لارتباط الخيول بالأمن الداخلي والخارجي للدولة ومنظومتها العسكرية، فقد لاقى تصديرها انتقادات لاذعة، وكان يُحضر التصدير إلى شبه الجزيرة الإيبيرية في بعض الفترات؛ Mas latrie: Op. cit, p216.، والنوازل الفقهية تضم عددا من الفتاوى بهذا الشأن.

[6]) عبد الحميد يونس: المرجع السابق، ص89.

على حضور الفرس والفرسان في الأشعار المتداولة، التي خلّدت أسماء أشهر خيول بني هلال وبني سليم، وفيها تعديد لأوصافها وإشادة بميزاتها والتغزل بها.[1]

تدعّم المغرب الأوسط برؤوس عربية أصيلة جديدة نقلها الهلاليون معهم،[2] حيث يقول اليازوري في مراسلته للمعز، والتي يرجح أنها الأخيرة بينهما: "أما بعد فقد أرسلنا إليك خيولا وحملنا عليها رجالا فحولا ليقضي الله أمرا كان مفعولا".[3]

وقد زادت أعداد الخيول التي بحوزة الهلاليين على مدار العقود التي كانوا يدخلون خلالها في مواجهات ببلاد المغرب الإسلامي، ففي معركة سبيبة سنة 457هـ/1065م مثلا حصلوا على أعداد مهمة من الخيول، استحوذوا عليها بعد الهزيمة التي ألحقوها بالحماديين.[4]

ما ذكرناه آنفا حول تضاعف الثورة الحيوانية التي بحوزة العرب خلال قرن من وجودهم في المنطقة، ومنها الخيول، تؤكده النصوص الموحدية، إذ وفي في إطار الاستعداد لجواز سنة 566هـ/1171م نحو الأندلس كان العرب الذين لبوا النداء من إفريقية والقيروان والزاب، قد اصطحبوا معهم أعدادا مهمة من الخيول: "... والخيول العراب، العتاق الأحساب، المدرّبة عند الأعراب"،[5] ويبدو أن الموحّدين المستعدّين للجواز مع العرب كان لهم حظهم من بعض هذه الخيول: "وأمر –يقصد الخليفة– للموحّدين أعزهم الله بحظهم من الخيل المسومة المجلوبة المذكورة فقسموها على قبائلهم ورجالهم".[6] ولعل الميزة التي تختص بها خيول العرب هي التدريب الذي تخضع له مما يكسبها خصائص الخيل المحاربة.

"وكان عدد الخيل الواصلة من إفريقية أربعة آلاف فرس، ومائة وخمسين حملاً من المال الصامت، وكان الذي وصل من تلمسان ونظرها ألف فارس، وخمسين حملا من المال الصامت".[7] وكثيرا ما كان الموحدون يغنمون من العرب الثائرين والخارجين عن الدولة الخيول.[8]

يعكس تملك الهلاليين للمواشي والحيوانات مؤشرات مهمة، ليس بخصوص المساهمة في إثراء قطاع تربية الحيوانات باعتبارها موردا اقتصاديا يسهم في الدفع بالوضع الاقتصادي فحسب، ولكن لكونه أيضا يعكس التوجه نحو طبيعة حياة معينة، فكانت الخيارات التي تتيحها البيئة الطبيعية للمغرب الأوسط وثروتها الحيوانية مرنة في إسعاف القبائل التي تنزع نحو الاستقرار والتخلي عن حياة البداوة.

---

[1]) أبي عبد الله محمد بن زياد الأعرابي: أسماء خيل العرب وفرسانها، شركة نوابغ الفكر، القاهرة، 2008، ص ص21-29.

[2]) حسن خضيري أحمد: المرجع السابق، ص266.

[3]) ابن خلدون: العبر، ج4، ص79؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص216؛ التجاني: المصدر السابق، ص19.

[4]) Gerald Schuster: Op.cit, p136.

[5]) ابن صاحب الصلاة: المصدر السابق، ص330-331؛ ونستنتج من هذا أن تربية الخيول كانت رائجة عند العرب في إفريقية والجزء الشرقي من المغرب الأوسط خاصة جهات الزاب وقسنطينة.

[6]) نفسه، ص349.

[7]) نفسه، ص331.

[8]) أبو ضيف أحمد: المرجع السابق، ص294.

2- الرعي والمجالات الرعوية[1] في المغرب الأوسط

يقول صاحب الإشارة إلى محاسن التجارة: "والماشية تصلح إما لرجل له زرع ومواضع رعي، إما في ملكه أو مستأجره ويقرّها في القرية التي زراعته فيها وله أعوان وكفاة. أو لرجل بدوي يرحل في طلب المراعي ويسكن بيوت الشعر ويستوطن البرّ وله عز من عشيرة. وأما غير هذين الرجلين فلن يخطئه فيها ما يكمده ويضيق صدره، وعلى كل الوجوه فلا مندوحة للفلاح من البقر كما لا غنى للبدوي عن الإبل".[2]

لقد أسهمت الخصائص الجغرافية والمناخية للمنطقة منذ فجر التاريخ أو حتى منذ النيوليتي (العصر الحجري الحديث) في مزاولة نشاط الرعي وارتباط شعوب المنطقة بالحركة والانتجاع، ولوحات الفنون الصخرية في الصحراء الكبرى التي تعود إلى عصور الرعاة الباكرة تقدّم صورة عن نزوح رعاة البقر بسبب الجفاف، ليتخذ البدو لاحقا صنفين: رعاة الإبل (الجمّالة) في أقصى الصحراء، ورعاة الأغنام في شمال الصحراء والسهوب التلية، وهي الثنائية التي استمرت خلال العهد النوميدي، ومن أشهر القبائل البدوية آنذاك الجيتول، وقد أثّرت التحصينات والاستحكامات الرومانية العسكرية لاحقا على تحركات البدو وحركة الانتجاع حيث أدت ملاحقة الرعاة إلى تحول أشباه الرعاة إلى البداوة الكاملة، بسبب منعهم من استكمال دورتهم الموسمية بين الصحراء والتل.[3]

ملكية أراضي المرعى غالبا جماعية، بسبب بساطة مردودها، وانتشار النظام القبيلي المقتصر على تربية المواشي، وكثيرا ما كانت هذه الأراضي والمجالات محل صراعات ونزاعات كبيرة بين المجموعات الرعوية، أما اشتراكية الكلأ التي أوصى بها الحديث النبوي فلم يكن معترفا بها إلا في نطاق قبيلي.[4]

بالعودة إلى كتب الرحلة والجغرافية نلاحظ أنها حاولت رسم خريطة للمجالات الرعوية بالمغرب الأوسط، من خلال التوصيفات التي أطلقتها عليها، كالمسارح، ومناطق الكلأ وكثرة الربيع، و"الزرع والضرع".[5] وكثرة المواشي، ومن خلال تتبع الإشارات المصدرية، يمكن أن نخلص إلى أن المجالات الرعوية كانت منتشرة في المناطق التلية

---

[1]) أكبر البلدان الرعوية في شمال إفريقيا من حيث مناطق المراعي هي الجزائر والمغرب، تتألفان بشكل إجمالي من 20 مليون هكتار من السهوب أي 40٪ من أراضيهما. ثم تأتي تونس بنسبة 25٪ من المراعي. أما مصر وليبيا فدولتان صحراويتان تمثل المراعي فيهما 1-2٪ من الأراضي الوطنية، لكن في العدد المطلق تمتلك ليبيا نفس مساحة المراعي في تونس؛ أما البيانات الإحصائية الحالية المتعلقة بالسكان الرعويين (البدو الرحل وشبه الرحل والأسر المعيشية المستوطنة) متناثرة وقديمة ومتناقضة أحيانا. بينما يقدر عدد سكان السهوب والصحراء بنسبة 38٪ من إجمالي السكان في المغرب والجزائر و28٪ في تونس، فإن الإحصاءات الوطنية في الجزائر تعتبر أن 12٪ من السكان يغادرون السهوب. ويمثل السكان الرحل ما نسبته 20٪ من إجمالي سكان السهوب (والذين يقدر عددهم 4 ملايين شخص) في عام 1998؛

Céline Dutilly-Diane: Review of the literature on Pastoral Economics and Marketing: North Africa, Report prepared for the World Initiative for Sustainable Pastoralism, IUCN EARO, (The International Union for Conservation of Nature), 2006, p01.

[2]) الدمشقي: المصدر السابق، ص52-53.

[3]) محمد البشير شنيتي: التوسع الزراعي، ص9-10.

[4]) عبد المجيد مزيان: المرجع السابق، ص224؛ يشير ابن الطوير الذي عاش في القرن 6 و7هـ/12-13م، أن إقطاعات العربان بمصر موجودة في أطراف البلاد، وتسمى "الاعتداد" ويفرض على كل ألف دينار منها مائة دينار؛ المصدر السابق، ص86.

[5]) البكري: المصدر السابق، ص53؛ مجهول: المصدر السابق، ص167.

والسهبية للمغرب الأوسط، وانطلاقا مما تم عرضه عند تتبع وضع الزراعات المحصنة وزراعة الحبوب، يتضح أن الأراضي المخصصة للرعي قد توسّعت على حساب الأراضي الزراعية.

انتشرت المراعي في بعض الجهات الساحلية والقرب ساحلية، وهي التي كان ينتشر فيها عادة الرعي المستقر المرتبط بالزراعة، ومن الأمثلة عن ذلك: بونة،[1] جهات بجاية، تدلس، شرشال،[2] قزرونة، الشلف، جهات الأوراس، والقلعة والمسيلة.[3]

عموما، يصادف الباحث مشكلة صعوبة تحديد المجالات الرعوية بدقة، ويرجع سبب ذلك لعدم جرد كتب الرحلات والجغرافيا للمناطق الرعوية، خاصة وأنها متداخلة مع المساحات الزراعية، مما لا يسعفنا في تتبع ظاهرة توسعها وتقلصها.

ويمكن التمييز بين نوعين من الرعي، ومع ذلك قد لا تكون ممارسة الرعي وفق هذه التقسيمات بطريقة صارمة، حيث يمكن المزاوجة في بعض الأنشطة المرافقة للرعي والحد من التنقلات الجماعية للمجموعة القائمة على الرعي في بعض الفترات:

أ. الرعي المرتبط بالزراعة:

يمارس هذا النوع من الرعي إلى جانب زراعة المحاصيل الحقلية كالحبوب في الأراضي الصالحة للزراعة، وتربى الأغنام والماعز في الأراضي الرعوية، وهنا يكون الرعي نشاطا تكميليا، وقد ينتشر في الأراضي المسقية أو التي تستقبل كميات مقبولة من التساقط.

تتيح طبيعة المغرب الأوسط الجغرافية والاقتصادية الجمع بين الزراعة وتربية الماشية،[4] ويبدو أن هذا النوع قد تراجع في الجهات الشرقية من المغرب الأوسط تزامنا ودخول الهلاليين، لصالح الرعي الخالص. غير أنه، وفي فترات لاحقة، ومع نزوع بعض الهلاليين إلى الاستقرار حدث التحول من الرعي الخالص إلى الرعي المرتبط بالزراعة، رغم أن "الأعراب خارج الصحراء كالسمك خارج الماء"، فالأعراب الذين نقلهم الموحّدون إلى المغرب الأقصى والنازلون بأزغار كان بإمكانهم التوجه نحو الصحراء، لولا أن امتلاك البربر لمسالك الأطلس حال دون ذلك، كما حال امتلاك غيرهم من الأعراب للبوادي دون الانتشار بها، فاضطروا للإقبال على رعي الماشية وحرث الأرض "متخلّين عن كبريائهم"، "وعاشوا مع ذلك تحت الخيام لا في الأكواخ والدور الخشنة".[5]

---

[1]) ابن حوقل: المصدر السابق، ص77.

[2]) الإدريسي: المصدر السابق، ص258-262.

[3]) البكري: المصدر السابق، ص53-65؛ محمود هدية: اقتصاد النسيج في الغرب الاسلامي في العصر الوسيط، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، 2017، ص45-46.

[4]) نوال بلمداني: نظام الرعي في بلاد المغرب الأوسط خلال القرنين (04-05هـ/10-11م)، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط الإسلامي، قسم التاريخ والآثار، جامعة وهران، 2013/2014، ص137.

[5]) الوزان: المصدر السابق، ج1، ص47.

ينتشر هذا النوع من الرعي الذي يمارس إلى جانبه أيضا الزراعة بين القبائل التي تقع مجالاتها بالقرب من مدن المغرب الأوسط،[1] ويذكر كاتب الاستبصار أن سكان جبل فازار غرب تلمسان الذي تسكنه أمم كثيرة من البربر، يمتلكون البقر والغنم والخيل، وتضطرهم الثلوج التي تتساقط شتاء إلى النزول نحو ريف البحر الغربي.[2] وهذا النوع من الانتجاع يمارسه البربر أيضا، لكنه انتجاع محدود جدا في الزمان والمجال، لأنه متعلق بتربية الأبقار إلى جانب بقية المواشي.

لا بد من الإشارة إلى أن الترحال لغرض الرعي يساهم في الزراعة بطريقة غير مباشرة، من خلال توفير قطعان المواشي للسماد الطبيعي، نتيجة رعيهم المؤقت في المناطق الزراعية،[3] وهو ما يعدُّ عاملا مغذيا للأراضي الزراعية بالمواد العضوية التي تحفز على نمو الغطاء النباتي.

من هنا، نلاحظ أن الانتجاع لم يكن مقتصرا على ساكنة المجالات الداخلية والصحراوية والسهبية، بل إن الفلاحين الذين يملكون الأنعام في المناطق الشمالية والتلية تضطرهم الظروف إلى الانتقال إلى مناطق أخرى بحثا عن الجو المناسب والمراعي الغنية بالكلأ.

ب. الرعي الموسمي والخالص (الانتجاع البعيد):

ظاهرة الرعي الموسمي قديمة بالمغرب الأوسط،[4] حيث ينتقل الرعاة موسميا مع مواشيهم من المراعي الشتوية إلى المراعي الصيفية، وعادة ما يشغلون بيوتا شتوية دائمة، وعند انتقالهم إلى المراعي الصيفية ينصبون الخيام:[5] "فلا يزالون في كل عام مترددين بين الريف والصحراء ما بين الإقليم الثالث والرابع صاعدين ومنحدرين على ممر الأيام".[6]

يعرّف فرنان بروديل الانتجاع –الذي يعتبره شكلا اجتماعيا يلي البداوة– بأنه: "الحياة الرعوية المنظمة، التي كانت تنتقل بين مراعي الشتاء في السهول والمناطق المنخفضة ومراعي الصيف على المرتفعات"، ويشبه الآثار التي تخلفها حركة المواشي على الطرق في أوروبا المتوسطية بالندوب على جسم الإنسان، لأن هذه المسالك يصل

---

[1]) نوال بلمداني: نظام الرعي، ص110.

[2]) مجهول: المصدر السابق، ص187.

[3]) Claude Cahen: Nomades et sédentaires, Op. cit, p425.

[4]) ذكر المؤرخون القدامى انتشار هذا النمط الرعوي في شمال إفريقيا كالجغرافي اليوناني استرابون Strabon (القرن 01م) والمؤرخ اليوناني سالوست Salluste (القرن 1 ق م) والمؤرخ الإسباني بول أُروز Paul Orose (القرن 05م)، وذكروا البداوة عند البربر واعتمادهم حياة التنقل، وقد أدى تعدد الإبل بالرعاة إلى التقدم جنوبا نحو الصحراء، مما جعل الرعي الموسمي شبه ضروري؛ جورج مارسيه: المرجع السابق، ص236.

[5]) رُبرت هُيْلَنْد: المرجع السابق، ص119.

[6]) ابن خلدون: العبر، ج2، ص17.

عرضها لحوالي 15 متر، ويعتبرها شكلا من أشكال تقسيم العمل، بحيث تظهر فئة الرعاة التي ينظر إليها الفلاحون وسكان المدن باحتقار وخوف "كأنها فئة من البرابرة وأنصاف الوحوش".[1]

يتنقل الرعاة والمواشي في العادة أفقيا وليس شاقوليا، حيث يبحثون على الكلأ لمواشيهم، قاطعين مسافات طويلة حيث تتحكم في مساراتهم وفرة المياه والمراعي، وضمن هذا النمط الرعوي يمكن التمييز بين البدو الذين يطوفون بين المنعزلات القاحلة الواقعة ضمن الأراضي المأهولة "البداوة المطوّقة"، والذين يعبرون الصحاري الرملية الشاسعة "البداوة المبعدة أو الخارجية".[2]

الاضطرار للتنقل وتتبع الكلأ جعل الهلاليين يعتادون النقلة المستمرة، حيث كانوا دائمي التأهب كلما لاحت بوادر الجدب، حيث ينقسمون إلى مجموعات وفق تنظيم هيكلي يراعي الرياسات والوظائف، وفق ما يتطلبه الأمر من حراسة وتحضير الوسائل وضبط الأوقات وتوزيع المؤونة وترتيب الركب وفقا لمتطلبات الدفاع والإغارة وموقع الشيوخ والنساء والأطفال في الرحلة.[3]

يأتي الرعي بوصفه نشاطا محوريا في مقدمة أولويات البدو، ما يجعل توفر الظروف الملائمة محددا لأي تحرك لهم، وهو ما جعل أحمد عزاوي يقدّم فرضية وفرة المحاصيل والكلأ في المراعي سنة 563هـ/1168م كسبب دفع العرب للتردد وعدم الالتحاق بسرعة نحو المغرب الأقصى من أجل الجواز إلى الأندلس بناء على طلب الخليفة الموحّدي، على اعتبار أنهم انشغلوا بنشاطهم الرئيس وهو الرعي.[4] مع أننا نعتقد أن الفئة المحاربة من القبائل الهلالية لم تكن تمتهن الرعي في إطار التقسيم البسيط للأدوار في المجتمع البدوي، إلا إذا كان الانتقال متعلقا بالكتلة القبلية بمختلف فئاتها.

من النماذج التي أشارت إليها المصادر التاريخية في فترة متأخرة، ذؤوا عبيد الله، ومواطنهم مجاورة لبني عامر بن زغبة خلال العهد الزياني، حيث تمتد من تلمسان إلى وجدة إلى مصب وادي ملوية في البحر، أما رحلتهم في القفار فتمتد إلى قصور توات وتمنطيت وتاسابيت وتوكرارين.[5] وهي تصنف من النجعة البعيدة حيث تتجاوز المسافة المقطوعة حوالي 1500 كلم ذهابا (تلمسان – تمنطيت 1160كلم، تلمسان – توات 1585م).

في تبرير يفتقد إلى شيء من التأسيس، يفسّر مصطفى أبو ضيف نزوع القبائل الهلالية نحو النقلة والارتحال بمحدودية وسائل الإنتاج الزراعي والصناعي في بلاد المغرب، الأمر الذي دفع هذه القبائل إلى التوغل في نجعتها

---

[1]) يعود استمرار ونمو حياة البداوة في مناطق مختلفة من العالم المتوسطي (مثل جزيرة البلقان، آسيا الصغرى، شمال إفريقيا، الصحراء المتوسطية) إلى وقت أطول بسبب موجتين بدويتين كبيرتين اجتاحتا المنطقة، الأولى انطلقت من شبه الجزيرة العربية بداية من القرن السابع مع الفتوحات الإسلامية، والثانية من صحراء آسيا البادرة مع الأتراك بداية من القرن الحادي عشر؛ فرناند بروديل: المتوسط والعالم المتوسطي، المرجع السابق، ص31-32.

[2]) رُبرت هُيْلَنْد: المرجع السابق، ص119.

[3]) عبد الحميد يونس: المرجع السابق، ص91-92.

[4]) رسائل موحدية، م ج، ج2، ص55؛ ، لكنه يعود ويرجح سبب التباطؤ إلى ترددهم في التبعية لأية سلطة مركزية، خاصة وأن الموحّدين وضعوا قوات دائمة في المنطقة لإخماد أي محاولة تمرد؛ نفسه، ج2، ص55.

[5]) ابن خلدون: العبر، ج6، ص80.

حتى تصل إلى نهر السنغال أحيانا،[1] وهو تفسير يتجاوز طبيعة البداوة التي تتسم بها القبائل الهلالية القائمة على التنقل والارتحال بحثا عن الكلأ لمواشيها، ما يجعل أفرادها متعلقين بالقبيلة بوصفها منتجا بدويا.

لم يقتصر الهلاليون على رعي قطعانهم فقط، بل كانت القبائل العربية التي استقرت في تامسنا –مثلا– ترعى المواشي لصالح الأسرة المرينية الحاكمة.[2] حيث كان اتخاذ الرعاة واستئجارهم يخضع لمعاملة تعاقدية وفقا لجملة من الاعتبارات والبنود التي تكون محل اتفاق بين طرفي العقد، رغم أن المصادر التاريخية لا تقدم لنا مؤشرات واضحة عن وضع الراعي وما يتعلق بنشاطه سواء كان صاحب القطيع أو راعيا عند مُلَّاك المواشي، ولا يزال البدو وأنصاف البدو إلى اليوم في المنطقة يمارسون نشاط الرعي لصالح كبار ملاك المواشي فضلا عن مواشيهم، ولم يقتصر نشاطهم في مناطق استقرارهم بل أصبحوا يتنقلون إلى المناطق التلية للرعي لصالح موّاليها، ولا شك أن العودة إلى النظم الرعوية الراهنة التي لا تزال سارية لدى البدو في المنطقة كفيل بتقديم بتسليط الضوء على بعض القضايا المهمة المتعلقة بهذا النشاط.

3– انعكاسات التوسع الرعوي في المغرب الأوسط

أفرز التوسع الرعوي في المغرب الأوسط بقدوم الهلاليين جملة من الانعكاسات، التي يمكن ملاحظتها على عدة مستويات، لعل أبرزها: طبيعة الأراضي، التأثير على العلاقات بين البدو والمستقرين، ومردود المنتجات الحيوانية:

أ. تحويل الأراضي الزراعية إلى رعوية وإنهاك المراعي

من الطبيعي أن الرعي بوصفه النشاط الرئيسي للهلاليين قد أثّر من دون شك في الغطاء النباتي[3] للمغرب الأوسط، والأكيد أنه أدى إلى إنهاكه بفعل رؤوس الماشية التي كانت تتنقل من مكان لآخر تتبعا لمناطق الكلأ. خاصة أن المجموعات البدوية لم تقم بتنظيم نشاط الرعي تنظيما يسمح باستغلال المجالات الرعوية بطريقة تضمن المحافظة على استدامة الغطاء النباتي، وبالتالي المحافظة على التربة من الانجراف، وكل ذلك ينعكس على المدى الطويل على التنوع الإيكولوجي في المنطقة.

وعليه، فإن منح إقطاعات من قبل الزيريين والحماديين للقبائل الهلالية، كان له انعكاس سلبي على إدارة مساحات واسعة من الأراضي الزراعية التي أُنهكت بالرعي غير المنتظم، في حين كانت تمارس فيه قبل ذلك الزراعات المختلفة، لأن الهلاليين لم يتمكنوا في الغالب من تكييف نشاطهم الاقتصادي مع المجالات السهلية التي استحوذوا عليها، وظلوا يمارسون الرعي في مناطق زراعية بالأساس.

---

[1]) أبو ضيف أحمد: المرجع السابق، ص240.

[2]) ابن الخطيب: نفاضة الجراب، ص328.

[3]) العروي: المرجع السابق، ج2، ص95.

ب. الرعاة المتجولون والسكان المستقرون

عادة ما يتسلَّط البدو الرُّحّل على سكان الواحات عسكريا، فالبدو خلال ترحالهم يسيطرون على المناطق الرعوية والقرى الزراعية، ويفرضون الضرائب على المجموعات الأخرى مقابل حمايتهم، حيث تدفع الضريبة سنويا مع ضيافة البدوي عند نزولهم وقد يتم تخفيف السيطرة الاقتصادية لحسن التعايش بين الغالب والمغلوب، فتتطور العلاقة إلى شبه تحالف (حسن الضيافة ولو طال أمدها، إعطاء أسبقية في ميدان التبادل الاقتصادي، تسامح كبير من طرف سكان القرى) ويكون لهذه العلاقة الاقتصادية امتداد اجتماعي. قد يُقنع الفقيه جماعته بالتسامح مع البدو والغالبين إلى أن يردوا إلى الجماعة الإسلامية، لهذا يظهر بعض الغموض في علاقاتهم، حيث تصبح "الأتاوة ضيافة والحماية تحالفا"، ويتم التغطية على هذه العلاقات تحت شعارات الأخوة الدينية والانتماء لأمة واحدة.[1]

يلحق ضرر الرُّعاة المتجولين بأصحاب العمران وممارسي الزراعة، ويشخّص ابن خلدون طبيعة الضرر الناجم عن ذلك من خلال: "إفساد السابلة، ورعي الزرع مخضرًّا، وانتهابه قائما وحصيدا"، مستثنيا من ذلك الأراضي التي تقع تحت حماية الدولة.[2]

يمكن ملاحظة بعض التأثيرات الهلالية في الأندلس مثلما كان في المغرب الأوسط، لكن ليس بذلك الحجم، فبعض الهلاليين قادوا حياة متجولة بعيدا عن القوة الموحدية حينما كانوا في بادية إستيا Badiyat Istiyya مما تسبب في إحداث تغيرات على طرق حياة السكان.[3]

ج. مردود المنتجات الحيوانية:

تبعا لتنوع الحيوانات التي اهتم الهلاليون بتربيتها ورعايتها، تنوعت المنتجات الحيوانية، خاصة تلك المرتبطة بالحياة الرعوية، وإن كان من الصعب فرز هذه المنتجات –جنسا وكما– بين المختصة بالهلاليين وغيرهم من البربر، نظرا لتداخل مناطق النشاط وتقاسم طبيعته.

من المنتجات الحيوانية ذات العلاقة بالطبيعة الفلاحية للمغرب الأوسط عامة وبالمجموعات الهلالية، إنتاج مشتقات الحليب كالسمن والزبد الذي عرفت به بعض جهات المغرب الأوسط،[4] وانعكس توفر اللحوم والألبان على أسعارها، حيث كانت المناطق التي تنتج هذه المواد بكثرة تعرف برخصها في الأسواق.[5]

---

[1]) عبد المجيد مزيان: المرجع السابق، ص ص187-189.

[2]) ابن خلدون: العبر، ج2، ص17.

[3]) توضح الأوصاف المتعلقة بمختلف تجمعات بادية استيا Badiyat Istiyya –التي تشمل Campiña de Sevilla y la Sierra Sur– في القرنين 03-04هـ/09-10م غلبة واضحة للأنشطة الزراعية، في حين أن أرقام الغنائم التي وصلت إليها التوغلات القشتالية في القرن 07هـ/13م تبدو وكأنها تحول نحو بعض أنشطة الثروة الحيوانية، ويمكن أن يبدأ هذا التغيير في القرن 05هـ/11م، على الرغم من أن الحفريات الأثرية لا تشير إلى هذا الاتجاه؛ وربما كانت هجرة العناصر العربية هي التي حفزت هذا التغيير؛ José Ramírez del Rio: Op.cit, p370.

[4]) الإدريسي: المصدر السابق، ص252.

[5]) نفسه، ص ص259-262؛ البكري: المصدر السابق، ص59.

يقدّم صاحب الاستبصار صورة إيجابية عن مردود الانتاج الحيواني في مدن المغرب الأوسط، حينما يصفها بأنها: "كثيرة الخصب والزرع كثيرة الغنم والماشية، طيبة المراعي، ومنها تجلب الأغنام إلى بلاد المغرب وبلاد الأندلس لرخصها وطيب لحومها".[1]

يبدو أن الوفود الهلالي إلى المغرب الأوسط، كان له بالمقابل، دور سلبي في الإنتاج الحيواني ببعض المناطق، التي تضررت من وجوده، فقد أشارت المصادر مثلا إلى أن بونة التي كانت تتميز بكثرة الألبان واللحوم، وبخاصة لحم البقر".[2] لكونها منطقة ساحلية، وتنتشر فيها تربية الحيوانات المستقرة، لم تتمكن من المحافظة على حيويتها الاقتصادية بعد أن تغلبت العرب على أراضيها.[3]

وبناء على ما تضمنته المصادر، يشير علاوة عمارة إلى أن مدينة بونة خلال النصف الأول من القرن 05هـ/11م ورغم أنها شهدت الغارات المسيحية، ومع تراجع الأنشطة التجارية فإن المناطق الريفية التي يستوطنها الهلاليون استمرت في تزويد بونة بالمنتجات الزراعية والرعوية. علما أنها شهدت عدة هجمات للهلاليين خاصة من طرف الزعيم "ابن مسعود" الذي استولى عليها، ورغم ذلك استمر الرحالة في وصف المدينة على أنها مزدهرة بفضل تجارتها وإنتاجها الزراعي والرعوي، مثلما أورده صاحب الاستبصار الذي نقل عن البكري وأشار إلى أن المدينة تميزت بتطور تجارتها البحرية.[4]

يمكن أن ندرج الملمح الذي يُسجّله الإدريسي بدقة، في إطار التحول الذي طرأ على المغرب الإسلامي بعد الهجرة الهلالية، حيث تم التوجه نحو الاقتصاد الرعوي على حساب الزراعة، فتحولت الكثير من المناطق التي كانت مخصصة للزراعة إلى مراعي، في حين حافظت بعض المناطق الرعوية على الحياة الاقتصادية التي ميزتها قبل الهجرة، ولو أن النموذج الذي نقدمه هنا خارج المغرب الأوسط، إلا أنه يمكّن من تقديم تصور موضوعي حول طبيعة الاستقرار والتحول في النشاط، حيث يذكر البكري[5] أن برقة تميزت بدوام رخاءها وبمراعيها، فكانت أكثر ذبائح أهل مصر منها، كما ينقل منها إلى مصر الصوف والعسل والقطران. ويؤكد لاحقا صاحب الاستبصار[6] أنها حافظت على هذا المستوى من الازدهار المرتبط بالمنتجات الرعوية بعد استقرار القبائل العربية التي امتلكت أجود المراعي، لذلك شكّلت ثروتها الحيوانية الكبيرة مصدر تموين أساسي لمصر والإسكندرية، فقد تميزت ذبائح أغنام برقة بـ "كثرة شحمها ولذّة لحمها".

---

[1]) مجهول: المصدر السابق، ص179.

[2]) البكري: المصدر السابق، ص54؛ ابن حوقل: المصدر السابق، ص77.

[3]) الإدريسي: المصدر السابق، ص291.

[4]) Allaoua Amara: "Bône, essor et développement d'une petite ville du Maghreb oriental", In: Entre deux rives. Villes en Méditerranée au Moyen Age et à l'époque Moderne, actes du colloque international, Aix Marseille (MMSH-MUCEM) 24-27 septembre 2014, presses universitaires de Provence, 2018, pp205-207.

[5]) البكري: المصدر السابق، ص05.

[6]) مجهول: المصدر السابق، ص143.

لكن، السؤال الذي يتبادر حين البحث في موضوع المنتوجات الحيوانية الرعوية خاصة، يتعلق بالمردود المالي الذي وفّرته، وهو ما يمكن تتبعه من خلال حركة تصدير مادة الصوف بصفة خاصة نحو أوروبا، وهو ما سنتطرق له في عنصر يعالج مسألة التجارة وحركة تصدير الموارد الرعوية.

يتّضح مما سبق بحثه أن التأثير الهلالي على القطاع الفلاحي بشقيه الزراعي والحيواني، أحدث ارتجاجا في المنظومة الفلاحية بالمغرب الأوسط، وبلغ ذروته في الفترات اللاحقة لانتصارهم في معركة سبيبة (457هـ/1065م)، أين شاع السلب والنهب وانتشر الرعب والهلع في نفوس المزارعين، رافقه اجتياح الأراضي الفلاحية وتحويل طبيعة ملكيتها وأشكال استغلالها، والنزوع نحو الزراعة المحصَّنة مع تضرر الإنتاج الزراعي من خلال ارتفاع تكاليف العمل الزراعي وتقلص المحاصيل الزراعية، رغم أن وتيرة هذا النشاط التخريبي والرغبة الجامحة في التوسع اصطدمت بقوة الدولة الموحدية وإجراءاتها السياسية والاقتصادية.

ومع الأضرار التي أحدثتها الموجة الهلالية على القطاع الزراعي في المغرب الأوسط، يمكن الإشارة إلى استمرار نمو الثروة الحيوانية في فترات الاستقرار، خاصة في ظل توسع المجالات الرعوية على حساب الزراعية، مع ما خلّف الأمر من أضرار على التربة والغطاء النباتي وعلى العلاقات بين البدو والمستقرين، في إطار التحولات الاقتصادية المرصودة في القرن الخامس الهجري (11م) والقرون اللاحقة.

الفصل الخامس

مؤثرات الحضور الهلالي على الحرف والتجارة

أولا: الحرف

1- رؤية الهلاليين لممارسة الصنائع والحرف.

2- المؤثر البدوي الهلالي في واقع الحرف بالمغرب الأوسط

أ. الخيمة وعمران المغرب الأوسط

ب. الحياكة والخياطة

ج. الصناعة الجلدية

3- حركة نقل المواد الأولية وتسويق المنتجات الحرفية.

ثانيا: التجارة

1- مظاهر التجارة الداخلية:

أ. الانتعاش التجاري في قلعة بني حماد.

ب. العلاقة التجارية بين البدو والمستقرين.

ج. الأسواق والمعاملات والبيوع.

2- بناء بجاية (قراءة في الخلفيات والمؤهلات)

أ. المؤهلات والاعتبارات الاقتصادية والأمنية للعاصمة الجديدة

ب. الانفتاح على التجارة المتوسطية

ج. التراجع الاقتصادي بقلعة بني حماد

3- انعكاسات الحضور الهلالي على التجارة الخارجية

أ. النشاط البحري

ب. التجارة العابرة للصحراء

ج. التجارة مع المشرق الاسلامي

4- المؤثر الهلالي في طبيعة وحجم المعاملات.

أ. تجارة المنتجات الرعوية

ب. تجارة الحبوب وتجاذبات الاقتصاد الزراعي – الرعوي

ج. مظاهر توظيف الذهب في المعاملات النقدية والتجارية

5- انعكاسات الحضور الهلالي على مسالك التجارة وحركة السلع

أ. الطرق التجارية

ب. تكاليف النقل التجاري

ج. كميات السلع المشحونة

د. شبكة التجار اليهود

مؤثرات الحضور الهلالي على الحرف والتجارة

لم يقتصر التأثير الهلالي على الفلاحة في المغرب الأوسط، إنما تعدّاه ليشمل قطاعي الحرف والتجارة، والمضان التاريخية بتنوعها لا تتردد في ذكر بعض الإشارات –على قلّتها وبطريقة مباشرة أو غير مباشرة–، التي تعكس في مجملها نوع وحجم التأثير الذي خلّفه الهلاليون على الحرف والتجارة، خاصة إذا عرفنا أن النشاط التجاري وقيمة مردوده يتضرر آليا من تراجع الفلاحة والحرف، ومن هنا يكون البحث في مستوى التحدي الذي واجه الدولة الحمادية إثر دخول الهلاليين، وما يترتب عنه من ضرورة تطوير استراتيجية تستجيب للظروف التي حكمت الوضع الاقتصادي والتطلعات السياسية التي تعكسها هذه الاستراتيجية.

انطلاقا من محاولاتنا النبش في نفسية البدو والكشف عن تركيبتهم والمعطيات الإثنوغرافية التي تحكم طبيعة معاشهم، فإن التطرق إلى مسألة التعاطي الهلالي مع الحرف ينطلق من طبيعة البداوة التي يتميزون بها، وهي المنافية للعمران والاستقرار، ناهيك عن ارتباطهم بتصورات متوارثة تعكس الموقف من الممارسة الحرفية، لذلك سنحاول معرفة مدى انعكاس نظرتهم للحرف والمشتغلين بها، وبالتالي تأثيرهم في وضعها بالمغرب الأوسط. كما لا يمكن استكمال المشهد الاقتصادي في ظل الهلاليين إلا بمعالجة الإشكاليات التي تعكس مدى تأثير الهلالية على الحياة التجارية في المغرب الأوسط، وعليه حري بنا أن نتساءل: كيف نظر الهلاليون إلى الممارسة الحرفية انطلاقا من طبيعتهم البدوية وتاريخ ذهنيتها؟ وإلى أي مدى انعكس الحضور الهلالي في المغرب الأوسط على الصناعة الحرفية كما ونوعا؟ وهل حدث تحول في مظاهر التجارة الداخلية والخارجية في ظل وجود العرب الهلالية وعلى أي المستويات حدث هذا التحول؟

أولا: الحرف[1]

ينطلق ابن خلدون في تقسيمه للحرف، من مدى حضورها وإتقانها الذي يكون متفاوتا بحسب درجة التمدّن والعمران، حيث يميز الصنائع المختصة بأمر المعاش إلى ما هو غير ضروري وما هو ضروري، وقسّم الأخير إلى ثلاث مستويات بحسب طبيعة العمران، ففي مرحلة العمران البدوي، تكون الحرف التي يتطلبها هذا المستوى من الحياة مقتصرا على: الحياكة، الخياطة، الجزارة، النجارة، والحدادة.[2] ثم إنه يربط بين الرخاء وتوفر السلع بكثرة العمران وتوسعه.[3] فكلما جاور البدو المدن وبدأوا يألفون حياة الاستقرار، كلما ارتقوا نحو متطلبات حرفية جديدة تتناسب والارتقاء في درجة التحضر.

يرتبط رسوخ الصنائع في أي مصر من أمصار الأرض، بطول الحضارة فيه، لأن العوائد تترسّخ في الأجيال بكثرة التكرار وطول المدة، ما يجعل المصر يستبحر في الحضارة، ويضرب ابن خلدون للدلالة على ذلك مثالا بالأندلس، التي تحوز شتى صنوف الصنائع والحرف وعوائد الترف، وهو ما تظهر ملامحه أيضا في القيروان ومراكش وقلعة بني حمّاد، لكن في صورة آثار وخراب.[4]

ونظرا لرسوخ البربر في البداوة –مثل العرب– فإن الصناعات عندهم تبقى قليلة، إذا استثنينا الصناعات النسيجية والجلدية.[5] وإذا كانت إفريقية قد شهدت بعض التحضر منذ عهد الأغالبة، فإن باقي أقطار المغرب لم يكن لها أن تصل إلى هذه المرحلة إلا خلال العهد الموحدي، بفعل التواصل مع الأندلس، خاصة بعد أن أصبحت هذه الأخيرة تحت السلطة الموحدية، ووصل هذا التأثير الحضاري إلى تونس التي انتعشت فيها الحضارة خاصة من تيارات الوفود التي تصلها من مصر، ولذلك اعتبر ابن خلدون أفريقية أكثر تحضرا من باقي أقاليم المغرب الإسلامي.[6] وقياسا على ذلك، فإن الهلالية تشترك مع زناتة من البربر في خاصية التبدي، مع فوارق في درجة الإغراق في البداوة التي يمكن ملاحظتها على بعض مجموعاتها.

---

[1]) ترتكز الصناعة على بعدين: نظري وعملي، وعلى أهمية الجانب النظري في تكوين الحرفي أو الصانع من خلال تزويده بمبادئ العملية الصناعية، إلا أن الممارسة والتكرار أعمق أثرا في اكتساب فنيات وتقنيات الصنائع والحرف، التي تنقسم إلى بسيطة ومركبة، فالبسيطة ما اختصت بالضروريات والمركبة ما ارتبطت بالكماليات؛ المقدمة، ص501؛ غير أننا نميل إلى إطلاق مصطلح "الحرف"، لما له من دلالة على بساطة المنتج الصناعي؛ وجاء في لسان العرب أن الحرفة بمعنى الصناعة والصنعة؛ ابن منظور: لسان العرب، مج2، ج9، ص839.

[2]) ابن خلدون: المقدمة، ص502-503.

[3]) نفسه، ص454.

[4]) نفسه، ص504-505؛ كما كان ببجاية من الصناعات والصناع ما ليس بكثير من البلاد، "وبها من الصناعات كل غريبة ولطيفة"؛ الإدريسي: المصدر السابق، ص259-260.

[5]) ابن خلدون: المقدمة، ص507.

[6]) نفسه، ص464.

1- رؤية الهلاليين لممارسة الصنائع والحرف:

ينظر البدو لأصحاب الصنائع والحرف نظرة منحطة، فهم: "لا يرون لها قيمة ولا قسطا من الأجر والثمن".[1] وانطلاقا من واقع تعاملهم مع الحرف، يحكم ابن خلدون على العرب بأنهم من أبعد الأمم على الصنائع، لعراقتهم في البداوة وبعدهم عن العمران الحضري، الذي يستوجب تنوع الصنائع، مما اضطرهم إلى استجلاب ما يحتاجونه من الأمم المجاورة.[2]

إن نقص العمران في البادية، راجع لكونها تفتقر للكثير من المرافق والخدمات المتوفرة في الحواضر، لذلك يقول ابن خلدون: "وإنما توجد لديهم في مواطنهم أمور الفلح وموادها معدومة ومعظمها الصنائع، فلا توجد لديهم في الكلّية من نجار وخياط وحداد وأمثال ذلك مما يقيم لهم ضروريات معاشهم في الفلح وغيره. وكذا الدراهم والدنانير مفقودة لديهم، وإنما بأيديهم أعواضها من مُغلِّ الزراعة وأعيانِ الحيوان أو فضلاته ألبانا وأوبارا وأشعارا وإهابا مما يحتاج إليه أهل الأمصار فيعوّضونهم عنه بالدنانير والدراهم، إلا أن حاجتهم إلى الأمصار في الضروري وحاجة أهل الأمصار إليهم في الحاجي والكمالي".[3]

يعزو رُبرت هُيْلَنْد Robert G. Hoyland هذا الغياب، إلى أن القبائل الرعوية العربية مارست الحد الأدنى من تقسيم العمل، حيث لا يوجد بينهم الصيرفي ولا الصائغ ولا البناء، فالحرفيون والنساجون والدباغون وغيرهم من أصحاب الحرف تطلق عليهم هذه التسميات من باب الإهانة والاحتقار.[4] ونظرا لإغراقهم في البداوة واعتيادهم على شظف وخشونة العيش، فإنهم استغنوا عن غيرهم،[5] فلم يكونوا بحاجة لخدمات إضافية، سوى ما يقوم عليه نمطهم المعيشي البسيط ومعاشهم المعتمد على تربية المواشي والزراعة والصيد أساسا.

تفتقد القبائل البدوية في بلاد المغرب إلى وجود تراتب اجتماعي، لأن التراتب يفرز أساسا عن تراكم الثروة، في حين كان الهلاليون بالكاد يوفرون متطلبات عيشهم وكلأ مواشيهم، ولم يكن الأمر ليتطور نحو خلق منظومة ثروة تؤدي إلى ظهور تراتبية اجتماعية كفيلة بتأثيث الحياة البدوية من خلال إظهار الحاجة إلى بعض أنواع الحرف من جهة، وإلى ظهور حرفيين مختصين يشتغلون في مجال إنتاج هذه السلع الحرفية، لذلك فإن النظام القبلي البدوي يشير إلى أن عدد المشتغلين في الحرف داخل القبيلة محدود جدا، وعادة ما يكونون غرباء أو دخلاء عنها.

---

[1]) ابن خلدون: المقدمة، ص187.

[2]) نفسه، ص506-507.

[3]) نفسه، ص191؛ يتقاطع ابن خلدون فيما ذهب إليه، مع مؤرخ الكنيسة "يوسبيوس" Eusebius (ت339م)، الذي جعل العرب ضمن الشعوب البدوية التي: "لا يوجد صيرفي، ولا نحات ولا رسام ولا معمار ولا اختصاصي بعلم الهندسة، ولا أستاذ في الغناء، ولا ممثل للقصائد الدرامية"؛ نقلا عن: رُبرت هُيْلَنْد: المرجع السابق، ص127.

[4]) نفسه، ص150.

[5]) ابن خلدون: المقدمة، ص190.

2- المؤثر البدوي الهلالي في واقع الحرف بالمغرب الأوسط

إذا كانت المصادر توفّر لنا جملة من المعطيات المباشرة التي يمكن من خلالها تتبع التأثير الهلالي على قطاعي الفلاحة والتجارة، فإن الأمر مختلف نوعا ما فيما يتعلق بمجال الحرف، وهو ما سيجعل مقاربتنا لهذا المبحث تنزع نحو الاستنتاجات والتحليلات التي نحاول أن نلتزم فيها بحدود التاريخ وإشارات المضان التاريخية.

بناء على مصادر المناقب السلطانية والصوفية لفترة ما بعد الموحدين والتي اشتغل عليها الطاهر بونابي، خلص إلى أن التأثير الهلالي على البنية الحرفية والصناعية في المغرب الأوسط استمر طيلة العهد الزياني، لأن الوضع كان مرتبطا بهيمنتهم على الطرق وسيطرتهم على فحوص المدن، الأمر الذي أدى إلى تعطّل حركة نقل المواد الأولية، ومن جهة ثانية أسهم في توجيه طبيعة المنتوجات الحرفية إلى متطلبات الحياة البدوية، حيث "جذبها نحو الاقتصاد البدوي"، على الرغم من حضور المؤثر الأندلسي في الحرف الزيانية، ورهان ملوك بني عبد الواد في محاولة الخروج السريع من طور البداوة إلى طور التحضر، ما أسهم جزئيا في الدفع بالحرف في ظل متطلبات التطلع لترقية العمران والصنائع خاصة ضمن المشاريع السلطانية.[1] هذا على المستوى النوعي، وهو ما ينطبق على المستوى الكمي كذلك، حيث لا يحتاج البدوي -دائم التنقل والترحال- إلى تأثيث خيمته بالكثير من المتطلبات، لأنها تشكل عائقا حينما يهم بالمغادرة إلى مكان آخر.

وفضلا عن العلاقة المضطربة بين البدو والحرف، فإن هذه الأخيرة -التي ترتبط بالحياة الحضرية غالبا- تتأثر بخراب العمران، فمتى كانت الأوضاع السياسية مستقرة وعوائد الحضارة مستحكمة في الساكنة فإن الصنائع تتطور وتزدهر، في حين يؤدي خراب المدن وانتقاض عمرانها وتراجع حضارتها إلى العودة إلى الضروري من الصنائع والتخلي عن أدوات الترف، حيث يبرز نزيف واضح من المشهد الحرفي للمدينة أو القطر، فتختفي حرف وصنائع كثيرة لأنها لا تتوافق وطبيعة الحياة الجديدة.[2]

من المهم الإشارة هنا إلى الصناعات ذات الأصل البدوي على غرار: الحصر، الزرابي، الأطباق والأواني الفخارية والطينية، القِرب الجلدية، لكن عند أخذها لأسواق المدينة يتم تبخيسها بحجة أنها من صنع الفلاحين في أوقات فراغهم وتقدم مردودا زائدا على معاشهم الأصلي، فالمدينة تستغل البادية من المزارعين ومربي المواشي، كما أن التجار يستغلون الصناع في المدينة.[3] ولذلك، نعتقد أن الحرف التي كانت تمارس على نطاق محدود لدى المجموعات الهلالية لم تكن موجهة للتعامل التجاري، إنما كانت تقتصر في غالبها على الاستعمال الشخصي، لذلك بقيت محدودة في كمياتها بسيطة في تقنياتها.

---

[1]) الطاهر بونابي: الحرف والحرفيون في المغرب الأوسط الزياني من خلال نص المناقب، مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية، جامعة معسكر، ع4، جوان 2013، ص187؛ لذلك ينتهي بونابي إلى أن الاقتصاد البدوي ظل مهيمنا على المغرب الأوسط الزياني ومدينة تلمسان تحديدا، باعتبار أن الدولة الزيانية قد اكتسحتها العوائد البدوية؛ نفسه، ص ص165-211.

[2]) ابن خلدون: المقدمة، ص506.

[3]) عبد المجيد مزيان: المرجع السابق، ص357.

يتساءل الطاهر بونابي عن حقيقة دور السلطة والسّاكنة الزيانية في الدفع نحو ممارسات الاقتصاد البدوي، من منطلق وضع بداوة الدولة وتواتر الأزمات والأوبئة والحروب التي عرفتها، وينتهي إلى أن ذلك شجّع على بروز المظاهر البدوية في الحرف والصنائع.[1]

وما دعم الاشتغال المحدود في المواد الحرفية الضرورية، أن الهلاليين يحصّلون جزءا مهما من المنتوجات الحرفية من خلال أعمال الإغارة والسلب التي يقومون بها في فترات الاضطراب وغياب سلطة الدولة، وقد يقومون باقتناء بعضها من الأسواق.

ولتتبع الأثر الهلالي في القطاع الحرفي، يمكن أن نعرج على المحطات الآتية:

أ. الخيمة وعمران المغرب الأوسط

يعدّ البناء من أول وأقدم صنائع العمران الحضري، إذ هو العمل في اتخاذ البيوت والمنازل للاستقرار بها، وتختلف الأنماط العمرانية باختلاف البيئة والمستوى المعيشي ومواد البناء، حيث توظّف فيها الحجارة المنَجدة أو الآجر أو الطين والكلس أو التراب. والمعروف هو بُعد أهل البدو على امتهان البناء والسكن في المباني، ويفسّر ابن خلدون إحجامهم عن ذلك: "لقصور أفكارهم عن إدراك الصنائع البشرية فيبادرون للغيران والكهوف المعدّة من غير علاج".[2] بسبب استحكام التوحش[3] فيهم، فهم إذا سيطروا على مجال ما، عمدوا إلى استغلال حجارة المساكن لجعلها أثافي للقدور، وأخشاب السقف لنصب خيامهم، وبهكذا ممارسات كان العرب أبعد عن البناء الذي هو أصل العمران.[4] ويشير القرآن في توصيفه لسكن البدو إلى أن المواد التي تدخل في تصنيع الخيام وتأثيثها مواد بسيطة ومتاحة في البادية: **﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾**.[5]

لقد دفعت طبيعة الحياة الهلالية المعتمدة على التنقل واللااستقرار، الهلاليين إلى اتخاذ الخيام[6] مساكن لهم،

---

[1]) الطاهر بونابي: الحرف والحرفيون، المرجع السابق، ص177.

[2]) ابن خلدون: المقدمة، ص ص509-511.

[3]) التوحُش بوصفه مفهوما علميا شبه فلسفي، هو عند ابن خلدون أقصى درجات البداوة، فهو الطرف المناقض للحضارة، التي تعني عند ابن خلدون الحياة في الحاضرة بما تقتضيه من ترف، في حين حياة التوحش تقتصر على القدر الفيزيولوجي الأدنى الذي يعتبر ضروريا للحياة. والرحل ليسوا متوحشين بطبيعتهم، لكن بطبيعة معاشهم؛ ينظر: عبد المجيد مزيان: المرجع السابق، ص231-232.

[4]) ابن خلدون: المقدمة، ص187.

[5]) النحل، الآية 80.

[6]) الخيمة مؤلفة من قطع من النسيج المتطاولة أو تحيكها النساء من شعر الماعز على شكل شقق (قطع) طول الواحدة حوالي سبعة (07) أذرع بعرض ذراع واحدة، حيث تضم الواحدة بجوار الأخرى طولا بواسطة قدد تدعى (طرائق)، وتتألف الخيمة الصغيرة من حوالي خمس أو ست شقق، أما خيمة الشيخ فتتكون من عشرة شقق أو أكثر. ترفع الخيمة على أعمدة خشبية، تختلف أسماؤها حسب موقعها، حيث يسمى عمود نصف الخيمة ب"الواسط"، وعمود جهة الشرق "المقدم"، وعمود الغرب "المؤخر"، وما في طرف الخيمة من الشمال والجنوب يدعى "الكاشر"، وينزل من الخيمة أطراف تعلق بها بواسطة الخلال وهي أعواد تغرز فيها على شكل دبابيس وتثبت الأطراف في الأرض بواسطة أوتاد وعرى من حبال تسمى "شبح"، والحبال الكبيرة التي تربط الأعمدة تسمى الأطناب، وتكون الخيمة مفتوحة من جهة الشرق، غير أنها تغلق في الشتاء، ويعمل حول الخيمة خندق حتى=

وإن لم تكن الخيمة منتشرة بكثرة في بلاد المغرب قبل الهجرة الهلالية.[1] فإن البكري يقدّم ملاحظة على غاية من الأهمية حينما يشبّه بيوت الواصلية زمن الدولة الرستمية بتيهرت ببيوت الأعراب (يقصد الخيام): "بيوت كبيوت الأعراب يحملونها".[2] وهو ما يدفع إلى الافتراض بأن خيام غيرهم من البربر في المناطق الأخرى تختلف عن خيام العرب.[3] ومن جهة ثانية يدفعنا إلى القول بأن وجود العرب في المغرب الأوسط لم يحدث تبدلا في الحرف المرتبطة بالعمارة، ولا في تقنيات صناعة الخيام ومستوى إتقانها.

يصف لويس دل مارمول كربخال[4] (ت1008هـ/1600م) (Luis del Mármol Carvajal) طريقة تنظيم الخيام في القرى والدواوير والتي تصنع من الصوف وشعر الماعز وسعف النخيل، بأنها تنصب على شكل دائرة يكون وسطها مستديرا وخاليا لتحبس فيه المواشي ليلا، وهذه الإشارة دليل على استمرار مظاهر سكن الخيام من قبل البدو ونصف البدو.

يمكن القول أن الاستقرار البدوي في الأرياف -في فترات لاحقة- لم ينتج عنه دفع نحو التحضر بقدر ما تمخض عنه تبدي المدن والقرى وانتشار مظاهر البداوة فيها،[5] وبالتالي فإن هذا الوضع ينعكس على تصورنا لمفهوم الاندماج، هل نعتبر هذا نجاحا في استقرار البدو ومن ثمة تسهيل لعملية ضبطهم وإخضاعهم للقانون والنظام أم أن الأمر فيه انتهاك لمعايير الحياة الحضرية وقفز على تقاليدها؟.

يعتقد إبراهيم جدلة أن استقرار الهلاليين في المناطق التلية جعلهم مجبرين على التأقلم مع أنماط الغذاء واستغلال الأرض وتربية الحيوانات (الغنم بدل الإبل).[6] ويقدّم النميري نماذج مهمة عن استقرار رياح -في فترات

=لا يدخلها ماء المطر. وقد تقسّم الخيمة إلى قسمين أو أكثر بقدر حجمها، جزء مخصص للضيوف (الشقة) وآخر للنساء (المحرم)، والفاصل بينهما (الساحة) قطعة منسوجة من الشعر تسدل من الشرق إلى الغرب عادة. وتكون خيمة شيخ القبيلة عادة في صدر المحلة موجهة إلى الطريق، حيث يسهل قصدها؛ الخوري بولس سيور البولسي: عوائد العرب، مطبعة القديس بولس، لبنان، ص38-39.

يقول الأمير عبد القادر الجزائري في امتداح حياة البداوة والخيمة: (البسيط)

يا عاذراً لامرئٍ قَد هَام في الحَضر ... وَعـــاذلاً لمحبّ البَدو والقَفر

لا تَــــــذممنّ بيوتاً خَفّ مَحملُها ... وتمدحنّ بُيوت الطِّين والحَجَر

ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، تحقيق: ممدوح حقي، دار اليقظة العربية، دمشق، ص22.

[1]) حسن خضيري أحمد: المرجع السابق، ص265؛ مصطفى بن عريب: المرجع السابق، ص113.

[2]) البكري: المصدر السابق، ص67.

[3]) جورج مارسيه: المرجع السابق، ص237.

[4]) إفريقيا، ترجمة: محمد حجي، محمد زنيبر، محمد الأخضر، أحمد التوفيق، أحمد بنجلون، ج1، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، 1984، ص100.

[5]) يقسم مونيس بخضرة المراحل التي تمر بها المدينة إلى ثلاث مراحل، **أولاها**: التحرر من الطبيعة والبوادي، **والمرحلة الثانية** مرحلة النشوء والتميز، **والمرحلة الأخيرة**، مرحلة المدينة الفعلية؛ ويعترف أن مدننا المعاصرة لا زالت في مرحلتها الأولى تصارع البداوة، والأخطر، أنها أصبحت تمتص العنف بمختلف تجلياته، في حين البادية تنعم بالأمن؛ تاريخ الوعي مقاربات فلسفية حول جدلية ارتقاء الوعي بالواقع، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر، مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، الإمارات العربية المتحدة، 2009، ص44.

[6]) إبراهيم جدلة: المرجع السابق، ص162.

لاحقة-، حين تمكنوا من بناء القصور وممارسة الزراعة والبستنة، ومن ذلك قصر "عثمان بن علي بن أحمد الرياحي"، حيث مروا عليه وهم في طريقهم إلى الزاب، وهو الذي يقع على سفح جبل بالقرب من تيجمانين قرب باتنة. وقد كانت ممارسة زراعة البستنة مرافقة للاستقرار في هذه القصور: "وحفّت بهذا القصر جنّات تعرف في وجوهها نضرة النعيم..."[1]، وقد كان هذا القصر الذي يمتلكه واحد من كبار الفرسان الرياحيين مخصصا للسكن والاحتماء وإخضاع قبائل لواتة.[2]

كما ذكر النميري[3] قصرا بباتنة بناه قريبه "سعيد بن موسى بن أحمد الرياحي"، الذي كان مخصصا لتخزين المؤونة، فضلا على غيرها من القصور في الزاب وبسكرة. وهي القصور التي بنيت دون شك وفق النمط المعماري المحلي للمنطقة. وكانت العمارة الريفية الرياحية في جهات الزاب متنوعة الطابع بين الإقامي والعسكري التحصيني والاقتصادي، وهو ما يعكس تطور الوعي الأمني العسكري والغذائي لدى الأسر الرياحية وارتباطه أكثر بمظاهر الاستقرار.

كانت ملامح الاستقرار في الريف الزابي التي قدّمها النميري مؤشرا على نوع من النزوع للحياة المستقرة، لكنه في الوقت نفسه يُنظر إلى المنطقة بوصفها مجالا خصبا للفتن والاضطرابات والفوضى، وعملية التهديم التي تعرضت لها القصور الرياحية هناك كانت استراتيجية مرينية للسيطرة وكسر النفوذ المتنامي للجماعات الرياحية.

يعتبر العروي مثل هذا التوجه الهلالي شكلا جديدا من البداوة، ورغم أن بعض القبائل اتجهت نحو تأسيس إمارات، إلا أنه لا يمكن مقارنتها بالإمارات التي أسسها الأغالبة والصنهاجيون، المتميزة بالانتظام والتمركز، بفعل الاختلاف السابق بين أشكال البداوة.[4]

انعكس غياب تقاليد عمرانية حضرية عن الحياة الهلالية، إلى إهمال بقية الحرف المرتبطة بالبناء، كالنجارة.[5] والصناعات الخزفية[6] التي ظلت محصورة في المدن العواصم كالقلعة ثم بجاية، لأنها مرتبطة بالحياة المترفة، وتشير وثائق

---

[1] النميري: المصدر السابق، ص ص412-416.

[2] محمد حسن: الجغرافيا التاريخية لإفريقية، المرجع السابق، 2004، ص43.

[3] المصدر السابق، ص ص412-416.

[4] العروي: المرجع السابق، ج2، ص103.

[5] النجارة من متطلبات العمران، وهي تعتمد على الخشب كمادة أولية في تشكيل منتوجاتها، التي تكون حاضرة في مختلف تفاصيل حياة البدوي والحضري على السواء، بل ويحتاجها أيضا أصحاب البحر في صنع المراكب والقوارب البحرية، وتجنح هذه الصناعة إلى التفنن والزخرفة كلما حدث ترف عمراني، وهي تحتاج حرفة النجارة إلى معرفة ببعض القضايا الهندسية، كالتناسب مثلا، وهو ما يمكّن النجار من نقل تصوّره إلى الواقع من خلال تجسيد الأفكار التي يعمل عليها؛ المقدمة، ص514-515.

[6] من الباحثين الذين اهتموا بدراسة هذا الجانب في الدولة الحمادية والقلعة تحديدا: لوسيان قولفين Lucien Golvin (1908-2002)، الذي عين سنة 1929 مدرّسا في تونس، وبعدها مديرا إقليميا للفنون والتقاليد الشعبية في صفاقس، ثم عين بين 1946 و1957 مديرا لخدمات الحرف اليدوية في الحكومة العامة للجزائر، وكان مهتما بالرسم. التقى الشقيقان مارسيه: جورج ووليام. فنصحه جورج بالتوجه نحو دراسة الجزائر في العصور الوسطى، فركز اهتمامه على قلعة بني حماد وآشير. والتحق بجامعة الجزائر في كرسي الفنون والحضارة الإسلامية إلى غاية 1962؛ ينظر:

André Raymond: Hommages à Lucien Golvin (1908-2002), REMMM (Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée), N 99-100, novembre 2002, p281-283.

الأرشيف البروفانسية إلى فخّار بجاية، الذي تتزود به من السهل الواقع جنوبها قرب مصب الصومام، وهو أرضيات صلصالية، وقد أشار جورج مارسي إلى القطع الخزفية التي تم جمعها من نقاط مختلفة داخل سور المدينة العريقة. كما أن الدراسات التي أجريت بالقلعة أثبتت وجود خزفيات ذات جودة، لكنها تبقى دراسات غير عميقة لأنها مبنية على الملاحظات الزخرفية ولا تستند إلى مرجعيات ستراتيغرافية (طبقات التربة)، ولم يجر لها تحليل جيو-كيميائي للطين الصلصالي، ما يصعّب تفسير الأدوات ومقارنتها بنظيراتها التي عثر عليها في مناطق أخرى.[1] ومن المهم هنا أن نشير إلى أن لوسيان قولفين Lucien Golvin أثبت من خلال الدراسات الأثرية أن تقنيات صناعة الخزف في القلعة انتقلت إلى بجاية.[2] وقد تأثرت بعض الصناعات والحرف كالأواني الزجاجية والفخار بالمصنوعات المشرقية، وكانت القيروان حلقة وصل مهمة في توصيل المنتوجات التجارية بين القلعة والمشرق.[3]

عرفت صناعات الآجر والفخار والخزف رواجا كبيرا في مطلع القرن الخامس الهجري (11م) في القلعة، وما ساهم في ذلك هو موقعها الذي جعل من تركيبة تربتها الجيولوجية غنية بالتربة الصالحة للصناعة الفخارية. وهنا يتفق فاليرين مع لوسيان قولفان الذي يرى بمحلية الصناعة، مستندا إلى وجود الأفران خارج أسوار المدينة.[4] وقد ظلت القلعة في شبه تبعية اقتصادية لإفريقية والقيروان تحديدا حتى منتصف القرن الحادي عشر (11) في ما يخص الصناعات الفاخرة كصناعة الزجاج والفخار، وكانت القيروان حلقة وصل في استيرادها وتوريدها ونشر التأثيرات الشرقية إلى القلعة.[5] ويحتمل بعض الباحثين أن التشابه في التقنيات الزخرفية في إفريقية والقلعة قد يرجع إلى لجوء الحرفيين نحو القلعة بعد وصول الهلاليين إلى إفريقية.[6]

أما عن تصدير الخزف انطلاقا من بجاية فيبقى غير مؤكد، في ظل غياب مؤشرات لذلك في عقود التجارة البحرية، رغم أن الحفريات التي جرت في إيطاليا وبيزا تحديدا أثبتت وجودا كبيرا لخزف العالم الإسلامي الغربي، لكن لا يمكن التأكيد على أن جزءًا منها ينتمي إلى خزف بجاية.[7]

---

[1]) فاليرين: المرجع السابق، ج1، ص279-280.

[2]) Lucien Golvin: Aspects de l'artisanat en Afrique du nord, Presses universitaires de France, Paris, 1957, p22.

[3]) Claudette Vanacker: Géographie économique de l'Afrique du Nord: Selon les auteurs arabes, du IXe siècle au milieu du XIIe siècle, Annales. Histoire, Sciences Sociales, Published by: EHESS, 28e Année, No. 3 (May - Jun, 1973), p661.

[4]) عبد الرحيم جديد: نماذج من حرف وصنائع البناء والعمارة بالمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط – عصر الدولتين الحمادية والزيانية، مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، مركز الحكمة للدراسات والبحوث والاستشارات، الجزائر، مج5، ع11، سبتمبر 2017، ص151؛ ومن الدراسات التي قدمت حول الخزف القلعي:

Georges Marçais: Les poteries et faïences de la Qal'a des Benî Hammâd (XIe siècle): contribution à l'étude de la céramique musulmane, Constantine: Braham, 1913.

[5]) Claudette Vanacker: Op.cit, p661.

[6]) فاليرين: المرجع السابق، ج1، ص280.

[7]) نفسه، ج1، ص529.

بقدوم الهلاليين انحصرت الصناعة الخزفية في القلعة، لكن تقنياتها لم تنقطع بل انتقلت إلى بجاية العاصمة الجديدة للحماديين، هذا على مستوى التصنيع، أما على مستوى استيراد المصنوعات الفاخرة فيبدو أنه توقف نهائيا، وذلك بسبب انتقال الارستقراطية الحمادية من القلعة إلى بجاية، وهي التي كانت تستهلك هذا النوع من السلع، فضلا عن توسع نشاط البدو، وبالتالي اختفاء مظاهر التمدن التي تروج فيها السلع الترف.

ب. الحياكة والخياطة:[1]

النسيج من أهم القطاعات الحرفية، فبعض المنسوجات التي تنتج في بلاد المغرب كانت تجد طريقها إلى الأسواق المشرقية خاصة نحو مصر قبل الغزو الهلالي،[2] وقد كانت القلعة تشتهر بصناعة أكسية جيدة، لا تماثلها في الجودة إلا الأكسية التي تصنع في وجدة، وانعكس مستوى الإتقان في صناعة هذه الأكسية على أسعارها، حيث يصل سعر كساء العيد إلى ثلاثين (30) دينارا.[3]

وصلت فنون النسيج في بجاية إلى مستويات مهمة من الإتقان والجمالية، حيث يذكر صاحب الاستبصار أن ملوك بجاية كانوا يضعون على رؤوسهم عمائم مذهّبة باهضة الثمن، يقدر سعرها بين خمسمائة (500) وستمائة (600) دينار وأكثر، حيث تصبح مثل التيجان عند تعميمها. هذا يدل على أن حرفيي النسيج في بجاية كانوا يتقنون فنون حرفتهم جيدا، فهي إنتاج محلي ولا يتم جلبها من مكان آخر، ولإبراز لمستها الجمالية وبيان خصائصها الفنية للزبائن كان تجار بجاية يعرضون العمائم على مجسمات خشبية على شكل رؤوس.[4]

رغم غياب الإشارات المصدرية حول الأثر الهلالي في هذا الجانب، إلا أن ما يمكن التأكيد عليه هو أن للنسيج والحياكة ارتباط وثيق بالطبيعة البدوية، سواء من خلال اعتمادها بالأساس على منتجات البوادي كالصوف، أو من خلال سوقها الاستهلاكية أيضا، ومن هنا يكون للهلاليين دور في توفير المادة الأولية (الأصواف)، نظرا لاشتغال جزء مهم منهم بالرعي وتربية المواشي، وبالتالي إنتاج الصوف التي تستخدم في إنتاج

---

[1]) النسج والحياكة هو إلحام الغزل حتى يصبح ثوبا واحدا (الأكسية الصوفية، الثياب القطنية ...)، والخياطة هي تفصيل المنسوج قطعا تتوافق وأطراف الإنسان لتخاط بإحكام، وقد يقتصر بعض ساكنة البدو على استعمال الصنف الأول (المنسوج)، بينما ينتشر لبس الثياب المخاطة في المدن أكثر؛ ابن خلدون: المقدمة، ص516.

[2]) Claudette Vanacker: Op.cit, p661.

[3]) مجهول: المصدر السابق، ص170.

[4]) نفسه، ص129، تسمى هذه الرؤوس حاليا "مانيكان" Mannequin (أو بالأحرى هي جزء منها)، ونعتقد أن هذه الإشارة من أقدم الإشارات إلى وجود هذا النوع من طرق العرض في المتاجر التي تختص ببيع الأزياء والملابس بالمغرب الأوسط، والحديث عن المانيكان –في شكلها العصري– انتشر بأوروبا منذ القرن التاسع عشر. وبهذا يمكن أن يكون هذا النص التاريخي مهم جدا في البحث عن تاريخ المانيكان وهو أيضا يعكس اهتمام التجار البجائيين بطرق العرض والماركتينغ (التسويق)؛ وعليه يكون هذا الموضوع من المحطات التي تحتاج بحثا في التاريخ الاقتصادي في المغرب الأوسط خاصة والغرب الإسلامي عامة من خلال البحث في الإشهار وطرق العرض، والتي تعتبر معيارا مهما في ضبط العلاقة بين التاجر والزبون والمنتج.

وما يؤكد على تنوع المنتجات النسيجية في بجاية الحمادية، أن البجائيين كانوا يرتدون "الأقراق الزرارية وعمائم (الجاهلية) ولباس الفتوحيات" على حد وصف المهدي بن تومرت (ت524هـ/1130م)، الذي نهى رجال بجاية عن ارتداء هذه الأنواع من الألبسة، مذكرا إياهم بحرمة التشبه بالنساء؛ البيذق: المصدر السابق، ص13.

الأكسية والألبسة؛ وفي الوقت نفسه كانوا يقتنون هذه المنتجات مما دفع بحرف المدن التي يستقر البدو حولها إلى دخول دورة الاقتصاد البدوي، وهو ما ينطبق على تلمسان خلال العهد الزياني، إذ يذكر ابن مرزوق أن نزول بني عامر بن زغبة من العرب الهلالية بأحواز تلمسان خلال حكم أبي حمو موسى الثاني قد دفع نحو تنشيط حرفة الحياكة بما يتوافق ومتطلبات زيهم، حيث زاد الطلب على الغفارات (البرانس الصغيرة).[1] مما جعل الحرفي الزياني يستجيب لهذا التوجه الذي يعكس طغيان مظاهر البداوة في جانبها الاجتماعي والاقتصادي.

يؤكد ما أورده الوزان، أن مظاهر انتشار الحياكة ومُنتَجِها في طابعها البدوي ظلت مستمرة في كثير من مدن المغرب الأوسط، كوهران وتلمسان ودلس ومازونة ... إذ امتهن ساكنتها تلك الحرف المرتبطة بحياة ومتطلبات البداوة، بما فيها الصناعة الجلدية.[2]

ج. الصناعة الجلدية:

تظهر وثائق الأرشيف التي اشتغل عليها دومنيك فاليرين[3] أن من بين أهم الصادرات البجائية، الجلود، ولكن في الغالب تكون غير مصنعة. وهناك إشارة طبونيمية ذكرها الغبريني في القرن 7هـ/13م وهي "باب الدباغين"[4] في بجاية، ما يشير إلى ممارسة نشاط دبغ الجلود خارج أسوار المدينة.[5] وبالتالي فقط ارتبطت بحرفة الصناعة الجلدية عدة عمليات كالخرز والدبغ،[6] لكنها تبقى بسيطة ومحدودة.

ذات القياس الذي قدّمناه بخصوص الصناعة النسيجية يمكن ربطه بمجال الجلود، غير أن الآلة التصنيعية في المغرب الأوسط لم تكن تواكب العملية الإنتاجية فيما يبدو، لذلك كان إنتاج الجلود يصدر مادة خاما نحو أوروبا. فتربية المواشي من أغنام وماعز وغيرهما كان يدرّ إنتاجا مهما من الجلود التي كان جزء منها يحول نحو الاستغلال المحلي مع بساطة منتجاته، في حين يحول جزء مهم منها خارج المغرب الأوسط نحو أوروبا.

وإذا كان ابن خلدون يعترف بأن نسج الصوف وخرز ودبغ الجلود أغلب صنائع المغرب الإسلامي ومؤشرا على حال البداوة مقابل ظمور وانكماش الحرف والصنائع المتعلقة بحياة الحضر والتمدن وترف العمران المستبحر،[7] فإننا نؤكد على المؤثر الهلالي كان قويا في الدفع نحو ذلك.

---

[1]) ابن مرزوق: المناقب المرزوقية، ص276.

[2]) الوزان: المصدر السابق، ج02، ص30-32؛ الطاهر بونابي: مظاهر المجال والدين والمجتمع، المرجع السابق، ص180.

[3]) المرجع السابق، ج1، ص279.

[4]) أبو العباس أحمد الغبريني: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق وتعليق: عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط2، 1979، ص50.

[5]) فاليرين: المرجع السابق، ج1، ص279.

[6]) ابن خلدون: المقدمة، ص507.

[7]) نفسه، ص507.

3- حركة نقل المواد الأولية وتسويق المنتجات الحرفية

من العوامل المتحكمة والموجِّهة للنشاط الحرفي، مدى وفرة المواد الأولية، وعادة ما يتحدد نوع الحِرف في منطقة ما بطبيعة المادة الأولية الموجودة بها أو قريبا منها، وقد عرف المغرب الأوسط بغناه بالثروات المعدنية من حديد ونحاس وزئبق وإثمد وزنك وهي موجودة محليا، ويحدد بورويبة انطلاقا مما أوردته المصادر الجغرافية مناطق تواجد المعادن[1] في المغرب الأوسط الحمادي، حيث يوجد الحديد بمجانة وبونة[2] وبجاية، وبقرب مدينة أرزاو (أرزيو) يوجد جبل كبير به معدن الحديد والزبيق (الزئبق).[3] ويتواجد الرصاص والإثمد والفضة بمجانة، وفي جيجل يوجد النحاس واللزورد، أما الذهب فيجلب عادة من بلاد السودان.[4]

كما يتوفر المغرب الأوسط على ثروة نباتية وزراعية وحيوانية تشكِّل عصب الصناعات الحرفية، فضلا عن انتشار الغابات في بعض المناطق الجبلية، مثل جبال زواوة، والتي تعتبر أشجارها مصدرا هاما للخشب الذي يدخل في بعض الحرف كالنجارة وتصنيع السفن، فضلا عن كونها مصدرا للطاقة ومادة تدخل في دبغ الجلود، كما يستخرج من بعض أنواعه الزفت والقطران...[5]

تراجع مردود المساحات الغابية، بمقدم الهلاليين لأنهم دمروا معظم الغابات بأنفسهم أو عن طريق قطعانهم، مما أدى إلى تراجع إنتاج الأخشاب الموجهة لصناعة السفن،[6] حيث يؤكد الإدريسي تراجع إنتاج الخشب في بادية بونة، بسبب تردي وضعف عمارتها بعد أن تغلبت العرب على أراضيها الواسعة واستولى النورمان عليها.[7]

ما يلاحظ من خلال الاطلاع على المصادر، أنه قبل الغزو الهلالي، كانت النصوص تشير إلى الكثير من الموارد المعدنية وغير المعدنية في البلاد الشرقية، كحجارة الأرحاء والنحاس والفضة والخزف والمرجان والملح، لكن مع الغزو الهلالي تقلص ذكر هذه المواد، وهو ما يوحي بتقلص إنتاجها، وتركز التعدين في المناطق الأكثر أمنا، حيث ظهر جص جيجل وحديد بجاية وبونة وزفت وقطران بجاية.[8] فقد ذكرت مثلا الكثير من النصوص الجغرافية منجم مجانة الذي تستغل معادنه خاصة من الحديد والفضة، لكن لم يذكر بعد ذلك كل من الإدريسي وصاحب

---

[1]) لتتبع مناطق تواجد المعادن وموارد الصناعات الحرفية في المغرب الأوسط، لخضر العربي ومحمد بن معمر: موارد الصناعة الحرفية في المغرب الأوسط ما بين القرنين 06-09هـ/12-15م، مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، جامعة معسكر، مج9، ع1، جوان 2018، ص ص331-350؛ كمال خلفات: المرجع السابق، ص ص90-96.

[2]) الإدريسي: المصدر السابق، ص291.

[3]) البكري: المصدر السابق، ص70.

[4]) بورويبة: المرجع السابق، ص136.

[5]) فاليرين: المرجع السابق، ج1، ص271.

[6]) بوفيل: المرجع السابق، ص117.

[7]) الإدريسي: المصدر السابق، ص291.

[8]) أحمد موسى: المرجع السابق، ص245.

الاستبصار (الذي ينقل عن البكري غالبا) هذا المنجم، ولعل ذلك راجع لأضرار الهجرة الهلالية وللاضطرابات التي ألحقتها.[1]

تأثر من دون شك نقل المواد الأولية التي تدخل في تركيبة الصناعات الحرفية بغياب الأمن في شبكة الطرق، إذ لم يعد من الممكن توفير المادة الأولية بنفس الكمية والسعر الذي كان عليه قبل دخول الهلاليين، ما أثّر بالضرورة على مستوى الإنتاج وطبيعته فضلا عن أسعار هذه المواد في الأسواق.

ثانيا: التجارة[2]

1- مظاهر التجارة الداخلية

لا شك أن تتبع مظاهر التجارة الداخلية للمغرب الأوسط في ظل الحضور الهلالي أمر في غاية من العُسر، لأن المبتغى هو بيان طبيعة التحولات الطارئة على النظم التجارية ومستوى العمل التجاري، ولعل الصعوبة تتأتى من طبيعة تعامل المظان التاريخية مع معطيات التجارة الداخلية، غير أننا سنحاول من خلال تتبع منحى التجارة داخل القلعة على إثر تدفق الهلاليين على إفريقية باعتبار قلعة بني حماد عاصمة حواضر المغرب الأوسط آنذاك ومركز دولة الحماديين الانعكاسات التي حدثت على المستوى التجاري، كما لا يستقيم البحث في تجارة الداخل ومعاملاتها إلا ببيان طبيعة العلاقة بين البدو والمستقرين، والكشف عن وضعية الأسواق ونشاطها التجاري.

أ. الانتعاش التجاري في قلعة بني حماد

بعد خراب القيروان سنة 449هـ/1057م، وانتقال السلطة السياسية إلى المهدية،[3] "انتقل كثير من أهلها إلى بلاد بني حماد لكونها جبالا يمكن الامتناع بها من العرب، فعمرت بلادهم وكثرت أموالهم".[4] انطلاقا من هذا النص يمكن أن نستنتج أن القلعة استقطبت مهاجرين نوعيين أو بلغة أخرى مستثمرين ورؤوس أموال مهمة، أسهمت في تطوير بعض الأنشطة في دولة الحماديين.

لم يكن تحقيق قفزة اقتصادية نوعية متاحا للقلعة مثلما هو الأمر عليه في القيروان، بسبب موقعها الجغرافي.[5] خاصة وأنها مدينة داخلية تقع على شبكة طرق ليست بتلك الأهمية التي كانت عليها القيروان، لكن خصائصها متقاربة، عكس المهدية التي تم اللجوء إليها دون سابق تحضير، يبدو أنهم كانوا يريدون من جهة البحث عن بيئة

---

[1]) روجي إدريس: المرجع السابق، ج2، ص254.

[2]) عرّف ابن خلدون التجارة بقوله بأنها: "محاولة الكسب بتنمية المال، بشراء السلع بالرخص وبيعها بالغلاء"، ويحصل التاجر على الربح بتخزين السلعة وتحيّن فرصة غلاء الأسعار فيبيعها، أو يقوم بنقلها إلى بلد آخر تقل فيه هذه السلعة فيزيد ربحه، لذلك يعرف بعض الشيوخ التجارة بـ: "اشتراء الرخيص وبيع الغالي"؛ المقدمة، ص494.

[3]) بعد انتقال المعز إلى المهدية انتقلت ثلاث مناطق في إفريقية إلى تبعية الحماديين مؤقتا، وهي: صفاقس (كتب أميرها للناصر بالطاعة)، قسطيلية (أرسل أهلها للناصر يعلنون طاعتهم)، وتونس؛ بورويبة: المرجع السابق، ص60-61.

[4]) ابن الأثير: المصدر السابق، ج8، ص372.

[5]) جورج مارسيه: المرجع السابق، ص228.

اقتصادية مشابهة لبيئة القيروان، ومن جهة ثانية كانوا يدركون أنهم في المهدية ليسوا ببعيدين عن يد العرب، وربما كانوا أيضا ناقمين على آليات التعامل مع الهلاليين من طرف السلطة الزيرية التي فشلت في إدارة هذا الملف.

لجأ التجار والأغنياء إلى الدولة الغريمة وحاولوا هناك استئناف أنشطتهم، وربما هو الأمر الذي ساهم في نقل شبكتهم التجارية نحو عمق المغرب الأوسط، ما جعل تجار مصر والمشرق يتجهون نحو القلعة. غير أن هذه الفترة كانت قصيرة مما حال دون حدوث تأثير واسع، ولا نستبعد أن هذه العناصر بمواردها انتقلت فيما بعد إلى بجاية العاصمة الجديدة لتخوض تجربة أخرى، أو على الأقل وجّهت جزءا من نشاطها إلى هناك. وبالتالي فإن المجال الحمادي كان مجالا مستقطبا لرؤوس الأموال، التي كانت متركزة في القيروان باعتبارها حاضرة وازنة في المغرب الإسلامي.

الحضور الاقتصادي المهم للأرستقراطية الزيرية في القلعة، دفع الهادي روجي إدريس —الذي كثيرا ما يتكرر اسمه في هذا البحث— إلى وصفها بـ "العاصمة الثرية"، التي ما فتئت أن تراجعت بسبب مقدم الهلاليين، ومع ذلك بقيت في مظهر العاصمة إلى غاية قيام يحيى بن العزيز (ح515هـ-1121م/547هـ-1152م) بإخلائها سنة 543هـ/1148-1149م، ومع ذلك استمر وجودها إلى غاية تخريبها نهائيا من طرف يحيى بن غانية (ت543هـ/1149م).[1]

ب. العلاقة التجارية بين البدو والمستقرين

تثير مسألة العلاقة بين البدو والمستقرين إشكالية بحثية تفرض نفسها، وذلك نظرا للاختلاف بين الطرفين وتميز كل منهما بخصوصية في نمط الحياة والممارسة الاقتصادية، وإذا كان فرنان بروديل[2] (1902-1985) Fernand Braudel يعترف بوجود مساحة شاغرة بين البدو والحضر، سببها عدم فهم كل طرف للآخر، ويستحضر موقف جاك بيرك في ضرورة الدفع بهم نحو التحضر، لأنه السبيل الوحيد لترقيتهم اجتماعيا، وفي الوقت الذي يحاول بعض الباحثين الحديث عن علاقة مضطربة بين البدو والمستقرين، يذهب إيف لاكوست إلى أن القول بوجود عداء تاريخي بينهما باطل، معتبرا ذلك مجرد "أسطورة".[3]

ويبدو أنه بقدر ما اعتبر البدوي حياته المبنية على الترحال والتنقل والسعي بالسائمة شكلا من أشكال التحرر السياسي والاقتصادي، وانعتاقا من كل الالتزامات غير تلك التي تربطه بقبيلته وعصبيته، فإن "التمدن غاية للبدوي، يجري إليها وينتهي بسعيه إلى مقترحه منها".[4] وبالتالي فإن الرغبة في التمدن وسكن الحضر لم تكن شعورا

---

[1]) ذكر روجي إدريس خطأً أن القلعة تم تخريبها على يد يحيى بن غانية في بداية القرن 07هـ/13م، لأن يحيى توفي سنة 543هـ/1149م؛ المرجع السابق، ج2، ص99-100؛ في حين يذكر عبد الحليم عويس أن إخلاءها من طرف يحيى فكان سنة 538هـ/1143م، وهو الأصوب؛ المرجع السابق، ص104.

[2]) تاريخ وقواعد الحضارات، ترجمة: سفير حسين شريف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1999، ص66.

[3]) Yves Lacoste: Op.cit.

[4]) ابن خلدون: المقدمة، ص152.

مُفزعا أو خطوة انتحارية بالنسبة للبدوي، خاصة لأنصاف الرحل ممن كان لديهم اطلاع واسع على طبيعة التمدن وتربطهم علاقات مع المستقرين خاصة من خلال المعاملات التجارية، فالتجارة بوصفها نشاطا يجمع أطرافا مختلفة، جعلت من فرص الالتقاء والاحتكاك والتقارب أكبر.

لقد عكست بعض المصادر وجود علاقات اقتصادية فِعلية بين البدو والمستقرين، ففي مدينة باغاي التي أدى الغزو الهلالي إلى تحول الأسواق إلى داخل المدينة بعد أن كانت أسواقها قبل ذلك في الأرباض، كان البربر والعرب يتعاملون مع بعضهم البعض.[1]

ما ينبغي الإشارة إليه هو أن أسواق البادية تتميز بالكميات القليلة للسلع المتداولة ذات القيمة المنخفضة، وأكثر آليات التعامل فيها هي المقايضة، وبالتالي فإن الكثير من مرتادي هذه الأسواق لا يمتهنون التجارة كمهنة رئيسية، إنما أغلبهم مزارعون أو رعاة يقومون ببيع فائض إنتاجهم أو مواشيهم، في حين هناك من يكلف طرفا ثالثا للقيام بالعملية التجارية.[2]

غالبا ما تكون الأسواق مشتركة وللقبائل حرية الاتجار، لكن هذه الحرية لم تكن لصالح البدوي لأنه لا يسيطر على السوق، فهو لا يبيع كتاجر إنما كمنتج مرغم على القيام بهذه المبادلات. كما أن السوق موجود بالمدينة ومستهلكوها يستنقصون ويبخسون المنتوجات البدوية بحجة أنها من إنتاج الطبيعة، وهذا نوع من الاستغلال داخل عالم واحد تختلف مجموعاته الإنتاجية.[3]

جانب كبير من علاقة البدو والمستقرين في بعدها التجاري حُكمت بالنصوص النوازلية، التي غالبا ما تحذّر من التعامل مع البدو، باعتبارهم مستغرقي ذمم وغزاة يقومون ببيع ما تجنيه رماحهم. لذلك، لا يمكن قراءة العلاقة

=لطالما كانت السلط المركزية ترى في البداوة تهديدا لها، رغم الثقل السياسي والاقتصادي الذي كانت تحوزه، لذلك كانت تسعى لتطويع البدو وتوطينهم، ومع ظهور الدول الوطنية الحديثة والقوميات أصبح ينظر إلى البداوة على أنها مظهر من مظاهر التخلف، ينبغي محاصرتها وتوطينها وتمدينها، وبتعبير آخر فإن الحياة البدوية قد تتعارض والمواطنة التي تقوم عليها الدولة الحديثة. ومن خلال احتكاكه بالبدو المعاصرين، يلاحظ عبد المجيد مزيان أن البدو لديهم رغبة جامحة في الاستقرار، خاصة أنصاف البدو. لكن في النهاية البدو ليسوا طبيعة واحدة ولا نموذجا أوحد، بل هناك أشكال متعددة للحياة البدوية؛ المرجع السابق، ص354.

لقد ظل البدو على مدار التاريخ محل انشغال السُلط، من حيث البحث عن آليات الإدماج في الهيكل السياسي والعسكري والاقتصادي للدولة، وفي الوقت الراهن تطورت بعض الاهتمامات، مثل التي تعكسها تساؤلات من قبيل: كيف يوفّق البدوي المعاصر بين الانخراط في متطلبات الدولة الوطنية والاستفادة من مزايا التطور التكنولوجي وحياة الرفاهية دون التخلي عن طبيعته البدوية؟ كيف السبيل إلى مساهمة البدو العابرين للحدود الدولية في العمل على تحقيق الأمن الحدودي وعدم التورط في التهريب الذي ينهك اقتصاديات الدول؟ وما هي الآليات التي تسمح باستغلال المنتوجات البدوية كأحد أوجه الصناعات التقليدية والتي يمكنها تحقيق دفع للسياحة وبالتالي للاقتصاديات الوطنية، خاصة تلك الريعية.

لا نبالغ حينما نعتبر الحديث عن الرغبة في / رفض الانتقال من طبيعة معيشة إلى أخرى سؤالا فلسفيا بامتياز، يتداخل فيه الاقتصادي مع النفسي والاجتماعي... لكن السؤال الملحّ هنا هو هل فرضُ حياة الاستقرار والتمدن على البدو يعتبر تعدّيا على طبيعتهم وأسلوب حياتهم الذي اختاروه أو وجدوا أنفسهم عليه؟

[1]) الإدريسي: المصدر السابق، ص276.

[2]) Élise Voguet, Op.cit, p387-389.

[3]) عبد المجيد مزيان: المرجع السابق، ص353.

بين الطرفين بعيدا عن هذا المعطى الذي أفرز ما يشبه تصورا عاما ونمطيا حول السلع التي يتداولها الهلاليون، إذ أصبحت بمثابة السلع المشبوهة التي ينظر إليها بتوجس. وعليه لم يقتصر التخوف من الهلاليين على إغاراتهم وقطعهم للطرق وتهديدهم للأمن والحد من تحركات المزارعين، بل تعدّاه إلى ما في أيديهم. وهو الأمر الذي وسّع من الهوة بينهما، ونعتقد أن مجال تاريخ الذهنيات بإمكانه دراسة هذه الظاهرة في أبعادها التاريخية.

ليس هذا فحسب، بل أن الفقهاء منعوا بيع آلة الحرب وعدّة الفرس لأهل الخلاف من الأعراب حتى لا يتقوون على المفاسد وحتى لا يكون التعامل التجاري معهم في هذا الباب بمثابة الإعانة لهم، وتتوسع قائمة السلع الممنوعة من طرف الفقهاء أحيانا لتشمل الأفرية وغيرها.[1]

ج. الأسواق والمعاملات والبيوع

يحصي المغرب الأوسط عددا مهما من الأسواق بأنواعها (الموسمية، الأسبوعية، اليومية)، باعتبارها الفضاء الذي تتم فيه العمليات التجارية بين المتعاملين بما فيهم البدو، الذين يقصدونها، ومن الأسواق التي أوردتها المصادر التاريخية نذكر:

الجدول رقم05: توزع الأسواق في المغرب الأوسط ومستويات نشاطها

الأسواق	الإشارة المصدرية	المصدر
حصن بكر	فيه سوق وبيع وشراء.	الإدريسي: المصدر السابق، ص262.
مدينة باغاي	هي مدينة كبيرة كانت الأسواق بربضها، لكن الأسواق تحولت إلى المدينة والأرباض خالية بسبب إفساد العرب، "وكانت لها بواد وقرى وعمارات والآن كل ذلك قليل فيها، وحولها عمارات برابر يعاملون العرب".	الإدريسي: المصدر السابق، ص276.
قرية مسكيانة	"قرية عامرة قديمة ... لها سوق ممتدة كالسماط"	الإدريسي: المصدر السابق، ص295.
قسنطينة:	تسكنها قبائل من أهل ميلة ونفزاوة ... (وهي كتامية) "بها أسواق جامعة ومتاجر رابحة".	البكري: المصدر السابق، ص63.
	"بها أسواق وتجار وأهلها مياسير ذوو أموال وأحوال واسعة.	الإدريسي: المصدر السابق، ص265-266.
سبوس (زاوى) (قرب بونة)	"ولها مساجد وأسواق".	البكري: المصدر السابق، ص55.
بونة	**بونة:** كانت بونة مدينة ذات تجارة رائجة وأرباح كبيرة، وأسواقها منتعشة، لكن حالها تردت وضعفت وقلت عمارتها بعد أن تغلبت	الإدريسي: المصدر السابق، ص291.

[1]) الونشريسي: المصدر السابق، ج6، ص67.

	العرب على أراضيها الواسعة واستيلاء رجار عليها سنة 548هـ.	
تنس	بناها الأندلسيون، وبها "أسواق كثيرة".	البكري: المصدر السابق، ص61.
ميلة	فيها أسواق، ويسكنها العرب والجند والمولدون.	البكري: المصدر السابق، ص64.
المسيلة	"وللمدينة أسواق وحمامات ...".	البكري: المصدر السابق، ص59.
آشير[1]	فيها سوق أسبوعي "يجلب إليه كل لطيفة ويباع به كل طريفة".	الإدريسي: المصدر السابق، ص254.
حصن كزناية	به مزارع على نهر شلف، وله سوق أسبوعي يوم الجمعة يقصده الكثير من الناس.	الإدريسي: المصدر السابق، ص253.
قرية ريغة	لها سوق يقصده الناس يوم الجمعة.	الإدريسي: المصدر السابق، ص254.
سطيف	وهي مدينة كبيرة ... وهي اليوم تتميز بكثيرة أسواقها ورخص أسعارها.	البكري: المصدر السابق، ص76.
تلمسان	تتميز بوجود الأسواق،... وهي مقصد للتجار.	البكري: المصدر السابق، ص77.
جزاير بني مزغنى	فيها أسواق ومرسى مأمون.	البكري: المصدر السابق، ص66.
مدينة طبنة	أهلها أخلاط، ... وتتميز بصناعاتها وتجاراتها وألها يستثمرون أموالهم في التجارة.	الإدريسي: المصدر السابق، ص263.
	تتميز بنشاطها التجاري المزدهر "تجاراتها مربحة وأسواقها قائمة وصناعاتها نافقة"، ينتجون بكثرة السمن والعسل ما يفوق حاجتهم، لذلك يتم تصديرها إلى الأقاليم المجاورة والبعيدة.	الإدريسي: المصدر السابق، ص258.
تيهرت	بها أسواق عامرة.	البكري: المصدر السابق، ص68.
	"يسكنها البربر" وتتميز بازدهار أسواقها.	الإدريسي: المصدر السابق، ص256.
وهران	تتميز وهران بأسواقها وصنائعها الكثيرة وتجاراتها النافقة، وتتميز بعلاقاتها التجارية مع الأندلس: "ومراكب الأندلس إليها مختلفة".	الإدريسي: المصدر السابق، ص252.

[1]) آشير، بناها يوسف بن زيري بن مناد سنة 367هـ/977م، وخرّبها يوسف بن حماد بن زيري بعد سنة 440هـ/1048م، "ثم تراجع الناس إليها بعد خمس وخمسين"؛ البكري: المصدر السابق، ص60.

لا يمكن حصر الأسواق التي كانت منتشرة في مدن وأرياف وحصون المغرب الأوسط، كما يصعب تتبع مدى ازدهارها وحجم المبادلات التي تتم فيها، بسبب عدم دقة الإشارات المصدرية، ومن غير الممكن أيضا أن نحدد بدقة تلك الأسواق ذات العلاقة بالحضور الهلالي، كما أنه من العسير تتبع الأسواق التي اندثرت وتوقف نشاطها بسبب خراب بعض المدن والمناطق المأهولة.

وإلى جانب المعطيات الواردة في الجدول أعلاه، وردت إشارات وإن كانت لا تقصد مباشرة الأسواق ونشاطها، إلا أنها تحيل إليها، لأنها وردت في سياق الحديث عن المعاملات التجارية، حيث تشير إلى أن بعضها لا تتم في الأسواق دائما، حيث يذكر البكري مثلا أن مدينة قزرونة: "..أكثر تلك النواحي كتانا، ومنها يحمل".[1] وهو دليل على ارتباط المدينة بشبكة تسويق مهمة، كما تذكر المصادر أن مدينة مرسى الخرز –المعروفة بإنتاجها لأجود أنواع المرجان– كانت مقصدا للتجار من سائر الجهات.[2]

ناهيك عن مدينة بجاية، التي عرفت الحركة التجارية فيها ازدهارا كبيرا، فـ: "السفن إليها مقلعة وبها القوافل منحطة والأمتعة إليها برا وبحرا مجلوبة والبضائع بها نافقة وأهلها مياسير تجار وبها من الصناعات والصناع ما ليس بكثير من البلاد، وأهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق وبها تحل الشدود وتباع البضائع بالأموال المقنطرة".[3] فهذا الانفتاح على التجارة الخارجية يعكس نشاطا مهما وازدهارا للتجارة الداخلية وحيوية الأسواق بها.

أما الأسعار[4] التي تعكس قيمة السلع والقدرة الشرائية والمستوى المعيشي، فضلا عن حجم الطلب على السلع ومدى توافرها، فإن المصادر التاريخية لا تسعفنا في إعادة بناء تصور عن حقيقتها في المغرب الأوسط، غير أن الاستنتاج الذي يرسو عليه تصورنا للموضوع وتؤكده المصادر، هو أن الأسعار ارتبطت بفترات الاضطراب والأمن، وكيفية ولوج الهلاليين لمجالات المغرب الأوسط والتي تنوعت بين الدخول العنيف والسلس، وبالتالي

---

1) البكري: المصدر السابق، ص65-65.

2) الإدريسي: المصدر السابق، ص290-291.

3) نفسه، ص259-260.

4) ابن صاحب الصلاة: المصدر السابق، ص252.

يذكر صاحب المن أسعار بعض السلع خلال أيام الجواز إلى الأندلس في المناطق القريبة (وادي تانسفت على نحو ثلاثة أميال من مراكش في طريق المحلة إلى الجواز)، وهي أسعار رخيصة في عمومها كما يوضحه الجدول الآتي:

المادة	الوزن	السعر
الرُّبع من الدقيق	الرُّبع: (25 رطل، والرطل يساوي 504 غرام) وبالتالي الرُّبع هو 12 كلغ و600 غرام)	02 درهم
الشعير	25 مدًّا (لم يحدد نوع المدّ، لكن المحقق يرجح أنه المدّ المراكشي لأنه أورده في مواضع أخرى، والمد المراكشي يساوي ..... / في حين المدّ النبوي يعادل 400 غرام من الشعير، و525 غرام من القمح)	01 درهم
اللحم	ستون أوقية (16 أوقية تعادل رطل، و60 أوقية هي أربعة أرطال إلا ربع، أي 01 كلغ و890غ)	01 درهم

ويشير ابن جبير في رحلته إلى أن ألفي دينار مصرية هي أربعة آلاف دينار مؤمنية؛ المصدر السابق، ص24.

انعكس ذلك على أسعار السلع ومدى وفرتها وسهولة نقلها بين مناطق الإنتاج والاستهلاك، والتباين في أسعار السلع يمكن إرجاعه كذلك إلى طبيعة السلع في حد ذاتها، وارتباطها بالجماعات البشرية الوافدة، لأن الأمر متعلق بمعادلة بين الجانب الديمغرافي والمردود الاقتصادي، مع أن النمط الغذائي البدوي بسيط وغير مكلف.

تتضمن النوازل ما تعلق بالتعامل التجاري مع الأعراب وهم معروفون بأن جل سلعهم مسلوبة ومنهوبة، بل إن بعض الناس كانوا يضطرون لإعادة شراء أشيائهم، وهو ما جعل رؤية الفقهاء مختلفة، فبعضهم حذّر من قبول الامتيازات من أجل استثمارها في أعمال تجارية مربحة. وبالتالي فإنه كان من غير الممكن عزل العرب عن التعامل التجاري لشبهة مصادر سلعهم، وذلك لأن هذه السلع تشكل كتلة معتبرة من السلع المتداولة.[1]

يبدو أن الهلاليين، باعتبارهم أصبحوا يشكلون جزءا من بداوة المغرب الأوسط، كان لهم دور في توسيع نطاق بعض البيوع، ومنها بيع تلقي الركبان، المنهي عنه في الشريعة الإسلامية، لأنه يحول دون وصول السلع للسوق مباشرة، فأهل البادية يحضرون السلع لبيعها للحاضر، ويشير العقباني إلى الاختلاف في ضبط فروع المسألة لتشعبها واتخاذها أوجها عديدة. وربما المسألة الأشد ارتباطا بشكل البيع بين البدو والحضر والتي تندرج ضمن بيع التلقي: "ما يأتي به الرجل من البادية النائية إلى مداشر البلد القريبة منها ويترك ما أتى به هنالك، ثم يدخل للبلد فيبيع سلعته لرجل واحد، ويترك المبتاع ذلك هنالك حتى يدخله للبلد أي وقت شاء ويبيعه بسوقها شيئا فشيئا"،[2] وهو وجه من أوجه الاحتكار، لذلك ينبه العقباني المحتسبين إلى ضرورة مراقبة أهل البوادي الذين يأتون بالسلع إلى الفنادق وإخراجها للسوق وبيعها هناك، ومنع بيعها في الفندق للتجار.[3]

وعليه، لم يقتصر التعاطي مع موضوعة الهلالية والسوق من طرف الفقهاء وانطلاقا من شرعية البيوع وحكم التعامل مع مستغرقي الذمم فحسب، بل إن جهاز الحسبة كان معنيا هو الآخر بهذه الثنائية، وهو ما يؤكد أن الحضور الهلالي في المغرب الأوسط قد فرض نفسه من خلال ما أفرزه على عديد المستويات.

2- بناء بجاية (قراءة في الخلفيات والمؤهلات)

التوجه البحري للدولة الحمادية كان حدثا مهما في تاريخها، انطلاقا من المؤهلات الاقتصادية والأمنية التي تحوزها العاصمة المستحدثة، وباعتبار هامش الانفتاح على التجارة المتوسطية الذي منحه هذا الاختيار، ناهيك عن انعكاس هذا التوجه على اقتصاد العاصمة الداخلية القلعة، وبلا شك فضمن كل هذا يكون الحضور الهلالي مؤثرا ودافعا موجها.

---

[1]) Élise Voguet: Op.cit, p316-320.

[2]) أبو الفضل قاسم بن سعيد العقباني: تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر، تحقيق: علي الشنوفي، Extrait du bulletin d'études orientales de l'institut français de damas. tome19، 1967 ، ص251؛ محمد فتحة: النوازل الفقهية والمجتمع أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي (من القرن 06إلى09هـ/12إلى15م)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، 1999م، ص327-328؛ كما اعتبر بعض الفقهاء شراء السلع في البيوت من بيع التلقي؛ الونشريسي: المصدر السابق، ج5، ص253.

[3]) العقباني: المصدر السابق، ص128-129.

أ. المؤهلات والاعتبارات الاقتصادية والأمنية للعاصمة الجديدة:

يقول حسن بن الفكون (ت في القرن 07هـ/13م) في بجاية:[1] (الكامل)

دَعِ العِــــــرَاق وبغْدادَ وَشَامَهُـمَا	فـــالنَّـــاصِرِيةُ مـا إن مْـثلهَا بَلدُ
بَـــرٌّ وبـحْرٌ ومَــــرْجٌ للعيون به	مســارِحُ بـانَ عـنْها الهَمُّ والنّكدُ
حيْث الهوى والهـــواء الطلقُ مُجْتمِعٌ	حيْـــث الغِنَى والمنَى والعِيشة الرَّغَدُ
وَالنّهر كالصّلّ والجَنَّاتُ مشــــرفةٌ	والنَّـــــهرُ والبحرُ كالمرآة وهُو يدُ
فَحيْثُمَا نَظـــــرت رَاقت وكلّ نوا	حـي الدَّار للفكر للأبصار تَتَّقِد
إنْ تَـنْـــــظرِ البَرَّ فالأزهارُ يانِعة	أوْ تنْـــظرِ البحرَ فالأمواجُ تطّرِدُ
يـا طالباً وصفها إنْ كنتَ ذا نصَفٍ	قـلْ جنة الخلدِ فيها الأهلُ والولدُ

اختيار موضع بجاية التي بنيت على موقع روماني قديم (صلداي Saldai) كعاصمة للحماديين اختيار استراتيجي، فإضافة إلى أنها ستكون أقل عرضة للغارات الهلالية، فإنها كمدينة اقتصادية ستكون مجدية جدا، لأن مينائها مرتبط بالأندلس وإيطاليا وصقلية، لكنها في الوقت نفسه كانت في غير مأمن من الخطر النورماني، كما أن هذه الفترة شهدت رجحان كفة السيطرة على التجارة المتوسطية للتجار الإيطاليين،[2] مما يجعل استفادة الحماديين أقل وقدرتهم على المنافسة غير مشجعة كثيرا، خاصة إذا علمنا أن جل القطع البحرية التي كانت تمارس نقل البضائع لتجار إيطاليين أو من الضفة الشمالية للمتوسط عموما.

يبدو أن بناء بجاية باعتبارها مدينة ساحلية لم يكن حدثا شاذا في التوجه نحو الساحل، ذلك أن الكثير من النصوص الجغرافية سجلت الاهتمام المتزايد بالمراسي والمدن الساحلية المنفتحة على التجارة المتوسطية، لذلك فإن محاولة إضفاء البعد الساحلي على العاصمة كان ضمن توجه عام لاستكمال شبكة المبادلات التجارية السودانية – المتوسطية، دون أن نغفل البعد الأمني الاستراتيجي في العملية، فحصانة المدينة سواء من خلال اختيار الموقع أو تسويرها ووضع الأبراج والحصون ينبئ عن الهاجس الأمني الذي رافق اختيارها وبناءها في ظل ما تعرضت له العاصمة الأولى من تدهور أمني بسبب الانتشار الهلالي.

لقد سمحت حصانة بجاية –التي يصفها العبدري بأنها: "متحصنة بها منيعة، فلا مطمع بها لمحارب ولا متّسع فيها لطاعن وضارب".[3]– بأن تبقى في منأى عن العرب: "فبقي صاحب بجاية في ملك شامخ وعز باذخ يُضاهي

[1]) الغبريني: المصدر السابق، ص334-335.

[2]) Gilbert Meynier, Op.cit, p57.

[3]) العبدري: المصدر السابق، ص49.

في ملكه صاحب مصر".[1] وبقدر ما أثّر العرب الهلالية في التراجع الاقتصادي للعاصمة الداخلية للحماديين، بقدر ما أسهموا بالمقابل في الدفع نحو التوجه البحري، حيث أضحت بجاية مدينة بحرية هامة على غرار بعض مدن المغرب الإسلامي.[2]

وبالحديث عن نقل العاصمة إلى الواجهة البحرية، فإنه من الضروري الإشارة إلى صناعة ترتبط بهذا التوجه، وهي صناعة السفن، التي تشكّل أساس الصناعة البحرية، لذلك فقد كان ببجاية دار لصناعة السفن،[3] فالأخشاب متوفرة في جبالها وأوديتها، وبها معادن الحديد، ويجلب من أقاليمها الزفت ذو النوعية الجيدة والقطران.[4]

انعكس التشكل الجديد لبجاية كمدينة ومحطة تجارية في ازدهار الحياة الاقتصادية بها، ويمكن ملاحظة الوجه الاقتصادي المحلي للمدينة من خلال الأسواق، حيث أحصت ببجاية خمسة (05) أسواق وهي: سوق الصوف، سوق القيصرية، سوق باب البحر، سوق يقع قرب حومة المذبح أين يبيع القراصنة الحماديون أسراهم، سوق قرب باب تاطنت.[5]

تحيلنا الإشارة لسوق بيع الأسرى، إلى التعريج لموضوع القرصنة البحرية التي أصبحت بجاية واحدة من قواعدها في الحوض الغربي للبحر المتوسط، حيث كان التوجه نحو البحر سببا في انتعاشها، لأن القرصنة بالنسبة للمدن الساحلية تعدّ موردا اقتصاديا مهما.[6] وقد كانت بجاية إحدى المواقع البحرية لهذا النشاط، حيث يقول صاحب الاستبصار: "... ومنها تغزا بلاد الروم، فإنها ليس بينها وبين صقلية غير ثلاثة مجار".[7] ويذكر الغبريني أن بجاية كانت "بلد غزاة": "وكان غزاة قطعها يدخلون إلى دواخل الجزر الرومانية وغيرها، ويسوقون السبي الكثير

---

[1]) مجهول: المصدر السابق، ص129؛ يصفها العبدري قائلا: "مشرفة عليها أشراف الطليعة، متحصنة بها منيعة، فلا مطمع بها لمحارب ولا متّسع فيها لطاعن وضارب"؛ المصدر السابق، ص49.

[2]) Jean Poncet: le mythe de la "catastrophe" hilalienne, Op.cit, p1120.

[3]) مجهول: المصدر السابق، ص130؛ بعد ضم بونة إلى المملكة الحمادية، أصبح لها دارين لصناعة المراكب، إضافة إلى دار بمرسى الخزر؛ بورويبة: المرجع السابق، ص137.

[4]) الإدريسي: المصدر السابق، ص260؛ وفضلا عن ذلك يبدو أن الصيد البحري شكّل موردا آخر من موارد المدينة، على غرار ما كان في بعض المدن الساحلية المغرب أوسطية؛ مجهول: المصدر السابق، ص127؛ كقرية جون هور على الساحل بين شرشال وجزائر بني مزغنا التي يقول الإدريسي أن: "بها قوم صيادون للحوت"؛ المصدر السابق، ص273؛ ولم يقتصر صيد الأسماك على الشواطئ الساحلية، بل إن المجاري المائية بالمناطق الداخلية كانت هي الأخرى مقصدا للصيادين، مثل وادي المسيلة، كما يتم اصطياد السمك من النهر العذب الذي بقربها: "وفيه سمك صغير فيه طرق حمر حسنة"، وهو من أجود أنواع السمك وهو ما جعل سكان المسيلة يفتخرون به، ومقداره من شبر إلى ما دونه، ويحتمل أنه كان ينقل إلى قلعة بني حماد على بعد اثنا عشر (12) ميلا؛ الإدريسي: نفسه، ص254.

[5]) بورويبة: المرجع السابق، ص149.

[6]) جورج مارسيه: المرجع السابق، ص260؛ ولم تقتصر على القراصنة الذين كانوا يجوبون البحر لحسابهم الخاص، بل حتى بعض دول المنطقة كانت تمارس هذا النشاط، كما أن القراصنة لا يقرصنون السفن التجارية فحسب، فحتى سفن نقل المسافرين كانت تتعرض لسطوهم؛ عبد الرحمن ابن خلدون: رحلة ابن خلدون، عرض وتعليق: محمد بن تاويت الطنجي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1425هـ/2004م، ص83.

[7]) مجهول: المصدر السابق، ص130.

منها، وينزل الناس لشرائه بحومة المذبح من جهة ربضها".[1] وإلى جانب بجاية فقد كان مرسى الخرز في القرن الحادي عشر قاعدة للقراصنة.[2]

ومع ذلك، فإن ما يمكن ملاحظته هو أن القرصنة البحرية المتبادلة بين ضفتي المتوسط خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين لم تكن نشطة بقوة.[3] وعليه لا يمكن الحديث عن نشاط قرصني كبير خلال عهد الدولة الحمادية. وفي المقابل أدت سيطرة النورمان على بعض سواحل وموانئ المغرب الأوسط، منذ النصف الثاني من القرن 06هـ/12م، مثل بونة، إلى قيامهم بأعمال قرصنة أثّرت في الساحل الجنوبي، فتضررت بعض موانئ المغرب الأوسط من هذا النشاط، كجيجل ومرسى الدجاج ماعدا بجاية.[4]

نشطت القرصنة البحرية في الفترة الموحدية، حيث تذكر إحدى الرسائل الموحدية معركة بحرية في تنس، حدثت بين قطعتين واحدة من بجاية والأخرى من بونة مقابل قطعتين إحداهما من طرطوشة والأخرى من برشلونة (تابعتان لأراغون)،[5] ودامت المعركة من الفجر إلى وقت الزوال، ويبدو أنها كانت معركة قوية: "... فتناطح القوم هناك وترامو بالسِّهام، وتداعسوا بالرماح، وتماصعوا بالسيوف، وتصارعوا بالأيدي والأيد ..."، وانتهت المعركة بانتصار كبير حققه الموحدون، حيث سقط الكثير من الضحايا المسيحيين وتم تحرير الأسرى المسلمين الذين كانوا على القطع المسيحية، ومن خلال ذات الرسالة يتبين مدى قوة البحرية المسيحية: "... الكفّار الذين عرفوا بالنجدة ووصفوا بالشدة، واتخذوا هذا البحر جملا ذلولا يركبون جنابه، ويضربون عبابه، عرضا وطولا".[6] وهي تصور الفرق الكبير بين البحرية المسيحية مقارنة بالموحدية.

---

[1]) الغبريني: المصدر السابق، ص45؛ بعد ابتعاد الحماديين عن بدو البر وانخراطهم في التجارة البحرية والقرصنة ومواجهة بدو البحر، هل يشرّع لنا أن نتساءل عن حقيقة انعزالها عن عمق بلاد المغرب الأوسط، وبالتالي يكون ذلك نتيجة من نتائج الغزو الهلالي؟

[2]) بورويبة: المرجع السابق، ص151.

[3]) فاليرين: المرجع السابق، ج1، ص555-556؛ للحد من ذلك، نلاحظ أن المعاهدات الموقعة بين الأوربيين والمغاربة تنص على محاربة هذه الظاهرة كمعاهدة إفريقية – البندقية 629هـ/1231م، غير أن مثل هذه المعاهدات كانت تُنقض في بعض الأحيان؛ محمد الأمين البزاز: حول نقل البحرية المسيحية لحجاج الغرب الإسلامي تأملات في رحلة ابن جبير، ضمن ندوة: الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى، تنسيق: محمد حمام، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ط1، الرباط، 1995م، ص87-88.

[4]) Claudette Vanacker: op cit, p662.

[5]) كانت المراكب البيشانية المخصصة للتجارة هي الأخرى تمارس القرصنة في سواحل بلاد المغرب، مثلما حدث سنة 596هـ/1200م عندما تعرضت سفن للمسلمين إلى اعتداءات من طرف مراكب بيزا، وهو ما تشير إليه رسالة الشكوى التي بعث بها عبد الرحمان بن الطاهر الناظر بديوان إفريقية إلى بيزا؛ Amari, p23-28.؛ وتشير رسالة أخرى مؤرخة في نفس السنة، تتعلق بنفس الحادثة، أرسلها والي إفريقية أبو زيد عبد الرحمان بن أبي حفص بن عبد المؤمن، إلى الاعتداء البيشاني على سفن المسلمين مشدّدا على حكومة بيزا بضرورة معاقبة المتورطين في هذه التصرفات، أسوة بالجنويين الذين لا يترددون في معاقبة المتسببين في هذه الأعمال، معلنا انتظار رد حكومة بيزا لإعلام والي افريقية بالعقوبات المقررة في حقهم؛ Amari, p33-35.

[6]) رسائل موحدية، م ج، الرسالة 30، ج1، ص83-86؛ الرسالة المذكورة مؤرخة في 16 رجب 567هـ/1171م، لكن محققها أحمد عزاوي يرجح أنه حدث خطأ في تأريخها، ويذهب إلى أن المعركة قد تكون وقعت في 07 رجب 557هـ، والرسالة دونت يوم 16 رجب 557هـ، بحيث يعتقد أن النساخ أخطأوا في الرقم العشري لتاريخ الرسالة فكتبوا (سبع وستين) بدل (سبع وخمسين)؛ رسائل موحدية، م ج، ج2، ص50-52؛ وما يهمنا من هذه الرسالة هو التأكيد على استمرار القرصنة بين أراغون والموحدين وتوتر العلاقة بين الطرفين، مع ملاحظة أن الرسالة تعتبر الانتصار المحقق دفع قوي وانتصار ضخم، ربما لإدراكهم قوة البحرية الأراغونية، وهو ما نستشفه ضمنيا من خلال نص الرسالة.

ب. الانفتاح على التجارة المتوسطية

أشّرت انعكاسات الانتقال الحمادي من عاصمتهم الداخلية القلعة إلى العاصمة البحرية الجديدة "الناصرية"[1] على تحولات هامة في طبيعة الاقتصاد الحمادي وعلاقاته، وينبغي الإشارة إلى سوابق الحماديين في التخلّي عن عاصمتهم، حين تخلوا عن آشير واختاروا القلعة مقرا لحكمهم وعاصمة لدولتهم.

اعتبر العروي التوجه البحري للحماديين شكلا من أشكال انتقال الحضارة إلى مدن الشاطئ كما كان عليه الأمر أيام الرومان، -بعد أن قضى الهلاليون على مظاهر تمدين المغرب الأوسط، خاصة تلك التي شهدها بعد الفتح الإسلامي-،[2] رغم أن مراكز التمدن في العصر الروماني لم تقتصر فقط على الجهات الساحلية بل امتدت إلى مناطق السهول الداخلية.

اختلفت المصادر في تفسير الأسباب التي دفعت الحماديين لبناء مدينة بجاية، حيث ربط بعضها الخطوة بالتأثير الذي خلّفه الانتشار الهلالي في مجالات القلعة، وربطه بعضهم بالمنافسة بين الدولتين، في حين أرجعه البعض الآخر لنصائح وتشجيعات تلقاها الحماديون من أصدقاء ديبلوماسيين محسوبين على البلاط الزيري.

ومهما يكن، فإن الهاجس الهلالي في نظرنا كان حاضرا من خلال الآراء التي تبناها المؤرخون والباحثون في تفسيرهم لخطوة البناء والانتقال، حيث يذهب كل من صاحب الاستبصار والنويري وابن خلدون إلى أن بناء الناصرية والانتقال من القلعة، ارتبط بالتأثير العربي على الدولة الحمادية:

يُرجع صاحب الاستبصار بناء بجاية ونقل الحماديين لعاصمتهم إليها إلى وصول العرب للقلعة وتضييقهم الشديد على مصالح الدولة، ما دفع إلى التفكير في بناء عاصمة جديدة لا تلحقها العرب، ووقع الاختيار على موضع مدينة قديمة تبعد على القلعة مسيرة أربعة أيام.[3]

ويؤكد فاليرين على أن الاستبصار هو أقدم نص يشير إلى أن تأسيس الناصرية حدث تحت تأثير القبائل العربية التي لم يتمكن الناصر من الصمود في وجهها، لذلك اختار موقعا بعيدا عن مناطق تواجدها، رغم أن الحفريات الأثرية أثبتت أن المدينة بقيت نشطة بعد تأسيس بجاية.[4] ولا بد أن المتتبع لنصوص الاستبصار لا يراوده

[1]) يدرج يوسف نكادي نقل الحماديين لمقر عاصمتهم من القلعة إلى بجاية (الناصرية)، ضمن ما يعرف في المفهوم الحديث بالمساحلة la littoralisation أو التساحل، وهو انتقال الإنسان وأنشطته إلى كيان يمتلك واجهة بحرية. رغم أن هذا المفهوم أكثر حداثة ودلالة على التوجه نحو الاقتصاد المرتبط بالساحل والواجهات المائية وأنشطتها؛ مباحث في تاريخ غرب المتوسط في العصر الوسيط، كتاب إلكتروني، E-KUTUB Ltd، تاريخ النشر على الخط: 2018، ص35؛ ويورد بروديل مصطلح التساحل للدلالة على التنقل عبر المسالك البحرية، حيث يقول بعد أن تحدث عن المسالك البحرية: "ما يعبر عن هذه الأكور ونحن نجوب هذه المسالك أو فنون الملاحة هذه التي لا تختلف عن وصف الطريق البحرية، هو هذه الكلمة المتواضعة: المساحلة"؛ محمد حبيدة: المدارس التاريخية، ص180-181.

[2]) العروي: المرجع السابق، ج2، ص95-96.

[3]) مجهول: المصدر السابق، ص129.

[4]) فاليرين: المرجع السابق، ج1، ص57؛ ويشير علاوة عمارة إلى طبيعة تعامل كل من الزيريين والحماديين مع الهلاليين، فالزيريون فروا بسرعة، بينما صمد الحماديون وأبقوا تحكمهم الجزئي ولو لبعض الوقت على مجال القلعة؛ نفسه، ج1، ص57 (المترجم).

شك في أن صاحبه لم تكن لديه رؤية سلبية تجاه الهلاليين، وهو ما يجعل من رأيه حول دواعي التوجه نحو عاصمة سياسية واقتصادية جديدة يحظى بالقبول، خاصة وأنه كان قريب زمنيا من الحدث.

يربط ابن خلدون أيضا انتقال الحماديين إلى بجاية باستحواذ الهلاليين على محيط القلعة، حيث اضطر "الناصر بن علناس" (ح454-461هـ/1062-1088م) إلى التفكير في تغيير مقر سلطته، فشيّد على الساحل المتوسطي مدينة بجاية وبدأ يعدّها لتكون عاصمته.[1]

تماشيا مع ما ذهبت إليه بعض المصادر، فإن جل الباحثين يفسرون بناء مدينة بجاية كعاصمة جديدة للحماديين على أنه تم تحت تأثير القبائل الهلالية،[2] ومن بينهم الهادي روجي إدريس الذي يذهب إلى أن بناءها كان محاولة عملية للتملّص من سيطرة العرب على مجالات القلعة.[3] ولعل الموقع الحصين للمدينة والبعيد عن غارات العرب وتضييقهم يدعم الرأي القائل بأن بناءها كان مُستنِدا لهذا الاعتبار.

أما الرواية الثانية التي ترتبط بالتنافس بين الأسرتين الزيرية والحمادية، فقد تبناها ابن الأثير (القرن06-07هـ/12-13م)،[4] ومفادها أن موقع العاصمة الجديدة من شأنه أن يسمح للحماديين بالوقوف بحريا في وجه الزيريين،[5] وينسب فكرة بناء واختيار موقع المدينة ومرافقها إلى وزير تميم "محمد بن البعبع" الذي عرض خدماته على الناصر، واستمر التواصل بينهما إلى أن اكتشف تميم أمره فقتله.[6] ويؤكد الحموي أيضا أن محمد بن البعبع رسول تميم إلى الناصر قد أشار إلى الانعكاس الاقتصادي والسياسي الذي سيحدثه بناء المدينة.[7]

---

[1]) ابن خلدون: العبر، ج6، ص27.

[2]) Mas latrie: Op.cit, p30.

[3]) روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص315.

[4]) فاليرين: المرجع السابق، ج1، ص58.

[5]) نفسه، ج1، ص60؛ ورغم العلاقة المتوترة بين الطرفين، إلا أنهما بحثا في مرات متعددة فرص التحالف والتعاون العسكري، فقد أرسل الحماديون مثلا نجدة لجيرانهم أثناء الفتح الموحدي؛ نفسه، ج1، ص61؛ وبالمقابل أغار العزيز بن المنصور الحمادي على إفريقية مرتين، الأولى عندما بعث أسطولا إلى جربة من أجل إخضاعها، والثانية سنة 514هـ/أفريل–مارس1121م لإعادة إخضاع تونس التي خرجت من سلطة الحماديين سنة 510هـ/1116-1117م؛ بورويبة: المرجع السابق، ص80.

[6]) ابن الأثير: المصدر السابق، ج8، ص456-457؛ ولما بلغ تميم خبر خيانة رسوله نصب له العيون وقام بتصفيته عندما كان يتجهز لمغادرة مملكة الزيريين نحو الدولة الحمادية؛ شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1977، مج1، ص393.

وبدوره قام الناصر بتصفية وزيره أبو بكر بن أبي الفتوح بسبب تحمسه المفرط للولاء لتميم؛ لمزيد من التفاصيل حول تصفية الوزيرين؛ روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص317-318. ولا يستبعد عويس أن يكون التقارب الذي حدث بين الحماديين وابن البعبع وراءه طمع هذا الأخير في الحصول على المزيد من المال والجاه والامتيازات، ورغم ذلك يبقى طرح فرضية وجود رؤية داخل العلب السوداء في الدولتين للتقارب وربما التفكير في إعادة الوحدة أو الضم بمفهوم آخر مشروعا، ولو أن إثبات الأمر بحاجة إلى بحث عميق.

[7]) ياقوت الحموي: المصدر السابق، ص393؛ يعود حضور "بن البعبع" في سلسلة الاتصالات بين تميم بن المعز بن باديس (ت501هـ/1108م) والناصر، حينما أرسله تميم إلى الناصر بالقلعة، وكان قد سبق وأرسل وزيره أبي بكر بن الفتوح رسولا لتميم بغرض بدأ مفاوضات الصلح، هذا وقد عرف عن وزير الناصر معارضته للحرب بين الناصر وتميم حيث رأى أنه من غير المقبول الدخول في حرب مع الزيريين لأن الأصوب أن يتفقا على العرب لإزاحتهم والتخلص منهم؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج8، ص373؛ وفد بن البعبع عبر الطريق الساحلي ونزل ببجاية ليتجه جنوبا نحو القلعة، وفي=

ينتصر رشيد بورويبة للدوافع التي تضمنها نص ابن الأثير، بحيث أن التفكير في منافسة المهدية وهي مدينة بحرية يستدعي العمل على جبهتين برية وبحرية، لذلك كان التخطيط لبناء مدينة ساحلية، على خلاف ما ذهب إليه بعض المستشرقين الذين تبنوا رأي ابن خلدون في بناء بجاية، ومبرره في ذلك أن القلعة ظلت بعيدة عن التأثير الهلالي خلال عهد الناصر وحتى عهد ابنه المنصور، فقد بقيت خلال هذه الفترة عاصمة ثانية، ويخلص بورويبة من خلال دراسته إلى أن الانحطاط الحقيقي للقلعة بدأ في عهد العزيز بن المنصور، وبهذا فهو ينفي أن تكون بجاية ملجأ للحماديين، بل يعتبرها مجالا توسعيا لسلطتهم.[1]

أمام هذه المعطيات، يحاول عبد الحليم عويس أن يقدم سببا توفيقيا من بين الدوافع التي أشارت إليها المصادر، حيث يجعل نتيجة معركة سبيبة واجتياح العرب للمغرب الأوسط السبب الرئيس في التوجه نحو بناء عاصمة جديدة، وأن رأي ابن البعبع كان دافعا وتوجيها لاختيار الموقع الذي يجعل المدينة تنافس المهدية.[2]

حدّ الانتشار الهلالي في جهات القلعة من القدرات السياسية والعسكرية والاقتصادية للدولة الحمادية، وعمق من عزلتها الطبيعية، في وقت كانت الأنظار تتوجه نحو المنافسة البحرية والانفتاح على الأسواق المتوسطية، ما دفع الحماديين إلى التفكير –بتشجيع من أصدقاءهم في البلاط الزيري الذي كان قد سبقهم في التوجه نحو الواجهة البحرية الجنوبية للمتوسط– في تغيير أو تنويع مراكز سلطتهم لتستجيب للتحديات الاقتصادية والسياسية المستقبلية.

ج. التراجع الاقتصادي بقلعة بني حماد

لا تكاد المصادر التي أشارت لبناء مدينة بجاية تتفق على تاريخ محدد لذلك،[3] وقد دفع هذا الاختلاف بعلاوة عمارة إلى ترجيح فرضية الانطلاق في أشغال البناء سنة 457هـ/1065م والانتهاء من التشييد سنة 460هـ/1068م.[4] لذلك كان تخلي الناصر عن القلعة في سنة 461هـ/1068-1069م.[5] وقد حاولنا البحث في السنوات القليلة السابقة لسنة 457هـ/1065م فيما يتعلق بالعلاقات الهلالية الحمادية، لربما نجد

=بجاية أعجب بالموقع، وعند عودته اصطحب معه الناصر إلى الموقع، ويبدو أن هذا الأخير قد اتخذ قرار بناء العاصمة الجديدة حينها وأمر بالانطلاق في أشغال البناء؛ ينظر: سعد زغلول: المرجع السابق، ج3، ص456-457.

[1]) بورويبة: المرجع السابق، ص68.

[2]) عبد الحليم عويس: المرجع السابق، ص101.

[3]) اكتفى بعضها بالحديث عن تأسيسها في عهد الناصر بن علناس بن حماد (ت481هـ/1088م)، الذي سماها الناصرية؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج3، ص94. ويذكر الحموي أن اختطاطها من طرف الناصر كان في حدود سنة 457هـ/1064م؛ المصدر السابق، ص393. بينما أورد ابن خلدون أنه في سنة 460هـ/1067م، فتح الناصر جبل بجاية واختط المدينة وجعلها مهيئة لاستقبال ملكه، فانتقل إليها سنة 461 هـ، وبعد وفاته وتقلد ابنه المنصور بن الناصر للحكم سنة 481 هـ، اهتم بجوانبها العمرانية وشيّد العديد من المرافق؛ العبر، ج6، ص232.

[4]) علاوة عمارة: التطور العمراني والتجاري لمدينة بجاية في العصر الاسلامي الوسيط، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، ص234-235.

[5]) روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص294؛ العروي: المرجع السابق، ج2، ص95.

أحداثا بارزة بين الطرفين تكون قد أثرت أو سرّعت في اتخاذ قرار بناء الناصرية، إلا أن المصادر لم تسعفنا في ذلك.

تم الانتقال إلى بجاية في عهد "المنصور بن الناصر" (ت498هـ/1104م)، حسب ابن خلدون.[1] ويحدد بورويبة سنة 483هـ/ 1090-1091م تاريخا لذلك.[2] غير أنه لم يكن انتقالا نهائيا، ولا تخليا كليا عن القلعة، التي تعرضت لهجوم هلالي خلال حكم الأمير الحمادي العزيز بن المنصور (ح500-515هـ/1106-1121م)، الذي يتميز عهده بالهدوء النسبي والاستقرار.[3] وبذلك فقد استمرت الدولة بعاصمتين إلى غاية سنة 498هـ/1104م عندما فقدت القلعة مكانتها السياسية في عهد باديس بن المنصور، وبقيت مركزا لبعض الصناعات كالنسيج والفخار.[4] ويشير ابن خلدون للغارات التي تعرضت لها القلعة: "كبس العرب في أيامه القلعة وهم غارون، فاكتسحوا جميع ما وجدوه في ظواهرها، وعظم عيثهم، وقاتلتهم الحامية، فغلبوهم، وأخرجوهم من البلد، ثم ارتحل العرب".[5]

بعد وفاة العزيز (سنة 515هـ/1121م، أو سنة 518هـ/1124-1125م) تقلّد حكم الدولة الحمادية ابنه يحيى، الذي عُرف بأنه أمير ضعيف، وقد قام بزيارة القلعة ونقل ما بقي فيها.[6] وهذا مؤشر على التخلي النهائي عنها كمركز سياسي ثاني للدولة الحمادية، وربما يكون العرب في هذه الفترة قد تمكنوا منها بصفة شبه كلية.

يصف الإدريسي حصن القلعة والحصون القريبة منه على أنها كلها في مهادنة مع العرب، ولكن ذلك لا يمنع من الاحتكاك بينهم وبين الأجناد: "وربما أضر بعضهم ببعض، غير أن أيدي الأجناد فيها مقبوضة وأيدي العرب مطلقة في الإضرار، وموجب ذلك أن العرب لها دية مقتولها وليس عليها دية فيمن تقتل".[7] يبدو أن العرب في هذه الفترة قد فرضوا سلطتهم على سكان المنطقة، وكان التفوق في استعمال القوة يميل لكفة العرب، وأبسط مثال على ذلك أنهم قلبوا قاعدة دية الميت.

التناقض الذي وقع فيه الإدريسي عندما تحدث عن أهمية ومكانة القلعة، ثم أشار إلى أن ازدهار بجاية كان بسبب خراب القلعة مرده إلى أنه لم يجمع المعلومات والمعطيات بنفسه، بل كلف خبراء بالقصر الملكي النورماني بذلك طيلة خمسة عشر سنة،[8] ويبدو أنه لم يقم بمراجعات لها.

---

[1]) ابن خلدون: العبر، ج6، ص27.

[2]) بورويبة: المرجع السابق، ص74؛ روجي إدريس: المرجع السابق، ج1، ص325.

[3]) البشير بوقاعدة: المرجع السابق، ص207.

[4]) جورج مارسيه: المرجع السابق، ص229.

[5]) ابن خلدون: العبر، ج6، ص234-235.

[6]) بورويبة: المرجع السابق، ص91-92.

[7]) الإدريسي: المصدر السابق، ص263.

[8]) علاوة عمارة: قلعة بني حماد: نشأة وأفول حاضرة إسلامية، المرجع السابق، ص90.

لم يحدث تراجع دور القلعة ونشاطها الاقتصادي بصفة كلّية بعد سيطرة العرب على مجالاتها ونقل الحماديين لعاصمتهم، بل إن الانحدار الاقتصادي للقلعة حدث بشكل متدرج، ونعتقد أن مواصلة الحماديين ارتباطهم بالقلعة رغم انتقالهم كان سببا مهما في الحد من سرعة الانهيار مع أن هذا الارتباط لم يكن قويا جدا، لكن مع بداية ضعف الدولة الحمادية وتملُّك العرب لمزيد من المجالات أدى إلى تراجع حاد لها، حتى أن بعض الجغرافيين يغفلون ذكرها ضمن مدن المغرب الأوسط مثل ابن سعيد (القرن 07هـ/13م).

من خلال تتبع مسار القلعة من النشأة إلى الأفول، يتبين أن الحياة الاقتصادية استمرت بها خلال العهد الموحدي، خاصة فيما تعلق بالصناعة النسيجية والحديدية والخشبية، كما أن الدنانير الموحدية التي عثر عليها هناك تؤكد التواصل النسبي للحركة التجارية، لكنها تأثرت كثيرا برحيل التجار إلى بجاية وتضييق الهلاليين عليها.[1]

3- انعكاسات الحضور الهلالي على التجارة الخارجية

لا تكاد التجارة الداخلية تنفصل عن الخارجية، إذ أن البنية التجارية للدولة مترابطة ومركبة بين البادية – المدينة والداخل–الخارج، والتأثير الهلالي في التجارة الداخلية للمغرب الأوسط منذ القرن الخامس الهجري (11م) لا يمكن فصله عن التجارة الخارجية التي تعد مرآة عاكسة للحياة الاقتصادية، وانطلاقا من ذلك يكون التساؤل: هل دفع انتشار الهلاليين في دواخل المغرب الأوسط إلى تبني رؤية اقتصادية تستند عمليا للبحر ونشاط المراسي للانعتاق من هيمنة العرب الهلالية؟ وهل توجّه من هذا القبيل يحقق النجاعة في ظل تجارة داخلية هشّة ومنافسة متوسطية قوية؟ وإلى أي مدى انعكس الحضور الهلالي في المغرب الأوسط على التجارة العابرة للصحراء والعلاقات التجارية مع المشرق الإسلامي؟

أ. النشاط البحري

البحر بين المعطى العسكري والاقتصادي

يقرّ عددٌ من المؤرخين والباحثين بأن التجارة البحرية لم تكن تَلقى الاهتمام إلا من الحكام، لأنها تعود عليهم بجزء مهم من الأموال التي تساهم في إثراء خزينة الدولة عن طريق الرسوم والجبايات.[2] في حين كانت هذه

[1]) علاوة عمارة: قلعة بني حماد: نشأة وأفول حاضرة إسلامية، المرجع السابق، ص94-95.

تأتي أهمية الاستنتاجات التي توصل إليها علاوة عمارة من كونه اعتمد إلى جانب المصادر المكتوبة، نتائج الدراسات الأثرية التي اشتغلت على الموقع الأثري بالقلعة. وقد لخّص أهم التنقيبات والدراسات الأثرية التي حظيت بها القلعة في مقاله: الحفريات الأثرية بالحاضرة الحمادية الأولى، ضمن كتاب: دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2008، ص ص117-125؛ وينبغي الإشارة إلى أن الآثار المرتبطة بالحماديين في الجزائر لا تزال بحاجة إلى أبحاث وتنقيبات أثرية معمقة، سواء في آشير أو في القلعة أو حتى في بجاية؛ وهي الأبحاث التي من شأنها الكشف عن المزيد من المعطيات المتعلقة بالوجود الهلالي، خاصة في القلعة، في ظل وجود باحثين جزائريين وغربيين على استعداد لاستئناف البحث الأثري في المواقع الحمادية، وقد أبدى الباحث "بلال سار" Bilal Sarr المهتم بتاريخ الزيريين في المغرب والأندلس، تحمّسه لصياغة مشروع بحث أثري في إطار الآليات الممكنة للتعاون بين جامعة غرناطة التي ينتسب إليها ومؤسسات جامعية ومخابر جزائرية لتوقيع اتفاقيات من شأنها تبادل الخبرات والطلبة والقيام بعمليات تنقيب مشتركة.

[2]) فاليرين: المرجع السابق، ج1، ص544.

المداخيل تجعل الدولة لا تقدم على فرض ضرائب غير شرعية، ورغم أن هذا النوع من التجارة يتميز بهشاشته لارتباطه بالطلب الأوروبي، إلا أنه يحفز على الإنتاج المحلي.[1]

تطور التجارة البحرية بين الشرق والغرب بدأ منذ القرن 05هـ/11م، وقد لعبت موانئ بلاد المغرب دورا مهما في هذه الحركية، وما زاد في الدفع نحو التوجه البحري بالنسبة للمغرب الأوسط هو الغزو الهلالي.[2] ويؤكد فرنان بروديل[3] على دور البحر في التاريخ الإسلامي، مشيدا بدور المسلمين في البحر الأبيض المتوسط، وتوجههم نحو توسيع مدنهم البحرية، ومن بينها مدينة بجاية، التي تمتلك ثروة غابية مهمة سمحت لها بتموين صناعة السفن البحرية.

في سنة 469هـ/1076م أرسل الناصر بن علناس رسالة إلى البابا "غريغوري السابع" Grégoire VII (1073-1085م) يطلب منه تعيين القس "سرفاندوس" Servand كأسقف ممثل للكنيسة في مملكته ويبلغه بأنه سيطلق الأسرى المسيحيين الذين في قبضته، فأرسل البابا بدوره رسالة للناصر مُلبّيا فيها طلبه،[4] وهي رسالة فيها الكثير من الحميمية، ونعتقد أن رغبة البابا في علاقات متميزة مع الحماديين كانت مبنية على رسالة الناصر، وهو يعكس اهتمامه بالبعد المتوسطي للعاصمة الجديدة.

قدّم المؤرخون والباحثون عديد التفسيرات والقراءات لدوافع الناصر من وراء هذه الرسالة، ولا نستبعد أن توجه الناصر نحو البابوية لخلق علاقات جيدة مع المؤسسة الكنسية كان لدافعين:

الأول: تثبيت وجود بجاية كمركز تجاري وسياسي جديد في حوض المتوسط، وبالتالي تنشيط الحركة التجارية البحرية والانفتاح على التجارة المتوسطية.

الثاني: تأمين الجبهة البحرية وحماية الجبهة البرية الجنوبية من القبائل الهلالية وإبعاد خطرهم على العاصمة الجديدة حتى لا يكون مصيرها مشابها لما حدث للقلعة، وفي نفس الوقت ضمان وصول المنتجات الزراعية والرعوية من فحوص بجاية وحتى من المناطق الجنوبية، والتي تعتبر مواد مهمة للتصدير.

ويورد بورويبة تفسير كريستيان كورتوا Christian Courtois بأن البابا غريغوري السابع أراد من وراء هذا الصلح مع الناصر قطع الطريق أمامه حتى لا ينخرط مع تميم في محاربة المسيحيين، خاصة وأن تميم كان يغزو الساحل الإيطالي.[5]

---

[1]) فاليرين: المرجع السابق، ج1، ص544-545.

[2]) Claudette Vanacker: op cit, p662.

[3]) المتوسط والعالم المتوسطي، المرجع السابق، ص62.

[4]) Mas latrie: Op. cit, p7-9.

وقد قدم سامي سلطان سعد: دراسة عن رسالة البابا جريجوري السابع إلى العاهل الحمادي الناصر بن علناس في عام 469هـ-1076م، مجلة الدراسات التاريخية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، ج1، ع1، 1986، ص 42-69.

[5]) بورويبة: المرجع السابق، ص72.

عرفت هذه الفترة استقطاب التّجار الأوربيين، حيث تؤكد معاهدة سنة 631هـ/1234م وجود امتيازات تجارية وفنادق للبيشانيين في عدة مدن حفصية منها بجاية، أين يتواجد مركز للتجار البيشانيين، ففي النصف الثاني من القرن 06هـ/12م ذهب عالم الرياضيات البيشاني "ليوناردو فيبونانشي" (1170-1250م) Leonardo Fibonancci وهو طفل صغير مرافقا والده إلى مقر الديوان الخاص بالتجار البيشانيين في بجاية، أين تعلّم استعمال المِعداد abacus.[1]

رغم أن الفترة الموحدية شهدت تطورا للبحرية الإيطالية والكتالانية، لكن الأسطول الإسلامي لم يتوقف عن لعب دور في سياسة الموحدين من نهاية عهد عبد المؤمن (ت558هـ-1163م) إلى معركة حصن العقاب (609هـ/1212م)، خاصة مع الحاجة للتدخل في الأندلس ومواجهة حركة بنو غانية.[2]

من دلائل اهتمام الموحدين بالبحر، ما ورد في التعيينات الموحدية، ومن ذلك المخاطبة التي قدّم فيها الخليفة "الرشيد بن المأمون المنصور" (ح629-640هـ/ 1232-1242م) قائدا على الأسطول وأشغال البحر،[3] والتي تكشف عن رؤية الموحّدين للبحر، حيث جاء في نص التعيين: "... فإن البحر هناكم هو جادة ما يجلب إليكم من الأقوات ومادة ما يرد عليكم من الخيرات والعمدة فيما يستجر من ضروب المنافع ويُستدفَع من المضرّات". يتبين أن الموحدين أدركوا أهمية البحر الاقتصادية والسياسية، باعتباره منفذا وفضاء مفتوحا على العالم المسيحي، لذلك كانت مداخيل الموانئ من المجابي ومردود الغزوات البحرية تصرف لتأمين الميناء والقيام على شؤونه، ويبدو أن أهمية البحر جعلت الموحدين خاصة في ظل الاضطراب السياسي الذي شهدته الفترة يضعونه في مقدمة انشغالاتهم، حيث جاء في نص ذات التعيين: "... واذا ازدحمت أشغال البلاد فشغلكم لدينا هو المهم الذي لا غيره ولا يزحمه سواه".[4]

إن الاهتمام الذي أولاه الموحدّون للموانئ البحرية يشير إلى محاولة استغلال مردود الجبايات والغزوات البحرية لتوظيفها في التحصينات العسكرية البحرية، خاصة وأن هذه الفترة تميزت بالتوتر والأخطار الخارجية، وبالتالي فإن القائم على البحر كان في مهمة أمنية إلى جانب مهمته التجارية والجمركية. لكن يبدو أن الموحدين لم يسيطروا على منطقتهم البحرية بقدر ما كان حضور أسطولهم ظرفيا ومرتبطا بأجندتهم السياسية.

---

[1]) أوليفيا ريمي كونستابل: إسكان الغريب في العالم المتوسطي –السكن والتجارة والرحلة في أواخر العصر القديم وفي العصر الوسيط، تعريب وتقديم: محمد الطاهر المنصوري، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2013، ص197-198؛ أصدر مجلس مدينة مرسيليا في سنة 1228م قرارا يلزم المشرفين على الفنادق ببجاية وسبتة بأن يتجهّزوا بأدوات وزن جيّدة وقانونية لوزن البضائع عند إنزالها من السفن؛ نفسه، ص205.

[2]) Christophe Picard, La mer et les musulmans d'Occident au Moyen Âge, VIIIe-XIIIe s, puf, paris, 1997, p75.

[3]) يرجّح أن التعيين متعلق بسبتة.

[4]) Pascal BURESI et Hicham EL AALLAOUI: Op.cit, p235-239.

وباعتبار أن معاهدات الصلح والتجارة والمراسلات بين الضفتين تُشكّل ملمحا للحياة البحرية بشقيها العسكري والتجاري، وتعكس الاهتمام الذي توليه السلط لهذا التوجه، فإنه من المهم الإطلالة على بعض ما تضمنته:

تمخض عن اتفاقية عبد المؤمن بن علي مع الجنويين سنة 556هـ/1160-1161م والتي حدد عمرها بخمس عشرة (15) سنة، خفض الرسوم على البضائع في ميناء سبتة وتونس إلى 8% في حين بقيت 10% في ميناء بجاية، مع استفادة مجلس مدينة جنوة من ربع المداخيل.[1] هذا الإجراء الذي يصب في صالح سبتة وتونس أثار كبار التجار في بجاية ممن يختصون بالتجارة البحرية، ولا يستبعد أنهم هم من استدعوا الغانيين وساندوهم، ولم تقتصر مساندة بنو غانية على كبار التجار بل بعض فقهاء المالكية أيضا.[2]

وفي سنة 561هـ/1166م أمضت بيزا معاهدة مع الموحدين صالحة خلال فترة حكم الخليفة "يوسف بن يعقوب". وفي 577هـ/1181م أمضى ملك صقلية "غليوم الثاني" Guillaume II (ت585هـ/1189م) معاهدة هدنة مع الموحدين تمتد صلاحيتها لعشر (10) سنوات.[3] لتأتي اتفاقية 582هـ/1186م بين الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي وجمهورية بيزا لتمديد اتفاقية هدنة وتجارة سابقة، وقد اتفق على أن يكون التمديد لمدة خمسة وعشرون (25) سنة، وهي مدة طويلة نسبيا مقارنة ببعض الاتفاقيات التي عقدها الموحدون؛ لكن الملاحظ أن الاتفاقية حصرت الموانئ التي تتعامل تجاريا مع البيزيين في أربعة: سبتة، وهران، بجاية، تونس، ويكون توقفهم في غيرها من الموانئ اضطراريا فقط.[4]

هذه المعاهدة التي عقدت بعد عامين من وصول أبي يوسف إلى الحكم، وتحديدا في 582هـ/15 نوفمبر 1186م، جاءت في ظرف اتّسم بتلاشي الاشتباكات مع المدن البحرية الإيطالية منذ منتصف القرن الثاني عشر، وهو ما سمح بفسح المجال لأشكال جديدة من التجارة في إطار سياسة الانفتاح التي انتهجها الموحدون وتعزيز الأنشطة التجارية وتأمين الجبهة الإيطالية من أجل التفرغ للجبهة الإيبيرية والجهاد في الأندلس. وفي هذه الفترة كانت بيزا في أوج نشاطها التجاري البحري، فقد سبق لها وعقدت معاهدات مع (مصر قبل 549هـ/1154م، المرابطين 527هـ/1133م، فلنسيا 545هـ/1150، ميورقة 580هـ/1184).[5]

---

[1]) فاليرين: المرجع السابق، ج2، ص796.

[2]) فوزية كرراز: عامة المغرب الأوسط بين الضغط الميورقي والإغراء الموحدي، مجلة عصور، جامعة وهران، ع22-23، جويلية – ديسمبر 2014، ص187-188.

[3]) فاليرين: المرجع السابق، ج2، ص ص296-797.

[4]) Amari: Op. cit, p17-22.

حاول أحمد عزاوي تفسير حصر المنصور الموحدي لنشاط البيزيين في الموانئ الأربعة من خلال ما توفر له من نصوص تاريخية، لكنه لم يحسم في سبب ذلك.

[5]) يدفع البيزيون بموجب المعاهدة 10 % كرسوم جمركية، لكن يتم إلغاء هذه الضريبة على السلع غير المباعة فعلا أو تلك المعاملات التي تتم على متن سفنهم، ومقابل ذلك يتعهدون بعدم مهاجمة المسلمين ونقل رعايا الخليفة على متن سفنهم؛ ينظر:=

تشير رسالة الشكوى المؤرخة في 01 جويلية 1182م/578هـ، التي وجّهتها حكومة بيزا إلى الخليفة أبي يعقوب يوسف (ح558-580هـ/1163-1184م)، بناء على تصريحات تجار بيزا لحكومتهم إلى قيام المشرف على ميناء بجاية بخروقات للمعاهدة التي تربط الطرفين، والتي تنص على تأمين التجار والتزامهم بدفع العشر المعتاد، لذلك يطلب صاحب الرسالة من الموحدين عدم فرض تكاليف أخرى على تجار بيزا خارج ما نصت عليه المعاهدة، حيث جاء في نص الشكوى: "... أن أبا عمر بن علي بن حسّون متولّي إشرافنا فيها أنهى إليهم وأنفذ أمرهم عليهم أن لا يعون (يبيعون) ولا يشترون من أمتعتهم وأنواع سلعهم الذي كانت عادتهم شرايه والتصروف به (شراءه والتصرف به)، إلا أن يجلبون (يجلب) كل واحد منهم ممن تبلوغ بضاعته خمسماية دينارا درعا كبرا جيدا (تبلغ بضاعته خمسمائة دينار درعا كبيرا جيدا)، وهذا أمر ليس يقتضه (يقتضيه) العهد المحكم ولا الأمر النافذ الملتزم الذي لا نقض لعهده ولا حل لعقده فهوا (فهو) عندنا وعندهم عهد ملتزم موكد (مؤكد) ورسم مكتوب مبرم..."[1]

نشاط المراسي

للوقوف على طبيعة نشاط المراسي ومدى حيويتها خلال فترة الدراسة، جمعنا في الجدول الآتي مجموعة من المؤشرات التاريخية المتعلقة بذلك:

الجدول رقم06: نشاط مراسي المغرب الأوسط

المرسى	وضعيته
مرسى الخزر[2]	يذكر البكري أن مدينة مرسى الخزر الغنية بالمرجان: "صنع بها مرفأ للسفن منذ مدة قريبة". وإلى جانب ذلك يتم تصنيع السفن والمراكب الحربية بدار صناعة السفن الموجودة بها، والتي تستعمل في غزو بلاد الروم.[3]
مرسى بونة[4]	يصنّف مؤلف الاستبصار ميناء بونة من بين الموانئ المهمة والمشهورة في بلاد المغرب، لأن الكثير من المراكب تقصده بغرض التجارة.[1]

= Mohamed Ouerfelli: Traité entre le calife almohade et la Commune de Pise (15 novembre 1186), Gouverner en Islam (Xe-XVe siècle) Textes et de documents, Anne-Marie Eddé et Sylvie Denoix (dir.), Éditions de la Sorbonne, Paris, 2015, p174-175.

[1]) Amari, Op.cit, p11-12.

في رسالة غير مؤرخة بعث بها والي إفريقية عبد الرحمان بن حفص بن عبد المؤمن (كان واليا على إفريقية بين 583-590هـ/1187-1194م) إلى تجار بيزا يشجعهم على التجارة مع موانئ إفريقية دون تحديد، ويعدهم بتوفير الأمن والحماية لهم: "وحيث خلوا من معاقلها وسواحلها وبرها وبحرها في مسالك تجاراتهم وترددهم بها ومتصرفاتهم لا يعترضهم في شيء منها معترض..."؛ Amari, Op.cit, p29-30.

[2]) القالة حاليا.

[3]) البكري: المصدر السابق، ص55.

[4]) نفسه، ص82؛ Saïd DAHMANI: «Le port de Bûna au Moyen Âge», in Afrique du Nord antique et médiévale: spectacles, vie portuaire, religion, V^{e} colloque international des sociétés savantes, Avignon, 1990, Paris, Éd. du CTHS, 1992, p. 361-377.

مرسى القل	يسكن البربر الجبال المحاذية له.[2]
مراسي جيجل	في جيجل مرسيان، مرسى على الجنوب صعب الدخول، ولا يدخل إليه إلا بدليل حاذق، ومرسى الشعراء وهو مرسى آمن لكنه صغير لا يستوعب عددا كبيرا من المراكب.[3]
مرسى مدينة بجاية	"بشرقيها نهر كبير تدخله السفن محملة، وهو مرسى مأمون".[4]
	مدينة بجاية: الحركة التجارية في مدينة بجاية مزدهرة جدا "السفن إليها مقلعة وبها القوافل منحطة والأمتعة إليها برا وبحرا مجلوبة والبضائع بها نافقة وأهلها مياسير تجار ... وأهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق وبها تحل الشدود وتباع البضائع بالأموال المقنطرة"، ... وعلى بعد ميل منها نهر كبير يصب في البحر تدخله المراكب عند فم البحر، لكن كلما ابتعد عن البحر جنوبا قل ماؤه.[5]
	ميناء بجاية كانت تقصده سفن ومراكب الروم القادمة من الشام ومختلف بلاد الروم، كما ترسو فيه سفن الإسكندرية واليمن والهند والصين.[6]
مرسى الدجاج	غير مأمون نظرا لضيقه وعدم عمق مياهه.[7]
	مرسى صيفي غير مأمون.[8]
	"وربما فر عنها أكثر أهلها في زمن الصيف ومدة السفر خوفا من قصد الأساطيل إليها ولها مرسى مأمون".[9]
مرسى تامدفوس[10]	هو مرسى عليه مزارع.[11]
مرسى جزائر بني مزغنى	هو مرسى مأمون تقصده التجار من إفريقية والأندلس وغيرهما.[12]
	مرسى مأمون.[13]

[1]) مجهول: المصدر السابق، ص127؛ وقد استمرت الأهمية التجارية لمرسى بونة، حيث كان في الفترة الحفصية ميناء على غاية من الأهمية، يُذكر في المراسلات والاتفاقيات مع المدن الإيطالية، حيث ورد ذكره في مراسلة بين الحفصيين وحاكم بيزا مؤرخة في 30 رمضان 767هـ / 10 جوان 1366م: "... ويكتب لجميع عبيدنا وخدّامنا من أهل المراسي ببونة وبالقل وبجيجل..."؛ Amari: Op.cit, p115-118.

[2]) الإدريسي: المصدر السابق، ص269.

[3]) نفسه، ص269.

[4]) البكري: المصدر السابق، ص82.

[5]) الإدريسي: المصدر السابق، ص259-260؛ مع بداية العهد الموحدي شهد ميناء بجاية نوعا من الازدهار التجاري. فاليرين: المرجع السابق، ج1، ص792-793.

[6]) مجهول: المصدر السابق، ص130.

[7]) البكري: المصدر السابق، ص65.

[8]) نفسه، ص82.

[9]) الإدريسي: المصدر السابق، ص259.

[10]) مرسى تامنفوست حاليا، ببلدية المرسى ولاية الجزائر.

[11]) الإدريسي: المصدر السابق، ص273؛ "وتامدفوس مرسى ومدينة خربت، وفيها بقية قوم يسكنونها سكنى الصابين إلى أوطانهم"؛ ابن حوقل: المصدر السابق، ص78.

[12]) البكري: المصدر السابق، ص66.

[13]) نفسه، ص82.

	مرسى جزائر بني مزغناي هو مرسى مأمون فيها عين عذبة يقصدها أصحاب السفن.[1]
مرسى شرشال	اكتفى البكري بذكره.[2]
مرسى تنس	يقصدها التجار الأندلسيون بمراكبهم وسلعهم، وشكلت التجارة البحرية والضرائب المفروضة على السلع الواردة والصادرة مصدرا مهما للسلطة.[3]
مرسى عين فرّوج	هو مرسى شتوي آمن.[4]
مرسى وهران	"ولها على بابها –وهران– مرسى صغير لا يستر شيئا".[5]
	"وميناؤها مشهور مأمون في الهول".[6]
المرسى الكبير	يقع على ميلين من مدينة وهران، وترسو به المراكب الكبيرة والسفن السفرية، وهو آمن من الرياح، "وليس له مثال في مراسي حائط البحر من بلاد البربر".[7]
مرسى ارزاو[8]	يقع بين وهران ومستغانم، تجلب إليه الحنطة ومنها يحمله التجار إلى الكثير من البلاد.[9]
مرسى هنين	تتميز هنين بمرساها المقصود.[10]
	يتميز حصن هنين بمرساه المقصود، وتسكنه قبيلة كومية.[11]

رغم أن النشاط البحري لجلّ المراسي المذكورة في الجدول ممتد لحقب سابقة، إلا أنه يمكن أن نلمح من خلاله التوجه أكثر نحو التجارة البحرية مع عالم المتوسط، خاصة مع الانفتاح الحمادي بعد بناء مدينة بجاية، وهي واحدة من النتائج غير المباشرة للوجود الهلالي بالمنطقة.

---

[1]) مجهول: المصدر السابق، ص132.

[2]) البكري: المصدر السابق، ص81.

[3]) ابن حوقل: المصدر السابق، ص78.

[4]) البكري: المصدر السابق، ص81.

[5]) الإدريسي: المصدر السابق، ص252.

[6]) ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، ص140.

[7]) الإدريسي: المصدر السابق، ص252.

[8]) أرزيو شرق مدينة وهران.

[9]) نفسه، ص271.

[10]) البكري: المصدر السابق، ص80؛ تقع هنين حاليا في ولاية تلمسان بين مدينتي الغزوات وبني صاف. ومن الدراسات التي قدّمت حول مرسى هنين:

- Abderrahmane Khelifa: Contribution à l'étude des villes et régions du Maghreb central : Hunayn et son terroir, Thèse de doctorat en Lettres, Soutenue en 1993 à Aix-Marseille 1, en partenariat avec Université de Provence. Faculté des lettres et sciences humaines.
- Abderrahmane Khelifa: «Le port de Hunayn au Moyen Âge», in Afrique du Nord antique et médiévale : spectacles, vie portuaire, religion, V[e] colloque international des sociétés savantes, Avignon, 1990, Paris, Éd. du CTHS, 1992, p379-392.

[11]) البكري: المصدر السابق، ص80. لمزيد من المعلومات عن هنين يمكن العودة إلى مقال: محمد بن زغادي: قراءة في تاريخ مدينة هُنين، دورية كان التاريخية، ع18، جوان 2015، ص ص82-87.

ب. التجارة العابرة للصحراء

تمتد بلاد السودان بين المحيط الأطلسي غربا، والمحيط الهندي والبحر الأحمر شرقا، والصحراء الكبرى شمالا، غير أن بلاد السودان التي ربطتها علاقات تجارية قوية مع بلاد المغرب عامة والمغرب الأوسط بخاصة هي السودان الغربي وأجزاء من السودان الأوسط،[1] وهي الواقعة إلى الجنوب مباشرة من بلاد المغرب.[2]

يؤكد المؤرخ والأنثروبولوجي الفرنسي "روجي بوت" Roger Botte[3] على أن بداية ازدهار التجارة عبر الصحراء في بلاد المغرب ارتبط بالإباضية[4] الذين يرجع لهم الفضل في توسيع تجارة المسافات الطويلة، والسيطرة على محطات القوافل في شمال وجنوب الصحراء، خاصة وأن الكثير من المعطيات غيبت أو لم تكن محفزة على ولوج عالم التجارة الصحراوية خلال الفترة الرومانية والوندالية والبيزنطية، لتشهد المرحلة الثانية التي ظهر فيها المرابطون ثم الموحدون عهدا جديدا، بتوسيع الشبكة التجارية المرتبطة بتجارة الصحراء مع الاقتصاد المتوسطي والأوروبي، خاصة مع دخول تجار جنوة وكتالونيا وبيزا والبندقية ومرسيليا ... وتأسيسهم لما يشبه القواعد التجارية على سواحل بلاد المغرب، وكان توسع إمبراطورية مالي لاحقا بمثابة التحول الجيوسياسي المهم في بلاد الساحل الإفريقي، والتي كان لها دور في تسيير عملية التجارة العابرة للصحراء.

تميزت التجارة مع بلاد السودان بربحيتها، نظرا لبعد المسافة، حتى أن سكان بلاد المغرب كانوا يضربون المثل ببعد بلاد السودان،[5] فضلا عن كثرة الأخطار المحدقة بالقوافل التي تنقل السلع، مما يؤثر على حجمها وعلى عدد المشتغلين بها ووفرتها في الأسواق، وهو ما جعل التجار العاملين على هذا الخط البعيد من أثرى الناس وأكثرهم أموالا[6]، إذ يصل حجم الاستثمارات التي يوظفها التجار المغاربة في هذه التجارة أربعة آلاف (4000) دينار.[7]

أسهمت التجارة مع السودان الغربي في الدفع باقتصاد المغرب الإسلامي وتنامي دور المغرب كوسيط في تجارة حوض البحر المتوسط والسودان الغربي، وبناء عديد الحواضر على محاور التجارة الكبرى.[8] على أنها شهدت

---

[1]) وتشتمل بلاد السودان الغربي والأوسط حاليا حوض نهر السنغال وغامبيا ونيجيريا؛ تشاد والنيجر وحتى الطوغو والكاميرون؛ وأيضا بوركينافاسو وجنوب مالي؛ أوليفيا ريمي: التجارة والتجار في الأندلس، ترجمة: فيصل عبد الله، دار العبيكان، الرياض، ط1، المملكة العربية السعودية، 1423هـ/2002م، ص253.

[2]) زكرياء بن محمد بن محمود القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، لبنان، ص18؛ يصفها بقوله: "هي بلاد كثيرة وأرض واسعة، ينتهي شمالها إلى بلاد البربر وجنوبها إلى البراري، وشرقها إلى الحبشة، وغربها إلى البحر المحيط، أرضها محترقة لتأثير الشمس فيها... أرضهم منبت الذهب، وبها حيوانات عجيبة"؛ نفسه، ص24.

[3]) Roger Botte: Les réseaux transsahariens de la traite de l'or et des esclaves au haut Moyen Âge : VIIIe-XIe siècle, L'Année du Maghreb, CNRS Éditions, VII, Paris, 2011, p27-28.

[4]) لا يزال إباضية الجزائر إلى اليوم يتعاطون التجارة بقوة، في مناطقهم استقرارهم التقليدية التي يتركزون بها أو في المدن التي ينتشرون فيها، ويُعرفون غالبا بالتزامهم في المعاملات التجارية.

[5]) ابن الزيات التادلي: المصدر السابق، ص148.

[6]) ابن خلدون: المقدمة، ص497.

[7]) الإدريسي: المصدر السابق، ص66.

[8]) الحسين بولقطيب: المرجع السابق، ص14-15.

جملة من التحولات التي ارتبط بعضها بالوجود الهلالي في المغرب الأوسط وبالنشاط الهلالي في حد ذاته، من خلال تأثر بعض الطرق التجارية بغياب الأمن وانتشار ظاهرة اللصوصية.

إذا كان دومنيك فاليرين لا يستبعد انخراط العرب في ممارسة التجارة الكبيرة خاصة في الصحراء.[1] فإننا نعتقد أن عملية الانخراط (النسبي) تمت في مراحل لاحقة في سياق محاولات الاندماج الهلالي في المنظومة الاقتصادية للمنطقة، لكن هذا لا ينفي مشاركة القبائل الهلالية في بعض عمليات التجارة العابرة للصحراء.

أورد المقري رسالة والي الموحّدين في سجلماسة أبي الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن بن علي (توفي في بداية القرن07هـ/13م) إلى ملك غانة، يعبّر فيها عن امتعاضه من العراقيل التي يلاقيها تجار سجلماسة في مملكة غانة، مذكّرا إياه بأهمية وفود التجار إلى غانة لأنه سيساهم في تنشيط اقتصادها، كما أبلغه أنه بإمكانه أن يتعامل مع تجار غانة الموجودين بجهات سجلماسة بالمثل، لكنه لن يفعل ذلك من باب أنه لا ينهى عن خلق ويأتي بمثله.[2]

نستنتج أن الموحّدين كانوا يدركون أهمية توفير الظروف المناسبة لممارسة الأنشطة التجارية، وكانت التجارة الصحراوية لديها أهمية خاصة، وإذا ربطنا مضمون هذه الرسالة برسالة الموحدين إلى البيزيين، التي يحفّزنوهم فيها على التوجه نحو الموانئ في إفريقية والتجارة وضمان أمنهم وسلامتهم وسلامة رؤوس أموالهم، يتبين أن الموحّدين كانوا في هذه الفترة يعطون أولوية لتنشيط التجارة، لأنها تدر دخلا مهما لخزينة الدولة، وأنهم فهموا معادلة الاستقرار لجلب التجار، فحاولوا توجيه الفاعلين في التجارة المتوسطية نحوها بما يفيد الطرفين.

يمكن ربط الرؤية الموحدية للتجارة الخارجية مع الشمال والجنوب بالإجراءات التي كانت تتخذها من أجل بسط سيطرتها وتوسعاتها والعمل على استتباب الأمن وفرض الانضباط على القبائل المتمردة والتي تثير الفوضى.

يبدو أن البحث في موضوع التأثير الهلالي على التجارة البعيدة، من خلال السيطرة على محاور الطرق التجارية وانتشار اللاأمن، مرتبط هو الآخر بطبيعة المصادر[3] التي تناولت بلاد السودان والعلاقات التجارية معه، فإذا كان من العصيّ فهم طبيعة التأثير بعيدا عن استحضار الخريطة القبلية ومجالات التوسع الهلالي وطبيعة النظام السياسي وعلاقاته الخارجية وتوجهاته الإقليمية، فإنه وإلى جانب ذلك من المهم معرفة طبيعة المادة التاريخية التي قدّمتها المصادر حول موضوع التجارة الصحراوية بشكل عام.

---

[1]) فاليرين: المرجع السابق، ج1، ص236.

[2]) أحمد بن محمد التلمساني المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1408هـ/1988م، مج3، ص105.

[3]) تتميز هذه المصادر العربية على حد وصف "روجي بوت" بأنها مجزأة، بها ثغرات خطيرة ولا تقدم نظرة ثاقبة، خاصة وأن غالبية كُتّابها لم تكن لديهم معرفة مباشرة بالسودان، فابن حوقل وابن بطوطة، هم من زاروا فعلا إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى ووصلت أعمالهم إلينا، في حين ضاعت بعض الأعمال لغيرهم. أما البكري الذي أمضى حياته كلها في الأندلس، فقد حاول أن يقدّم أول وصف عام للسودان من خلال ما توصّل إليه من وثائق مباشرة، والكثير من ممن كتبوا في الموضوع كانوا أصحاب ولاءات سياسية معينة (لفاطميي مصر، لأمويي الأندلس، لنورمان صقلية)؛ Roger Botte: Op Cit, p34.

ج. التجارة مع المشرق الإسلامي

بعد إعلان الزيريين لمرسوم تحريم تداول العملة الفاطمية سنة 441هـ/1049م يرجح أن التجارة بين مصر وإفريقية تضررت، لكن في الوقت نفسه شهدت التجارة بين الحماديين والمشرق بعض الانتعاش.[1]

كانت التجارة مع المشرق محكومة بمعطيات عدة، وقد كان التجار الفاعلون في المبادلات التجارية بين المشرق وبلاد المغرب الإسلامي يفضلون الطريق البحري على البري.[2] وقد يكون من اعتبارات ذلك الانتشار الهلالي في بعض المحاور التي يمر بها الطريق الرابط بالمشرق.

استولى صاحب المهدية في سنة 536هـ/1141م على مركب حمادي قادم من ميناء الإسكندرية باتجاه بجاية "ببضائع عظيمة لها شأن وأثمان للتجار وهدية إلى صاحب بجاية"، وهذا ردا على احتجاز مركب زيري كان بميناء الإسكندرية كان من المفترض أن يغادره مع المركب الحمادي –وتم الاحتجاز بسبب توتر العلاقات بين الأمير الزيري والخليفة الفاطمي آنذاك–، وقد قام الزيريون بتفريغ حمولة المركب الحمادي والإبقاء عليه في الميناء إلى أن تحطم في صدمة أكتوبر، ليأخذ الزيريون خشبه ويصنعوا منه مركبا جديدا، لكن بعد سنة واحدة استولى الصقليون على هذا المركب.[3]

وبالتالي فإن التواصل التجاري بين المغرب الأوسط ومصر والمشرق الإسلامي انطلاقا منها عرف هو الآخر نشاطا مهما بعد انتقال العاصمة الحمادية من الداخل إلى الساحل، كما أن حجم المبادلات يبدو مهما من خلال التوصيف الذي قدمه ابن عذارى عندما يتحدث عن بضائع عظيمة لها شأن وأثمان للتجار، ونعتقد أنه يقصد بضائع شرقية ذات أثمان باهضة.

أثّرت الظروف السياسية في بعض أقاليم الشرق أحيانا في الحركة التجارية، رغم أن الإشارة التي سنستند عليها لا تعني بالضرورة أنها حالة عامة، حيث ورد في "نظم الجمان" أن الآمر الفاطمي حاكم مصر، كان يأخذ أموال التجار الغرباء ويحاول اختلاق الأسباب لذلك، كما كان يستولي على أموال التجار بطرق شتى، كأن يقال للتاجر أنه عليك مبلغ كذا في زمن كذا، ويطلب منه مبلغ يفوق ما يملكه بل وأضعافه، فإذا أنكر ذلك يعذّب حتى يسلّم ماله، ثم يطلب منه أن يحيلهم على غيره ممن يملك مالا كثيرا ويدّعي أن لديه عنده دين لم يسدّده، وهكذا تستمر السلسلة.[4]

---

[1]) لويس أرشيبالد: القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (500-1100م)، ترجمة: أحمد محمد عيسى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص385.

[2]) حسن خضيري أحمد: المرجع السابق، ص103؛ للاطلاع على أهمية وثائق الجنيزة في التأريخ لاقتصاد الغرب الاسلامي ينظر: بصديق عبد الكريم: أهمية وثائق الجنيزة في تدوين التاريخ الاقتصادي لبلاد المغرب الاسلامي في العصر الوسيط، مجلة الانسان والمجال، المركز الجامعي البيض، مج7، ع1، جوان 2021، ص ص186-210.

[3]) ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص346.

[4]) ابن القطان: المصدر السابق، ص144-145؛ وينبغي أن نشير إلى أن ابن القطان أخذ انطباعا سلبيا عن الآمر واعتبره سيء السيرة؛ وهو في هذا النص يحاول أن يبين تدهور العلاقة بين التجار والسلطة في مصر خلال حكم الآمر، وفي المقابل يشير في إحدى مواضع كتابه إلى تجنّد التجار=

في خانة كرامات عبد المؤمن بن علي، ما كان يتداوله بعض الموحّدين من كومية، حول تاجر من الإسكندرية، رافق عبد المؤمن بن علي من تلمسان إلى فاس، وعندما طُلب من التاجر تسديد حقوق كراء الدّواب التي ينقل عليها سلعه كانت تنقصه خمسة عشر (15) درهم عن حقوق الكراء، فاقترضها من مرافقه في الرحلة "عبد المؤمن بن علي". وعندما أراد التاجر إعادة المبلغ المقترض لم يعثر على صاحبه، فدوّنه عنده كَدَين عليه لأنه كان مضطرا للعودة إلى الإسكندرية، ووضع المبلغ على حده واستثمره ما يقرب الثلاثين سنة كان يتنقل فيها تاجرا في المشرق، إلى أن عاد إلى بجاية واحتجز واليها "أبا محمد عبد الله بن سليمان" أمواله إلى أن يعلم حاله، فاتجه نحو العاصمة للقاء الخليفة، وهناك ذكّره بالحادثة وأخبره أن دراهمه قد نمت وبلغت ألف (1000) دينار، فما كان منه إلا أنه أكرمه على أمانته وكتب له ظهيرا بالأمان في نفسه وماله وأهله وأمر باسترجاع ما حجز من أمواله.[1]

وإن كنت هذه المروية تذكر في باب كرامات الخليفة عبد المؤمن بن علي، وبالتالي لا يمكن أن نجزم بصدقية تفاصيلها من عدمها، إلا أننا يمكن أن نسجل جملة من الملاحظات المهمة:

1- التجار الأجانب الذين يسلكون الطرق البرية كانوا يضطرون لاكتراء الدواب من أجل نقل سلعهم من مدينة إلى أخرى أو من إقليم لآخر، وربما ينطبق هذا على التجار الذين يأتون في مجموعات محدودة العدد وليست قوافل كبيرة، أو يكون بعد وصول القافلة إلى مكان معين وتفرق التجار إلى مدن مختلفة.

2- يتفادى التجار في بعض الحالات اصطحاب مبالغ مالية كبيرة من الأموال، خوفا من اللصوص، مما يجعلهم أحيانا يعجزون عن تأدية الواجبات التي تتطلبها تجارتهم ككراء المراكب والدواب.

3- نسبة نمو التجارة البعيدة مهمة، وهي تجارة مربحة مقارنة بغيرها، فاستثمار هامشي ومحدود غالبا لمبلغ بقيمة خمسة عشر (15) درهما لمدة ثلاثين سنة ينتج حوالي ألف (1000) دينار.

رأس المال	15 درهم
مدة الاستثمار	حوالي 30 سنة
الأرباح	1000 دينار

4- بعض ولاة الموحّدين يمارسون الرقابة المالية على التجار الوافدين ويلجؤون إلى احتجاز أو مصادرة أموالهم، خاصة أولئك الذين يحملون معهم مبالغ كبيرة، وربما هو سبب آخر يدفع التجار إلى عدم قيامهم بذلك. رغم أن الرواية لا تشير إلى مبررات سياسية معينة، إلا أننا نرجح أن يكون هذا الإجراء مبرر سياسيا، كالتخوف من وقوعها في يد المتمردين مثلا.

=للحرب إلى جانب الموحّدين في أغمات، خاصة وأن كل أهل المدينة تجندوا لذات الغرض، وذلك سنة 524هـ، لكن الموحّدين انهزموا ومات الكثير من سكان المدينة ونهبت المحلات؛ نفسه، ص158؛ ويبدو أن انخراط التجار في المعركة إلى جانب الموحّدين كان بهدف الحفاظ على ممتلكاتهم.

[1]) نفسه، ص186-187.

4- المؤثر الهلالي في طبيعة وحجم المعاملات

أ. تجارة المنتجات الرعوية

يشير فاليرين إلى أن الصادرات الرئيسة لبجاية كانت من منتجات الرعي، وإن كان يؤكد من خلال ذلك على الدور الهلالي في إثراء هذا الصنف الإنتاجي، فإنه لا ينفي في الوقت نفسه التوجه الرعوي للاقتصاد البجائي منذ القديم نظرا لطبيعة المنطقة الجبلية.[1] وانعكس انتشار النشاط الرعوي على إنتاج الأصواف والألياف النسيجية من تربية الماشية بأنواعها وخاصة الغنم.[2]

كانت الصوف من أهم المواد التي تصدر إلى أوروبا انطلاقا من ميناء بجاية إلى غاية القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، حيث شهدت اختفاء شبه كلي من السوق الأوربية بسبب ظهور مناطق إنتاج منافسة. علما أن انطلاقة تصدير الصوف من بجاية تزامنت وفترة تراجع تربية الحيوانات في إيطاليا لصالح الأراضي الزراعية مع رواج صناعة النسيج الإيطالية.[3]

في تتبعه للتجارة الخارجية لمادة الصوف بإفريقية يخلص لطفي بن ميلاد إلى أن الثروة الحيوانية تقلصت بين النصف الثاني من القرن 5هـ/11م والنصف الأول من القرن 6هـ/12م، وهو ما يكون قد أثّر على تجارة الصوف، ويعتقد أن الحضور الهلالي كان له دور في هذا التراجع، لكن تجارة الصوف شهدت انتعاشا في القرن اللاحق لتعود للتراجع في القرن 8هـ/14م.[4]

استنادا إلى ما تم بحثه سابقا حول الدور الهلالي في الثروة الحيوانية، يمكن أن نخلص إلى أن انتعاش الحياة الرعوية وبالتالي زيادة رؤوس الماشية ومنه المنتجات الرعوية في الضفة الجنوبية للمتوسط لم يكن متزامنا والاجتياح الهلالي للمنطقة بقدر ما ظهر في فترات لاحقة، فروبير برونشفيك مثلا يشير إلى تزويد بجاية لأوروبا بالجلود والأصواف بين القرنين 7و9هـ/13و15م[5].

تُظهر عقود الاستئجار البحري –على قلّتها- حمولات الصوف التي كانت تنقل من بجاية إلى جنوة، ففي سنة 597هـ/1201م: أجّر "جياكومو كابرا" Giacomo Capra و"أنسيلمو برباريا" Anselmo Barbaria وشركاؤهما مركبهم البحري لبعض التجار الجنويين، الذين يسافرون به إلى بجاية ويتوقع أن يعودوا على متنه محمّلين بـ ألف (1000) قنطار من الصوف والجلود، كما حمل "جيوفانينو دو كوارتو" Giovannino de Quart سنة 669هـ/1271م على مركبه تسعة وثلاثين (39) كيسا من الصوف من بجاية إلى جنوة.[6]

---

[1]) فاليرين: المرجع السابق، ج1، ص259.

[2]) محمود هدية: المرجع السابق، ص44.

[3]) فاليرين: المرجع السابق، ج1، ص494.

[4]) لطفي بن ميلاد: المرجع السابق، ص270-271.

[5]) روبار برنشفيك: المرجع السابق، ج2، ص273.

[6]) فاليرين: المرجع السابق، ج1، ص495؛ اعترف لنا دومنيك فاليرين أن الوثائق التي يمكن أن تخدم موضوعنا مباشرة قليلة خاصة ما تعلق المغرب الأوسط.

الكميات التي تُفصح عنها الوثائق معتبرة، لكن في ظل غياب معطيات دقيقة تغطي مختلف الفترات وتتبع كل الشحنات يكون من الصعب الإقرار بحقيقة حجم صادرات الصوف نحو جنوة خاصة وأوروبا بصفة عامة.

ولمحاولة تقدير المداخيل التي تُحصّل نتيجة تصدير الأصواف والجلود، نورد ما جاء في رسالة[1] من محرز القابسي (تونس) إلى باج Pace (البيشاني)، يذكّره بوضعية تسديد المبالغ المستحقة عنه وعن أحد التجار البيزيين "بيروككله" "Piero Cocolla" Birukakolla الذي توسط له عند محرز للضمان فيه، وما يهمّنا في الأرقام التي وردت في نص الرسالة، كما ذكرنا هو ثمن الجلود والأصواف المصدّرة:

صاحب المعاملة	المبلغ الاجمالي	السلعة (العدد والنوع)	المبلغ المدفوع	الضامن
Birukakolla	210 دينار	1600 جلد ضاينة	10 دنانير	باجPace
باجPace	73.5 دينار	909 جلود	لم يذكر	
باجPace	29.5 دينار	09 قناطير صوف	05 دنانير	

وفي رسالة أخرى من هلال بن خليفة الجيمونسي إلى باج البيشاني:[2]

صاحب المعاملة	المبلغ الاجمالي	السلعة	المبلغ المدفوع	الضامن
الدكرم والدبراند Al.d.k.r.m e Ildebrando	90 دينار و07 دراهم	605 جلد	قبض نصفهم	باجPace

رغم المبالغ التي كانت تدر جراء تصدير كميات الصوف من موانئ المغرب الأوسط، ومن ميناء بجاية بصفة خاصة، إلا أن حركة التصدير في حد ذاتها مؤشر على أن إنتاج الصوف في المغرب الأوسط لم تواكبه صناعة نسيجية مهمة تستثمر في كميات الصوف التي تنتجها القبائل الرعوية، وبالتالي كانت تصدر كمادة خام، وهذا يرجع إلى تقصير الفئة الصناعية في حواضر المغرب الأوسط، وبخاصة في العاصمة التي عجزت عن خلق المنافسة للمراكز المهمة في العالم المتوسطي والأندلس ومصر وحتى في المغرب الأقصى، وربما كانت تلمسان الوحيدة في المغرب الأوسط التي تقدم صناعة نسيجية مُنافِسة، وهو ما غيّب القيمة المضافة في مجال الأصواف.

يبدو أن حجم الصوف الذي يدخل مدينة بجاية بغرض تصديره في بعض الفترات كان كبيرا، وقد سميت أحد أبواب مدينة بجاية[3] بباب "تاطُنت"[4] والتي يرجح أنها تعني الصوف،[1] ومع أن الباب يقع في الجهة الشرقية

---

[1]) الرسالة غير مؤرخة، غير أن ميشال أماري أدرجها بعد وثيقة مؤرخة في مستهل رمضان 597 هـ/ جوان 1201م؛ ينظر: Amari: Op. cit, p48-49.

[2]) Amari: Op.cit, p50-51.

[3]) بخصوص أبواب بجاية؛ ينظر: بوروبية: المرجع السابق، ص203-205.

[4]) لما كان عبد المؤمن كان راجعا من إفريقية بعد فتحه للمهدية، دخل بجاية ومرّ بسوق بناحية باب تاطنت، حيث سأل عن تاجر بها فأخبروه أنه توفي، فسأل إن كان قد خلّف، فأجابوه بأنه خلّف: "فأمر بشراء جميع الدكاكين التي بتلك السويقة وأوقفها عليهم وأمر لهم بمال كثير ثم التفت إلى بعض خواصه وقال: له أتيت إلى هذا البياع ولي وللإمام – يعني ابن تومرت – ولجماعة من أصحابنا من الطلبة أيام لم نطعم فيها وما معي إلا سكين=

للمدينة فإن ذلك لا يمنع أن يكون هو الباب الذي يدخل من خلاله البدو ومنهم الهلاليون أو الوسطاء حينما يأتون بالأصواف لبيعها، خاصة وأن السوق بالقرب من باب المدينة، مما يجعلهم يقومون بمعاملاتهم التجارية دون الاضطرار لدخولها.

إذا كانت صوف بجاية قد شهدت رواجا في إيطاليا، فإن جلودها[2] كانت متواجدة في مختلف الأسواق الأوربية، فقد وصلت إلى غاية إنجلترا في فترة متأخرة، حيث اشتهرت برشاقتها. وما يشير إلى أهمية تجارة الجلود البجائية بالنسبة للأوربيين هو احتجاج السلطات البيزية على قرار ديوان ميناء بجاية بمنع البيزيين من تصدير الجلود والفراء إلا إذا توفروا على رأس مال يصل إلى خمسمائة (500) دينار ككفالة لممارسة تجارتهم. قد يرتبط سَنّ هذا الشرط بمغادرة تجار دون تسديد مستحقاتهم، لكن الجانب المهم في هذه الحادثة هو أهمية الجلود القادمة من بجاية بالنسبة لتجار بيزا، كما أن وجود تجار باستطاعتهم تأمين المبلغ المطلوب يشير إلى أننا أمام استثمارات تجارية مهمة في هذا الجانب.[3]

تشير الوثائق الجنوية إلى بعض التعاملات التجارية المرتبطة بتصدير الجلود من بجاية، خاصة جلود الخرفان، فقد اشترى تاجر جنوي 3960 جلد خروف وصلت من بجاية بمبلغ 150 ليفر و09 سو ونصف، وذلك سنة 622هـ/1225م، كما باع تاجر آخر 5843 من جلود بجاية بمبلغ 260 ليفر سنة 631هـ/1234م. وبالمقابل كانت نسبة جلود الأبقار أو العجول المصدّرة ضعيفة.[4]

تعكس الأرقام التي تحويها الوثائق التجارية وفرة الأصواف والجلود وفائض الإنتاج الموجه للتصدير انطلاقا من ميناء بجاية، ووفقا لذات الأرقام يبدو أن المنتوجات الرعوية المصدرة كانت تصل بجاية من الجهات الداخلية التي تنتشر فيها القبائل الهلالية.

ب. تجارة الحبوب وتجاذبات الاقتصاد الزراعي–الرعوي

القمح من السلع التي انتقلت بين بلاد المغرب وأوروبا في الاتجاهين، وفقا لظروف الإنتاج في الضفتين، فقد كانت سنوات القحط والجفاف والجراد في المغرب الأوسط تستدعي استيراد كميات من الحبوب من أوروبا، في

=الدواة فأخذت منه خبزاً وإداماً ثم وضعت عنده السكين رهناً على ذلك فأبى قبولها وقال لي: "إني توسمت فيك الخير فمتى أعوزك شيء فهلم الدكان فهو بين يديك وبحكمك! فحقه علي أكثر من هذا"، عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص194.

[1]) قادنا الفضول العلمي لمحاولة معرفة مدلول تاطنت في اللسان البربري الحالي، وفقا لما يذهب إليه المهتم بالتاريخ عبد الرحمن بوناطيرو من بجاية، فإن تاطنت قريبة في المنطوق المحلي من معنى الصوف، التي لازالت تنطلق إلى اليوم بصيغ عدة، منها: تاظوط أو تاظينت حسب اختلاف النطق (أسوسرو)، ورغم أن الباحثة في الطوبونيميا الأمازيغية "خديجة ساعد" تؤكد على أن الصوف في المتغير القبائلي "تاضوط" غير مطابقة لتاطونت، القريبة في المتغير الشاوي المتداول حاليا من كلمات: تادونت التي تعني الشحم، وتاضينت التي تعني الطين المستعمل للبناء (وهو المعنى الذي ترجحه)، و"تيطّانت" التي تعني الحساب؛ محمد شفيق: المعجم العربي الأمازيغي، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1987، ج1، ص266، إلا أن استمرار ربط اسم الباب بين السكان حاليا بالصوف يجعل من فرضية ارتباطه بتجارة الصوف أكثر وجاهة.

[2]) يثني القزويني على الجلود الغدامسية –نسبة لغدامس– ويعدها أجود أنواع الجلود التي عرفت ببلاد المغرب؛ المصدر السابق، ص57.

[3]) فاليرين: المرجع السابق، ج1، ص515-517.

[4]) نفسه، ج1، ص517-518.

حين تنقل الحبوب من المغرب الأوسط إلى أوروبا والأندلس في عملية عكسية، حينما تضطرب ظروف الإنتاج هناك وتنتج بلاد المغرب كميات فائضة عن الاستهلاك المحلي.

تتبع حجم الإنتاج في بعض جهات المغرب الأوسط، من خلال كتب الرحلة والجغرافيا خاصة يسمح بتقديم خريطة تقريبية لمناطق إنتاج الحبوب ومراكز تصديره. في هذا الإطار يذكر صاحب الاستبصار أن مدينة تنس كان يحمل منها الطعام إلى الأندلس وإفريقية وبلاد المغرب.[1] ورغم الصعوبات التي عرفها المغرب الأوسط، إلا أن البلاد الواقعة جنوب بجاية حافظت على مستوى مهم من إنتاج الحبوب، مع أن السهول الإفريقية والجنوب الوهراني كانت من المناطق ذات الإنتاج الجيد والذي وُجِّهَ جزء منه للتصدير نحو أوروبا، وما سمح باستمرار هذه الصادرات إلى كتالونيا وأراغون هو العجز الذي كانت تسجّله هذه المراكز الحضرية خاصة في القرن السابع الهجري/الرابع عشر الميلادي، لكن فيما بعد أصبحت مناطق التموين متنوعة مما جعل المغرب منطقة تموين ثانوية.[2] وهو الذي يضطر في بعض الأحيان لاستيراد كميات من القمح من أوروبا.[3]

المؤشرات المرتبطة بالخريطة الزراعية للمغرب الأوسط عقب الهجرة الهلالية تؤكد على تراجع إنتاج الحبوب، خاصة مع التوجه نحو الزراعات المحصنة —كما أسلفنا ذكره- ولا نستبعد حدوث نوع من الاضطراب في التموين بالحبوب وبخاصة القمح، على أن الأمور يبدو أنها أخذت في الانفراج خلال فترات ازدهار الدولة الموحدية.

ج. مظاهر توظيف الذهب في المعاملات النقدية والتجارية

يعتبر الذهب محرك التجارة البحرية المغاربية وقوة ضغط سياسي للدول الحاكمة، لأن أوروبا كانت بحاجة له من أجل ضرب السكة والتسديد مقابل المواد الواردة من المشرق، لذلك ظهر الاهتمام الأوربي بالموانئ المغاربية، وفي المقابل نجد البندقية التي اهتمت بمعادن المجر لا تهتم بالأسواق المغاربية.[4] وبالتالي يكون التساؤل الذي يلح

---

[1]) مجهول: المصدر السابق، ص133.

[2]) فاليرين: المرجع السابق، ج1، ص538-539.

[3]) ورد في وثائق أماري رسالة من بيزا إلى الخليفة الموحّدي، مؤرخة في 23 أفريل 1181م / 06 ذي الحجة 576هـ، تتضمن شكوى حول قيام والي طرابلس بالاستيلاء على مركب بيشاني كان متوجها بالقمح انطلق من صقلية نحو طرابلس، تعرّض لعاصفة رياح أجبرت طاقمه على الرسو في أحواز طرابلس، خاصة وأنهم كانوا بحاجة إلى الماء، وعندما نزلوا إلى البر أصر عليهم سكان المنطقة بشراء القمح منهم، واضطروا لبيعهم بعضه، وعندها تم إلقاء القبض عليهم، أسر التجار وتمت مصادرة القمح والأموال. وتطالب الرسالة بتسريح التجار ورد أموالهم، بناء على العهد الذي بينهم وبين الموحّدين؛ Amari: Op.cit, p7-9، ويفسّر أحمد عزاوي أن هذا التصرّف يمكن تفسيره بتخلخل النظام في طرابلس أواخر عهد الخليفة يوسف بسبب تحركات المماليك في جهات طرابلس؛ رسائل موحدية، م ج، ج2، ص60؛ سبب التعرض للمركب البيشاني ومصادرة حمولته، هو مخالفته لقانون الجمارك، بحيث قام التجار ببيع جزء من القمح قبل المرور على الجمركة، وبالتالي فإن بيع السلع خارج الرقابة الجمركية يعد تهربا ضريبيا. وهنا نتساءل: هل لهذا الأمر علاقة بالاتفاقية التجارية السلمية التي سيمضيها المنصور مع حكومة بيشة في بداية رمضان 582هـ/15 نوفمبر 1186م، والتي أوردها ميشال أماري في الوثائق العربية التي نشرها، ص ص17-22 والمشار إليها سالفا، والتي يسمح بموجبها للبيشانيين بالنشاط التجاري في أربعة موانئ فقط (سبتة، وهران، بجاية، تونس)، رغم أننا نستبعد ذلك، لأن رسالة الشكوى كانت في عهد أبي يعقوب يوسف، أما الاتفاقية الجديدة فقد عقدت في عهد المنصور.

[4]) فاليرين: المرجع السابق، ج1، ص548-549.

على الباحث مرتبطا بمدى ارتكاز العلاقات التجارية المغاربية الأوروبية على الذهب فقط، ومدى استمرار تدفقه في ظل الحضور الهلالي.

حاول بعض الباحثين الأوربيين إعطاء جملة من الافتراضات حول كميات الذهب القادمة من إفريقيا السوداء نحو بلاد المغرب، لكنها افتراضات لا تستند إلى أدلة مادية تؤكدها، حيث قدّره "رايمون موني" Raymond Manny بتسعة (09) أطنان في السنة انطلاقا من المناجم غير المستغلة في سنوات 1950، في حين استند "جون دوفيس" إلى متطلبات السّكة والصياغة في بلاد المغرب والأندلس ليخلص إلى أن الذهب الذي يصل إلى المنطقة لا يتجاوز ثلاثة (03) أطنان سنويا، إضافة إلى الذهب المستهلك محليا وبذلك يكون الإنتاج في حدود أربعة (04) إلى خمسة (05) أطنان سنويا.[1]

على الرغم من محدودية كميات الذهب التي تُظهرها هذه الدراسة، إلا أنه كان معطى مهم في المغرب الإسلامي، حيث عملت الدول على السيطرة على مسالك توريده ومحطات القوافل التي تتكفل بحمله ونقله، وبسبب تحول المسالك انطلاقا من غانة، واختناق المنافذ بسبب الخطر النورماني ظهر الركود في المحاور القديمة لنقل الذهب، وبالتالي فقد الجزء الشرقي للمغرب الاسلامي سيطرته على محاوره، خاصة بعد تأسيس مدينة أودغست وسيطرة المرابطين على سجلماسة، وما عمّق هذا الوضع هو استمرار الهلاليين على حالتهم الأولى "طلاب حق موهوم وأصحاب قوة عسكرية يضعونها في خدمة كل ثائر طموح"، وهو ما دفع العروي إلى القول بأن حقيقة الصراع بين البدوي والمستقر هو تنافس على الاستئثار بالذخائر وأرباح ما تبقى من التجارة البعيدة.[2]

خلال العهد الموحدي، تراجعت التجارة مع السودان[3] مقارنة بما كانت عليه أيام المرابطين، حيث شجعت غانة تجارها على التجارة عبر الصحراء وضيقت على التجار المغاربة، مما جعل الموحدين يهددونها بالمعاملة بالمثل، فضلا عن غياب الأمن في الطرق بصحراء صنهاجة، وتحول التجارة مع السودان عبر الصحراء من الطريق الساحلي للمحيط إلى وسط الصحراء في اتجاه وركلان والواحات نحو مصر، وهو التحول الذي أصبح تاما في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي.[4] لكن حري بنا الإشارة إلى أن بسط الموحدين لنفوذهم على مجالات المغارب وسيطرتهم على سجلماسة سنة 540هـ/1145م انعكس على ازدهار تجارة الذهب جزئيا، لكن مع أهمية أكبر للمحور الغربي.[5]

يبدو أن استفادة المغرب الأوسط من تجارة السودان أكثر من استفادته من تجارة البحر المتوسط، وهو ما يعبّر عنه السلطان الزياني أبو حمو (ح633هـ-1229م/681هـ-1283م): "لولا الشناعة لم أزل في بلادي

[1]) André Raymond: Op.cit, p286-287.

[2]) العروي: المرجع السابق، ج2، ص102.

[3]) كان الذهب يستقدم من بلاد السودان وأودغست، والتي يتميز ذهبها بجودته العالية؛ مجهول: المصدر السابق، ص216.

[4]) أحمد موسى: المرجع السابق، ص273.

[5]) فاليرين: المرجع السابق، ج1، ص297.

تاجرا من غير تجار الصحراء الذين يذهبون بخبيث السلع، ويأتون بالتبر الذي كل أمر الدنيا له تبع ومن سواهم يحمل منها الذهب، ويأتي إليها بما يضمحل من قرب ويذهب"،[1] وبهذا فهو يؤكد على عدم التكافؤ في المبادلات المغربية الأوربية لأنها تزيد من أرباح الأوربيين، وذلك على عكس التجارة مع بلاد السودان، على الرغم من أن الثانية رافد للأولى.

تتحدد قيمة العملة –التي يعتبر الذهب مادة أولية فيها- بمدى جودة عيارها ووزنها، وتتأتى أهمية النقود باعتبارها مقابلا للمبادلة أو العملية التجارية أو الخدماتية، وأيضا من حيث كونها تعبّر عن قيمة السلع المتداولة في الفضاء التجاري، ثم إن النقود تدخل في معاملات مالية كثيرة ولا تقتصر على المعاملة التجارية الآنية فحسب، بل تتعلق أيضا بالرهن...

يقول ابن خلدون: "وأما صنهاجة –يقصد الحماديين- فلم يتخذوا سكّة إلا آخر الأمر، اتخذها منصور صاحب بجاية ذكر ذلك ابن حمّاد في تاريخه،[2] حيث شاع استعمال السّكة الفاطمية المتميزة بجودتها، والتي فاق عيار الدينار 97%، وقد وصلت كميات كبيرة من السكة الفاطمية إلى أوروبا، وأصبحت محل تعامل في جنوب إيطاليا.[3] وإلى جانب استعمال الحماديين للسكة الفاطمية، والعباسية إلى غاية عهد يحي بن العزيز (ح515هـ-1121م/547هـ-1152م)، يبدو أنهم تعاملوا أيضا بالعملة المرابطية، حيث عثر المهندس الذي أشرف على ترميم جامع "سيدي أبي مروان" بعنابة على عدد كبير من الدنانير المرابطية.[4]

نخلص من خلال هذه المعطيات، إلى أن سك العملة الذهبية ببجاية كان ضعيفا، وحتى العملة التي ذكر ابن خلدون أن يحي بن العزيز ضربها في 543هـ/1148م لم يتم العثور على أي قطعة نقدية منها خلال الحفريات، وبالمقابل فقد وجد عدد كبير من الدنانير المرابطية. هذا الأمر يشير إلى عدم سيطرة العملة البجائية الحمادية لفترة طويلة.[5]

وبخصوص الحالة الزيرية، يعتقد الهادي روجي إدريس أن غياب نماذج من النقود الزيرية في إفريقية قد يرجع إلى تعطيل الزحفة الهلالية لتزود البلاد بالذهب الخام من بلاد السودان، رغم أنهم سبق واستغلوا الذهب الذي

---

[1]) مصطفى نشاط: ملاحظات حول المعاهدات التجارية المغربية في العصر المريني الأول، أعمال ندوة التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، 1989، ج2، ص162-163.

[2]) ابن خلدون: المقدمة، ص324.

[3]) خالد بن رمضان: إسهام القيروان في النشاط التجاري المتوسطي من خلال النقود، ضمن أعمال الندوة الدولية: إسهامات القيروان العلمية والتقنية، المنعقدة بمركز الدراسات الإسلامية بالقيروان يومي 24–25 أفريل 2009، تنسيق: نجم الدين الهنتاتي، منشورات مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان، وحدة البحث تاريخ القيروان، تونس، 2011، ص213.

[4]) بورويبة: المرجع السابق، ص145؛ ينظر أيضا: صالح بن قربة: المرجع السابق، ص507.

[5]) فاليرين: المرجع السابق، ج1، ص288. تتميز دينار يحي بن العزيز بنقش اسمه على مركز الوجه وهو بذلك أول أمير حمادي ينقش اسمه على النقود، كما أنه ذكر اسم الخليفة العباسي على مركز الظهر، وهو مظهر من مظاهر التبعية؛ صالح بن قربة: المرجع السابق، ص513.

حصلوا عليه من التجارة البحرية والجهاد البحري في سك النقود،[1] فضلا على انخفاض عيار الدينار، خاصة وأن الفاطميين نقلوا معهم إلى مصر ثروات هامة.[2]

ولما جاءت دولة الموحّدين كان مما سنّ لهم المهدي اتخاذ سكة الدرهم مربع الشكل وأن يرسم في دائرة الدينار شكل مربع في وسطه ويملأ من أحد الجانبين تهليلا وتحميدا ومن الجانب الآخر كَتْبا في السطور باسمه واسم الخلفاء من بعده، ففعل ذلك الموحّدون وكانت سكّتهم على هذا الشكل لهذا العهد، ولقد كان المهدي فيما ينقل يُنعت قبل ظهوره بصاحب الدرهم المربع".[3]

ومما يحسن الإشارة إليه، أنه يَندر في بعض المناطق التعامل بالعملة، خاصة في مناطق انتشار البدو، إذ يتم الاعتماد على المعاوضة والتبادل، حيث يروي العبدري في رحلته أن أحد الحجاج ساوم رجلا بدويا من أهل برقة بجمل يعطيه به بكرا وزيادة دينارين، فقال له: "لا أُدخل خيمتي ما لم يدخل قط خيمة أبي ولا جدي".[4]

لقد كان عصيا علينا تحديد العلاقة بين الهلاليين وحركة الذهب، سوى ما سنحاول الإشارة إليه لاحقا حول تغير محاور الطرق التجارية بسبب تمركز القبائل الهلالية في بعض المسالك والمحطات، وعليه، لا نستبعد أن غياب المؤشرات التي تدل على رواج تجارته وسلاسة نقله في بداية الاجتياح الهلالي مردّها الهزة العنيفة التي أحدثها هذا الاجتياح، وهو ما سنحاول تبيُّنَه في العنصر الموالي الذي سيعكس لنا التأثير الهلالي في مستوى تدفق الذهب انطلاقا من وضعية الطرق والمسالك التجارية.

5- انعكاسات الحضور الهلالي على مسالك التجارة وحركة السلع

أ. الطرق التجارية

إن غياب الاعتماد على العجلة في المغرب الإسلامي خلال هذه الفترة يمكن أن يفسّر الطرق التقليدية في نقل البضائع عن طريق الجمال والخيول، وهو ما يرتبط ارتباطا شديدا بطبيعة الطرق والمسارات، حيث لا تتطلب هذه الحيوانات إلا مسارات عادية، تتأثر أحيانا بالأحوال الجوية والتضاريس، لذلك يضطر إلى تحويلها موسميا في فترات معينة بسبب الوديان أو غياب الجسور والقناطر.[5] وبالتالي فإن تخلُّف البنية التحتية والاعتماد على وسائل نقل بسيطة في بلاد المغرب، بقدر ما كان سببا في التأثير على سرعة وفعالية المبادلات التجارية -على الأقل بين المدن-، فإنه جعل من الممكن استخدام الطرق الظرفية والمؤقتة والمسالك الاجتنابية في فترات الاضطراب السياسي والظروف الطبيعية التي قد تؤدي إلى تعطل الطرق. هذا فضلا عن الظروف الطبيعية التي تخضع لها الطرق التجارية

---

1) روجي إدريس: المرجع السابق، ج2، ص149-150.

2) خالد بن رمضان: المرجع السابق، ص209.

3) ابن خلدون: المقدمة، ص324.

4) العبدري: المصدر السابق، ص204.

5) Claudette Vanacker: op cit, p662.

وبخاصة الصحراوية منها، وفي مقدمتها المياه، وهو ما يجعل تتبّعها يأخذ بعين الاعتبار خريطة التساقط في المنطقة إضافة إلى المياه الجوفية.[1]

منذ قيام الخلافة الفاطمية في بلاد المغرب، سيطرت على ثلاث طرق للتجارة البعيدة: الطريق المار بسجلماسة، وطريق ورجلة إلى نهر النيجر مرورا بتيديكلت، وفي الشرق كانت الطريق الرابطة بين بلاد الجريد وطرابلس من ناحية وغدامس والسودان من ناحية أخرى. لكن الأمويين في الأندلس تمكنوا من استعادة الإشراف على سجلماسة في القرن 04هـ/10م، وفي منتصف القرن 05هـ/11م فقد الفاطميون سيطرتهم على طريق الصحراء الشرقية الكبرى عبر الجريد وطرابلس حيث وقع في يد الزيريين، غير أن وصول الذهب إلى مصر لم يتوقف حيث استمر بطرق مختلفة ومنها قوافل الحجيج.[2] ويعتبر الطريق الصحراوي: الواحات – سنتريه (واحة سيرة) – أوجله، والطريق الآخر الذي يمر بالواحات الداخلة والكفرة نحو السودان الغربي إلى غانة وأودغشت، أقرب الطرق بين مصر وبلاد المغرب غير أنه قليل الماء، لكنه عُدِّل في القرن 04هـ/10م إلى طريق سجلماسة بسبب الرياح وانتشار قُطَّاع الطريق، فضلا عن وجود طريق آخر يربط مصر ببلاد المغرب يذكره الإدريسي، عن طريق البهنسا والذي يصل إلى سجلماسة، لكنه يتميز بصعوبته.[3]

وصل الهلاليون إلى بلاد المغرب وفي جعبتهم تجارب مهمة في السيطرة على الطرق التجارية، الأمر الذي جعلهم يتمركزون في المحاور المهمة للطرق، ويتبين ذلك من خلال العودة إلى خريطة انتشارهم ومجال تحركهم،[4] غير أن الحديث عن الأثر الذي أحدثوه على أمن الطرق وتحولاتها، ليس فقط داخل المغرب الأوسط، بل على شبكة الطرق التي ترتبط به بصفة عامة، يستدعي تتبعها تاريخيا في إطار القوى السياسية التي كانت تتنافس للسيطرة عليها، وعلى فترات الاضطراب السياسي التي عادة ما تغير خارطة الطرق والمسالك.

لا ينبغي أن نغفل على أن الفاطميين بعد انتقالهم إلى مصر عمدوا إلى محاولة جذب التجارة إليهم دون المرور بالوسيط الإفريقي، وكانت قد بدأت طرق الذهب تتحول نحو الغرب منذ نهاية القرن الرابع الهجري/العاشر ميلادي، إلى جانب الصراع الزيري الحمادي ووصول القبائل الهلالية.[5] ورغم التراجع التجاري الذي شهدته المنطقة جراء الانتقال الفاطمي وارتدادات ذلك، إلا أن قوافل سجلماسة، التي تستورد ثروات إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، بقيت تمر عبر القيروان إلى ما بعد سنة 390هـ/1000م تاريخ الرسالة التي أطلعتنا على ذلك.[6]

---

[1]) فاليرين: المرجع السابق، ج1، ص291.

[2]) أحمد السيد الصاوي: مجاعات مصر الفاطمية أسباب ونتائج، دار التضامن، بيروت، 1988، ص 193-194.

[3]) لطفي بن ميلاد: المرجع السابق، ص223.

[4]) ينظر خريطة انتشار القبائل الهلالية في المغرب الإسلامي، الملحق رقم2.

[5]) فاليرين: المرجع السابق، ج1، ص792-793.

[6]) Letters of Medieval Jewish Traders (Translated from the Arabic with introductions and notes by S. D. Goitein), Princeton University Press, USA, 1973, p28.

يعتقد فاليرين أن الطريق الشرقي وارجلان – بجاية حيث تلتقي منطقة تساقط 20 ملم شمالا وجنوبا، يجعل جزءا كبيرا من المسيرة فيه كلأ متواضع لكنه كاف للقوافل، ليمر بالعرقين الكبيرين جنوب وارجلان وعن طريق توات ثم باتجاه الجنوب نحو أدرار الإيفوغاس وحوض تلمسي (في شمال منعطف النيجر) ويصل إلى حوض النيجر. ويتميز هذا الطريق بوجود مصادر المياه، خاصة الآبار التي حفرها الإباضيون المستقرون في بعض المحاور الشمالية للطريق. وكان الطريق من وارجلان يتوصل بطرق أخرى إلى القيروان وإلى قلعة بني حماد...[1]

والطريق الصحراوي الثاني هو طريق سجلماسة، الذي أنشأه الفاطميون للالتفاف على الشبكات الإباضية في المغربين الأوسط والشرقي، لكنهم فقدوه لاحقا لصالح الأمويين في الأندلس، وكان هذا الطريق يحوز الغلبة على نظيره الأول خاصة عندما كان تحت سلطة الأمويين مما جعل بعض الباحثين يعتقدون أن الذهب لم يعد يصل إلى إفريقية نهاية القرن العاشر وخلال القرن الحادي عشر كمحاولة لتفسير الأزمة التي عرفتها البلاد عشية الدخول الهلالي.[2] لكن طريق وارجلان استمر في الخدمة حسبما حيث يذكر الإدريسي عند حديثه عن وارجلان: "فيها قبائل مياسير وتجار أغنياء يتجولون في بلاد السودان إلى بلاد غانة وبلاد ونقارة، فيخرجون منها التبر ويضربونه في بلادهم باسم بلدهم، وهم وهبية إباضية نكار خوارج في دين الإسلام".[3]

كان من انعكاسات تخريب القيروان تفكك شبكة الطرق التي كانت هذه الحاضرة محورا مهما لها، وبالتالي أصبحت الشبكة التي قدّمها الإدريسي قبل ذلك مختلفة لاحقا. ومن ذلك طريق سجلماسة – تاهرت، الذي تراجع بعد الغزو الهلالي، فضلا عن تأثر مقاطع القيروان – سجلماسة، وازدهار طريق تلمسان — سجلماسة التي تمر عبر فاس لاحقا.[4]

وبالمقابل، شهد الطريق الساحلي "الجادة" –وفقا لنصوص البكري التي استند إليها بن ميلاد– رواجا وإقبالا من طرف التجار على اتخاذه مسلكا من مصر إلى غاية فاس، حيث يعتبره أكثر الطرق أمنا وراحة لقوافل التجار والمسافرين التي تسير عبره ليلا ونهارا، لأنه طريق عامر ومدنه متصلة.[5] خاصة وأن المد الهلالي لم يكن قويا في المحاور التي يمر عبرها هذا الطريق، بخلاف انتشارهم على محاور المسالك الشرقية جهات قسنطينة.

أصبح الرحالة والتجار يُفضِّلون المرور بالطريق الساحلي تفاديا لغارات العرب وغياب الأمن في الطريق، فالعبدري (ت720هـ/1320م) مثلا وخلال عودته من الشرق سلك الطريق الساحلي.[6] لكن هذا لا يعني أن

---

1) فاليرين: المرجع السابق، ج1 ، ص292-294.
2) نفسه، ج1، ص295.
3) الإدريسي: المصدر السابق، ص296.
4) Claudette Vanacker, op cit, p668-669.
5) لطفي بن ميلاد: المرجع السابق، ص222.
6) العبدري: المصدر السابق، ص140 وما بعدها.

الرحالة قبل الهجرة الهلالية لم يسلكوا ذات الطريق، فابن حوقل مثلا الذي بدأ رحلته انطلاقا من العراق سنة 331هـ/943م ومرّ إلى بلاد المغرب عبر طريقها الساحلي.[1]

ومع ذلك، فقد كان لغياب الأمن في الطريق البرّي (خاصة مقطع الصحراء الليبية) الرابط بين المناطق الساحلية للمغرب الأوسط كبجاية من جهة ومصر من جهة ثانية أثَرٌ بالغ الأهمية على التوجه نحو النقل البحري.[2] حيث يصف الإدريسي الطريق الرابط بين قابس وطرابلس في كل منازله بأنه: "خلاء بلقع قد أتت العرب على عمارتها وطمست آثارها وأخربت عشارها وأفنت خيراتها، فليس بها الآن أنيس قاطن ولا حليف ساكن، وهي مستباحة لقبيلة من العرب تسمى مرداس ورياح".[3]

يذكر ابن سعيد المغربي الذي عاش في القرن السابع الهجري (13م) أن واركلان بلاد نخل وعبيد، حيث تعدّ محطة أساسية لدخول العبيد إلى المغرب الأوسط وإفريقية، كما أنها منطلق الكثير من القوافل التجارية نحو بلاد السودان.[4] وهذا دليل على أن الطريق الصحراوي المار عبر وارجلان بقي نشطا رغم الانتشار الهلالي ووجود إشارات تكشف انتشار اللصوصية والإغارة عليه.[5] وكان الإدريسي قبل ذلك قد أشار إلى غنى قبائل وارجلان وثراء تجارها،[6] ومن غير المستبعد حسب فاليرين أن يكون محور وارجلان – بجاية قد شهد ازدهارا تجاريا بفعل الاضطرابات التي عرفتها إفريقية الشرقية في نهاية الأسرة الزيرية. ومع ذلك من المحتمل أن المرابطين سيطروا على الجزء الأكبر من مصادر الذهب ولم يتركوا للحماديين إلا الجزء اليسير.[7]

بالموازاة مع التنافس بين الدولة الزيرية والحمادية ودخولهما في صراع مع بقايا القبائل الزناتية وظهور المرابطين، برز محور تجاري جديد يربط غانة بقرطبة مرورا بأودغشت وسجلماسة ومراكش وفاس، على حساب المحور الأفقي الرابط بين حواضر المغرب: برقة، طرابلس، القيروان، المسيلة، تيهرت، تلمسان، فاس، قرطبة، وهو المحور الذي تعرض للتجزء. وبالتالي فإن التأثير الهلالي على الطرق التجارية كان جزئيا.[8] وبعد السيطرة المرابطية على الأجزاء الغربية من بلاد المغرب، أصبحت سجلماسة تحت الحكم المرابطي حيث عرفت ازدهارا كبيرا.[9]

نجح المرابطون في السيطرة على المسلك الغربي للتجارة الصحراوية، بعد أن وحَّدُوا القبائل الصنهاجية وسيطروا على درعة وسجلماسة إحدى أهم محاور هذا الطريق سنة 646هـ/1054م، ونجاحهم في إبعاد قبيلة

---

1) ابن حوقل: المصدر السابق، ص64 وما بعدها.
2) فاليرين: المرجع السابق، ج1، ص235.
3) الإدريسي: المصدر السابق، ص297.
4) ابن سعيد: المصدر السابق، ص126.
5) الدرجيني: المصدر السابق، ج2، ص462.
6) الإدريسي: المصدر السابق، ص296.
7) فاليرين: المرجع السابق، ج1، ص296.
8) فوزية كرراز: السيطرة الاقتصادية الهلالية بالمغرب الإسلامي، دورية كان التاريخية، ع12، جوان 2011، ص53.
9) فاليرين: المرجع السابق، ج1، ص296.

مغراوة، وقد زادت حيوية وأهمية هذا الطريق بسبب تراجع المسلك الشرقي والأوسط بسبب الاضطراب السياسي وتأثيرات الهجرة الهلالية.[1] حيث أدى الغزو الهلالي إلى تعطيل محورين تجاريين صحراويين هامين، واحد يمر بواحة أوجلة والآخر بواحة غدامس مما أثّر على حجم تدفق الذهب إلى بعض جهات بلاد المغرب.[2]

خلال توجه عبد المؤمن من سلا إلى بجاية سنة 547هـ/1152م وعندما همّ بفتحها، راسل عامله على تلمسان "ابن وانودين" يطلب منه منع سفر التجار من تلمسان إلى إفريقية برا وبحرا، حتى لا ينقلوا خبر استعداداته للحملة.[3] وأمر بمنع السفر من سلا إلى مكناسة ومن مكناسة إلى فاس، ومن تلمسان إلى فاس أيضا، كما حاول المرور عبر مسالك غير شائعة، حتى وصل إلى بجاية، أين فرّ يحيى بن العزيز، ثم سار الخليفة إلى سطيف.[4] وهذا يدل على أن التجار كانوا يسلكون الطريقين البري والساحلي بين تلمسان وإفريقية.

ببسط الموحدين لنفوذهم على مجالات المغارب وسيطرتهم على سجلماسة سنة 540هـ/1145م ازدهرت أكثر تجارة الذهب وبدأ التوازن والازدهار يعود إلى الموانئ الإفريقية، لكن مع تفوق واضح وأهمية أكبر للمحور الغربي.[5] وقد أسفر إحكام الموحدين لقبضتهم على الشؤون الأمنية على انصياع القبائل الهلالية المتواجدة على محاور الطرق الصحراوية، حيث يذكر ابن خلدون عن وضع الهلاليين في بلاد المغرب وعلاقتهم بالتجار والمسافرين، في معرض حديثه عن المعقل: "ولم يكن هؤلاء العرب يستبيحون من أطراف المغرب وتلوله حمى، ولا يعرضون لسابلة سجلماسة ولا غيرها من بلاد السودان بأذية ولا مكروه لما كان بالمغرب من اعتزازا الدين وسدّ الثغور وكثرة الحامية أيام الموحّدين وزناتة بعدهم، وكان لهم بإزاء ذلك إقطاع من الدول يمدون إلى أخذه اليد السفلى".[6]

لا يستبعد حدوث خلل في الطريق البري الرابط بين إفريقية والمغرب الأوسط خلال سيطرة الغانيين على إفريقية وما جاورها، فقد أدّى تقلّب الغانيين في المناطق ذات الإنتاج الزراعي المهم في المغرب الأوسط كالجزائر

[1]) عز الدين عقيبي: صفحات من صراع الدول بالمغرب الإسلامي من أجل السيطرة على مسالك الاتصالات التجارية الصحراوية، مجلة علوم الإنسان والمجتمع، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة بسكرة، ع21، ديسمبر 2016، ص378.

[2]) لويس أرشيبالد: المرجع السابق، ص385؛ وفي المقابل يثني الحاج عبد الله بن الصباح المدجن (من أهل القرن 8هـ وأوائل القرن9هـ/14-15م) على العرب المستقرين في الطريق بين طرابلس والإسكندرية من آل عدنان وحمير يكرمون المارة، بالقول: "وهم أقوام بادية يكرمون الضيف ويطعمون المسكين ويعطون الزاد للمسافرين من وطن إلى وطن"؛ أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار رحلة المدجن الحاج عبد الله بن الصباح، النصف الثاني من القرن الثامن الهجري، تحقيق: محمد بنشريفة، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ط1، الرباط، 2008م، ص105.

[3]) ابن عذارى: المصدر السابق، ج3، ص129.

[4]) البيذق: المصدر السابق، ص74؛ يشير روجي إدريس إلى اختلاف المصادر في تحديد مكان انطلاق عبد المؤمن بين سلا وسبتة؛ المرجع السابق، ج1، ص427؛ ولعل السرية التي أحاط بها حملته وغموض وجهتها هي التي أدت إلى هذا الاختلاف.

[5]) فاليرين: المرجع السابق، ج1، ص297.

[6]) ابن خلدون: العبر، ج6، ص78.

ومليانة وأشير والقلعة وبجاية وقسنطينة، إلى اضطراب اقتصادي، خاصة وأنهم قاموا باستباحتها وأقروا المغارم على السّكان وأخذوا أموالهم وصادروا ممتلكاتهم.[1]

وتشير رسالة موحدية إلى عودة النشاط لقفصة تحديدا بعد القضاء على الغانيين والغزيين فيها: "...وكثرت الأقوات والمرافق بسَبق السابق وجلب الجالب، ولم يعدم الموحّدون –أعزّهم الله– عيشة واسعة، وخيرات متتابعة، وأحوالا ناظمة لكل خير جامعة ..."[2] وهو ما يؤشر على أن المنطقة شهدت في الفترة السابقة جملة من الصعوبات.

لم ينجح الموحدون في الحفاظ على حيوية التجارة الصحراوية كما كان في عهد المرابطين، لأسباب متعددة، منها العداء بين الموحدين وملوك السودان، عندما شجعوا تجارهم على التغلغل شمالا للوصول إلى مناجم الملح في تاغزة[3] ووصلوا إلى جنوب المغرب الأقصى، مما أسهم في منافستهم لوساطة تجار المغرب الإسلامي، خاصة وأن الحكومة الغانية قامت بالتضييق على نشاط التجار المغاربة في أسواقها.[4] وإلى جانب ذلك، كان غياب الأمن في بعض محاور الطريق الصحراوي بين سجلماسة وغانة سببا في تراجع حيويته، لذلك تحولت التجارة مع بلاد السودان من الطريق الغربي المحاذي للأطلسي إلى وسط الصحراء، باتجاه وركلان إلى سجلماسة وبلاد السودان.[5]

يحمّل محمد حسن الموحدين مسؤولية فشلهم في تكوين شبكة طرقات متينة، ويرجع ذلك إلى موقع العاصمة الموحدية التي كانت في الطرف الغربي من بلاد المغرب، وتأثير حركات المعارضة التي نشطت خلال عهدهم كالغانيين، مما كرّس القطيعة بين الجزء الشرقي والغربي من مجال الدولة الموحدية،[6] وبسقوطها تجدد الصراع والمنافسة من أجل التحكم في الطرق والمسالك الصحراوية.[7]

كان للمنبات من عرب المعقل بسجلماسة دور في إلحاق هذه المدينة المحورية في شبكة طرق التجارة الصحراوية بالسلطة الزيانية، حينما سيطروا عليها سنة 662هـ/1264م وقتلوا عاملها علي بن عمر، وآثروا

---

[1]) مجموع رسائل موحدية، الرسالة 29، ص172؛ والرسالة مؤرخة في 05 ربيع الثاني 581هـ. والأمر نفسه ينطبق على جهات قابس حيث أحدث الغزيون والميورقيون أضرارا بالغة بزراعتها، وقاموا بقطع الطرق وممارسة الحرابة وتعطيل حركة التجارة؛ مجموع رسائل موحدية، الرسالة 30، ص183-184؛ للاطلاع على تفاصيل المسالك الداخلية والخارجية لإقليم الزاب بين القرنين 03-09هـ /09-15م ودورها في النشاط التجاري، ينظر: الصادق زياني: المرجع السابق، ص ص164-236.

[2]) مجموع رسائل موحدية، الرسالة 32، 203.

[3]) مدينة تغزة أو تغازي Taghaza تقع في عمق صحراء شمال غرب إفريقيا، وتعد المصدر الرئيسي للملح في العصر الوسيط؛ "وبين قرية تغزة وتمبكتو ودرعة مسيرة عشرين يوما"؛ الوزان: المصدر السابق، ج02، ص107-108.

[4]) عقيبي: المرجع السابق، ص379؛ كانت العلاقات السياسية بين الدولة الموحدية والممالك النصرانية الإسبانية، والفاطميين والأيوبيين في بعض الفترات متوترة مما أثر على التبادلات التجارية بينها؛ عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص263؛ أحمد موسى: المرجع السابق، ص274.

[5]) عقيبي: المرجع السابق، ص380.

[6]) محمد حسن: المدينة والبادية، المرجع السابق، ج1، ص37.

[7]) فاليرين: المرجع السابق، ج1، ص297.

الزيانيين عليها، قبل أن يسترجعها المرينيون سنة 673هـ/1275م.[1] وعلى الرغم من قصر المدة التي أدار فيها الزيانيون المدينة إلا أن الخطوة في حد ذاتها شكلت تحديا مهما في مجال المنافسة على الطرق التجارية الكبرى وهي التي تدر مردودا جبائيا مهما.

استمرت ظاهرة قطع الطرق خلال العهد الزياني، وزاد تسلط الهلاليين على الطرق التجارية، وبضعف الدولة الزيانية امتد النفوذ الهلالي إلى التلول، ومع نهاية عهد الزيانيين غدت عديد مجالات المغرب الأوسط وطرقها تحت رحمة القبائل العربية، فتضرر من هذا الوضع التجار والحجاج الذين كانت العرب تعترضهم.[2]

وفي المقابل، يرافع بعض الباحثين كجاك بيرك على الدور الإيجابي للقبائل الهلالية في المنطقة، من خلال تأكيده على أن الارتحال البدوي الهلالي كان سببا رئيسا ودافعا مهما في تنشيط الحركة التجارية وخلق اقتصاد بدوي قائم على تبادل المنافع، بحكم أنهم أسهموا في تموين المدن بالحاجات الضرورية.[3]

وفي الأخير ينبغي الإشارة إلى أن الكثير من النصوص النوازلية ربطت بين وصول الهلاليين إلى بلاد المغرب وانتشار ظاهرة اللاأمن في الطرق، وهو ما تفاعلت معه المنظومة الفقهية، حيث أفتى بعض الفقهاء بإسقاط إجبارية الحج، والسماح للحجاج بركوب البحر على مراكب الكفار.[4]

ب. تكاليف النقل التجاري

لم تكبح القبائل العربية تنقل المسافرين والبضائع عبر الطرق البرية كليا، إنما زادت في تكاليف النقل إضافة إلى ما كانت تفرضه الدولة، ومع أن فاليرين لا ينفي إحداثها لاضطراب على الطرق خاصة في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، لكنه يشير إلى أن التوازن سرعان ما عاد وإن كانت بعض الطرق قد عانت بصفة دائمة كالطريق الذي يربط إفريقية بمصر.[5]

وفي المقابل، تكفّل العرب بتأمين الطرق الرابطة بين المدن، لكن كلفة ذلك كانت باهضة، لأن الانتقال بين مدينة وأخرى دون إشراف القبيلة على الطرق كان خطيرا، مع أن التنقل بين المدن أصبح نادرا.[6] وقد أشرنا إلى انخراط العرب الهلالية في تخفير القوافل في عنصر خاص ضمن الفصل الثاني.

ينعكس هذا الوضع حتما على أسعار السلع، وبالتالي على القدرة الشرائية وعلى هامش ربح التجار سواء في التجارة الداخلية أو الخارجية، وهو ما يكون عاملا يقلّص من تحفيزية العمل التجاري ويدفع نحو الركود والكساد الاقتصادي.

---

[1]) ابن خلدون: العبر، ج7، ص114.

[2]) الزرهوني: المصدر السابق، ص112؛ أمين كرطالي: سلطة شيوخ القبائل العربية، المرجع السابق، ص ص70-72.

[3]) إيناس عكه: المرجع السابق، ص119.

[4]) الونشريسي: المصدر السابق، ج1، ص432-433؛ فاليرين: المرجع السابق، ج1، ص233.

[5]) نفسه، ج1، ص236.

[6]) جورج مارسيه: المرجع السابق، ص245.

ج. كميات السلع المشحونة

أصبح المرتحلون والتجار يضطرون إلى تخفيف أثقالهم وتجنب نقل متاع وسلع كثيرة مما يتيح لهم سرعة التنقل وهو ما يقلل من خطر غارات العرب، وإن كانت رحلة ابن بطوطة[1] التي أشارت لتخلصه من بعض متاعه متأخرة عن الإطار الزماني لدراستنا إلا أننا نعتقد أنه كإجراء كان معمولا به منذ فترات سابقة. ومع أنه لم يشر إلى أن التجار التونسيين الذين كانوا برفقته قاموا بذات الإجراء، إلا أننا نرجح أنهم بخبرتهم لم يثقلوا قافلتهم منذ البداية، لأنهم يسيرون في موكب وتعطل أحدهم يعني بالضرورة تأخر الجميع، ولا نرى أن سبب التخفيف بالنسبة لابن بطوطة متعلق فقط بالوعكة الصحية التي انتابته وهو في مدينة بجاية، خاصة وأن المجال الممتد بين بجاية وقسنطينة خلال هذه المرحلة كان معروفا بانتشار العرب.

ينعكس حجم السلع التي تنقلها القافلة بالضرورة على أسعارها، فكلما كانت الكمية كبيرة في الرحلة الواحدة، كلما كانت الأسعار في مستويات مقبولة، وكلما كانت الكمية قليلة في الرحلة فإن ذلك ينعكس حتما على الأسعار.

د. شبكة التجار اليهود[2]

على الرغم من أن المعطيات التاريخية حول العلاقة بين اليهود والهلاليين والسليميين في شبه الجزيرة غير متاحة، مما يجعل من الإقرار بأن اليهود الذين يشكلون جزءا من تجارة المغرب الأوسط وإفريقية على دراية بالممارسات الهلالية البدوية التي قد تحدّ من تجارتهم وتؤثر على شبكتهم التجارية، على اعتبار أن المعلومة الاقتصادية كانت تنتقل بطريقة مستمرة ودقيق بين المجموعات الهلالية العاملة ضمن شبكات التجارة.

عاش اليهود في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، وتركزوا أكثر في حمير جنوبا والحجاز شمالا، منتظمين في قبائل وكانوا في اتصال دائم بالمجتمع العربي، وتعيش القبائل اليهودية على الزراعة والحرف، ففي المدينة (يثرب) اشتهر بنو القينقاع بصياغة الذهب، وعاش بنو النضير وبني قريضة على الزراعة وتجارة البهارات.[3] ولا شك أن

---

[1]) المصدر السابق، ص16.

[2]) التواجد اليهودي في بلاد المغرب يعود إلى العصور القديمة، وقد اعتنقت بعض القبائل البربرية الديانة اليهودية؛ وقد صدر مؤخرا كتاب مهم حول اليهود في شمال إفريقيا خلال الفترة الرومانية:

Yann Le Bohec, Les Juifs dans l'Afrique romaine, Éditions Memoring, Aquitaine – France, 2021, (120p)

شهد عدد اليهود في المغرب الإسلامي عامة والأوسط بصفة خاصة تزايدا خلال الفترة الموحّدية ودويلات ما بعد الموحدين بسبب الاضطهاد المسيحي في شبه جزيرة إيبيريا؛ وتكمن أهمية الحضور اليهودي في كونهم جلبوا معهم رؤوس أموال مهمة فضلا عن نقل جزء من تجارتهم إلى بلاد المغرب، وقد نشطوا في التجارة الداخلية كما الخارجية.

[3]) Menahem Ben-Sasson: "Histoire des juifs sous la domination musulmane, VIIe-XVIe siècles", in Shmuel Trigano, ed., Le monde sépharade, vol.1, Éditions du Seuil, Paris, 2006, p33. 37.

إسرائيل ولفنسون: تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1927، ص19.

بعض بطون السليميين كانت أكثر قربا واحتكاكا بيهود خيبر، إذ يقول المقريزي: "... وكانت في عالية نجد بالقرب من خيبر ومنها حرّة بني سليم".[1]

تتبّع الفخراني حضور اليهود ضمن نص التغريبة، وبالرغم من إقراره بأن جاذبية التغريبة هي ثراؤها الأدبي لا مرجعيتها التاريخية، إلا أنه يحاول تقديم بعض التفسيرات للأحداث التي تضمنتها التغريبة والتصورات التي تعكسها، فيما تعلق بعلاقة الهلاليين باليهود، ويذكر الصراع بين "الهلايل" ويهود خيبر، كما يشير إلى إغارات بعض الهلاليين في طريقهم بين العراق والشام على بساتين ومزارع بعض اليهود.[2]

شكّل اليهود عنصرا مهما في تجارة المغرب الأوسط، وبفضل شبكتهم التجارية الواسعة الممتدة على البحر المتوسط، كان لهم دور مهم في تنشيط التجارة الداخلية والخارجية، واشتغالهم بتجارة الوساطة، وتسمح وثائق الجنيزة بالكشف عن مدى دورهم في تجارة العصور الوسطى.

وضمن وثائق الجنيزة، تشير رسالة تاجر يهودي مؤرخة سنة 390هـ/1000م أرسلها من تونس إلى القاهرة، إلى أن التجار يرون بالإجماع أن بيع الحرير[3] في القيروان أفضل من الفسطاط: "هنا (الجنيه) يبيع 2/11 دينار من وزن القيروان القياسي" Here (a pound) sells for 11/2 dinars of Qayrawan standard weight.[4] وبالتالي فقد شهدت الفترة السابقة للغزو الهلالي حيوية لأسواق المغرب بصفة عامة، باعتبار القيروان -التي تتميز بجاذبيتها وتحوز مؤهلات تطوير ثقافة سياسية وحضرية- محطة تجارية توزع من خلالها السلع لمناطق أخرى، وبفضل الشبكة التجارية لليهود، كانت بعض المعاملات التجارية الخارجية بين الأندلس ومصر تتم عن طريق بلاد المغرب، وتمر عبر تجارها.[5]

يشير برونشفيك إلى أن اليهود في بلاد المغرب قد تضرروا جراء الزحفة الهلالية،[6] خاصة وأن الهلاليين تسببوا في خراب عديد حواضر المغرب، وهي التي كانت مراكز للنخب التجارية اليهودية، فلا غرابة في تراجع حضورهم ودورهم في التجارة.

---

[1]) المقريزي: البيان والإعراب، ص66.

[2]) كان آل عبدون بني هلال على اليهودية قبل إسلامهم؛ فرج قدري الفخراني: مواجهة اليهود في تغريبة بني هلال وفق النص المدون للهلالية (جمع الأبنودي)، مجلة رسالة المشرق، مركز الدراسات الشرقية، جامعة القاهرة، مج34، ع2، 2019، ص ص41 – 43.

من المهم التأكد من ظروف وزمانية تدوين سيرة الابوندي التي اشتغل على نصها الفخراني، ذلك أنها تقدم معطيات سياسية راهنية يحتمل أنها وليدة روايات وإضافات متأخرة.

[3]) تضمنت رسالة مؤرخة في 10 جويلية 1138م من إسحاق ابن باروخ Ishaq (Isaac) Ibn Baruch بألمرية إلى أبو سعيد خلفون المتواجد حينها بتلمسان أسعار الحرير، ولم ترد أسعار سلع أخرى، حيث تبين اختلاف السعر حسب نوعية الحرير (الحرير من الدرجة الأولى بين 04 و06 مثقال، والحرير الخشن بين 3، 2، 2/1)؛S. D. Goitein : Op.cit, p262-263؛ غير أن التاجر أبو سعيد ولكونه غير مستقر نهائيا في تلمسان فإن ما ورد في الرسالة لا يسعفنا جيدا في إعطاء صورة عن التجارة الخارجية والمبادلات في البحر المتوسط.

[4]) Ibid p30.

[5]) Ibid, P50.

[6]) روبير برونشفيك: المرجع السابق، ج1، ص430.

وفضلا عن التأثير الهلالي على النشاط التجاري لليهود في المغرب الأوسط، فإن علاقة التجار اليهود بسلط المغرب الإسلامي تحكمت فيها عدة اعتبارات، أهمها أنهم لم يكونوا مواطنين كاملين لأية دولة، فلم يكونوا تبعا لذلك غرباء جدا، وحسب روبرت لوبيز[1] فإن اليهود وحتى قبل الحروب الصليبية كانوا غير مقبولين كلية داخل المجتمع الإسلامي، وأقل من ذلك داخل المجتمع المسيحي، ففي أحسن الأحوال تمتع اليهود بسياسة التسامح الديني.

تعرض اليهود أحيانا للاضطهاد من الموحدين، إذ يذكر تاجر يهودي كتب رسالة من فاس وذكر في ثناياها أن كراهية اليهود منشرة في البلد[2] والأكيد أنه كان يقصد التضييق الموحدي على اليهود واضطهادهم كما يقول برونشفيك.[3] وانعكس ذلك على وضعهم في التراتب الاجتماعي، حيث تقهقرت وضعية بعضهم إلى أن أصبحوا بنّائين، بعد أن كان كثير منهم من أصحاب المال والتجارة.[4]

وعليه، فرغم أن تراجع الدور اليهودي لا يمكن تعليقه على الغزو الهلالي فقط، لكن الأكيد أن له دورا مهما في التأثير على شبكتهم التجارية وبالتالي الحد من فعاليتها مما انعكس على حجم الحركة التجارية، ونعتقد أن اليهود قد أدركوا الصعوبات التي ستلحق بتجارتهم في المنطقة منذ دخول الهلاليين بحكم سابق المعرفة –المفترضة– ليهود شبه الجزيرة العربية والشام ومصر بالبدو العرب، حتى وإن لم تكن معرفة مباشرة بل عن طريق التواصل الذي مكّنت له هذه الشبكة المتغلغلة في جل المحطات والمراكز التجارية.

تماشيا والطرح السابق، نخلص إلى أن الحضور الهلالي في المغرب الأوسط قد أحدث تأثيرات مختلفة الحدة على التجارة والحرف، حيث انعكست نظرة الهلاليين للممارسة الحرفية وحاجتهم المحدودة لمنتجاتها على هذا القطاع، وهو ما تعكسه الحرف الرائجة ومستواها الفني، لأن توسع حياة البداوة في المغرب الأوسط كرّس البساطة الحرفية والنزوع نحو الضروري منها، فضلا عن تأثر وضع المواد الأولية بالانتشار الهلالي الذي حدَّ من استغلالها ونقلها وبالتالي إتاحتها للصناع والحرفيين.

عرف المغرب الأوسط جملة من التحولات التي ظهرت على تجارته بقدوم الهلاليين، والتي يمكن تتبعها من خلال مستوى التبادل التجاري ومدى توفر السلع التي ترتبط أساسا بمردود الإنتاج الفلاحي والحرفي، ثم من خلال المعاملات التجارية بين البدو والمستقرين التي كانت بمثابة القنوات المهمة للتواصل بين الطرفين تحقيقا لتبادل يفرضه

---

[1]) ثورة العصور الوسطى التجارية 950-1350، ترجمة وتقديم: محمود أحمد أبو صوة، منشوراتELGA، فاليتا، مالطا، 1997م، ص84.

[2]) letters of medieval, Op.cit, P55.

[3]) روبير برونشفيك: المرجع السابق، ج1، ص430.

[4]) Menahem Ben-Sasson: "La persécution almohade: mythes et histoire", in Shmuel Trigano, ed., Le monde sépharade, vol. 1 Éditions du Seuil, Paris, 2006, p130-132.

تنوع المعاش ونمط الحياة حتى لا نقول تقسيم العمل الذي لم يرق إليه الوضع الاقتصادي بعد، مع أن هذه العلاقة على أهميتها طرحت جملة من الصعوبات والإشكاليات الاقتصادية.

على الرغم من أن الجدل حول الأسباب التي دفعت الحماديين نحو الساحل لم يُحسم، ومع أننا لا ننفي دور وحضور العامل الهلالي في هذا التوجه، إلا أننا ننتهي إلى أهمية هذا الخيار في محاولة الانخراط –وإن كانت متأخرة– في التجارة المتوسطية التي كانت تؤسس لتنافسية وحضور أوسع يتجاوز المجال المتوسطي، بل ويتجاوز أيضا الرهان التجاري. ومن خلال البحث في المؤثر الهلالي على طبيعة وحجم التجارة يتبيّن ازدهار تجارة المنتجات الرعوية والتي كان جزء منها يصدر خارج المغرب الأوسط، وبالتالي فإن التوجه البحري الذي أشرنا إليه سالفا كان له انعكاس على حركة السلع البدوية، لكن تصديرها كمواد خام بفعل انعكاس وضع البداوة على تطور الآلة الحرفية حرم الدولة من القيمة المضافة التي يمكن تحقيقها.

لقد كان التأثير الهلالي في تجارة المغرب الأوسط على مستويات عدة وبطرق مباشرة وأخرى غير مباشرة، وذلك من خلال التحولات التي شهدتها التجارة الداخلية والخارجية، وطبيعة المسالك والمحاور التجارية التي تعطّل بعضها وانعكست الحاجة الملحّة لتأمينها على تكاليف النقل التجاري التي شهدت ارتفاعا، كما تضاءلت كميات السلع المشحونة، ناهيك عن التأثير على شبكة التجار اليهود التي شهدت تراجعا وانكماشا، مما انعكس على المستوى العام للتجارة في المغرب الأوسط، باستثناء بعض فترات الانتعاش التجاري التي ارتبطت غالبا بالوضع السياسي خلال فترات قوة الدولة الموحدية.

خاتمة

استنادا إلى المعطيات التاريخية التي وردت في متن هذه الدراسة، لا نبالغ حينما نعتبر أن الحضور الهلالي في المغرب الأوسط اتخذ طابع الظاهرة، نظرا للتَّأثير الواسع الذي أحدثه في مختلف أوجه الحياة الاقتصادية، وحتى تكون النتائج التي توصّل إليها هذا البحث -الذي اقتفى التأثير الهلالي في الزراعة والحرف والتجارة بالمغرب الأوسط بين القرنين 07 و09هـ/11-13م- مركّزة، نوردها كالآتي:

* تأتي الأبعاد الاقتصادية في مقدمة الدوافع التي أدّت إلى الانتقال الهلالي للمغرب الإسلامي، ذلك أن المجموعات الهلالية المتناحرة لم تكن تملك مشروعا سياسيا حقيقيا تجتمع عليه، وكان طبع البداوة الغالب عليها يدفع بها للبحث عن ظروف معيشية أفضل لها ولمواشيها، خاصة وأن ظهير التَّملُّك الذي وهبه لهم الفاطميون فصّل في مناطق إقطاعهم، التي أرادوا أن يتصرّفوا فيها منذ بداية عهدهم بالمنطقة على أنها خالصة لهم، خاصة أنها مناطق زراعية خصبة تتخللها شبكة هيدروغرافية مهمة ونطاقات رعوية شاسعة وفيها القرى والمدن العامرة، فكانت فرصة لإشباع نزواتهم المكبوتة ورغباتهم المكبوحة طيلة عقود من الحجر الإقامي في صعيد مصر، والتي يبدو أنها ولّدت ضغطا نفسيا لدى الهلالي الذي انكمشت الكثير من وظائفه البدوية، فكان انطلاقه غربا بمثابة التَّحرر من القيود التي فرضت عليه، والتي تتنافى ومبدأ الحياة البدوية، القائمة على حرية الانتقال والانتجاع والغزو، مما جعلنا نفسّر جانبا من بعض السلوكات العدوانية التي أظهرها الهلاليون تجاه الإنسان والطبيعة خلال رحلتهم وأثناء سيطرتهم على المجالات بماضيهم النفسي المركّب ناهيك عن الدوافع المتأصّلة في الشخصية البدوية.

رغم غياب معطيات صريحة عن خلفيات تحديد المواقع التي تضمنها ظهير التملك، إلا أن وجودها ضمن نطاقات زراعة الحبوب وغراسة الزيتون في المغرب الأوسط وإفريقية في وقت شهدت فيه مصر بوادر أزمة اقتصادية وما رافقها من انعكاسات للقطيعة الزيرية الفاطمية، فإننا نرجّح أن الغرض هو الرغبة في تعويض المنتج الصنهاجي بالمنتج الهلالي لضمان تدفُّق حبوب وزيت إفريقية إلى القاهرة، غير أن البداوة العميقة وأسبقية انخراط العرب الهلالية في اقتصاد المغازي على اقتصاد الفلح، الذي ظهرت ممارسات الهلالية له بعد معركة سطيف سنة (548هـ/1153م) وموقعة القرن سنة (556هـ/1160م)، قد حالت دون تحقيق المنظور الاقتصادي الكامن في خلفيات الظهير.

* انخرط الهلاليون في اقتصاد المغازي، بما يتوافق وطبيعتهم المغرقة في البداوة من جهة وتطورات الوضع السياسي حين ولوجهم إفريقية والمغرب الأوسط في علاقتهم بالقوى السياسية والقبلية، وبالتالي فإن هذه الأخيرة مهّدت وحفّزت العرب الهلالية على الاندماج من خلال هذا النوع من المعاش، القائم على الغنائم والخفارة وقبض الرواتب مقابل المشاركة في العمليات العسكرية والتجييش ناهيك عن الإقطاع والقبالات والمكوس والمغارم.

وانطلاقا من ذلك، فإن الإرادة السياسية للدول قد أسهمت في تنشيط دور العرب الهلالية في نمط اقتصاد المغازي، بما يسمح لها بالتحكم الظرفي والجزئي في القبائل البدوية، وإن كان هناك نوع من التباين والاختلاف في سياسة الدول معهم، خاصة في مسألة إطلاق اليد.

* حجم النشاط الإغاري وعمليات التخريب الهلالي للاقتصاد في المغرب الأوسط عشية دخولهم للمنطقة يفسّر بعدة أسباب ويرتبط بعدة ظروف، منها ما تعلق بالهلاليين أنفسهم، ومنها ما يُدرج في خانة المحفّز والدافع، ويمكن قراءة عمليات التخريب بعد الدافع الاقتصادي وظهير التملك الذي أشعرهم بأحقيتهم في الأرض، ضمن استحضار الوضع السياسي الذي تميز بتهلهل الكيانات السياسية في المنطقة ومدى قدرتها على الصمود أمام المد الهلالي الذي استغل التنافس والصراع بين الصنهاجيين. فضلا عن الثغرة الديمغرافية التي شهدها المغرب الأوسط، والتي أثّرت في طبيعة وتركيبة عصبياته القبلية، على إثر انتقال جزء من كتامة إلى القاهرة رفقة الفاطميين، وحروب الإنهاك التي قادها الحماديون ضد الزناتيين، الأمر الذي سهّل على الهلاليين مدّ نفوذهم، ويبدو أن التصورات عن أعدادهم الكبيرة كان منظورا إليها من خلال طريقة انتشارهم وشراهتهم في حيازة المجالات وانتصاراتهم العسكرية التي رافقت تقدمهم، وليس بالنظر حتما إلى تعدادهم الديمغرافي الذي يصعب تقديره. وبالمحصلة، فالخراب الهلالي الذي عرفه المغرب الأوسط بُعيد معركة سبيبة 457هـ/1065م ليس خرابا واحدا، ولم يكن بنفس الوتيرة والقوة والتأثير الذي طبع إفريقية، والاختلاف في تلقي الصّدمة له ما يبرره على مستويات عدّة.

* التأثير الهلالي على الزراعة والحرف والتجارة مرتبط بالظاهرة الهلالية في سياقها التاريخي، ذلك أن سلوك الهلاليين بعد الانتقال ليس سلوكا ثابتا، ما يتطلب التمييز بين مراحل حضورهم دون عزلها عن الوضع السياسي القائم، ولا يكون بعيدا عن استحضار خصائص عالم البداوة الذي يدور في فلكه الهلاليون، خاصة وأن وضع البداوة أو بالأحرى ثنائية بدو–حضر ليس بالمستجد على المغرب الأوسط، لكن الأمر هنا متعلق بطغيان واجتياح البداوة للعالم المستقر وشبه المستقر. ثم إن غياب ثقافة بيئية بالمجالات الزراعية الرعوية المختلطة لدى الجماعات الهلالية، أفرز فشلا على مستوى الاندماج، يمكن ملاحظته من خلال عدم القدرة على التكيّف مع البيئة الفلاحية لإفريقية والمغرب الأوسط خاصة في المرحلة الأولى (من دخول الهلاليين إلى موقعة سطيف 548هـ/1153م)، حيث تكشف خريطة انتشار الهلاليين اكتساحهم لمناطق التل والسهول التي تتميز بانتشار الزراعات، مما انعكس على مستوى الإنتاج الزراعي بها كما ونوعا، ورجّح كفة المرعى على حساب المزرعة في الكثير من المناطق التلية المحسوبة تاريخيا على الزراعة وذات التقاليد الراسخة فيها، وانحصار الكثير من الممارسات الزراعية داخل المدن والمناطق المحصنة والقصور.

* الغزو الهلالي لبلاد المغرب لم يكن مجرد حدث طارئ، بل أسهم في تعطيل حركة التمدن وجعلها تبدو أصعب وأكثر تعقيدا، لأن التأثير كان عميقا ومستمرا جغرافيا وزمنيا، لكنه تميّز بتناقص حدّته وارتباطه بالوضع السياسي القائم ومدى تعاطف السُّلط مع قوى النمو الاقتصادي. ومع تعقّد المشهد الاقتصادي في المغرب الأوسط وتداخل عدة ظروف في تحديد مؤشراته، لا يمكن إخلاء ساحة الهلاليين من المسؤولية التاريخية في التأثير على الاقتصاد وانتشار الخوف في أوساط المزارعين والتجار وتعطيل بعض محاور الطرق التجارية الصحراوية والداخلية ببروز ظاهرة اللصوصية وغياب الأمن، الأمر الذي انعكس على تكاليف العمل الزراعي والتجاري

وفعالية شبكة الطرق، وتدفق الذهب وكميات السلع المشحونة، وسيادة الحرف ذات المرجعية البدوية، والتغلب الجبائي.

كل هذا لا يعدم دور الهلاليين في الدفع بالمغرب الأوسط نحو الانفتاح على التجارة المتوسطية –في مرحلة حساسة من تاريخه– من بوابة العاصمة البحرية الجديدة بجاية، لكن ليس بعيدا جدا عن الوساطة شبه الميكانيكية في تحويل بعض سلع التجارة العابرة للصحراء، إذا استثنينا المعاملات المتعلقة بتصدير المنتوجات الرعوية وفي مقدمتها الأصواف والجلود، والتي تزايد إنتاجها بتوسع خريطة المجالات الرعوية وبالتالي زيادة تعداد رؤوس المواشي والثروة الحيوانية.

* لا بد أن المعطى الهلالي كان له دور كبير في التأثير على الوضع الاقتصادي في المنطقة، غير أن تحميله كامل المسؤولية في التراجع يجانب الموضوعية، إذ لا يمكن دراسة التأثير الهلالي على اقتصاد المغرب الأوسط بمعزل عن الظروف السياسية والاقتصادية التي عرفتها المنطقة قبيل وخلال وبعد دخول الهلاليين، ومنها:

– تبعات نقل البلاط الفاطمي من بلاد المغرب نحو العاصمة الجديدة القاهرة وانعكاسه على الوضع السياسي والاقتصادي للمنطقة، وبداية تراجع حضور المنطقة في تجارة الذهب والتجارة المتوسطية، ناهيك عن الآثار المباشرة التي أفرزها نقل ثروات مهمة من بلاد المغرب إلى القاهرة ومعها الكفاءات البشرية الفاعلة والمحترفة، فضلا عن نتائج الصراع السني – الشيعي.

– دور الصراعات الداخلية والخارجية في استمرار التراجع الديمغرافي وإنهاك خزينة الدولة، حيث أدى الصراع الحمادي–الزناتي والحمادي– الزيري الذي أثار جوا من الاضطراب واللااستقرار في المنطقة، إلى آثار مدمرة بشريا واقتصاديا، إذ استمر التراجع الديمغرافي لبعض العصبيات البربرية، وزيادة الحاجة إلى التغطية المادية ودعم خزينة الدولة، حتى تستجيب لمتطلبات تمويل الصراعات العسكرية.

– تعاظم قوة الأساطيل التجارية والعسكرية للمدن البحرية لشمال المتوسط، فمنذ القرن الرابع الهجري (10م) بدأ ازدهار الدور التجاري للمدن الإيطالية، وبالتالي شقّت البحرية الأوربية طريقها نحو سيادة المتوسط تجاريا وحربيا.

– انعكاس ظروف الدولة الموحدية على الوضع الاقتصادي، فرغم أن الموحدين تمكنوا من تحقيق قفزة اقتصادية مهمة، غير أن مستوى الرخاء كان محكوما بعوامل أخرى حدّت منه في بعض الأحيان وأثّرت فيه، ومن ذلك: الحركات التمردية، فقد أسفر دخول الغانيين إلى بجاية (580-581هـ/1184-1185م) وتحالف بعض الهلاليين معهم إلى الإضرار بالحياة الاقتصادية للمغرب الأوسط، خاصة وأن هذه الحركة أحيت في الهلاليين روح التمرد. فضلا عن اضطراب علاقة الموحدين بجيرانهم كالممالك النصرانية الإسبانية والفاطميين ثم الأيوبيين في بعض الفترات، ما أثر دون شك على العلاقات التجارية الخارجية ومستوى التبادل التجاري. ثم تبعات انهزام الدولة الموحدية في معركة العقاب 609هـ/

1212م، الذي أشّر على بداية تدهورها، خاصة أن بوادر العجز المالي للدولة ظهرت قبل ذلك. ناهيك عن النكبات الطبيعية التي مرّ بها المغرب الأوسط والتي أثرت في نشاطه الاقتصادي.

* على الرغم من تبني الحماديين والموحدين للمقاربة السياسية في تعاملهم مع العرب الهلالية، إلا أن ملامح المعطى الاقتصادي تظهر بارزة في العلاقات بين الطرفين، ففي الوقت الذي أقر الحماديون للهلاليين المجالات التي استحوذوا عليها وأطلقوا أيديهم فيها، فضلا عن تنازلهم عن حق الجباية ودفعوا لهم جزءا من الغلات، مقابل الاستعانة بهم في عملياتهم العسكرية وتوظيفهم في صراعاتهم، تمكّن الموحدون على إثر معركة سطيف 548هـ/1153م من تغيير طبيعة التعاطي مع المكوّن الهلالي، وبالتالي فقد أفرزت نتائج الموقعة وضعا جديدا في التعامل مع الهلاليين، وكانت محطة بالغة الأهمية في سياق إخضاعهم من طرف السلطة الموحدية، مما دفع بجزء منهم إلى الاستقرار ومزاولة أنشطة زراعية، ناهيك عن الأعداد التي انخرطت في الجيش الموحدي ووظفت في حملاته الأندلسية، إضافة إلى قيام الموحدين بمحاولة تفكيك الخريطة القبلية الهلالية في إفريقية والمغرب الأوسط –التي صاغها الهلاليون بمنطقهم وارتضوها لأنفسهم إلى حد ما في خضم سباقهم لحيازة المجال–، ورأوا إعادة توزيعهم بما يضمن الأمن والاستقرار في المناطق البعيدة عن عاصمة الدولة.

* رغم محاولة الموحدين إدماج الهلاليين، إلا أن ذلك لم يرافقه عمل حثيث على تأهيلهم اقتصاديا، فمع تمركز الموحدين في عاصمتهم بالقطاع الغربي، وتنامي حركات التمرد والمعارضة، والعداءات التي ميزت بعض علاقاتهم بمحيطهم، لم يعملوا على الدفع بالهلاليين نحو تبني مشروع اقتصادي نوعي يستجيب لحاجاتهم المعيشية ويرفع عن الدولة وصايتها عليهم ويكبح شهوتهم للسلب والنهب. لكن هذا لا ينفي انعكاس المقاربة السياسية العسكرية في محاولة تطويع وإدماج العناصر الهلالية على الاقتصاد، وإن حدث ذلك بصفة محدودة، لكنه أسهم في الانخراط في المنظومة الاقتصادية وتوجُّه بعض القبائل نحو الحياة المستقرة، مما دفع إلى التخفيف من وطأة الروابط العصبية بين أبناء القبيلة وتفكيكها، وهو ما يعدّ مدخلا للتعايش مع النظم السياسية السائدة.

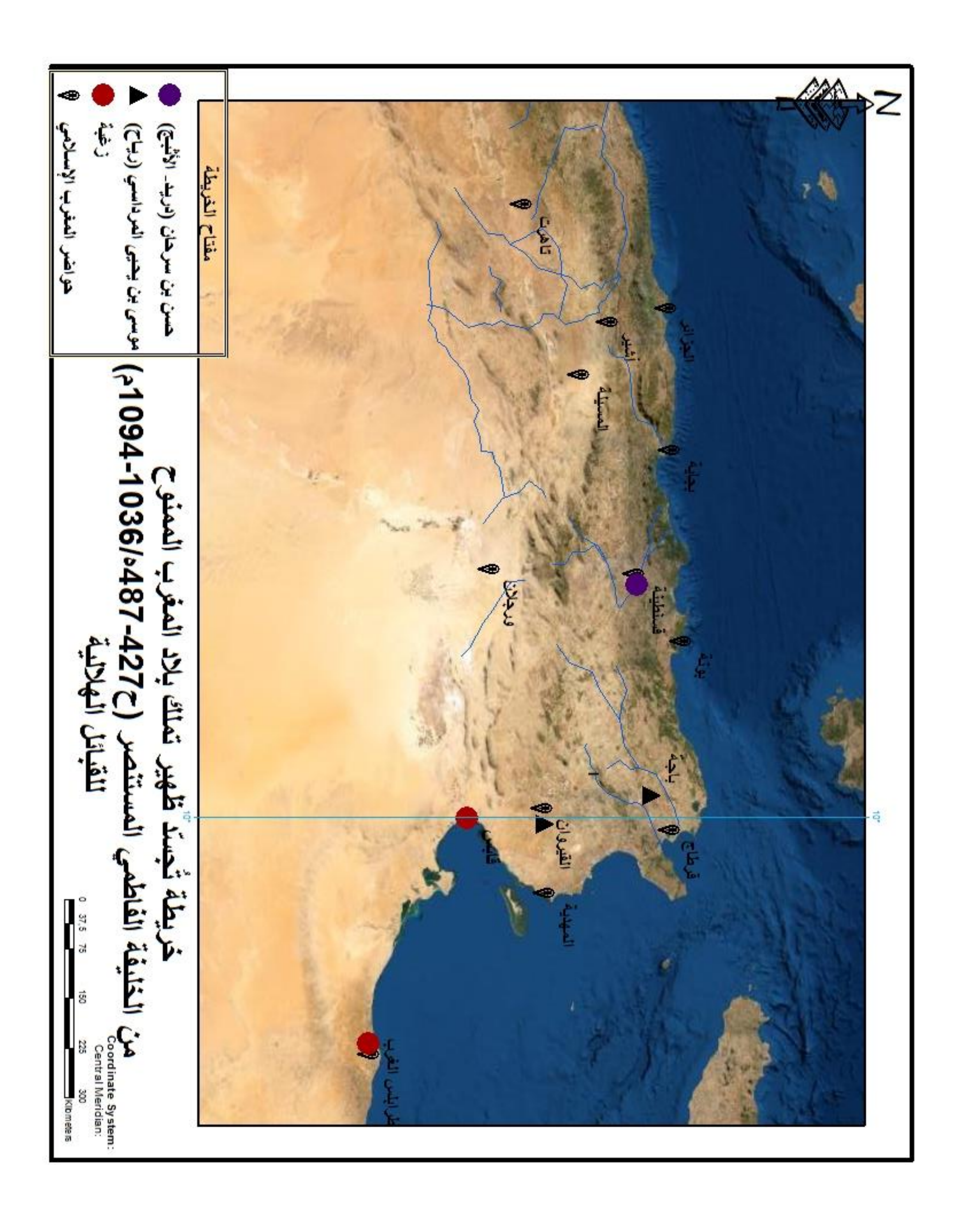
* التجارب الكثيرة للهلاليين في مُجاورة عالم الاستقرار، على الرغم من أنها لم تُؤتِ أُكلها بسرعة ولم تُفلح في الدفع بالهلاليين إلى تغيير سلوكهم الاقتصادي بسرعة، وربما يسعفنا استمرار بعض ملامح الحياة البدوية الراهنة في الكشف عن الأبعاد التاريخية التي بقيت مستمرة في سلوكات البدو الاقتصادية خاصة ما تعلق بالتنقل شمالا وجنوبا في حركة الرعي وعلاقتهم بالمستقرين، ورغم أهميتها لما تشكله من تراكم في التجارب العلائقية مع المستقرين، ومع أنها تعكس إغراقهم في البداوة وصعوبة تفكيك بنيتهم البدوية، إلا أن المدخل الاقتصادي في التعاطي معهم عامل مهم في نقل النفسية البدوية الهلالية من البداوة والحرابة إلى التساكن والحرف والتجارة. وارتباطا بذلك، لا بد أن أُشِير إلى أن النسق الخلدوني في معالجته للظاهرة الهلالية كان بمثابة السقف في المعالجة والمصطلح بالنسبة لموضوعنا.

ختاما، لا ندّعي من خلال هذه الأطروحة أننا حسمنا في نتائج التأثير الهلالي على اقتصاد المغرب الأوسط بين القرنين 05و07هـ/11و13م، بقدر ما حاولنا استئناف النقاش حول الموضوع، والانفتاح على بعض زواياه

والتوجه نحو إشكاليات بذاتها، لا بغرض تقديم نتائج يقينية وإجابات نهائية، –طالما أن الموضوع يبقى مفتوحا للبحث مستقبلا على ضوء نصوص جديدة قد تظهر هنا وهناك– بل بدافع تقديم قراءة تاريخية تحاول معالجة زوايا من الموضوع.

الملاحق

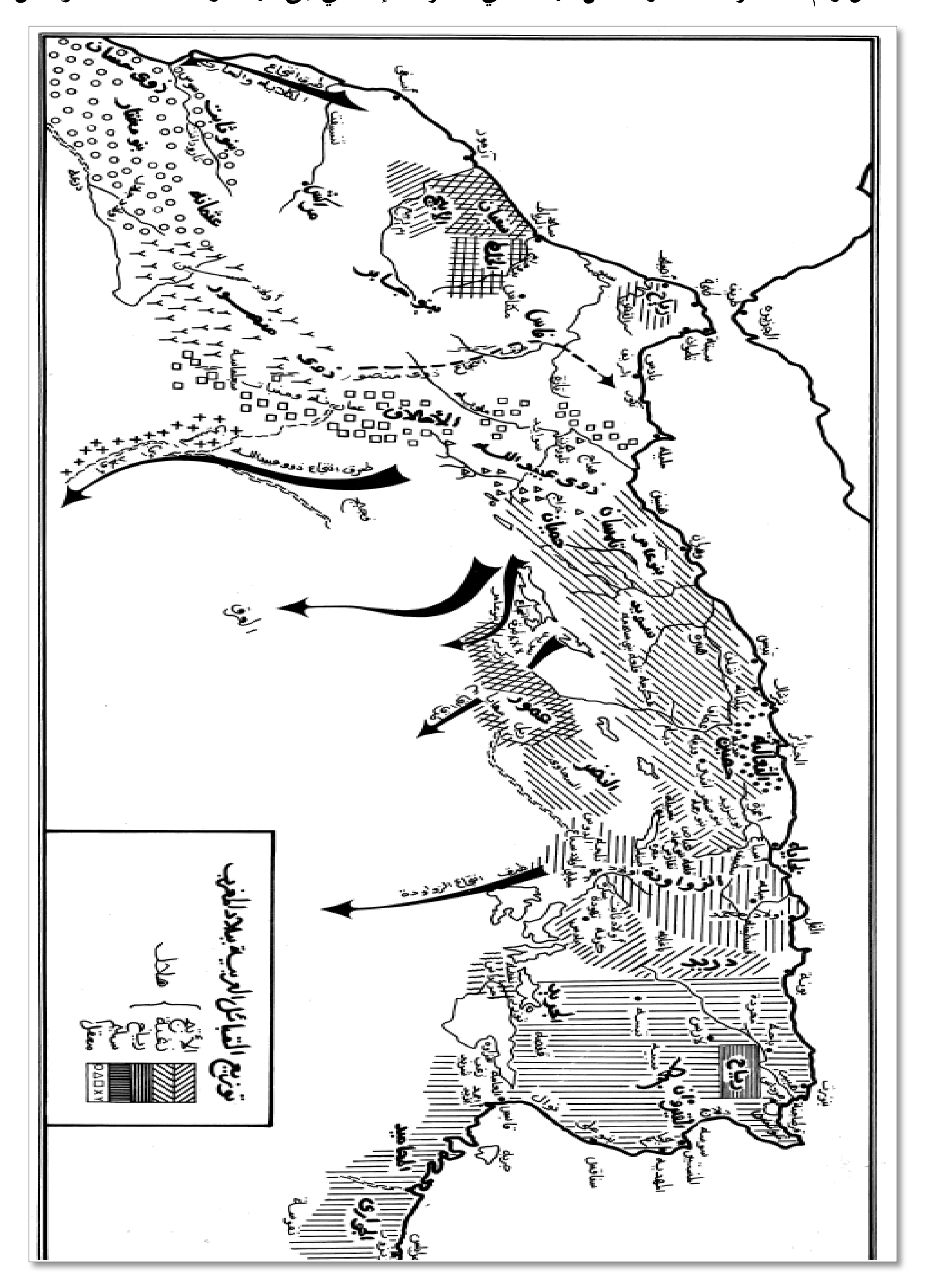
الملحق رقم01: خريطة تُجسّد ظهير تملك بلاد المغرب الممنوح من الخليفة الفاطمي المستنصر (ح427-487هـ/1036-1094م) للقبائل الهلالية



المصدر: ابن خلدون: العبر، ج6، ص27.

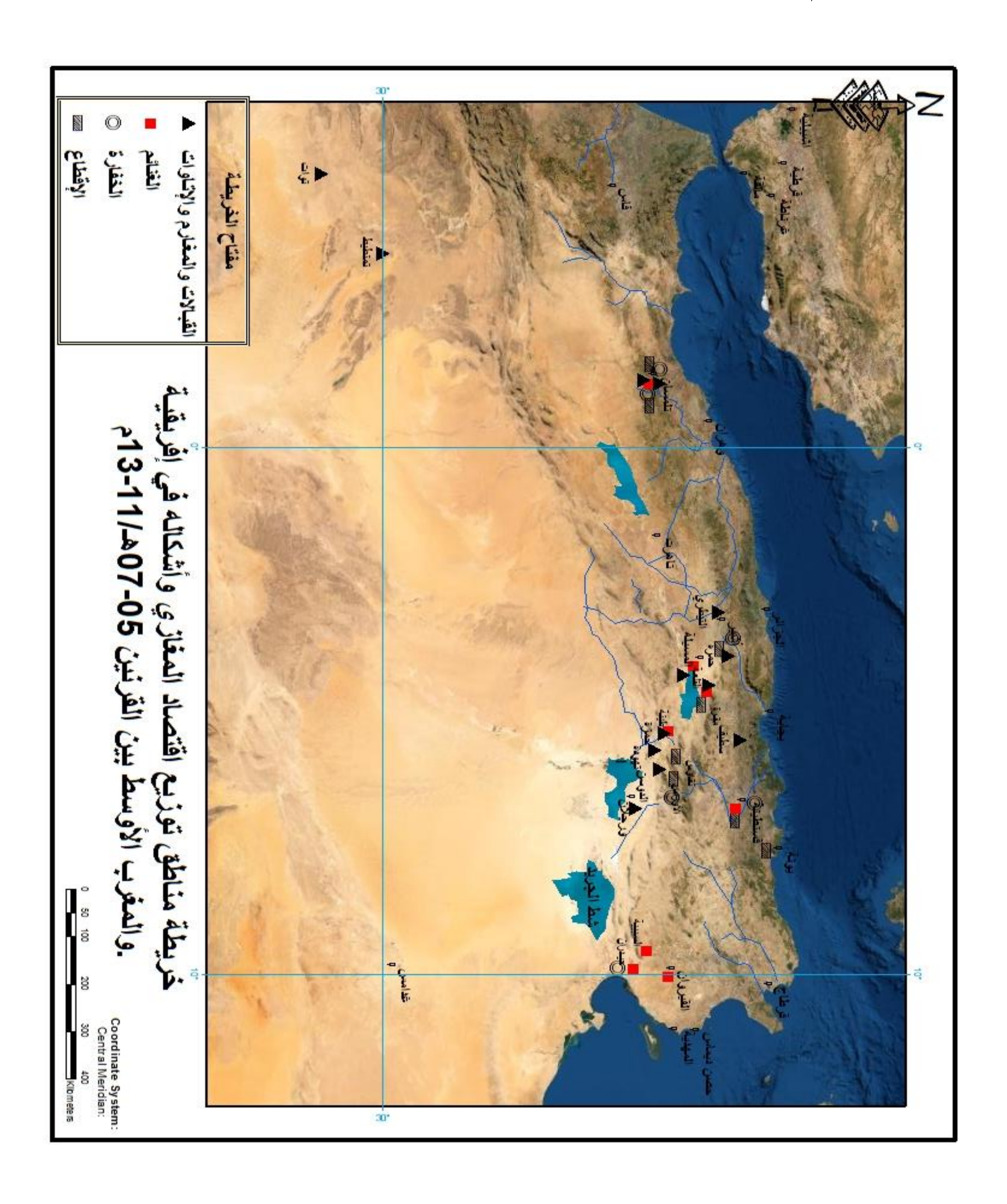
الخريطة من إنجاز الباحث.

الملحق رقم02: خريطة انتشار القبائل الهلالية في المغرب الإسلامي إلى عهد دويلات ما بعد الموحدين



المرجع: مصطفى أبو ضيف: المرجع السابق، ص341.

الملحق رقم03:خريطة مناطق توزيع اقتصاد المغازي وأشكاله في إفريقية والمغرب الأوسط بين القرنين (5-7هـ/11-13م)



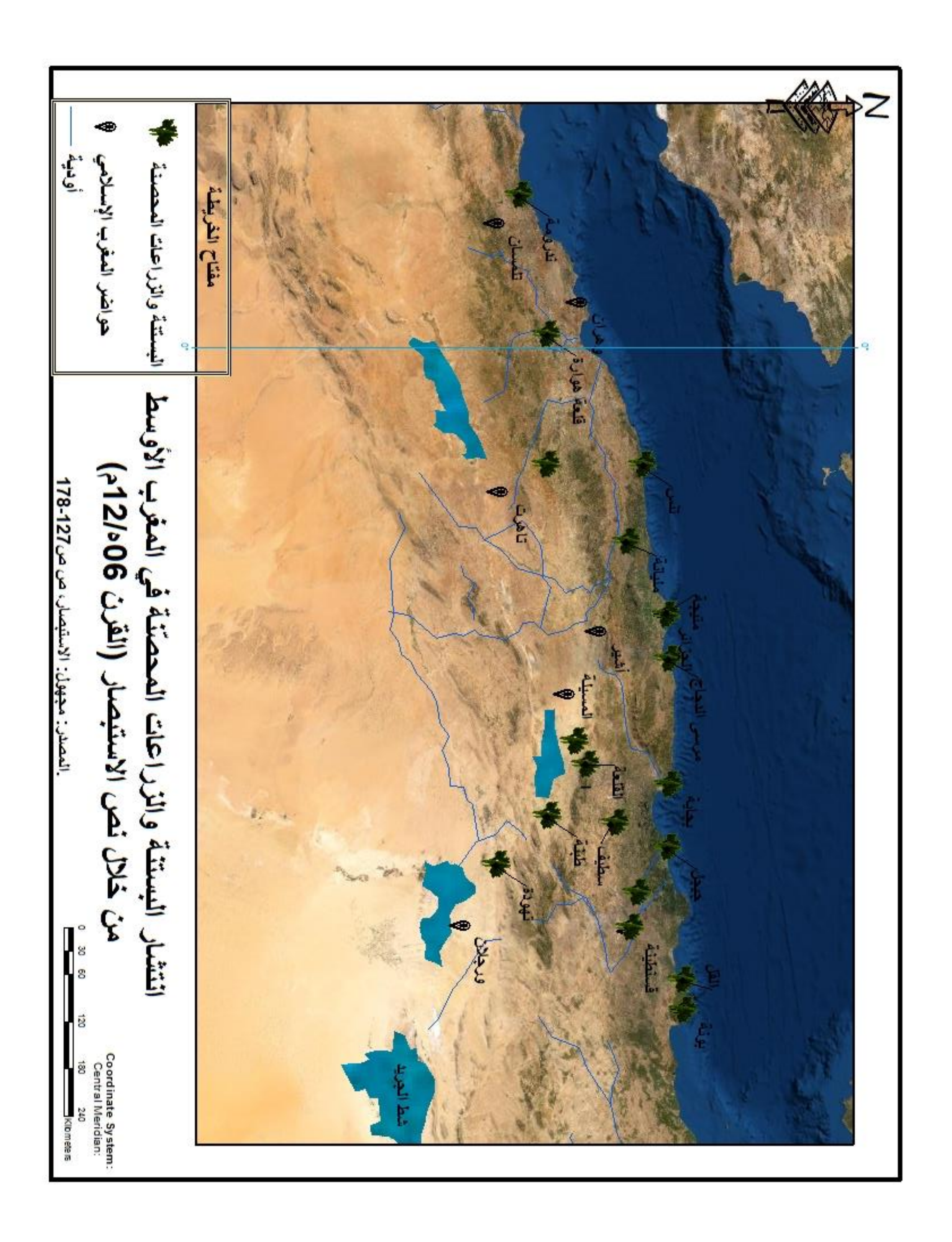
المصادر:

ابن خلدون: العبر، ج6، ص27-28-33-34-58-78. ابن الأثير: الكامل، ج8، ص372-373.

مجهول: الاستبصار، ص128-129. البكري: المغرب، ص76. الدرجيني: طبقات المشائخ، ج2، ص262.

الخريطة من إنجاز الباحث.

الملحق رقم04:خريطة انتشار زراعة البستنة في المغرب الأوسط (من خلال نص الاستبصار، ق06هـ/12م)



الخريطة من إنجاز الباحث

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

- **القرآن الكريم**، رواية ورش.
- **العهد القديم**، **سفر القضاة** 06: 05، دار الكتاب المقدس، القاهرة، ط4، 2006.

1. المصادر:

أ. باللغة العربية:

1- الأتابكي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي (ت): **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، ج5، دار الكتب المصرية، 1935.

2- ابن الأثير، عزالدين أبي الحسن الجزري (ت630هـ/1233م): **الكامل في التاريخ**، تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، ج8، دار الكتب العلمية بيروت، 1987.

3- الإدريسي، الشريف السبتي (ت560هـ/1165م): **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، تحقيق: الوافي نوحي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1422هـ / 2002م.

4- الأصفهاني، عماد الدين محمد بن محمد الكاتب (ت597هـ/1201م): **خريدة القصر وجريدة العصر**، قسم شعراء المغرب ج1، تحقيق: محمد المرزوقي ومحمد العروسي المطوي والجيلاني بن الحاج يحيى، الدار التونسية للنشر، تونس، 1986.

5- الأعرابي، أبو عبد الله محمد بن زياد (ت231هـ/845م): **أسماء خيل العرب وفرسانها**، شركة نوابغ الفكر، القاهرة، 2008.

6- الأندلسي، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم (ت456هـ/1064م): **جمهرة أنساب العرب**، تحقيق وتعليق: عبد السلام محمد هارون، ط5، دار المعارف، القاهرة، د.ت.

7- البخاري، أبو عبد الله بن محمد اسماعيل (ت256هـ/869م)، **صحيح البخاري**، دار ابن كثير، دمشق، 1423هـ/2002م.

8- البرزلي، أبو القاسم بن أحمد بن محمد البَلَوِي القيرواني (ت841هـ/1438م): **فتاوى البرزلي جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام**، تحقيق: محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2002.

9- ابن بطوطة، محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي (ت779 هـ/1377م): **رحلة ابن بطوطة**، تحقيق: كرم البستاني، دار صادر، بيروت، 1992.

10- البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (ت487هـ/1094م): **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك**، نشر: دي سلان، الجزائر، 1857.

11- البلوي، خالد بن عيسى بن أحمد القتوري (ت بعد 767هـ/1365م): **تاج المفرق في تحلية علماء المشرق**، تحقيق: الحسن السائح، صندوق إحياء التراث الإسلامي، الرباط، د.ت.

12- البلنسي، محمد العبدري (ت720هـ/1320م): **الرحلة المغربية**، تقديم: سعيد بوفلاقة، منشورات بونة للبحوث التاريخية، 2007م.

13- البيذق، أبو بكر بن علي الصنهاجي (القرن06هـ/12م): **أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1971.

14- التادلي، أبو يعقوب يوسف بن يحيى بن الزيات (ت617هـ/1220م): **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي**، تحقيق: أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، 1997.

15- التجاني، أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد (ت721هـ/1321م): **رحلة التجاني**، تقديم: حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، تونس، 1981.

16- **تغريبة بني هلال ورحيلهم إلى بلاد المغرب وحروبهم مع الزناتي خليفة**، تقديم: عمر أبو النصر، بيروت، 1971.

17- التلمساني، محمد بن مرزوق (ت781هـ/1379م): **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**، تحقيق: ماريا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.

18- : **المناقب المرزوقية**، تحقيق: سلوى الزاهري، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 2008.

19- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت255هـ/868م): **كتاب البلدان**، مطبعة الحكومة، بغداد، 1970.

20- ابن جبير، أبو الحسن محمد (ت614هـ/1217م): **رحلة ابن جبير**، دار صادر، بيروت، د.ت.

21- الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت (ت626هـ/1229م): **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، 1977، مج01.

22- ابن الخطيب، أبو الحسن علي بن محمد القرشي التلمساني (القرن11هـ/17م): **كتاب نسب زغبة ومنتهى أصلهم**، تحقيق: طيب بوجمعة نعيمة، النشر الجامعي الجديد، تلمسان، الجزائر، 2019.

23- ابن الخطيب، محمد بن عبد الله لسان الدين (ت776هـ/1374م): **أعمال الأعلام**، تحقيق: أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، ج3، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964.

24- **نفاضة الجراب في علالة الاغتراب**، نشر وتعليق: أحمد مختار العبادي، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، د.ت.

25- ابن خلدون، عبد الرحمان (ت808هـ/1406م): **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، ضبط المتن ووضع الحواشي: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، 1421هـ / 2001م.

26- **رحلة ابن خلدون**، عرض وتعليق: محمد بن تاويت الطنجي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1425هـ/2004م.

27- ابن خلدون، أبو زكريا يحيى (ت780هـ/1378م): **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، تحقيق: عبد الحميد حاجيات، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011.

28- الدرجيني، أبو العباس أحمد بن سعيد بن سليمان (ت670هـ/1271م): **طبقات المشائخ بالمغرب**، تحقيق: إبراهيم طلاي، مطبعة البعث، الجزائر، 1974.

29- الدمشقي، أبو الفضل جعفر بن علي (عاش في القرن 06هـ): **الإشارة إلى محاسن التجارة وغشوش المدلسين فيها**، تقديم وتعليق: محمود الأرناؤوط، دار صادر، بيروت، 1999.

30- **رسائل موحدية، مجموعة جديدة**، تحقيق ودراسة: أحمد عزاوي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة، المغرب، 1995.

31- الزرهوني، عبد الله الكفيف (ت749هـ/1348م): **ملعبة الكفيف الزرهوني**، تحقيق: محمد بن شريفة، المطبعة الملكية، الرباط، 1987.

32- الزهري، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت القرن06هـ/12م): **كتاب الجغرافية**، تحقيق: محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

33- **السجلات المستنصرية** (سجلات وتوقيعات وكتب لمولانا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه، إلى دعاة اليمن وغيرهم، قدّس الله أرواح جميع المؤمنين، تحقيق: عبد المنعم ماجد، دار الفكر العربي، مصر، 1954.

34- ابن الشماع، أبو عبد الله محمد بن أحمد (القرن09هـ/15م): **الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية**، تحقيق: الطاهر بن محمد المعموري، الدار العربية للكتاب، تونس، 1984.

35- الشنتريني، أبو الحسن علي بن بسام (ت542هـ/1147م): **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1997.

36- ابن صاحب الصلاة، أبو محمد عبد الملك (ت594هـ/ 1198م): **المن بالإمامة**، تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين، تحقيق: عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط3، 1987.

37- الصنهاجي، أبو عبد الله محمد بن علي بن حماد (ت628هـ/1231م): **أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم**، تحقيق: التهامي نقرة وعبد الحليم عويس، دار الصحوة، القاهرة، 1981.

38- الصيرفي، أبو القاسم علي بن منجب (ت542هـ/1147م): **الإشارة إلى من نال الوزارة**، تحقيق: عبد الله مخلص، عن النسخة الوحيدة المحفوظة في الخزانة الخالدية مطبعة المعهد العلمي الفرنسي 1923م.

39- الضبعي، جرير بن عبد العزي (عبد المسيح) الملتمس (ت43ق هـ/580م): **ديوان شعر الملتمس الضبعي – رواية الأثرم وأبي عبيدة عن الأصمعي**، تحقيق: حسن كمال الصيرفي، معهد المخطوطات العربية، جامعة الدول العربية، القاهرة، 1970م.

40- ابن الطوير، أبو محمد المرتضى عبد السلام بن الحسن القيسراني المعروف (ت617هـ/1220م): **نزهة المقلتين في أخبار الدولتين**، تحقيق أيمن فؤاد سيد، دار فرانتس شتايتز، شتوتغارت، د ت.

41- العقباني، أبو الفضل قاسم بن سعيد (ت854هـ/1450م): **تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر**، تحقيق: علي الشنوفي، Extrait du bulletin d'études orientales de l'institut français de damas. tome19، 1967.

42- العمري، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن فضل الله (ت749هـ/1349م): **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (في الحيوان والنبات والمعادن)**، تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1996.

43- الغبريني، أبو العباس أحمد (ت704هـ/1304م): **عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية**، تحقيق وتعليق: عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط2، 1979.

44- الفاسي، علي بن أبي زرع (ت726هـ/1326م): **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972.

45- القرطبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر (ت671هـ/1273م): **الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السنة وآي الفرقان**، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2006، ج10.

46- القزويني، زكرياء بن محمد بن محمود (ت 682هـ/1283م): **آثار البلاد وأخبار العباد**، دار صادر، بيروت، لبنان، د ت.

47- ابن القطان، أبو الحسن علي المراكشي (ت628هـ/1230م): **نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان**، تحقيق: محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، 1990.

48- القلقشندي، أبو العباس شهاب الدين أحمد (ت821هـ/1418م): **نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب**، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2، 1400هـ / 1980م.

49- **صبح الأعشى**، دار الكتب الخديوية، القاهرة، 1914.

50- القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق (ت456هـ/1070م): **ديوان ابن رشيق القيرواني**، جمع وترتيب: عبد الرحمان باغي، دار الثقافة، بيروت، 1989.

51- القيرواني، أبو عبد الله محمد بن أبي دينار (ت1101هـ/ 1690م): **كتاب المؤنس في أخبار إفريقية وتونس**، مطبعة الدولة التونسية، تونس، 1286هـ.

52-كربخال، لويس دل مارمول (ت1008هـ/1600م): **إفريقيا**، ترجمة: محمد حجي، محمد زنيبر، محمد الأخضر، أحمد التوفيق، أحمد بنجلون، ج1، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، 1984.

53- الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف المصري (ت350هـ/961م): **كتاب الولاة وكتاب القضاة**، تصحيح: رفن كَت، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، 1908.

54- المازري، أبو عبد الله محمد بن علي (ت536هـ/1141م): **فتاوى المازري**، تحقيق: الطاهر المعموري، الدار التونسية للنشر، مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان، تونس، 1994.

55- المازوني، أبو زكرياء يحيى المغيلي (ت883هـ/1478م): **الدرر المكنونة في نوازل مازونة**، تحقيق: حساني مختار، مخبر المخطوطات، قسم علم المكتبات، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2004.

56- مجهول (ق06هـ/12م): **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار**، نشر وتعليق: سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، 1985.

57- **مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية**، اعتناء: ليفي بروفنصال، المكتبة الاقتصادية، الرباط، 1941.

58- المدجن، الحاج عبد الله بن الصباح (من أهل القرن 8هـ وأوائل القرن9هـ/14-15م): **أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار رحلة المدجن الحاج عبد الله بن الصباح**، النصف الثاني من القرن الثامن الهجري، تحقيق: محمد بنشريفة، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ط1، الرباط، 2008م.

59- المراكشي، أبو العباس أحمد بن محمد ابن عذارى (ت بعد 712هـ/1312م): **البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب**، تحقيق: بشار عواد معروف ومحمود بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2013.

60- المراكشي، محيي الدين عبد الواحد بن علي التميمي (ت647هـ/1250م): **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تحقيق: محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، القاهرة، 1994.

61- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت346هـ/957م): **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، مراجعة: كمال حسن مرعي، ج2، المكتبة العصرية، بيروت، 2005.

62- مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب (ت421هـ/1030م): **تجارب الأمم وتعاقب الهمم**، تحقيق: سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003.

63- المغربي، أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد (ت673 أو 685هـ - 1274 أو 1286م): **كتاب الجغرافيا**، تحقيق: إسماعيل العربي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1970.

64- المقدسي، شمس الدين بن أبي عبد الله محمد (ت380هـ/990م): **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، دار صادر، بيروت، د ت.

65- المقري، أحمد بن محمد التلمساني (ت1041هـ/1631م): **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1408هـ/1988م.

66- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت845هـ/1442م): **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا**، ج2، تحقيق: محمد حلمي محمد أحمد، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1996.

67- **إغاثة الأمة بكشف الغمة**، تحقيق: كرم حلمى فرحات، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2007.

68- **البيان والإعراب عن ما بمصر من الأعراب**، مراجعة: إبراهيم رمزي، مطبعة المعارف، مصر، 1334هـ - 1916م.

69- **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار** (**الخطط المقريزية**)، ج2، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2002.

70- ابن مُيسّر، تاج الدين محمد بن علي (ت677هـ/1278م): **المنتقى من أخبار مصر** (انتقاه المقريزي)، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، 1981.

71- ناصر خسرو، أبو معين علوى (ت481هـ/1088م): **سفرنامة**، ترجمة: يحيى الخشاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1993.

72- النصيبي، أبي القاسم بن حوقل (ت367هـ/977م): **صورة الأرض**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1996.

73- النميري، إبراهيم بن عبد الله بن الحاج (ت768هـ/1367م): **فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب**، دراسة وإعداد: محمد بن شقرون، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1990.

74- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت733هـ/1333م): **نهاية الأرب في فنون الأدب**، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004.

75- الوزان، الحسن بن محمد (ليو الإفريقي) (ت حوالي961هـ/1554م): **وصف إفريقيا**، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983.

76- الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحيى التلمساني (ت914هـ/1508م): **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، إخراج جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، الرباط،1401هـ/ 1981م.

ب. باللغات الأجنبية:

1- Amari, Michele **I diplomi arabi del R. archivio fiorentino, testo originale con la traduzione letterale e illustrazioni**, Le Monnier, Firenze (Florence) Italy, 1863.

2- Buresi, Pascal et Hicham EL AALLAOUI: **Gouverner l'Empire. La nomination des fonctionnaires provinciaux dans l'empire almohade (Maghreb, 1224-1269)**, Casa de Velázquez, Madrid, 2013.

3- **Deux récits de voyage inédits en Afrique du Nord au XVe siècle Ibn Halil, Abdalbasit et Adorne, Anselme**, Brunschvig, Robert (edt), Publications de l'Institut d'études orientales, Faculté des lettres d'Alger;7, paris paris larose, 1936.

4- Latrie, Mas: **traités de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des chrétiens avec les arabes de l'Afrique septentrionale au moyen âge**, Henri Plon imprimeur éditeur, paris 1866.

5- **Letters of Medieval Jewish Traders** (Translated from the Arabic with introductions and notes by S. D. Goitein), Princeton University Press, USA, 1973.

2. القواميس والمعاجم:

1- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي الأنصاري الرويفعي الأفريقي (630-711هـ/1232-1311م): **لسان العرب**، دار المعارف، القاهرة.

2- شفيق، محمد: **المعجم العربي الأمازيغي**، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1987.

3- الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني (1145-1205هـ/1732-1790م): **تاج العروس من جواهر القاموس**، تحقيق: مصطفى حجازي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2001.

3. المراجع:

أ. باللغة العربية

1- أحمد، حسن خضيري: **علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب (362-567هـ / 973-1171م)**، مكتبة مدبولي، القاهرة.

2- أحمد، مصطفى أبو ضيف: **أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصري الموحدين وبني مرين (524-876هـ/1130-1472م)**، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1982.

3- أحمد، موسى عزالدين: **النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري**، دار الشروق، بيروت، 1983.

4- إسحاق إبراهيم، إبراهيم: **هجرات الهلاليين من جزيرة العرب إلى شمال إفريقيا وبلاد السودان**، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، 1996.

5- البلتاجي، صابر عبد المنعم محمد علي: **النظم والمعاملات المالية في المغرب عصر دولة الموحدين (564-668هـ/1130-1269م)**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

6- بخضرة، مونيس: **تاريخ الوعي مقاربات فلسفية حول جدلية ارتقاء الوعي بالواقع**، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر، مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، الإمارات العربية المتحدة، 2009.

7- البولسي، الخوري بولس سيور: **عوائد العرب**، مطبعة القديس بولس، لبنان.

8- الجزائري، الأمير عبد القادر: **ديوان الأمير عبد القادر الجزائري**، تحقيق: ممدوح حقي، دار اليقظة العربية، دمشق.

9- الجنحاني، الحبيب: **دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986.

10- حاج حمد، محمد أبو القاسم: **جدلية الغيب والإنسان والطبيعة – العالمية الإسلامية الثانية**، دار الهادي، بيروت، 2004.

11- حامد، إسماعيل علي: **بنو هلال وأثرهم الحضاري في سودان وادي النيل منذ القرن السابع وحتى القرن العاشر هجري**، قراءات إفريقية، الرياض، 2021.

12- حبيدة، محمد: **المدارس التاريخية برلين – السوربون – استراسبورغ (من المنهج إلى التناهج)**، دار الأمان، الرباط، 2019.

13- حسن، محمد: **المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي**، ج1، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة تونس الأولى، 1999.

14- **الجغرافيا التاريخية لإفريقية من القرن الأول إلى القرن التاسع هجري 07-15م فصول في تاريخ المواقع والمسالك والمجالات**، دار الكتاب الجديد المتحدة، بنغازي، 2004.

15- خليف، يوسف: **الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي**، دار المعارف، القاهرة، د ت.

16- دغفوس، راضي: **دراسات في التاريخ العربي الاسلامي الوسيط**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005.

17- الدوري، عبد العزيز: **أوراق في التاريخ والحضارة – أوراق في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2009.

18 - أبورميلة، هشام: **علاقات الموحدين بالممالك النصرانية والدول الإسلامية في الأندلس**، دار الفرقان، ط1، عمان، الأردن، 1404هـ/1984م.

19- بورويبة، رشيد: **الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها**، ديوان المطبوعات الجامعية والمركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر، 1977.

20- بوسماحة، عبد الحميد: **رحلة بني هلال إلى الغرب وخصائصها التاريخية الاجتماعية والاقتصادية**، دار السبيل، الجزائر، 2008.

21- السويدي، أبو الفوز محمد أمين البغدادي: **سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب**، منشورات الرضى، ط2، قم، إيران.

22- الشلقاني، عبد الحميد: **الأعراب الرواة**، منشورات المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، 1982.

23- الصاوي، أحمد السيد: **مجاعات مصر الفاطمية أسباب ونتائج**، دار التضامن، بيروت، 1988.

24- أبو صوة، محمود أحمد: **تاريخ العرب الاجتماعي والاقتصادي في العصر الوسيط –قراءة مغايرة**، منشورات ELGA، مالطا، 2002.

25- الطاهري، عبد الحق: **الدولة الموحدية أسس الشرعية والمشروع السياسي**، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2015.

26- **نظام الحكم عند الموحدين –الوسائل والمؤسسات**، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2018.

27- عبد الحميد، سعد زغلول: **تاريخ المغرب العربي**، ج03 (الفاطميون وبنو زيري الصنهاجيون إلى قيام المرابطين)، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1990.

28- العروي، عبد الله: **مجمل تاريخ المغرب**، ج2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، 2000.

29- عزاوي، أحمد: **نصوص تاريخية عن الغرب الإسلامي**، مطبعة ربا نيت، الرباط، 1431هـ/2010م.

30- علوي، حسن حافظي: **دراسات صحراوية – الماء والإبل والتجارة**، دار أبي رقراق، الرباط، 2014.

31- علي غازي، علي عفيفي: **بدو العراق والجزيرة العربية بعيون الرحالة**، دار الرافدين، بيروت، Opus Publishing، كندا، 2016.

32- عمارة، علاوة: **دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2008.

33- عويس، عبد الحليم: **دولة بني حماد –صفحة رائعة من التاريخ الجزائري**، دار الوفاء، دار الصحوة، القاهرة، 1991.

34- فتحة، محمد: **النوازل الفقهية والمجتمع أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي (من القرن 06 إلى 09هـ/ 12 إلى15م)**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، 1999م.

35- بن قربة، صالح: **المسكوكات المغربية من الفتح الاسلامي إلى سقوط دولة بني حماد**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.

36- مزيان، عبد المجيد: **النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون وأسسها في الفكر الإسلامي والواقع المجتمعي – دراسة فلسفية واجتماعية**، المؤسسة الوطنية للكتاب والديوان الوطني للمطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، ص1988.

37- المعموري عبد علي كاظم: **تاريخ الأفكار الاقتصادية**، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمّان، 2012.

38- المغراوي، محمد: **الموحدون وأزمات المجتمع**، جذور للنشر، الرباط، 2006.

39- الموسوي، جواد مطر وقيس حاتم هاني الجنابي: **تاريخ الاقتصاد العربي القديم**، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، 2017م.

40- مؤنس، حسين: **معالم تاريخ المغرب والأندلس**، دار الرشاد، القاهرة، ط5، 2000.

41- بن ميلاد، لطفي: **إفريقية والمشرق المتوسطي من أواسط القرن 05هـ-11م إلى مطلع القرن 10هـ /16م – وقائع الانفصال وتحديات الاتصال**، المغاربية لطباعة وإشهار الكتاب، تونس، 2011.

42- نعيم، جمال: **جيل دولوز وتجديد الفلسفة**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2010.

43- نكادي، يوسف: **مباحث في تاريخ غرب المتوسط في العصر الوسيط**، كتاب إلكتروني، E-KUTUB Ltd، تاريخ النشر على الخط: 2018.

44- بونابي، الطاهر: **مظاهر المجال والدين والمجتمع بالمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط**، سلسلة الكتب الأكاديمية لكلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة محمد بوضياف المسيلة، 2017.

45- هدية محمود: **اقتصاد النسيج في الغرب الاسلامي في العصر الوسيط**، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، 2017.

46- الهروي، الهادي: **القبيلة، الإقطاع، والمخزن، مقاربة سوسيولوجية للمجتمع المغربي الحديث 1844-1934**، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2010.

47- الوردي، علي: **دراسة في طبيعة المجتمع العراقي – محاولة تمهيدية لدراسة المجتمع العربي الأكبر في ضوء علم الاجتماع الحديث**، دار الوراق للنشر، الأردن، 2007.

48- يونس، عبد الحميد: **الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي**، مطبعة جامعة القاهرة، مصر، 1956.

ب. المراجع المعربة:

1- إدريس، الهادي روجي: **الدولة الصنهاجية تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م**، ترجمة: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992.

2- أرشيبالد، لويس: **القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (500-1100م)**، ترجمة: أحمد محمد عيسى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د ت.

3- إيروين، روبرت: **الجمل، التاريخ الطبيعي والثقافي**، ترجمة: أحمد محمود، هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، أبوظبي، 2012.

4- برنشفيك، روبار: **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي (من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م)**، ترجمة: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988.

5- بروديل، فرنان: **المتوسط والعالم المتوسطي**، ترجمة: مروان أبي سمرا، دار المنتخب العربي، بيروت، 1993.

6- بروديل، فرناند: **تاريخ وقواعد الحضارات**، ترجمة: سفير حسين شريف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1999.

7- بوفيل، هاليت روبن: **تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير**، ترجمة: الهادي أبو لقمة ومحمد عزيز، منشورات جامعة قارينوس، بنغازي، ليبيا، ط2، 1988.

8- الطيف، علي حامد خليفة: **المراكز التجارية الليبية وعلاقتها مع ممالك السودان الأوسط وأثرها على الحياة الاجتماعية خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين، الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين**، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ط1، طرابلس، ليبيا، 2003م.

9- فاليرين، دومنيك: **بجاية ميناء مغاربي (1067-1510)**، (02 أجزاء)، ترجمة: علاوة عمارة، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2014.

10- فيلالي، عبد العزيز وإبراهيم بحاز: **مدينة ميلة في العصر الوسيط**، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2017.

11- كونستابل، أوليفيا ريمي: **التجارة والتجار في الأندلس**، ترجمة: فيصل عبد الله، دار العبيكان، الرياض، ط1، المملكة العربية السعودية، 1423هـ/2002م.

12- **إسكان الغريب في العالم المتوسطي –السكن والتجارة والرحلة في أواخر العصر القديم وفي العصر الوسيط**، تعريب وتقديم: محمد الطاهر المنصوري، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2013.

13- لوبيز، روبرت: **ثورة العصور الوسطى التجارية 950-1350**، ترجمة وتقديم: محمود أحمد أبو صوة، منشوراتELGA، فاليتا، مالطا، 1997م.

14- مارتينيز غرو، غابرييل: **موجز في تاريخ الإمبراطوريات كيف تنشأ وكيف تضمحل**، ترجمة: علي نجيب إبراهيم، دار الكتاب العربي، بيروت، 2017.

15- مارسيه، جورج: **بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى**، ترجمة: محمود عبد الصمد هيكل، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1991.

16- هُيْلَنْد، رُبرت: **تاريخ العرب في جزيرة العرب من العصر البرونزي إلى صدر الإسلام 3200 ق م – 630م**، ترجمة: عدنان حسن، شركة قدمس للنشر والتوزيع، بيروت، 2010.

17- ولفنسون إسرائيل: **تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام**، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1927.

18- ووكر، إلين: **الحصان، التاريخ الطبيعي والثقافي**، ترجمة: رامي البيروتي، هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، أبوظبي، 2010.

ج. باللغات الاجنبية:

1- Ashtor, Eliyahu: **Histoire des prix et des salaires dans l'Orient médiéval**, École Pratique des Hautes Études. Centre de Recherches Historiques, S.E.V.P.E.N, Paris, 1969.

2- Buresi, Pascal et Mehdi Ghouirgate: **Le Maghreb XIe-XVe siècle**, Armand Colin, Paris, 2013.

3- Cahen, Claude: **Nomades et sédentaires dans le monde musulman du milieu du Moyen Âge**, dans :*Les peuples musulmans dans l'histoire médiévale,* Presses de l'Ifpo, Damas, 1977.

3- Dutilly-Diane, Céline: **Review of the literature on Pastoral Economics and Marketing**: **North Africa**, Report prepared for the World Initiative for Sustainable Pastoralism, IUCN EARO, (The International Union for Conservation of Nature), 2006.

4- El-Ashker, Ahmed and Rodney Wilson: **Islamic Economics**, **A Short History**, Series: Themes in Islamic Studies, Volume: 3, Brill, Lieden, Boston, 2006.

4- Fierro, Maribel: **'Abd al-Mu'min – Mahdism and Caliphate in the Islamic West**, Oneworld Academic, London, 2021.

5- Gautier, Emile Félix: **Le passé de l'Afrique du Nord**: **les siècles obscurs**, Payot, Paris, 1952.

6- Golvin, Lucien: **Aspects de l'artisanat en Afrique du nord**, Presses universitaires de France, Paris, 1957.

7- Guillaume Pierre et Jean-Pierre Poussou coaut: **Démographie historique**, Armand Colin, Paris, 1970.

8- Jabbur, Jibrail S: **The Bedouins and the Desert**: **Aspects of Nomadic Life in the Arab East**, trans. Lawrence I. Conrad, ed. Suhayl J. Jabbur and Lawrence I. Conrad, SUNY Series in Near Eastern Studies (Albany: State University of New York Press, 1995.

9- Johnson, Douglas L: **The Nature of Nomadism**: **A Comparative Study of Pastoral Migrations in South-western Asia and Northern Africa**, Department of Geography, University of Chicago, Chicago, 1969.

10- Meouak, Mohamed: **Les Ziban entre Aurès et Sahara**: **une géographie historique de Biskra et de ses oasis du Moyen Âge à la fin de l'époque moderne**, Academia Scientiarum Fennica, Helsinki, Finlande, 2017.

11- Mercier, Ernest: **Histoire de l'Afrique septentrionale** (**Berbérie**) **depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête français** (**1830**), Tome 02, Ernest Leroux éditeur, Paris, 1868.

12- Merrills, Andy & Richard Miles: **The Vandals**, Wiley-Blackwell, United States, 2010.

13- Meynier, Gilbert: L'Algérie, **Cœur du Maghreb classique De l'ouverture islamo-arabe au repli** (**698-1518**), La découverte, Paris, 2010.

14- Mouton, Jean-Michel: **Saladin et les Bédouins du *Sinaï*, dans le livre**: **Le Sinaï de la conquête arabe à nos jours**, édité par Jean-Michel Mouton, Institut Français D'archéologie Oriental, cahier des annales islamologiques 21, le Caire, 2001.

15- Picard, Christophe: **La mer et les musulmans d'Occident au Moyen Âge**, **VIIIe-XIIIe s**, puf, paris, 1997.

16- Schuster, Gerald: **Die Beduinen in der Vorgeschichte Tunesiens**: **Die Invasion der Banu Hilal und ihre Folgen**, Klaus Schwarz Verlag, Berlin, 2006.

17- VOGUET, Élise: **Le monde rural du Maghreb central** (**XIV**[e]**-XV**[e] **siècles**). Réalités sociales et constructions juridiques d'après les Nawāzil Māzūna, Publications de la Sorbonne, Paris, 2014.

4. الرسائل الجامعية:

أ. باللغة العربية

1- أعزيبي زهوة: **ملامح المنظومة القيمية لمجتمع المغرب الأوسط خلال العصر الزياني (633-962هـ/1235-1554م) -جدل المثال والواقع-**، أطروحة دكتوراه الطور الثالث في التاريخ الوسيط (غير منشورة)، قسم التاريخ، جامعة محمد بوضياف المسيلة، 2017-2018م.

2- بلمداني نوال: **نظام الرعي في بلاد المغرب الأوسط خلال القرنين (04-05هـ/10-11م)**، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط الإسلامي (غير منشورة)، قسم التاريخ والآثار، جامعة وهران، 2013/2014.

3- بن زاوي، طارق: **استقلال المعز بن باديس الزيري عن الدولة الفاطمية (406-454هـ/1016-1062م)**، مذكرة ماجستير في التاريخ الوسيط (غير منشورة)، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2008/2009م.

4- بن عريب، مصطفى: **مجتمع المغرب الأوسط المتغيرات والعلائق (من القرن الرابع الهجري إلى سقوط دولة الموحدين 668هـ/ 1269م، القرن العاشر - الثالث عشر ميلادي)**، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط (غير منشورة)، قسم التاريخ، جامعة محمد بوضياف المسيلة، 2016/2017.

5- بوخالفة، عزي: **تغريبة بني هلال بين التاريخ والروايات الشفهية الهلالية الجزائرية**، أطروحة دكتوراه في الأدب الشعبي (غير منشورة)، كلية الآداب واللغات، جامعة الجزائر، 2002/2003.

6- خلفات كمال: **العلاقات الاقتصادية بين المغرب الأوسط والمغربين الأدنى والأقصى من القرن 04-07هـ/10-13م**، أطروحة دكتوراه الطور الثالث في تاريخ المغرب الأوسط وحضارته في العصر الوسيط (غير منشورة)، قسم التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الاسلامية، قسنطينة، 2019-2020.

7- عكه إيناس: **الظاهرة الهلالية في المغرب الأوسط -مقاربة بين خطاب المدارس الفرنسية والنص العربي الوسيط- (05-09هـ/11-15م)**، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر في التاريخ الوسيط (غير منشورة)، قسم التاريخ، جامعة المسيلة، 2011/2012.

8- غربي، بغداد: **العلاقات التجارية للدولة الموحدية**، رسالة دكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية (غير منشورة)، قسم الحضارة الإسلامية، جامعة وهران1، 2015/2014.

9- بوقاعدة، البشير: **خراب المدن بالمغرب الأوسط والأدنى بين 296هـ/909م- 547هـ/1152م**، رسالة ماجستير في تاريخ المشرق والمغرب (غير منشورة)، المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة، الجزائر، 2013/2012.

10- محمد صالح أمين سجيني، فايزة: **غزو بني هلال وبني سليم للمغرب**، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي (غير منشورة)، قسم التاريخ الإسلامي، جامعة الملك عبد العزيز، مكة المكرمة، 1981/1980.

11- زياني الصادق: **الجغرافية التاريخية لبلاد الزاب من نهاية الفتح الاسلامي إلى نهاية القرن 09هـ**، أطروحة دكتوراه الطور الثالث في تاريخ المغرب الأوسط وحضارته في العصر الوسيط (غير منشورة)، قسم التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر- قسنطينة، 2019/2018.

12- طويل الطاهر: **الجغرافيا التاريخية لبلاد المغرب الأوسط** (**من ق02-10هـ/08-16م**): **الأوراس نموذجا –دراسة في المجال والعمران والمسالك**، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط (غير منشورة)، قسم التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة، 2020/2019.

13- كرطالي أمين: **سلطة شيوخ القبائل العربية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني**، أطروحة دكتوراه علوم في التاريخ الوسيط (غير منشورة)، قسم التاريخ، جامعة الجزائر2، 2018/2017.

ب. باللغات الأجنبية

- Aguilar Sebastián, Victoria: **Tribus árabes en el Magreb en época almohade**, **1152-1269**, Tesis doctoral, Universidad Complutense de Madrid, Facultad de Filología, Departamento de Estudios Arabes e Islámicos, 2012.

5. المقالات

أ. باللغة العربية

1- بلحسان، محمد: "**ملكية الأراضي الزراعية وطرائق استثمارها في المغرب الأوسط من خلال كتب النوازل**"، دورية كان التاريخية، السنة 10، ع 35، مارس 2017.

2- بلمداني، نوال: "**الفروسية وتربية الخيل بالمغرب الأوسط أصالة وتراث**"، ضمن كتاب: قضايا من تاريخ المغرب الأوسط، تنسيق وتقديم: عبيد بوداود، منشورات مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية، جامعة مصطفى اسطمبولي، معسكر، 2017.

3- التقي، العلوي: "**أصول المغاربة – القسم العربي الهلاليون بالمغربين الأدنى والأقصى**"، مجلة البحث العلمي، جامعة محمد الخامس – المعهد الجامعي للبحث العلمي، ع35، 1985.

4- جحا، ميشال: "**البدو البداوة في كتابات من لبنان**"، ضمن ملف "البداوة والتحضر في المجال الحضاري العربي الإسلامي"، مجلة الاجتهاد، دار الإجتهاد للأبحاث والترجمة والنشر، بيروت، السنة 5، ع18، خريف 1993.

5- جدلة، إبراهيم: "**المجموعات القبلية البدوية وتأثيرها على الحياة الاجتماعية والسياسية بإفريقية أثناء العهد الحفصي**"، ضمن: أشغال الملتقى الدولي الثاني حول: القبيلة – المدينة – المجال في العالم العربي الإسلامي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس، أفريل 2003.

6- جديد، عبد الرحيم: "**نماذج من حرف وصنائع البناء والعمارة بالمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط – عصر الدولتين الحمادية والزيانية**"، مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، مركز الحكمة للدراسات والبحوث والاستشارات، الجزائر، مج5، ع11، سبتمبر 2017.

7- حبيدة، محمد: "الديمغرافيا التاريخية من الإجرائية الكمية إلى المقاربة الكيفية"، مجلة كنانيش، منشورات كلية الآداب، وجدة، ع1، 1999.

8- حجاج الطويل، محمد: "**من تامسنا إلى الشاوية**"، ضمن كتاب: البادية المغربية عبر التاريخ، تنسيق: إبراهيم بوطالب، منشورات كلية الآداب، الرباط، 1999.

9- بلخير أحمد بن وبوعقادة عبد القادر: "**الحملات العسكرية المرينية وأثرها على استقرار قبائل عرب بني هلال في القرن 08هـ/14م**"، المجلة التاريخية الجزائرية، مخبر الدراسات والبحث في الثورة الجزائرية، جامعة المسيلة، مج5، ع2، 2021.

10- دغفوس، راضي: "**معركة حيدران والصراع الزيري الهلالي في القرن الخامس هجري / الحادي عشر ميلادي**"، الكراسات التونسية، مجلة العلوم الإنسانية، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، تونس، ع178، 1997.

11- بن رمضان، خالد: "**إسهام القيروان في النشاط التجاري المتوسطي من خلال النقود**"، ضمن أعمال الندوة الدولية: إسهامات القيروان العلمية والتقنية، المنعقدة بمركز الدراسات الإسلامية بالقيروان يومي 24 – 25 أفريل 2009، تنسيق: نجم الدين الهنتاتي، منشورات مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان، وحدة البحث تاريخ القيروان، تونس، 2011.

12- زنيد خالد: "**الإبل وأهميتها الحضارية في شبه الجزيرة العربية خلال القرن الأول الهجري / السابع الميلادي**"، مجلة العلوم الانسانية، جامعة منتوري – قسنطينة1، ع18، ديسمبر 2002.

13- بن ساعو محمد: "**القبائل الهلالية في مشاريع الإخضاع السياسية الموحدية من خلال الرسائل والتقاديم**"، مجلة عصور الجديدة، جامعة وهران، مج10، ع1، مارس2020.

14- شخوم، سعدي: "**موقف فقهاء المالكية من القبائل الهلالية بالمغرب الأوسط**"، مجلة الحوار المتوسطي، مخبر البحوث والداراسات الاستشراقية في حضارة المغرب الإسلامي، جامعة الجيلالي ليابس – سيدي بلعباس، مج4، ع1، 2013.

15- الشريف، محمد: "**الهجرات الهلالية من خلال بعض الكتابات الفرنسية المعاصرة**"، ضمن أعمال ندوة: التحركات البشرية والهجرات اليمانية إلى الشام وشرق وشمال إفريقيا، قبل ظهور الإسلام وبعد ظهوره، يومي: 23-24 نوفمبر 2004، الرباط، المغرب، تحرير: محمد أبو صوة وسعيد بنسعيد العلوي ويوسف محمد الصواني، منشورات المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر، ليبيا، 2005.

16- شنيتي، محمد البشير: "**أثر الضغط الديمغرافي على بيئة السهوب في العهد الروماني – اختفاء الفيل وتفاقم البداوة**"، مجلة آثار، ع1، مج6، جامعة الجزائر، 2008.

17- : "**التوسع الزراعي الروماني وظاهرة البداوة في الجزائر القديمة**"، مجلة الدراسات التاريخية، جامعة الجزائر، مج1، ع2، 1986.

18- الشيخلي، صباح إبراهيم: "**الهلاليون في المغرب، ضوء جديد على أثر هجرتهم**"، ضمن كتاب جماعي: الوطن العربي النواة والامتدادات عبر التاريخ، مركز دراسات الوحدة العربية، 28 فبراير 2003.

19- عقيبي، عز الدين: "**صفحات من صراع الدول بالمغرب الإسلامي من أجل السيطرة على مسالك الاتصالات التجارية الصحراوية**"، مجلة علوم الإنسان والمجتمع، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة بسكرة، ع21، ديسمبر 2016.

20- عمارة، علاوة: "**التطور العمراني والتجاري لمدينة بجاية في العصر الاسلامي الوسيط**"، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة، ع26، 2008.

21- "**الهجرة الهلالية وأثرها في تغيير البنية الاجتماعية لبلاد الزاب**"، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، ع10، جانفي2009.

22- فتحة، محمد: "**بنو هلال والاندماج الصعب**"، ضمن كتاب: من إينَّاون إلى إستانبول – أعمال مهداة إلى عبد الرحمن المؤذن، تنسيق: عبد الأحد السبتي وعبد الرحيم بنحادة، كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، 2012.

23- الفخراني، فرج قدري: "**مواجهة اليهود في تغريبة بني هلال وفق النص المدون للهلالية (جمع الأبنودي)**"، مجلة رسالة المشرق، مركز الدراسات الشرقية، جامعة القاهرة، مج34، ع2، 2019.

24- بوفلاقة، سعد: "**بكاء القيروان في الشعر المغربي بعد اجتياحها من قبل الهلاليين**"، مجلة حوليات، جامعة الجزائر1، الجزء 27، ع2، 2015.

25- كرراز، فوزية: "**السيطرة الاقتصادية الهلالية بالمغرب الاسلامي**"، دورية كان التاريخية، ع12، جوان 2011.

26- "**عامة المغرب الأوسط بين الضغط الميورقي والإغراء الموحدي**"، مجلة عصور، جامعة وهران، ع22-23، جويلية – ديسمبر 2014.

27- كرطالي أمين: "**الانعكاسات السياسية والاقتصادية للوجود الهلالي في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني (633-962هـ / 1235-1554م)**"، مجلة عصور، جامعة وهران، مج17، ع2، ديسمبر 2018.

28- بولقطيب، الحسين: "**العلاقات التجارية بين المغرب والسودان الغربي خلال العصر الوسيط**"، مجلة أمل، ع6، السنة الثانية، الدار البيضاء، 1995.

29- بونابي، الطاهر: "**الحرف والحرفيون في المغرب الأوسط الزياني من خلال نص المناقب**"، مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية، جامعة معسكر، ع4، جوان 2013.

30- نشاط، مصطفى: "**ملاحظات حول المعاهدات التجارية المغربية في العصر المريني الأول**"، أعمال ندوة التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، 1989.

31- همال عبد السلام: "**هجرة قبائل بني هلال وبني سليم إلى المغرب منتصف القرن 05هـ/11م – من خلال كتابات بعض مؤرخي المدرسة التاريخية الاستعمارية الفرنسية (1830-1962)**"، أعمال الملتقى الدولي حول: مدينة قلعة بني حماد ألف سنة التأسيس (398-1427هـ/1007-2007م) أيام: 09-10-11 أفريل 2007، قسم التاريخ، جامعة المسيلة، دار الحبيب، المسيلة، 2007.

32- الهنتاتي، نجم الدين: "**الصراع المذهبي بالقيروان وتفاعله مع واقعها الاقتصادي، الاجتماعي والعمراني إلى منتصف القرن 05هـ / 11م**"، حوليات الجامعة التونسية، الجامعة التونسية، تونس، ع44، 2000.

33- هيئة التحرير: "**البداوة والتحضر في المجال العربي**"، ضمن ملف "البداوة والتحضر في المجال الحضاري العربي الإسلامي"، مجلة الاجتهاد، دار الاجتهاد للأبحاث والترجمة والنشر، بيروت، السنة 4، ع17، خريف 1992.

34- يوسف محمد، محمد: "**تاريخ الهجرات العربية إلى إفريقيا جنوب الصحراء – تشاد نموذجا**"، دورية كان التاريخية، السنة 11، ع42، ديسمبر 2018.

ب. باللغات الأجنبية

1- Aguilar Sebastián, Victoria: "**La política de Abd Al-Mu'min con los árabes de Ifriqiya**, **Historia**, **ciencia y sociedad**": actas del II Coloquio Hispano-Marroquí de Ciencias Históricas, [celebrado en] Granada, 6-10 noviembre de 1989, 1992.

2- Amara, Allaoua: "**Bône**, **essor et développement d'une petite ville du Maghreb oriental**", In: Entre deux rives. Villes en Méditerranée au Moyen Age et à l'époque Moderne, actes du colloque international, Aix Marseille (MMSH-MUCEM) 24-27 septembre 2014, presses universitaires de Provence, 2018.

3- : "**L'organisation Foncière Du Maghreb Central (viie -xive Siècle)**", Al-mawakif, Université Mascara, Volume 5, Numéro 1, Décembre 2010.

4- Berque, Jacques: "**Les hilaliens repentis ou l'Algérie rurale au XVe siècle**, **d'après un manuscrit jurisprudentiel**", Annales. Histoire, Sciences Sociales, EHESS, 25e Année, No. 5 (Sep. - Oct., 1970).

5- Botte, Roger: "**Les réseaux transsahariens de la traite de l'or et des esclaves au haut Moyen Âge : VIII^{e}-XI^{e} siècle**", L'Année du Maghreb, CNRS Éditions, VII, 2011.

6- Brett, Michael: "**The central lands of North Africa**", in: the new Cambridge History of Islam, volume 02, edited by: Maribel Fierro, Cambridge university press, 2010.

7- Cahen, Claude: "**Quelques Mots Sur Les Hilaliens ET Le Nomadisme**", Journal of the Economic and Social History of the Orient, Volume 11, N 1.

- Daghfous, Radhi: "**Les Hilaliens et le pouvoir politique en Ifrīqiya à la fin du Moyen Âge**", Mélanges de l'école française de Rome, Année 2003, tome 115- N 1.

8- Del Río, José Ramírez: "**Documentos sobre el papel de los árabes hilalíes en el al-Ándalus almohade**: **traducción y análisis**", al-Qanṭara, 35-2, 2014.

9- Deluz, Christiane: "**Bédouins et pèlerins d'Occident au Sinaï**, **une difficile rencontre**, **dans le livre**: **Le Sinaï de la conquête arabe à nos jours**", édité par Jean-Michel Mouton, Institut Français D'archéologie Oriental, cahier des annales islamologiques 21, le Caire, 2001.

10- Fierro, Maribel: "**the Fatimids and the Islamic world**", in: The World of the Fatimids, Ed. Assadullah Souren Melikian-Chirvani, The Institute of Ismaili Studies in London, and Hirmer Verlag in Munich,and the Aga Khan Museum in Toronto, 2018.

11- Hamet, Ismaël: "**Notice sur les Arabes Hilaliens**", revue d'histoire des colonies, tome 20, N 87, 1932, société de l'histoire des colonies français, Paris.

12- Hopley, Russell: "**Nomadic Populations and the Challenge to Political Legitimacy**: **Three Cases from the Medieval Islamic West**", in: The Articulation of Power in Medieval Iberia and the Maghrib, éd: Amira K. Bennison, British Academy, by Oxford University Press, 2014.

13- Idris, Hady Roger: "**De la réalité de la catastrophe hilâlienne**", Annales, 1968, 23 année- N.2.

14- : "**L'invasion hilālienne et ses conséquences**", Cahiers de Civilisation Médiévale, 1968, année 11, N. 43.

15- Kuosmanen, Päivi: "**The Nature of Nomadic Power Contacts between the Huns and the Romans during the Fourth and Fifth Centuries**", Annales Universitatis Turkuensis, University of Turku, Turku 2013.

16- Lacoste, Yves: "**Ibn Khaldun and The Myth of "Arab Invasion**", site Web: Verso: https://www.versobooks.com/blogs/3293-ibn-khaldun-and-the-myth-of-arab-invasion, date de publication: 23 Juin 2017, date de visite: 23 Aout 2020.

17- Lancasterm William and Fidelity Lancaster: "**On the Nature of Power in the Works of Orientalist Scholars and its Contribution to a History of Bedouin Society and Nomad-Sedentary Relations in the Bilad ash-Sham**", Antonin Jaussen, sciences sociales occidentales et patrimoine arabe, Géraldine Chatelard, Mohammed Tarawneh (dir.), Presses de l'Ifpo (Publications de l'Institut français du Proche-Orient), Beyrouth, 1999.

18- Ouerfelli, Mohamed et Élise Voguet (eds): "**Le monde rural dans l'Occident musulman médiéval**". (Revue des Mondes Musulmans et de la Méditerranée, 126.) Aix-en-Provence: Presses Universitaires de Provence, 2009.

19- Ouerfelli, Mohamed: "**Traité entre le calife almohade et la Commune de Pise (15 novembre 1186)**", Gouverner en Islam (Xe-XVe siècle) Textes et de

documents, Anne-Marie Eddé et Sylvie Denoix (dir.), Éditions de la Sorbonne, Paris, 2015.

20- Poncet, Jean: "**Encore à propos des hilaliens** : **la** « **mise au point** » **de R. Idris**", Annales, 1968, 23 année- N.3.

21- : "**Le mythe de la** « **catastrophe**» **hilalienne**", Annales, 1967, 22 année- N.5.

22- Raymond, André: "**Hommages à Lucien Golvin** (**1908-2002**)", REMMM (Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée), N 99-100, novembre 2002.

23- Ben-Sasson Menahem: "**La persécution almohade**: **mythes et histoire**", in Shmuel Trigano, ed., Le monde sépharade, vol. 1 Éditions du Seuil, Paris, 2006.

24- "**Histoire des juifs sous la domination musulmane**, **VIIe-XVIe siècles**", in Shmuel Trigano, ed., Le monde sépharade, vol.1, Éditions du Seuil, Paris, 2006.

25- Slyomovics, Susan: "**The Arab Oral Epic of the Bani Hilal Tribe**: **Al-Sirah al-Hilaliyyah**", First published: 31 October 2019, https://doi.org/10.1002/9781118635193.ctwl0138.

26- Vanacker, Claudette: "**Géographie économique de l'Afrique du Nord**: **Selon les auteurs arabes**, **du IXe siècle au milieu du XIIe siècle**", Annales. Histoire, Sciences Sociales, Published by: EHESS, 28e Année, No. 3 (May - Jun, 1973).

27- Watson, Andrew M: "**Agricultural Innovation in the Early Islamic World**: **The Diffusion of Crops and Farming Techniques**, **700–1100**", The Journal of Economic History, Vol. 34, No. 1, The Tasks of Economic History (Mar., 1974).

28- Weber, Alan: "**Bedouin Memory between City and Desert**", Memory Connection, Volume 1, Number 1, 2011 the Memory Waka.

29- چلونگر، محمد على، مهدى عزتى: **"موجود زمينه ها و عوامل اصلى مهاجرت قبايل هلالى به مصر و افريقية"**، فصلنامه علمى پژوهشى تاريخ اسلام سال چهاردهم، شماره دوم تابستان ۱۳۹۲، شماره مسلسل 54. (محمد علي جونكر ومهدي عزتي: الأسباب والعوامل الحقيقية لهجرة القبائل الهلالية إلى مصر وأفريقية، المجلة الفصلية للتاريخ الإسلامي، السنة14، ع2، صيف2013).

الفهارس

أولا: فهرس الأماكن والبلدان:

أ

ب

ت

ث

ج

ح

خ

د

ر

ز

س

ش

ص

ط

ع

غ

ف

ق

ك

ل

م

ن

هـ

و

ي

ثانيا: فهرس الأعلام:

ع

غ

ف

ق

ك

ل

م

ن

هـ

و

ي

ثالثا: فهرس القبائل والفرق:

رابعا: فهرس المصطلحات الاقتصادية:

أ

ب

م

ن

فهرس المواضيع

الملخص باللغة العربية

الحضور الهلالي في المغرب الأوسط وأثره في النشاط الزراعي والحرفي والتجاري بين القرنين 05 و07 الهجريين/11 و13 الميلاديين

يُقارب موضوع الأطروحة "الأثر الهلالي في المغرب الأوسط في بعده الاقتصادي بين القرنين 05و07 الهجريين، 11و13 الميلاديين"، الذي يستمد أهميته البحثية من كون الحضور الهلالي يعدّ محطة تاريخية مهمة في المنطقة أسهمت في إحداث تحولات مختلفة وتأثيرات على مستويات عدة، لذلك يأتي هذا البحث مُحاولة للكشف عن مدى التأثير الهلالي في البنية الاقتصادية للمنطقة، من خلال تفكيك الأدوار وتتبع الانعكاسات على الفلاحة والحرف والتجارة، خلال فترة حساسة من هذا الوجود، بتوظيف المنهج التاريخي بمختلف أدواته ...

توزعت مادة الأطروحة على خمس فصول، عالج الأول منها: طبيعة الاقتصاد الهلالي بين الحتمية الجغرافية والمكتسب الأنثروبولوجي، من خلال البحث في المؤثرات العامة التي وجّهت اقتصاد البداوة، وملامح الاقتصاد البدوي، انطلاقا من جغرافية البداوة وحركة الترحال، وإرث البداوة في النشاط الاقتصادي للعرب الهلالية، إلى جانب آليات إخضاع وإدماج العرب الهلالية خلال المرحلة المشرقية.

تضمن الفصل الثاني المعنون: "الأبعاد الاقتصادية لحركة الهجرة الهلالية لإفريقية والمغرب الأوسط"، جملة الأبعاد ذات الطبيعة الاقتصادية التي حكمت الانتقال الهلالي، من ظهير التملك والتحفيزات الاقتصادية التي رافقت حركة العبور فضلا على الخلفية الاقتصادية للهجرة الهلالية، مع التركيز على الحرابة واقتصاد المغازي.

الفصل الثالث خصص للحضور الهلالي في المغرب الأوسط وأبعاده الاقتصادية، إذ بحث في إشكالية التخريب الهلالي من خلال تتبع مستوى الضرر بالاعتماد على الاسطوغرافيا الغربية والكتابات العربية، كما عولج فيه الوعاء الديمغرافي الهلالي وخلفية التوزيع بسهول الحبوب ومناطق الرعي، وتتبع مسار الاستقرار وإعادة الانتشار بعد معركة سطيف (548هـ/1153م).

حاول الفصل الرابع استقصاء أثر الحضور الهلالي في الفلاحة والرعي، من خلال تتبع التحولات التي عرفها اقتصاد المغرب الأوسط من زراعي إلى رعوي، وطبيعة الثروة الحيوانية والمجالات الرعوية، مع ملاحقة انعكاسات التوسع الرعوي الذي شهدته المنطقة إثر الوفود الهلالي. أما الفصل الخامس: "التأثير الهلالي على القطاع الحرفي والتجاري"، فقد انطلق من انعكاسات البداوة على الحرف في المغرب الأوسط، من خلال نظرة الهلاليين للحرف ومحترفيها، والحاجة للبسيط منها، كما لاحق هذا الفصل وضع التجارة الداخلية والخارجية في ظل الهلاليين، وانعكاسات نقل العاصمة من القلعة إلى بجاية، وتأثير الحضور الهلالي على المسالك التجارية وحركة السلع وطبيعة الصادرات.

انتهى البحث الذي يندرج ضمن رواق التحركات البشرية والتحولات الاقتصادية إلى أن الضرر الهلالي على اقتصاديات المغرب الأوسط حقيقة تؤكدها المظان التاريخية باختلاف ألوانها، الأمر الذي أسهم في تعميق بداوة المنطقة وعطّل من وتيرة التمدن والتنمية الاقتصادية، غير أن هذا الضرر كان متفاوتا في الزمان والمكان، مرتبطا بعديد الظروف الأخرى التي شكّلت المشهد السياسي والاقتصادي للمنطقة، وذو علاقة وطيدة بمدى تبني السُّلط لمشاريع إدماج سياسية واقتصادية تأخذ بعين الاعتبار خصائص عالم البداوة الذي يدور في فلكه الهلاليون، وقد كشفت نتائج الدراسة جانبا من راهنية الموضوع في سياقات التعامل مع الجماعات البدوية اقتصاديا وأمنيا وثقافيا، باعتبار استمرار الحياة البدوية وتقاليدها.

الكلمات المفتاحية: الهلاليون – الزراعة – التجارة – الرعي – المغرب الأوسط – الهجرة – الحرابة – البداوة.

Résumé :

La présence des Hilaliens au Maghreb central et son impact sur l'activité agricole, artisanale et commerciale entre le 05e et le 07e siècles H / 11e et 13e G.

La thèse discute le thème de "L'impact des hilaliens au Maghreb central dans sa dimension économique entre les siècles 5-7 hégiriens, le 11ème et 13ème" grégoriens. Un thème qui tire son importance académique du fait que la présence des Hilaliens dans cette région représente un moment historique important, qui a exercé son influence sur plusieurs plans. Ainsi, cette recherche essaye de révéler l'étendue de l'influence hilalienne sur la structure économique de la région, en démontrant les rôles et en traçant les répercussions sur l'agriculture, l'artisanat, le commerce, pendant une période sensible de cette présence, en employant la méthode historique et ses divers outils...

La thèse est structurée en cinq chapitres, dont le premier est consacré à la nature de l'économie des hilaliens entre nécessité géographique et acquis anthropologique, en recherchant les influences générales qui ont dirigé l'économie bédouine, et les caractéristiques de l'économie bédouine, partant de la géographie des Bédouins et du mouvement des nomades, et de l'héritage des Bédouins dans l'activité économique des tribus des Banu Hilal, ainsi que des mécanismes d'assujettissement et d'intégration des Hilaliens pendant la période de leur présence en Orient islamique.

Le deuxième chapitre, intitulé: «Les dimensions économiques du mouvement du Banu Hilal d'Ifriqiya et du Maghreb central», comprenait un ensemble de dimensions de nature économique qui régissaient le mouvement du Hilaliens, depuis l'endossement de la propriété et les incitations économiques qui accompagnaient le transit mouvement, ainsi que le contexte économique de la migration du Banu Hilal, avec un focus sur l'économie de Ḥirābah (piraterie) et l'économie des conquêtes.

Le troisième chapitre s'articule sur à la recherche de la présence des hilaliens au Maghreb central et de ses dimensions économiques, a traves le phénomène du sabotage en retraçant le niveau des dégâts, en basant sur L'historiographie occidentale et les écrits arabes. Les questions de la démographique de Benu Hilal, et le contexte de la répartition dans les plaines céréalières et les zones de pâturage, ainsi le chemin de la stabilité et du redéploiement après la bataille de Sétif (548/1153), ont également été abordée.

Le quatrième chapitre étudie l'impact de la présence du Banu Hilal sur l'agriculture et le pâturage, en retraçant les transformations de l'économie du Maghreb centrale de l'agriculture vers le pâturage, et la nature des zones d'élevage et pastorales, tout en suivant les répercussions de l'expansion pastorale, que la région a témoigné après l'arrivée du Banu Hilal.

Cinquième chapitre: «L'influence d'Hilâliens sur le secteur de l'artisanat et du commerce», il discute les conséquences des Bédouinisme sur l'artisanat au Maghreb central, en retraçant la vision hilalienne vis-à-vis l'artisanat et des artisans, et le besoin de produits artisanaux simples, Ce chapitre a également abordé la situation du commerce intérieur et extérieur au Maghreb Central pendant la présence des hilaliens, les répercussions du déplacement de la capitale de la Qalâa vers Bejaia, l'effet de la présence Hilalienne sur les routes commerciales, la circulation des marchandises et la nature des exportations.

La recherche, qui s'inscrit dans le domaine de l'étude des mouvements humains et des transformations économiques, a conclu que le préjudice des Hilaliens sur l'économie du Maghreb central est une réalité confirmée par plusieurs sources historiques, ce qui a contribué renforcement du bédouin, et le ralentissement du rythme de l'urbanisation et du développement économique dans la région. Le dommage varie selon les facteurs temps/espace, et est lié à de nombreuses autres circonstances qui ont formé l'atmosphère politique et économique de la région. Aussi, le dommage est en étroite relation avec des mesures adoptées par les autorités qui ont exercé des projets d'intégration économique et politique qui prennent en compte les caractéristiques du monde bédouin qui caractérisent le monde de Banu Hilal. L'étude démontre un aspect de la continuité du phénomène sur le plan de la relation avec les groupes bédouins économiquement, sécuritairement et culturellement, considérant la continuité la vie bédouine et ses traditions.
Mots clés : Banu Hilal - Agriculture - Commerce - Pastoralisme - Maghreb Central – Migration - Ḥirābah – bédouinité.

Abstract:

The presence of Banu Hilal in the central Maghreb and its impact on agricultural, artisanal and commercial activity between the 5th and 07th H/ 11th and 13th G centuries.

The thesis discusses the theme of "The impact of Banu Hilal in the central Maghreb in its economic dimension between the 5-7 H, the 11th and 13th G centuries ". A theme that draws its academic importance from the fact that the presence of Banu Hilal in this region constitutes an important historical moment, with major influence on many levels. Thus, this research attempts to reveal the extent of Banu Hilal's influence on the economic structure of the region, by demonstrating their role, and tracing its repercussions on agriculture, crafts, trade and taxation in a sensitive era of this presence, by using the historical method and its various tools ...

The thesis is structured in five chapters, the first of which is devoted to the nature of the economy of Banu Hilal between geographic necessity and anthropological accumulations, by researching the general influences that have driven the Bedouin economy, and the characteristics of the Bedouin economy, starting from the geography of the Bedouins and the movement of the nomads, and the heritage of the Bedouins in the economic activity of the tribes of the Banu Hilal, as well as the mechanisms of subjugation and integration of the Hilalians during the period of their presence in Islamic East.

The second chapter, entitled: "The economic dimensions of the movement of the Banu Hilal of Ifriqiya and the central Maghreb", included a set of dimensions of an economic nature that governed the movement of the Hilalians, from the endorsement of property and economic incentives that accompanied the transit movement, as well as the economic context of the Banu Hilal migration, with a focus on the economy of Ḥirābah (piracy) and the economy of conquests.

The third chapter focuses on studying the presence of Banu Hilal in the central Maghreb and its economic dimensions, through the phenomenon of sabotage, by tracing the level of damage, based on Western Historiography and Arabic writings. The demographic issues of Benu Hilal, and the context of the distribution in the cereal plains and grazing areas, as well as the path of stability and redeployment after the battle of Sétif (548/1153), were also addressed.

The fourth chapter studies the impact of the presence of Banu Hilal on agriculture and pasturage, by tracing the transformations of the economy of the central Maghreb from agriculture to grazing, and the nature of the herding and pastoral areas. while following the repercussions of the pastoral expansion, which the region witnessed after the arrival of Banu Hilal.

The five chapter: "The influence of the Banu Hilal on the craft and trade sector", it discusses the consequences of Bedouinism on crafts in the central Maghreb, by retracing Banu Hilal's orientation towards the handicrafts and craftsmen, and the need for simple handicrafts, This chapter also addressed the situation of internal and external trade in the Central Maghreb during the presence of Banu Hilal, the repercussions of the displacement of the capital of Qalâa towards Bejaia, the effect banu Hilal's presence on trade routes, the movement of goods and the nature of exports.

The research, which falls within the field of the study of human movements and economic transformations, concluded that the prejudice of the Banu Hilal on the economy of the central Maghreb is a reality confirmed by several historical sources. It has contributed to strengthening Bedouin, and slowing down the rate of urbanization and economic development in the region. The damage varies according to time / space factors, and is linked to many other circumstances which have shaped the political and economic atmosphere of the region. Also, the damage is in close relationship with measures adopted by the authorities which have carried out projects of economic and political integration that took into account the characteristics of the Bedouin world characterizing Banu Hilal. The study demonstrates aspect of the continuity of the phenomenon in terms of the relationship with Bedouin groups economically, securely and culturally, considering the continuity of Bedouin life and its traditions.
Keywords: Banu Hilal – Agriculture – Trade – Pastoralism – Central Maghreb – Migration – Ḥirābah – Bedouinism.